
رواية
ريس بوين
فوق خليج الملائكة
مكتبة ياسمين
دار الخيال

في مديح ريس بوين

«ممتعة بحق».

مجلة الناشرون الأسبوعية

«ينشغف القارئ فيها بشدة حتى النهاية».

مراجعة كتّاب بورتلاند

«متعة ممزوجة بإثارة فكرية وبإطار واقعي تفوز بسببها بوين بالجوائز والقرّاء المُخلصين».

مجلة نيويورك للكتب

«سيدة أسلوبها الأدبي».

صحيفة المكتبة

«يبني النسج البارع لهذه الحكايات صورة دقيقة وموضوعية لنقاط القوة الكامنة في المرأة».

جمعية الرواية التاريخية

«ستشدك من الصفحة الأولى».

سان دييغو إنترتينر

«مؤلفة تتمتع بموهبة أصيلة مميزة ونمط سرد قصصي ممتع يلفت انتباه القارئ من البداية وحتى النهاية»

مراجعة كتّاب ميدويست

أُهدي هذا الكتاب

إلى ماري كروزر الحقيقية.

مع أنها ليست ماركيزة،

إلا أن لديها منزلاً جميلاً وكأنه فيلا في نيس،

وتقيم أكثر حفلات الشاي روعة.



شكر وتقدير

شكري الدائم لدانيال مارشال وفريق المؤلف بأكمله في ليك يونيون، الذين يجعلون العمل معهم متعة. وأشكر عميلتيّ الرائعتين والمتألقتين، ميغ رولي وكريستينا هوغريب، أنتن يا سيدات الأفضل! وأخيرًا، أشكرُ زوجي جون على مهاراته في التحرير وحبه ودعمه.



ملاحظة تاريخية

كنتُ أجري بحثًا يتعلق بكتاب آخر عن الريفييرا قبل عدة سنوات، وكنتُ على تل في سيميز فوق نيس عندما رأيتُ بناءً باهر الجمال، فسألتُ البستاني إذا كان فندقًا فأجابني: «لقد كان فندقًا في السابق يا سيدتي. وهو الآن شقق فحسب»، ثم أضاف، «لقد بُني خصيصًا من أجل ملكتكِ».

سألتُه بدهشة عظيمة: «الملكة إليزابيث؟!».

- «لا، الملكة ڤيكتوريا. لقد كانت تأتي إلى هنا كل شتاء، ولهذا، بنوا لها الفندق».

ولم أكن أعرف شيئًا عن هذا، فشرعت في البحث ووجدتُ أن الملكة ڤيكتوريا زارت الريڤيرا خلال سنواتها الأخيرة، حيث أقامت في البداية لدى الأصدقاء في الڤيلات، حتى بُني فندق إكسلسير ريجينا خصيصًا من أجلها. ونزلت حاشيتها في جناح كامل بمدخل منفصل.

وخلال بحثي في نيس، عُرِض عليَّ كُتيب يُظهر التصميم الأصلي للفندق، وكيف قسِمت الغرف. ورأيت فيه أنها أحضرت معها فريق طهاة، وتساءلتُ إذا كان من بين هؤلاء الطهاة امرأة شابة، وهكذا حصلتُ على دفاتر الطبخ وقوائم

الطعام من أحد طهاة الملكة ووصفات لتلك الوجبات الفخمة للغاية.

في الرواية حقائق عديدة مثل مُنشيها الهندي، عبد الكريم، وارتباطه بزعيم الرابطة الإسلامية، وسقوطه الأخير من النعمة، كلها حقائق واقعية، وأفراد حاشيتها حقيقيون أيضًا، باستثناء الأميرة صوفي والكونت فيلهلم. لقد خرجت الملكة بالفعل في عربتها الصغيرة التي يجرها الحمار الذي أنقذته من أحد الفلاحين، وكانت تحب حضور الكرنفالات والذهاب في نزهات ورمي الزهور على الشباب الوسيمين في المسيرات، ولدي العديد من الصور لها وهي تستمتع بوقتها في نيس.

وعندما كانت تُحتضر بعد عدّة سنوات، قالت لطبيبها: «لو أمكنني فقط العودة إلى نيس، أعرف أنني سأتعافى مرة أخرى».

الفصل الأول

لندن، سبتمبر عام 1896.

لو لم تترجل هيلين بارتون بخطى حثيثة أمام عربة عمومية كبيرة «الأومنيبوس»، لكنتُ لا أزال أمسحُ الأرضيات وأشعل نيران مواقد منزل مولع بالتفاخر في حي القديس جون وود. لكنني وللمرة الأولى، تبعت نصيحة والدي.

«استمتع بالحاضر» (Carpe Diem) كانت إحدى مقولات والدي المفضلة. اغتنم يومك، وانتهز الفرص. وكان يضيف عادة: «لإنها قد تكون فرصتك الوحيدة».

لقد تحدث عن تجربة، فقد كان رجلاً مثقفًا من عائلة محترمة، وعرف أوقاتًا أفضل، وكونه ابن الابن الثاني، لم يتوقع أن يحصل على لقب ولا ممتلكات ترافق ذلك اللقب، بل أرسلَ إلى الهند ليصنع لنفسه مكانة، وأصبحَ ضابطًا في كتيبة رماحي البنغال، ثم تزوج والدتي، وهي كائن رقيق وجميل التقى بها في إحدى زياراته إلى الوطن، ولكن سرعان ما اتضح أن والدتي لا تتحمل قساوة ظروف العيش في البنغال، لذا اضطر أبي إلى الاستقالة من مأموريته والعودة

للعيش في إنكلترا.

ومما أخبرنا به والدي، أنهم أخبروه بصراحة وبدون مواربة عندما كان شابًا ألا يتوقع أية مساعدة مالية من عمه الأيرل، ولم يُفصح قط عن السبب، أو الخلاف الذي نشب داخل أسرته، لكنه كان يشعر بالمرارة إزاء ذلك. غير أن الحظ حالفه أخيرًا بطريقة ما وحصل على ما كان يُعتَبر منصبًا مرموقًا: أصبحَ مسؤولاً عن علاقات الضيوف في فندق سافوي، وهو فندق فاخر جديد في لندن. وقد جعلته قدرته على التحدث باللغة الفرنسية بشكل جيد والاختلاط بأفراد العائلات الملكية مشهورًا في الفندق. كان يربت على أيدي الكونتيسات الروسيات المُسنّات، وينظم حفلات روليت لأمراء أوروبيين مندفعين، يتلقى مقابلها بقشيشًا سخيًا. لقد عشنا في هناء في بلدة هامبستيد الصغيرة على أطراف لندن الشمالية. ودرسنا أنا وأختي الصغيرة لويزا في مدرسة خاصة، وعملت لدينا امرأة تنظف وتطبخ، ولم نعِش حياة مترفة، وإنما حياة مُرضية.

حتى انهار كل شيء عندما تغلب مشروب الشيطان على والدي، الذي كان يعمل في مؤسسة يتدفق فيها الكحول بحرّية بين الضيوف،

وعندما يدعونه، كان يتناول كأسًا، ذلك لأن رفضه قد يعد وقاحة. وعليه، من سيلاحظ إذا أنهى الزجاجة لاحقًا؟

أتذكر المرة الأولى التي عاد فيها إلى المنزلِ مخمورًا.

- «أين كنتَ يا رودي؟»، سألته والدتي عندما عاد إلى المنزل في تمامِ العاشرة، «لقد أخرّنا العشاء من أجلك. لقد قلقتُ عليك».

فردَّ عليها بحدة: «ليس من شأنكِ يا امرأة».

جفلت والدتي كما لو أنّه ضربها، وأمسكت أختي الصغيرة بيدي، لم نرَ أبانا هكذا من قبل، فقد اعتاد أن يكون ودودًا للغاية ومحبًا لوالدتي.

سألته ماما ببرود: «هل كنتَ تشرب يا رودي؟».

- «لأكون مؤنسًا لعملائي لا أكثر، فهذا جزء من عملي، ألا تعرفين هذا؟». ثم أضاف بصوت يرتفع بعدوانية: «عليَّ أن أعمل لأكسب قوتي، أم أنكِ نسيتِ هذا؟ فبعد كلِ شيء، تركتُ تكليفي في الهند بسببكِ، وتعين عليَّ القبول بهذهِ الوظيفة الوضيعة، أنحني وأجامل من كان من المفترض أن أكون مساويًا لهم. والآن، أين عشائي؟».

- رأيتُ حلقة والدتي المفزوعة وهي تكفكف

دموعها، ولم يعد شيئًا مثلما كان بعد ذلك اليوم. أصبحنا كمن يمشي على قشور البيض، نتصرف بحذرٍ شديد، ولا نعلم مطلقًا متى سيعود إلى المنزل وأيّ مزاج سيكون عليه، ففي بعض الأحيان يكون مرحًا وحنونًا كما كان دائمًا، وأحيانًا أخرى يتحول إلى وحش لا أكاد أميزه. وكنّا أنا ولويزا نقضي معظم الوقت مختبئتين في غرفتنا، وكانت والدتي تحاول جاهدة في البداية، تتوسل إليه أن يتوقف عن الشرب وأن يفكر في عائلته، لكنه لم يعِر ما تقوله انتباهًا، وفي النهاية بدت وكأنها تستسلم وتتلاشى مثل زهرة ذابلة، ولم تكن قوية من الأساس.

وأفترض أن ما حدث بعد ذلك هو ما كنّا نخشاه جميعًا. عاد والدي إلى المنزل بعد ظهيرة أحد الأيام وأعلن أنهم فصلوه من وظيفته: «بسبب روسية غبية قالت إنها رأتني أشرب رشفة من زجاجة السكوتش. لقد صدّقوا كلامها على كلامي، هل تصدقون هذا؟ مَنْ يرغب في العمل في مكان كهذا؟! من حسن حظي أنني تركته».

فسألته والدتي: «لكن ماذا سنفعل يا رودي؟ كيف سندفع الإيجار؟».

- «سأجد عملاً آخر، لا تقلقي»، قال بمرح،

«فشاب مثلي ... سيحصل على عملٍ خلال وقت قصير».

لكن هذا لم يحصل. لقد حاول عبثًا أن يجد عملاً آخر، ولم تقبل به أي مؤسسة محترمة بدون توصية. راقبناه ينحدر ويغرق أكثر في الاكتئاب والسكر، وتخلينا عن خادمتنا، وحاولتُ أن أكون بالغة وتوليت مهام التدبير المنزلي، لأن أمي بدت وكأنها لا تملك أي طاقة حتى لأبسط المهام، وكان والدي يشعر بالقلق عليها حقًا، لكنه لم يوقف زياراته للحانة.

لقد كان شتاءً قارسًا في ذلك العام، رافقه ارتفاع في أسعار الفحم. فقضينا ليالينا نتحلق حول طاولة المطبخ حيث يزودنا الموقد بالدفء، وأصيبت ماما بسعال حاد، فاقترحت أن يراها الدكتور لكن والدي رفض الفكرة وقال: «إنها نزلة برد لا أكثر. تحب والدتك تهويل الأمور دائمًا وأنتِ تعرفين هذا».

وربما بدأ مرضها بنزلة برد، لكنه تحول إلى التهاب رئوي، وبعد ثلاثة أيام ماتت. لم أصدق أنها رحلت، ولا والدي الذي قال: «حبيبتي العزيزة وبني. هذا كله خطأي. هذا كله خطأي». وبكى بالفعل. وعانقنا أنا ولويزا ودموعنا

تدفقت مدرارًا. فقد كانت والدتي شخصًا لطيفًا حسن المعشر تحب والدي كثيرًا. قالوا إنها ماتت بسبب التهاب رئوي، لكنني أعتقد أن موتها كان بسبب قلبها المفطور.

انتقلنا إلى شقة قذرة وبائسة مكونة من غرفتين فوق محل جزارة، مزودة بالماء البارد فقط ومرحاض خارجي. وعمل والدي في كتابة الرسائل للأميين، وأعطى دروسًا في اللغة الفرنسية من حين لآخر، لكن ما يجنيه لم يكن يكفي لطعامنا ومسكننا.

وأفترض أنني كنت أجهل مدى سوء الوضع، حتى جاء اليوم - قبل عيد مولدي الخامس عشر - الذي قال فيه والدي بأنه وجد لي وظيفة. وأصبح لزامًا عليّ أن أترك مدرستي التي أحببتها وأصبح خادمة في منزل كبير، كي أكسب المال الكافي لأوفر الطعام والمأوى لأبي ولويزا، بينما يتكفل شخص آخر بطعامي وكسوتي. ولم أُصدم فحسب، بل شعرت بالإهانة كذلك، ربما لم نكن أغنياء، لكني أنحدر من عائلة كريمة.

- «خادمة؟ تريدني أن أكون خادمة؟»، خرجت الكلمات من فمي بتلعثم.

- «أشعر بالسوء حيال ذلك مثلما تشعرين أنتِ

يا طفلتي العزيزة، ولكن الحقيقة هي أنني لا أستطيع إطعامكِ، وسنُرمى في الشارع إذا لم يدفع أحدهم الإيجار، ولا يمكنني العثور على وظيفة، لذلك أنا وأختك نعتمد عليكِ في هذه اللحظة».

أردتُ أن أصرخ في وجهه، وأن أقول له: «سيكون لدينا المال الكافي لنعيش به لو لم تتردد كثيرًا على الحانات». لكنني تربيت على أن أكون ابنة صالحة أطيع والداي.

وتضاعفت صدمتي عندما علمتُ أن المنزل الذي سأعمل فيه خادمة يعود لرجل ثري مُحدَث النعمة، كسب ماله من تجارة الثياب، تنتج معاملهُ أثوابًا رخيصة للفتيات العاملات، وقد عُرف عنهما - هو زوجته - بكونهما متشدقين ثرثارين مولعين بالتفاخر.

وقفت في الخارج أحدق في جملونات وأبراج منزل قبيح للغاية. ثم توسلته قائلة: «أتوسل إليك، لا تُرغمني على فعل هذا يا بابا. لا أريد أن أكون خادمة لهؤلاء الناس. أُدرك أنه يجب عليَّ ترك المدرسة، لكن لا بدَّ وأن يكون هناك شيء آخر يمكنني القيام به».

- «أنّه لفترة وجيزة فحسب يا بيلا»، قال وهو يربت على يدي، «أعدكِ بأنني سأعيدكِ إلى المنزل

ما أن تتحسن أحوالي المادية. وحتى ذلك الحين، ستساعدين أختكِ في ألا تحضور جوعًا».

ماذا يمكنني أن أقول؟ أدركتُ حينها أنه كان دائمًا متلاعبًا ممتازًا، يستخدم سحره ليجعل والدتي توافق على أي مخطط يدور في ذهنه في تلك اللحظة.

وهكذا بدأتُ العمل لدى السيد والسيدة تيلي في منزلهما القبيح في سانت جون وود. كان لديهم كبير خدم وخادمة استقبال وخادم وخادمتا تنظيف وطاهية وخادمة في حجرة غسل الأطباق. وبصفتي الخادمة الأدنى، كنت أنهض في الخامسة صباحًا لأوقد نيران المرجل والموقد، ثم أحمل كميات ثقيلة من الفحم إلى غرف النوم لأحرص على أن يستيقظ أفراد الأسرة دافئين. كان عملاً قاصمًا للظهر ومحطمًا للروح، اضطررت فيه إلى مشاركة السرير مع بوبي، خادمة حجرة غسل الأطباق، في عليّة شديدة البرودة. ومن حسن حظي أنني أكون متعبة للغاية لدرجة أنني كنتُ أنام على الفور كل ليلة. لقد بدا الأمر وكأنه كابوس لا أستطيع الاستيقاظ منه.

ثم حدث ذات يوم عندما كانت السيدة تيلي تستقبل ضيوفًا. كانت تحب الضيافة كثيرًا،

كدعوات قهوة الصباح وحفلات الشاي ومآدِب العشاء المُسرفة. وكانت كل هذهِ المناسبات تعني عملاً إضافياً لنا نحن الخدم، كما نلمع الفضيّات كالمجانين، ونحرص على ألّا تكون هناك ذرة غبار علىٍ طاولة خشب الماهوغاني التي تتسع لثلاثين شخصاً.

وفي حالتي، كنتُ أحرص على إمداد المواقد والمرجل بما يكفي من الفحم لإبقائها مشتعلة ووهّاجة. ويومها، كانت المناسبة حفلة شاي. انشغلت الطاهية بخبز المعجنات طوال الصباح - القُريصات والكعكات الإسفنجية وكعكات الغريبة - ومُلئ المطبخ بالروائح الشهية. وطوال فترة ما بعد الظهيرة، كانت تعدُّ شطائر صغيرة تُقدم مع الشاي تحتوي على الخيار والبيض والجرجير وسمك السلمون المدخن.

وبعد أن صعدت خادمة الاستقبال «إلسي» إلى غرفة الرسم مع لوازم الشاي، لاحظت الطاهية أنها نسيت وضع بسكويت الماكارون في الصينية. فدفعتهُ في يدي وقالت: «خذيه إلى الأعلى بسرعة قبل أن تلاحظ السيدة تي، وإلا دفعنا الثمن غالياً».

فخرجت من المطبخ مسرعة وأخذت الطبق،

وصعدت السلم الحجري، وعبر الباب الأخضر الذي يفصل الخدم عن العالم الحقيقي، كانت أصوات النساء قادمة من غرفة الرسم، تسللتُ إلى الداخل، وكانت إلسي قد وضعت الصينية على العربة وكانت تسكب الشاي. ترددت غير واثقة مما يجب فعله بعد ذلك، عندما لمحتني السيدة تيلي وقالت:

- «ماذا تريدين يا فتاة؟».

- «جلبت بسكويت الماكارون يا سيدتي، لم يكن جاهزًا عندما أخذت إلسي الصينية إلى الأعلى».

سمعت لهجتي المصقولة وعبست ثم قالت: «هل تحاولين تقليد أسيادك يا فتاة؟». وكانت لهجتها تحمل بعضًا من أصولها ونشأتها في الجانب الشرقي من لندن.

- «كلا يا سيدتي، لطالما تحدثت بهذهِ الطريقة، فقد كان والدي رجلاً نبيلاً».

- «إذًا ماذا تفعلين هنا بحق الله؟». سألت إحدى السيدات الأخريات.

- «ماتت والدتي وأقعد المرض والدي عن العمل، وأنا بحاجة إلى إعالة أختي الصغيرة. وليس هناك وظائف كثيرة متاحة لمَن يلفن من

العمر خمسة عشر عامًا».

فقالت المرأة: «أيتها الفتاة المسكينة، تكون الحياة قاسية أحيانًا».

ثم أخذت فطيرة قشدة منتفخة وقضمتها ثم قالت وشفتها العليا تحددت بشارب دقيق من القشدة: «لن تصدقي أبدًا ما سمعته عن سيلفيا».

- «قولي». وانحنت السيدات إلى الأمام، ونُسِيت على الفور.

ربما تعتقد أن قدري قد تحسن بعد هذهِ اللحظة. حسنًا، لقد تحسن ولكن بصورة طفيفة. ما زلت أستيقظ منذ الصباح الباكر لأشعل نيران المواقد، ولكن عندما يكون لدى السيدة تيلي ضيوف، كانت تحرص على أن أكون أنا من يخدم في غرفة الرسم. وكانت تقول بهمس مصطنع: «والدها كان رجلاً أرستقراطيًا، مات والداها وأويتها أنا، الفتاة المسكينة». وكنتُ أقف هناك وكأنني تمثال، عاقدة النية على أن يخلو وجهي من أيّة تعابير لأبين لهُنَّ أنني لا أهتم. أردت أن تعرف هؤلاء السيدات المتعاليات المعتدّات بأنفسهن أنهُنَّ مهما قلن، لن يكسرنني أبدًا. وكنتُ أهمس لنفسي: «يومًا ما». دون أن أعرف يقينًا قصدي من كلامي هذا. إن تمكنت من الصمود

لفترة أطول فحسب، حينها سأجد طريقة للهرب، وسأصنع لنفسي مكانة.

وكانت الحسنة الوحيدة في منزل آل تيلي هو أن السيد والسيدة تيلي يحبان تناول الطعام، وكانوا يأكلون طعامًا ممتازًا، حتى أني تمكنت من أخذ بقايا الطعام إلى أبي ولويزا بعد ظهيرة يوم إجازتي من كل أسبوع، وكان والدي يحب طعامه. لأصبحَ متذوقًا للطعام لو أمكننا تحمل نفقات ذلك، كما أنّه كان يتحدث باعتزاز عن المآدب التي حضرها والولائم الهندية والنزهات الريفية وأعياد الميلاد في مقر العائلة. وكانت عيناه تتوهجان عندما يرى هِباتي الأسبوعية ملفوفة في منديلٍ نظيف ويقول: «يا إلهي! دراج مشوي. هذا يعيدني إلى طفولتي، أتذكر مأدبة مع الأيرل العجوز، عندما ذهبنا للصيد وحملت دراجين. يا إلهي كانا جيدين. وسلمون مشوي! عزيزتي، أنتِ صانعة معجزات، ومنقذة».

كان يأخذ يدي بين يديه وينظر إليّ بإعجاب، بذات الطريقة التي اعتاد فيها النظر إلى والدتي. وكنت أحاول الابتسام له، رغم رغبتي في الصراخ. فقد أردتُ أن أصرخ في وجهه: «كانت طفولتك مليئة بالمآدب. هل تعرف كيف تبدو

طفولتي؟ هل فركت الأرضيات يومًا حتى سُلخ جلد يديك؟ أو حملت الفحم صعودًا أربعة طوابق؟ ليس لديك أي فكرة عما تضحي فيه». لكنه أصبح نحيفًا وباهتًا لدرجة لم أستطع قول أي شيء قد يؤذيه.

لقد وصفني بصانعة المعجزات والمنقذة، وأخالني صدّقتُ حقًا بأنني قد أعيد له صحته إذا جلبت له الطعام الكافي لتسمينه. حاولت البحث عن زجاجات المشروب والتخلص منها، لكنني أدركت بعد فترة أن أمره ميؤوس منه. سيقتل نفسه بالشراب لا محالة. وعرفت أن عليّ البقاء حيث كنت، وتحمل السيدة تيلي لأتمكن من الاعتناء بلويزا بطريقة ما.

تفاخرت السيدة تيلي بأن لديها أفضل طاهية في لندن. فقد اعتادت القول: «لقد جذبتها من ناس ذوي شأن. صحيح ما يقولون، أن المال يتحدث. فأنا أدفع لها أكثر بكثير مما كانت تتقاضاه. وقد قيل لي أننا أصحاب أفضل مائدة على بعد أميال».

كما أننا كنّا نأكل جيدًا في المطبخ. واكتشفت أنني قد ورثت تذوق والدي وتقديره للطعام الجيد. لطالما كان طعامنا المطهو في المنزل بسيطًا، حتى عندما كانت لدينا طاهية، وأصبحت مفتونة

بصنع هكذا نكهات رائعة، وكنت أقول للسيدة روبينز الطاهية: «أرِني كيف صنعتِ صلصة البقدونس تلك، وهذا الميرانغ، وحساء المحار». وكانت تريني كيف تطبخه عندما يكون لديها وقتًا إضافيًا.

وبعد فترة، عندما أدركت رغبتي بالإضافة إلى استعدادي الواضح للطهي، ذكرت للسيدة تيلي أنها بحاجة إلى مساعد طاهٍ، ذلك لأن ساقيها المسنّتان غير قادرتين على الوقوف لساعات طويلة بعد الآن، ورشحتني لهذا المنصب. فوافقت السيدة تيلي بشرط ألّا تدفع لي المزيد من المال، وأن أكون متاحة لأؤدي دوري متى ما كان لديها ضيوف.

وهكذا، بدأت عملي في المطبخ. وجدتني السيدة روبينز تلميذة مطيعة، وبعد معاناتي في حمل الفحم عبر كل هذهِ السلالم، شعرت وكأنني في الجنة، أقف قرب الطاولة، وأحضّر الطعام. وكانت خادمة غرفة غسل الأطباق تقوم بأغلب المهام البسيطة، كتقطيع البصل وتقشير البطاطا، لكني فعلت أغلب المهام الأساسية مثل هرس البطاطا مع الزبدة والقشدة حتى تخلو من أي تكتلات، وتطرية الشواء حتى يصبح الجلد مقرمشًا باعتدال، ولم أمانع هذا، بل أحببت وجودي بين

النكهات الغنية. وأحببت منظر الفطيرة المخبوزة جيدًا، وشعرت بالرضا عندما كانت السيدة روبينز تومئ برأسها موافقة على شيء أعددته، وبالطبع أحببت مذاق ما كنت أعد من طعام.

وأصبح بإمكاني القول لأبي ولويزا عندما أعود إلى المنزل: «أنا شويتُ هذا الدرّاج. وأنا صنعتُ كعكة التفاح هذهِ». ومجرد نطق هذهِ الكلمات كان يمنحني دفعة ارتياح ورضا.

قالت لي السيدة روبينز: «يمكنني القول بأن لديكِ موهبة جيدة في الطبخ». وبعد فترة وجيزة بدأت تطلب رأيي: «هل تحتاج هذهِ الكسرولة المزيد من الملح برأيكِ؟ أو ربما بعض الزعتر؟».

وأكثر جزء أحببته هو الخبز. علمتني كيف أصنع المعجنات، والميرانغ الخفيف مثل الهواء، وكل أنواع البسكويت الرقيق والكعك الغني بالنكهات. وبعد سنة تحت تدريب السيدة روبينز، أدركت أنني أصبحت قادرة على فرد جناحيّ، وأصبح بمقدوري الحصول على وظيفة بصفتي طاهية، والمال والاحترام الذي يصاحب هذهِ الوظيفة، لكني أخطأتُ بإخبار السيدة روبينز بطموحي هذا، التي بدورها أخبرت السيدة تيلي. ولم ترغب السيدة بفقداني كونها أحبت

المكانة التي أعطتها إياها خادمتها الأرستقراطية، فقد كانت تقول عندما تأتي السيدات: «هيا، أخبريهم عن أبيكِ في الهند. أخبريهم عن عم أبيكِ الأيرل وقصره الكبير المزدهر الذي يعيش فيه»».

وعندما سمعت بأنني أفكر في المغادرة نادتني إلى غرفة الرسم وقالت وهي تبتسم بتكلف، أنني إذا كنتُ جاحدة بما يكفي لأرغب بالرحيل، فلن تعطيني أية توصية. ولمعرفتي ألا أحدٌ سيوظفني بدون توصية، بقيت عالقة معها شئتُ أم أبيت. وحاولتُ التفكير في طرق للهرب، ربما يمكنني الذهاب إلى أمريكا، ستبهرهم لهجتي، إنكليزية الطبقة الراقية وأصولي النبيلة، أليس كذلك؟ ويمكنني أن أصبح طاهية هناك، أو أعمل في محل طبقة راقية، أو أصبح مرافقة لسيدة. لكن الذبابة الوحيدة في الحساء هي أني أنفق كل قرش أكسبه على والدي ولويزا دون أن أوفر شيئًا منه لنفسي. وبكل تأكيد، لا يمكنني تركهما.

توفي والدي في الخريف الذي بلغت فيه العشرين، ولم يصدمني موته، وعليّ أن أعترف بأني لم أشعر بالحزن الذي يجب أن تشعر به الابنة عادة، ذلك لأنني تعلمت أن أكبح كل مشاعري

في اللحظة التي أصبحتُ فيها خادمة. ومنحتني السيدة تيلي يوم إجازة لأرتب جنازته.

وقفنا أنا ولويزا معًا عند قبره.

قالت لويزا: «حسنًا، أفترض أن هذا كل شيء. أنا سعيدة لأن الأمر انتهى، ألستِ كذلك؟».

سألتها: «سعيدة بموت والدي؟».

رمقتني بابتسامة خرقاء وقالت: «لا أقصده على هذا النحو. فبعد كل شيء، كان والدنا الذي، وكما أفترض، أحببناه يومًا ما، لكننا كنّا مثل من يحبس أنفاسه في انتظار قدوم النهاية».

- «أجل، أنتِ محقة. لكنّي قلقة بشأنكِ أنتِ. ماذا سيحل بكِ الآن؟».

كانت في السابعة عشر من عمرها تقريبًا، ولم تُبدِ اهتمامًا يُذكر بتعليمها، وقد تدربت مؤخرًا لدى صانع قبعات. وكان ذلك العمل مناسبًا لها تمامًا، كونها من النوع الذي يُعجَب بنفسه وهو يتأملها في المرآة على الدوام، بالإضافة إلى إنها كانت تتوق لتكون أنيقة المظهر، وعصرية ذات يوم، في حين كنت مهتمة بكتبي أكثر من أسلوب حياة لن أحصل عليها مطلقًا.

- «هل تحبين عملكِ؟». سألتها «وأرباب

عملك؟».

أومأت برأسها بتردد وقالت: «هم مِفضالون».

سألتها إذا كان بإمكانها العيش مع العائلة التي تملك المتجر، فاحمرّت خجلاً وقالت إن هذا لن يكون ضروريًا، كونها أجلت الموضوع حتى وفاة والدي، لكن أحدهم كان قد عرض عليها الزواج وستوافق.

- «تتزوجين؟»، حدقت في وجهها غير مصدقة، «لكنك مجرد طفلة».

- «هراء. تتزوج فتيات كثيرات في السابعة عشر. ثم أن بيلي سيعتني بي جيدًا. ولن أضطر إلى العمل».

شعرت بصدمة شديدة عندما علمت أن الصبي الذي أرادت الزواج منه هو بيلي هاريسون، ابن الجزار الذي نعيش فوق دكانه.

- «ابن الجزار؟ لا يمكنك الزواج من صاحب مهنة يا لويزا. سيتقلب بابا في قبره».

نظرت إليّ بغطرسة وقالت: «كما لو أن أبانا قد فعل أي شيء من أجلنا يا بيلا».

- «لقد بذل ما بوسعه». قلت لها وأنا غير مصدقة لهذهِ الكلمات. إذ لم يكن ما بوسعه جيدًا

بما فيه الكفاية.

وضعت يدها فوق يدي وقالت: «بيلي فرصة جيدة يا بيلا، يملك والده ثلاثة محلات، بالإضافة إلى مزرعة خنازير في إسيكس، وهو يعتزم أن يسلم إحدى هذهِ المحلات لبيلي. سنعيش مع والديه في منزل جميل في هايغيت هيل، حتى يتمكن بيلي من إيجاد منزل خاص بنا. يمكنك ترك عملك في الخدمة والعيش معنا، أنا متأكدة من أن بيلي لن يمانع».

لا يمكنني إخبارك بكم الكرب الذي مررت به ليلتها. لقد تمنيت الخير لأختي بكل تأكيد وأردتها أن تكون سعيدة، لكن ها أنا الآن، عالقة في مهانة الخدمة المنزلية، بعد أن كدحت خمس سنوات لأعيلها، وليس لديها أدنى فكرة عن الحياة التي عشتها. أردتها أن تكون متعلمة وأن تحضى بفرص أفضل مني. والآن ستتزوج وأنا ... أنا لا أزال سجينة في منزل آل تيلي. بدت الحياة ظالمة ومريرة.

ثم خطر لي فجأة أنني لم أعد مسؤولة عنها، وأصبح راتبي الآن ملكي، وسأدخر المال وأتمكن من شراء تذكرة إلى أمريكا. أسعدتني هذهِ الفكرة لدرجة قررت مكافأة نفسي في إجازتي القادمة.

لا مزيد من العودة إلى المنزل مع بقايا طعام من منزل آل تيلي، سأذهب إلى ويست إيند وأنظر في نوافذ المتاجر، وربما أبتاع لنفسي مشطًا جديدًا أو موردًا لوجنتيّ الشاحبتين، وربما أشرب الشاي في أحد المقاهي. وهكذا، ركبت قطار أنفاق العاصمة إلى شارع بيكر، ثم ركبت قطار أنفاق باكرلو إلى سيرك أكسفورد. كان الجو خانقًا وحارًا بشكل مروع، شعرت بارتياح حالما خرجت وتنفست الهواء النقي مرة أخرى.

شعرتُ برفرفة إثارة عندما خرجت إلى عالم مختلف. فيه نساء يرتدين ملابس أنيقة، ومتاجر جميلة وكبيرة. ومشيت على طول شارع أكسفورد حتى وصلتُ إلى متجر جون لويس الرائع ذو الأقسام المتنوعة. حدقت في جميع النوافذ، فيها دُمى عرض أنيقة ومشاهد ريفية واقعية. وفي إحدى النوافذ كانت هناك سيارة. كُتبت عبارة «رحلة قصيرة في الريف» على الستارة الخلفية. ثم وصلت إلى المدخل الأمامي وأخذت نفسًا عميقًا قبل دخولي. كان المتجر جميلاً لدرجة تشعر أنك دخلت قصرًا. اقتربت من منضدة مستحضرات التجميل وتركت السيدة تضع القليل من أحمر الشفاه على خدي قبل شراء علبة صغيرة. ثم خرجت وأنا أشعر بجرأة كبيرة واستدرت نحو

شارع بوند.

وتوقفت مؤقتًا عند متجر فينويك متعدد الأقسام، ثم حدقت في نوافذ صاغة المجوهرات وصانعي القبعات وتجار السلع الجلدية ومحلات الخزف حتى خرجت إلى بيكاديللي. وخطرت على بالي فكرة متهورة، تذكرت ما أخبرنا به والدي، كيف كانوا يأخذونه لاحتساء الشاي في مقهى فورتنم وميسون في صغره. لمحت الاسم عبر الشارع وقررت أنني أنا أيضًا سأحتسي الشاي هناك، هذه المرة فقط. فوقفت على حافة الرصيف، انتظر فرصة لأعبر من خلال الدفق المتواصل على ما يبدو لسيارات الأجرة والحافلات العامة «أومنيبوس» وعربات التوصيل والسيارات المتفرقة كذلك. ثم سمعت من ورائي صراخًا وصيحات وصفارة شرطة، وتغيرت حياتي في تلك اللحظة.

الفصل الثاني

استدرتُ إلى الخلف لأرى مشهدًا مروعًا. وقفت عربة عمومية «أومنيبوس» بجانب الرصيف وأحصنتها تتحرك بتوتر، وتحت عجلاتها تمدد جسد امرأة شابة.

- «خرجت أمامي مباشرة»، صرخ السائق عندما نزل لتهدئة خيوله، «كنّا نسير بسرعة كبيرة. ولم تكن لدي فرصة للتوقف».

- «هل ثمّة طبيب بين حشد المتجمهرين؟»، ووصل شرطيان إلى مكان الحادث.

قال أحد الرجال: «فات الأوان يا صاح. أعتقد أنها ماتت».

تمتمت امرأة بجانبي: «المسكينة. لستُ متفاجئة من هذا. كثيرة هي المرات التي اضطررت فيها إلى الركض لأنجو بحياتي عندما تهم إحدى العربات العمومية مسرعة نحوي. فحركة المرور تزداد فظاعة هذهِ الأيام. وأصبح عبور الشارع خطرًا عليكِ».

كان سائق العربة العمومية يُرجع أحصنته إلى الوراء بحذر عندما حاول رجال الشرطة تحريك الفتاة. ولم أتمكن من غض بصري عن جسدها

المسحوق، ولم تكن أكبر مني بكثير. ذكرتني بدمية قماشية كانت لدي في طفولتي، غرزت أختي مقصًا فيها بنوبة غضب، وتركت نشارة الخشب تخرج من جسدها حتى أصبحت اللعبة كومة مجعدة. وبينما كنت أنظر بشفقة ورعب، لاحظتُ أن جفني الفتاة ترفرف وتفتح عينيها، تنظر لما حولها بدهشة وكأنها لا تصدق ما حدث لها للتو. فتقدمت إلى الأمام دون تردد وركعت بجانبها ووضعت يدي بلطف على كتفها وقلت: «كل شيء سيكون على ما يرام. ستكونين على ما يرام»، رغم شكي بصحة ما قلت، «سأبقى هنا معكِ حتى يأتي الطبيب».

حاولَتْ أن تركز على وجهي وخرجت كلمة «القصر» من فمها همسًا، تمكنت من تمييزها بصعوبة: «القصر. أخبري ...». حاولَت تحريك يدها، فرأيت الظرف الذي كانت تمسكه بيدها، وأخذته منها وقلت: «لا تقلقي، سأخبرهم». مع أنَّه ليس لدي أدنى فكرة ماذا كانت تعني. من الواضح أن هذا الأمر كان يُثقل عليها، لأن تعابير القلق زالت عن وجهها، وابتسمَت قليلاً وتنهدَت، ثم أغلقت عينيها. بدت وكأنها نائمة، لكن يدًا كبيرة لمست كتفي.

- «لا يمكنك مساعدتها بشيء الآن يا آنسة»، نظرت لأرى شرطياً يقف خلفي، «هل كنتِ صديقتها؟». وساعدني لأقف على قدمي.

- «لا. لا أعرفها. لم أرغب أن تعتقد أنها كانت وحيدة. إنه حادث مروع».

- «أنتِ فتاة طيبة. أتوقع إنها تقدر ذلك».

رفع عدّة رجال جثة الفتاة على رصيف الشارع، وغطاها أحدهم بخرقة. ولم يعد لدي أي سبب للبقاء مدّة أطول، فشققت طريقي بين الحشد الذي تجمع، أحاول منع انهمار الدموع التي اغرورقت في عيني، وكنت تحت تأثير الصدمة لدرجة عبرت الشارع باتجاه الحديقة قبل أن أدرك أنني لا أزال أحمل مغلف الفتاة. كان فيه شيء مهم للغاية بالنسبة لها، لدرجة أنّه كان مصدر قلقها الوحيد أثناء احتضارها. دخلت إلى مدخل متجر، بعيداً عن سيل المارة، ونظرت إلى الظرف لأول مرة. كان يحمل شعاراً - شعار مثير للإعجاب - من الواضح أن الفتاة كانت من الطبقة العاملة، بالنظر إلى ملابسها. زاد فضولي، ففتحته وأخرجتُ الرسالة.

إلى الآنسة هيلين بارتون، ساوربي هول، قرب ليدز، يوركشاير.

من مدير الأعمال المنزلية للقصر الملكي،

عزيزتي الآنسة بارتون:

لقد تلقينا طلبكِ لشغل منصب مساعد طاهٍ في قصر باكنغهام. وكانت التوصيات التي قدّمتِها مرضية للغاية. يرجى الحضور شخصياً إلى القصر يوم الخامس والعشرين من سبتمبر لإجراء مقابلة، وإذا أثبتِّ أهليتكِ بكل طريقة مناسبة، يسعدنا أن نقدم لكِ الوظيفة.

خفق قلبي بسرعة منعتني من التنفس، وأول فكرة راودتني هي أن اليوم هو الخامس والعشرين من سبتمبر، وثانياً: لن تحتاج هيلين بارتون إلى الوظيفة بعد الآن، وستبقى شاغرة حتى يملأها شخص آخر، يمكنني التقديم عوضاً عنها وإخبارهم بأنها تعرضت لحادث مأساوي، وأنني مؤهلة بقدرها لشغل هذهِ الوظيفة، لكني أدركت أنني على عكس هيلين بارتون، ليس لدي توصيات مرضية. عندها، لاحت في رأسي فكرة منافية للعقل: «سأقدم نفسي باسم هيلين بارتون، كانت من يوركشاير، ولا أحد هنا يعرفها في نهاية المطاف».

وبينما كنتُ أسير في بيكاديللي باتجاه قصر

باكينغهام، كادت فداحة ما أنا مقبلة على فعله تقهرني. هل سأجرؤ على فعل هذا؟ وسمعت صوت والدي: «اغتنمي الفرصة يا إيزابيلا». وكانت بالفعل فرصتي الوحيدة للهروب من كدح الخدمة المنزلية الحالي، ولا يمكنني تركها تفلت من يدي. كما لو أن هيلين أرادت أن أحصل عليها، لقد توسلت إلي لآخذ الظرف منها! هل كانت هذهِ هديتي من السماء لتعوضني عمّا عانيته؟

وعندما وصلت حافة غرين بارك، جلست على مقعد وشعرت بأشعة شمس سبتمبر الدافئة على وجهي، وبدأتُ أقيّم عواقب الموضوع وجوانبه. بفعلتي هذهِ لستُ أؤذي أحدًا ولا أحرم أحدًا من وظيفته. في الواقع، أنا أقدّم خدمة للقصر لأنهم لن يضطروا إلى الإعلان مرة أخرى عن هذا المنصب، وأعرف أنني طاهية ماهرة.

حدقت في الرسالة التي في يدي، واتضح لي أن هذهِ قد تكون الوسيلة الوحيدة لتحديد هوية هيلين بارتون، ربما كانت تحمل حقيبة يد معها، لكنها قد لا تحتوي على عنوانها، وبدون هذهِ الرسالة، قد لا يعرف أحباؤها بموتها، وستُدفن في مدافن المعوزين، ولا يمكنني السماح بهذا مهما كانت حاجتي لهذهِ الوظيفة. قلت لنفسي:

«اهدأي يا بيلا، لا بد وأن هناك طريقة ما». فكرت في الموضوع تفكيرًا منطقيًا، سأكتب رسالة إلى ساوربي هول وأخبرهم بأنني شهدت الموت المأساوي للآنسة بارتون، وسأوقع الرسالة باسم «فاعل خير». على الأقل سيعرف أقرباؤها وأحباؤها أين يبحثون عن جثتها في حال رغبوا في ذلك، مع أنني ظننت ألّا أقارب لها من الدرجة الأولى في يوركشاير. فبعد كل شيء، كانت تخطط للانتقال إلى لندن، وما كانت لتفعل ذلك لو كان لديها أم مسنة أو حبيب يعيش في مكان قريب. قلت لنفسي ربما كانت يتيمة. ومن الواضح أن رب عملها كان يعلم أنها قدمت لهذا المنصب كونها وضعته مرجعًا لها. حسمتُ أمري، مع كل المخاطر، سأفعلها، وسأغتنم الفرصة، كما أخبرني والدي.

دسست خصلات شعري الشاردة تحت قبعتي، وأدركتُ أن ثمّة أحمر شفاه على وجنتي. هذا لن ينفع. فأخرجتُ منديلي ومسحتُ وجهي جيدًا حتى اختفى أثره - كما آمل - وتمنيت لو أن لدي مرآة في حقيبتي اليدوية. ثم عبرت غرين بارك وخرجت إلى المركز التجاري، وها هو قصر باكينغهام أمامي.

بدأت نبضات قلبي تتسارع مرة أخرى. ماذا لو اكتشفوا أنني محتالة، وضبطتُ وأنا أحاول خداع الملكة؟ هل يعتبر ذلك خيانة؟ هل ما زالوا يقطعون رؤوس الناس في البرج؟ ترددت وأنا أنظر إلى تلك الواجهة المهيبة والبوابات الطويلة المصنوعة من الحديد المطاوع. هل أجرؤ حقًا على المضي قُدمًا في هذا؟

ثم تراءى لي أنني أسمع صوت والدي يقول: «ماذا ستخسرين يا بيلا؟».

حسنًا، فكرت في نفسي، كيف سيعرفون أنني لستُ هيلين بارتون؟ كانت من منزل في براري يوركشاير ويفترض أنها لا تعرف أحدًا في لندن. تحتاج الملكة طاهيًا، وعلمتُ أنني طاهية ماهرة وسيسر القصر بخدمتي لهم. وبعد أن قاومت نفسي بهذه الطريقة، مشيت بخطوات سريعة ثم ترددت من جديد عندما اقتربت من الرجال الواقفين بإجلال قرب البوابات، والحرس الواقفين أمام مقصوراتهم. لا يُسمح للخدم بالمرور من هذه البوابة الضخمة بلا شك، حتى السيدة تيلي في سانت جون وود لديها مدخل خاص بالخدم. لا بد وأنه في أحد الجوانب، أو في مكان خفي، لكن أين؟ توجهت إلى أحد الحراس

وهمستُ له:

- «أرجو المعذرة، هل يمكنك توجيهي إلى مدخل الخدم؟ أنا هنا لإجراء مقابلة».

لم يتردد بصره، واستمر في التحديق أمامه مباشرة، ولم يتحرك فمه حتى، لكنه تمتم بين شفتيه: «إلى يسارك يا آنسة. الباب في الحائط».

شكرته ورأيت شبح الابتسامة يلوح في شفتيه. وانطلقت، متجاوزة واجهة القصر وحولها إلى الجانب، حيث أحاط جدار من الطوب ما كان يُفترض أنه حدائق القصر. وكان هناك في الحائط باب صغير غير مرئي تقريباً، فتحته، واستقبلني حارس آخر.

فقلت له بأقصى ما أمكنني من براعة: «أنا الآنسة بارتون، أتيتُ لمقابلة مدير الأعمال المنزلية للقصر الملكي بشأن منصب مساعد طاه». وبينما قلت هذا صدمتني فكرة مروعة. ماذا لو كانت هيلين بارتون قد أجرت مقابلتها بالفعل وكانت في طريقها إلى المنزل عندما وقع الحادث؟ ماذا لو أخبرني مدير الأعمال المنزلية للقصر أنه أجرى المقابلة بالفعل وطالب بمعرفة من أكون بحق السماء؟

كانت مخاطرة أخرى يتعين اتخاذها. لو كانت بالفعل قد أجرت مقابلتها، لمَ كانت تمسك الرسالة في يدها؟ لا، لا بد وأنها كانت في طريقها إلى القصر، على الأقل لم يبدِ حارس البوابة الجانبية أي ردة فعل. اصطحبني عبر طريق ضيق إلى باب يبدو عاديًا في جدارٍ من الطوب، وقرع الجرس، فظهر شاب، أفترض أنه خادم، مع أنه لم يكن مرتديًا زيًا مميزًا، وإنما قميصًا أبيض اللون وبنطالاً أسود اللون.

قال له الحارس: «هذهِ الآنسة هنا لترى السيد حول مقابلة عمل».

وناولته الرسالة ليمعن النظر فيها.

قال الخادم: «اتبعيني لطفًا يا آنسة». وعلى الأقل، لم ينظر لي باستغراب ولم يعلق بأنني ثاني سيدة شابة تقدم نفسها لهذا المنصب اليوم، ما يعني أن هيلين بارتون كانت في طريقها إلى القصر، وأظنني أطلقت زفرة ارتياح عندما مشينا على طول ممر عادي مغطى بالجبس الأبيض، وصعدنا سلم خشبي ثم وصلنا إلى ممر أكبر قليلاً. نقر الرجل على الباب.

- «أدخل». ردَّ صوتٌ عميق من الداخل.

قال الخادم: «الآنسة بارتون هنا لرؤيتك يا سيدي».

- «دعها تدخل». قال الصوت العميق.

كان قلبي يخفق بقوة، فأخذت نفسًا عميقًا لأهدئ من روعي ودخلت الغرفة. لم تكن فخمة، مجرد مكتب كبير من خشب الماهوغاني، ورفوف كتب ونافذة تطل على الحديقة. وكان للرجل الجالس على المكتب شاربين رماديين رائعين، وتغضنات عميقة على جبهته، وكان يرتدي زيًا عسكريًا بضفائر كثيرة، من الواضح أنه من النوع الذي يتوقع أن يُطاع دون أي كلام فارغ.

- «آنسة بارتون»، ومد يده ليصافحني، «أنا الكولونيل بيلهام كلينتون، مدير الأعمال المنزلية في القصر الملكي، لطف منكِ القدوم إلى هنا».

- «كيف حالك؟ لطف منك أن تقابلني يا حضرة الكولونيل». أجبته ومددت يدي لأصافحه.

زاد تغضن جبينه وقال: «توقعتُ سماع لهجة يوركشاير. ألستِ من الريف؟».

- «بلى يا سيدي. كان والدي رجلاً متعلمًا واجهته أوقات عصيبة وصعبة. وتربيت على على

التحدث بلغة سليمة». قررت الالتزام بالحقيقة قدر الإمكان.

أومأ برأسه وقال: «وأين هو والدكِ الآن؟».

- «مات يا سيدي. مات كِلا والدي عندما كنت صغيرة وهذا ما دعاني إلى العمل، لم يعد لدي أحد».

هزَّ رأسه مرة أخرى وقال: «فهمت. لديكِ خدود فتاة الريف المتوردة. أخشى أنكِ ستفقدينها في هواء المدينة المشبع بالدخان».

حاولت ألا أبتسم وأنا أدرك أن خدودي الحمراء كانت نتيجة فرك أحمر الخدود.

- «وأنتِ أصغر مما توقعت».

- «أخبروني أنني أبدو أصغر من عمري». أجبته وأنا أتساءل كم كان عمر هيلين بارتون. لم تبدُ أكبر مني بكثير. هل اشترط الإعلان على أن يكون المتقدم فوق سن الواحد وعشرين عاماً؟

التقط ورقة من مكتبه وقال: «رسالتك المرجعية جديرة بالثناء. يبدو أنكِ حظيتِ بتقدير في منزل الليدي ساوربي».

وأنا أفكر بسبب رغبتي - الذي سأختلقه - لترك الليدي ساوربي تابع كلامه: «تقول مدبرة المنزل

أنكِ صادقة ورزينة ومستعدة للتعلم».

- «أجل يا سيدي. أنا كذلك». أجبته، بينما همس صوت في أذني بأنني لستُ صادقة في هذهِ اللحظة. كدت استسلم واعترف بخداعي لكنه تابع كلامه مجدداً:

- «يبدو أن الليدي ساوربي متقدمة في السن وستغلق منزلها لتعيش مع ابنها، هل هذا صحيح؟».

- «هكذا فهمت يا سيدي». أجبته.

- «وما الذي دفعكِ لقطع كل هذهِ المسافة والقدوم إلى لندن؟».

- «ليس هناك ما يربطني بيوركشاير، ومَنْ لا يرغب في اغتنام الفرصة ليخدم جلالتها؟».

ابتسم بالفعل وقال: «أظن أنكِ ستبلين بلاءً حسناً هنا يا آنسة بارتون، ولكن في البداية، عليّ أن أقدمكِ إلى سيد مطبخنا، السيد آنجيلو رومانو. إنّه دقيق جداً في اختيار مَنْ يعمل تحت إمرته، وصولاً حتى أدنى خادمة غسيل صحون. اسمحي لي أن أرافقكِ إلى المطابخ».

نزلنا الدرج، ومشينا عبر رواق قرميدي هذهِ المرة، وفتحنا الباب المتأرجح. وأخالني كتمتُ

شهقي، على طول أحد الجدران، كانت صفوف من الأواني النحاسية اللامعة معلقة على خطافات، بحجم تصاعدي من نصف لتر إلى عدة غالونات، وتحتها كان هناك صف من المواقد فوقها قدور تغلي، تتصاعد منها رائحة أعشاب مغرية. كما لاحظت أن أغلب المواقد كانت من الطراز الحديث تعمل بالغاز، ما خلا موقدين قديمين يعملان بالفحم تحسباً لأي طارئ. وقد صُفّت حول الغرفة طاولات نظيفة من خشب الصنوبر، يعمل على كل واحدة منها أحد الطهاة، جيش كامل منهم على ما يبدو، يرتدون زيّاً أبيض اللون، بعضهم يعتمر قبعات طويلة وآخرون قلنسوات، وجميعهم مشغولون بتقطيع أكوام الخضروات أو مزج المواد في الأوعية. في الواقع، عندما تفحصتهم عن كثب، لاحظت أنهم جميعاً تقريباً من الذكور، ما عدا امرأتين كبيرتين في السن بينهم، ولا توجد فتيات شابات.

تردد مدير الأعمال المنزلية عند الباب وقال: «سيد آنجيلو، هل يمكنني أن آخذ من وقتك قليلاً؟»».

جاء إلينا رجل بشارب أسود معقوف يمتلئ وجهه تعبير الأفضلية. يرتدي زيّاً أنيقًا وقبعة على

رأسه. ومن طريقة مشيه، يمكنني التخمين أنه معتد بنفسه كثيراً.

- «ما الأمر يا سيدي؟ كما ترى، نحن مشغولون حتى هامتنا في هذه اللحظة».

توقعت لكنة إيطالية، لكنه تحدث كأي لندني آخر.

فقال المدير: «لقد تقدمت هذه الشابة لتشغل منصب مساعد طاه. ويبدو أن توصياتها مُرضية، ولديها أسلوب لطيف، ولكن بالطبع القرار النهائي متروك لك».

تفحصني الرجل ذو الشارب الأسود من رأسي حتى أخمص قدمي كما لو أنني قطعة لحم كريهة وقال: «أنت تعلم رأيي بشأن تواجد فتاة شابة في المطبخ».

- «أجل، ولكننا نعلم وجهة نظر جلالتها وميولها، أليس كذلك؟ وليس من حقنا أن نعارض رغبات صاحب العمل».

لم يرفع ذو الشارب الأسود عينيه عني ولو لثانية، ثم سألني: «إذاً، ما هي خبرتك في الطبخ أيتها الشابة؟».

- «الطبخ الإنكليزي البسيط فقط يا سيدي»،

أجبته، «وبالطبع، سُمح لي بالمساعدة فقط، ولم أصنع الأطباق بنفسي. لكنني على دراية بمعظم طرق الطبخ».

- «هل لديكِ خبرة بلحم الطرائد؟ جلالتها تعشق لحمها».

- «جربت طبخ الدرّاج يا سيدي، والزغلول».

- «والصلصات؟».

- «يمكنني صنع صلصة بيضاء ناعمة يا سيدي، وصلصة بنية ...».

- «صلصة بيضاء؟»، كان ينظر إلي من أسفل أنفه، «أي نوع من الصلصات البيضاء تقصدين؟ فيلوتي؟ بشاميل؟ سبريم؟ باسكالين؟ رافيغوت؟».

- «أخشى أنني لستُ على دراية بالمصطلحات الأجنبية. فقد كانت الطاهية التي علمتني مُصرّة على أن الطعام الإنكليزي كان جيداً مثل أي طعام آخر، وإنها لن تطهو أي «قامة أجنبية» كما وصفتها».

تمنيت لو أنني لم أتفوه بما قلت بعد أن نطقته، لأن آنجيلو وبلا شك كان اسماً إيطاليًا، مع أنني لم ألمح أيّة لكنة أجنبية في كلامه. في الواقع، ظننت أنني لمحت لكنه كوكنية، وقطعاً ثمة

ابتسامة عند زاوية شفتيه.

- «أعتقد أنني قد أميل إلى الاتفاق معكِ. ليس هناك أفضل من طبق اللحم البقري المشوي وبودينغ يوركشاير من الدرجة الأولى، لكن صاحبة الجلالة تحب أن يكون طعامها فاخرًا، ليس بالضرورة أجنبيًا، ولكن، يجب أن يكون ممتعًا ومثيرًا للعين، بالإضافة إلى جودة مذاقه. وتستغرق بعض أطباقنا اليوم بطوله كي نعدها»، توقف فجأة وشفط عبر أسنانه للحظات قبل أن يقول: «ماذا قلتِ إنها نقطة قوتكِ؟».

- «قيل لي أنني بارعة في صنع المعجنات يا سيدي».

- «لدينا السيد رولاند، وهو طاهي الحلوى والفطائر، ويتولى مسؤولية تحضير أي معجنات تُقدم للملكة مع الشاي وأي معجنات أخرى ضمن قائمة الحلوى. جلالتها مولعة بشايها والكعك والقُريصات التي تُقدم معه. ولا تفوت وجبة الشاي مطلقًا، بغض النظر عن مكان تواجدها أو ما تفعله. ولكن قد يُطلب منكِ عمل فطيرة لحم لغرفة طعام الخدم».

- «أوه أجل يا سيدي، يمكنني صنع فطيرة لحم لذيذة».

- «هذا ما لا نعرفه بعد حتى نراه. لكن يمكنني القول إنكِ راغبة ومتحمسة للتعلم، ولديكِ أسلوب حسن، لذا أظن أننا سنعطيكِ فترة اختبار. متى يمكنكِ البدء معنا؟».

- «بما أن ربّة عملي ستغلق منزلها، يمكنني البدء مطلع الأسبوع القادم إذا كان مُناسباً لكم يا سيدي».

- «ممتاز. تفهمين أنه لن يكون عملاً ساحرًا أليس كذلك؟ يتعين علينا في بعض الأحيان تقديم الطعام لمآدب رسمية، طعامًا فاخرًا، حينها يكون الطهاة جميعهم في العمل. لكن في معظم الأوقات، ستقطعين الخضروات وتحضرين الوجبات للكادر، وستكونين في أدنى درجة في سلّمنا هنا. وستأخذين أوامركِ مني ومن الطهاة الآخرين الأكبر منك سنًا وأكثر حكمة».

- «أفهم ذلك يا سيدي».

رمقني بابتسامة مقتضبة وإيماءه وقال: «سأعيدها إليك الآن يا سيدي. لدي ستة طيور درّاج تنتظر أن أنزع عظامها».

تبعت مدير الأعمال المنزلية إلى مكتبه.

استدار نحوي مُخاطبًا: «ستجدين السيد آنجيلو

مراقب عمل صارم، يتوقع العمل الجاد والكمال في كل الأوقات. لكن، لا يمكنكِ التعلم من أي طاهٍ في البلد أكثر مما ستتعلمين منه».

سألته: «هل هو إيطالي؟ لا يبدو أن لديه لكنة أجنبية».

- «لا، هو إنكليزي مثلي ومثلكِ، وُلِد وترعرع في لندن، جاء أسلافه من تلك البلاد قبل عدة أجيال. واختارته جلالتها لأنه كان لديها في السابق طاهياً يحمل اسم عائلة إيطالي وكانت مولعة به كثيراً. وهذا ما أعطاها الانطباع بأن كل الإيطاليين طهاة مهرة بالضرورة».

فتح باب مكتبه وأشار لي بالدخول، وانتظر حتى اعتدل في جلسته خلف مكتبه وقال: «سيكون أول راتب لكِ خمسة عشر شلناً في الأسبوع مقطوعة. وسيُقدم لكِ زيكِ الرسمي وخدمة الغسيل بالإضافة إلى السكنِ والطعام». ثم نظر إلى الأعلى ينتظر أن أقول شيئاً.

- «شكراً لك يا سيدي، هذا العرض مرضيٌ للغاية». مع أنه وفي الحقيقة، لم يكن أكثر مما كنت أتقاضاه لدى السيدة تيلي. لكن الفكرة التي خطرت لي، أن هذا المال سيكون لي وحدي على الأقل، ولن يذهب إلى والدي وأختي. وسأتمكن

من التوفير لمستقبلي، وأنفق القليل منه على الأشياء الضرورية.

- «وسيُطلب منك التوقيع على وثائق السرية والخصوصية يا آنسة بارتون. لن يُناقَش أي شيء يحدث بين هذهِ الجدران مع أي شخص، ولا حتى أقرب أصدقائك. ولا شيء يؤخَذ من القصر، ولا حتى الطعام الزائد. هل هذا واضح؟».

أومأت وقلت: «نعم يا سيدي».

- «والخروج مع شاب أمر مستهجن».

- «ليس لدي رفيق يا سيدي. لكن لم يسعني إلا ملاحظة عدم وجود شابات أخريات في المطبخ».

- «هذا صحيح. حتى وقت قريب، كان مطبخ صاحبة الجلالة يتألف بشكل شبه حصري من الطهاة الذكور، ولكن صاحبة الجلالة تتطلع أيضًا إلى المستقبل، فهي تشعر أنه مع اقتراب القرن الجديد، يجب علينا خلق المزيد من الفرص للشابّات، فقد أثبتت هي نفسها ما يمكن أن تحققه المرأة الشابة، إذا أتيحت لها الفرصة».

أردتُ أن أقول له: «لا تسنح فرصة وراثة عرش الحكم الملكي لكثيرات منّا» لكني آثرتُ

حكمة الصمت.

وتابع: «لا بد لي من الاعتراف أنني لا أشاركها حماسها، منطلقًا من تجربتي، إنَّ التعامل مع الشابّات مضيعة للوقت والتدريب، لميلهن إلى الرحيل والزواج».

- «لا أعتزم القيام بهذا لوقتٍ طويل يا سيدي. أنا أتطلع بلهفة لأصبح طاهية أفضل».

أومأ برأسه موافقًا وقال: «رائع. أستطيع أن أرى أننا اخترنا جيدًا. هل لكِ أن توقعي هنا ...». وقدّم لي وثيقة وقلمًا ومحبرة. غطستُ، وصليتُ ألّا يبقع الحبر الورقة وترددت قبل أن أتذكر التوقيع باسم هيلين بارتون.

مد يده لي وقال: «مرحبًا بكِ في خدمة صاحبة الجلالة يا آنسة بارتون».

الفصل الثالث

خرجت من هناك مذهولة، وبدأت أسير عبر حديقة القديس جيمس، مشيت بخطى حثيثة بينما حاول عقلي استيعاب ما قد حصل للتو. لقد ربّتني والدتي على أن أكون صادقة، وأتصرف بطريقة تجلب السمعة الحسنة لعائلتي، وها أنا الآن حصلت على وظيفة بواسطة الكذب. هل سأتمكن من احتمال ذلك؟

ثم تذكرت أن عائلتي لم تفعل الكثير من أجلي، فقد باعني والدي لما يشبه العبودية، وأذلني بأسوأ طريقة ممكنة، ولم تستفد أختي من التعليم الثمين الذي حصلت عليه بفضل العمل الذي قصم ظهري. لا أدين بشيء لأحد، أنا امرأة حرة، أسيّر حياتي كما أشاء لأول مرّة. أصبحتُ الآن مساعدة طاهي في قصر باكنغهام، وبدا مستقبلي مشرقًا. سأعمل بجد، وربما بعد سنة أو أكثر سأكون قد وفرت ما يكفي للذهاب إلى أمريكا، حيث سيعينونني على الفور كوني شخص طبخ للعائلة الملكية، وقد أفتح مطعمي الخاص يومًا ما. بدت الاحتمالات لا نهائية. وربما ولدتُ حقًا بتفاؤل والدي الذي كادت سنواتي الأربعة لدى السيدة تيلي أن تسحقه.

وما إن وصلت إلى منزل السيدة تيلي حتى أسرعتُ إلى غرفتي وأخرجت ورق كتابة وقلم ومحبرة، وبدأت بكتابة رسالة إلى ساوربي هول. ألفتها مرات عدّة في مخيلتي في طريق عودتي إلى المنزل بواسطة قطارات الأنفاق.

إلى من يهمه الأمر،

يؤسفني إبلاغكم أنني شهدت حادثًا مأساويًا في لندن هذا المساء. لقد صدمت عربة عمومية امرأة شابة وقتلتها. وساعدتُ في جمع ممتلكاتها من الشارع، ووجدتُ مظروفًا معنونًا إلى الآنسة هيلين بارتون. ولذلك لا يسعني إلا أن أستنتج أن هذا هو اسم المرأة. ظننت أن عليّ الكتابة لكم في حال لم تجد شرطة لندن إبلاغكم بوفاتها مناسبًا، وكان لديها أقارب يرغبون في معرفة مصيرها.

ثم أضفت، أنني أبلغت مدير الأعمال المنزلية لقصر باكينغهام بوفاتها المأساوية. لذا، لا داعي لأن يتصل أحد من يوركشاير بالقصر. ووقعتها باسم «فاعل خير». ووضعتها في مغلف، لعقته وأغلقته ثم توجهت إلى الخارج من جديد إلى أقرب صندوق بريد وأودعتها فيه. كنتُ لا أزال أشعر بعدم الاستقرار عندما عدت، ولم أستطع تناول لقمة من فطيرة الأرانب اللذيذة التي أعدتها

الطاهية.

فعلقت الطاهية: «لا شك عندي أنكِ أتخمتِ نفسكِ بالشاي في المقهى». ولم أنفِ ما قالته.

صعدتُ إلى غرفتي حالما ساعدتها في رفع سفرة العشاء، ووقفت أتأمل الأفق وقدور المداخن من نافذة العلّية. ما زلت لا أصدق ما فعلته. كل ما كنت أعرفه هو أنني سأتمكن أخيرًا من الهرب. وكان من دواعي ارتياحي أنني ذهبت إلى السيدة تيلي في صباح اليوم التالي وأخبرتها أنني سأغادر في نهاية الأسبوع. رفعت حاجباها المنتفان بدهشة وقالت:

- «ترحلين؟ تتركينني بعد كل ما فعلته من أجلكِ؟».

- «هذا صحيح». ولم أقل: «نعم يا سيدتي».

- «ولكنّي أود أن أعرف إلى أين تعتقدين أنكِ ذاهبة؟ أي شخص محترم سيقبلكِ دون رسالة توصية؟».

كم وددت إخبارها بأنني سأرحل لأعمل في القصر، وددت هذا حقًا، لكنني علمت أن هذهِ الساحرة العجوز الحاقدة ستكتب رسالة إلى القصر تشتكي مني. لذا توصلت إلى العذر المثالي وأنا في

طريق عودتي في قطار الأنفاق.

- «لن أحتاج إلى العمل من جديد. ستتزوج أختي من رجل ميسور الحال، ودُعيت لأعيش مع عائلة زوجها».

وكان هذا نوعًا ما صحيحًا، فقد دعتني لويزا لأعيش معهم ولا يزال العرض قائمًا، كل ما في الأمر أنني رفضته، ربما لم تكن كذبتي الثانية بصعوبة الأولى.

رمشت السيدة تيلي مرات عدّة ثم قالت: «حسنًا، من حسن حظ البعض أليس كذلك؟ وبما أن الحظ حالفكِ، لا أفترض أنكِ ستحتاجين آخر معاش لكِ أليس كذلك؟».

- «أتوقع وبلا شك أن يُدفع لي المال الذي جنيته. وأنا على يقين من أن زوج أختي سيرغب في التأكد من حصولي على مستحقاتي، فعائلته ذات شأن كما تعلمين».

رمشت تلك العينان الخنزيريتان بسرعة من جديد، ثم نهضت وتوجهت مسرعة نحو حقيبة يدها وقالت: «خذي المال وارحلي أيتها الفتاة الجاحدة». ورمت النقود في وجهي.

أردت أن أكون محترمة كفاية وألا ألتقطها،

لكنني انحنيت وأخذت النقود من الأرض قبل أن أخرج. انتبهت لنفسي أرتعش فشربت كأس ماء في المطبخ، ولم أنتظر حتى نهاية الأسبوع.

كانت مهمتي التالية هي لقاء أختي، التي أرادت أن تغلق الشقة وتتخلص من محتوياتها وتنتقل للعيش مع أهل زوجها المستقبلي.

وقفنا معًا في غرفة المعيشة الرطبة والكئيبة تلك، بينما كان ضوء شمس المساء المائل يسطع على السجادة الرثة من خلال النوافذ المتسخة.

- «آه يا أختاه، أشعر بالسوء حيالك، سأعيش حياة سعادة ورفاهية بينما ستبقين تكدحين لدى تلك الوحش. هلّا غيرتِ رأيك وأتيتِ للعيش معنا؟»، وأمسكت بيدي وأردفت: «يمكنكِ متابعة دراستكِ. لطالما كنتِ الطالبة اللامعة بيننا، وتعلمين كيف يحترمكِ الأساتذة».

عليَّ الاعتراف أنني شعرت بالإغراء عندما طرحت هذا الموضوع أمامي، لكني لا أريد أن أكون مدينة لأحد، وأدركت شغفي بالطبخ. لذا، اخترعت كذبة أخرى، نصف الحقيقة هذهِ المرة.

- «هذا لطفٌ منكِ. لكني تمكنتُ من الحصول على عمل أفضل، بعيدًا عن ذلك المنزل الفظيع».

- «صحيح؟ هذا خبرٌ جيد، وأين مكان عملكِ هذا؟».

- «لا يمكنني إخباركِ بمكانه بعد».

- «لا يمكنكِ إخباري أين هو؟»، وغيّم وجهها الجميل، «بيلا، هل هو مكان غير محترم؟ لن تصبحي راقصة في ملهى، أليس كذلك؟ أم أنه أسوأ؟».

ضحكت على فكرة أنني أصبحت فتاة ليل: «لا، لا، إنه مكان محترم للغاية، أقسم لكِ».

- «إذًا لماذا لا يمكنكِ إخباري؟».

عبست، هل عليَّ أن أكذب عليها وأقول لها أنني سأسافر خارج البلاد؟ لكن حينها لن أتمكن من رؤيتها مجددًا وكانت العائلة الوحيدة المتبقية لي، سأفكر في هذا الموضوع وأجد طريقة أشرح فيها أنني الآن «هيلين بارتون»، فقلت لها: «لم نتوصل حتى الآن إلى اتفاق بشأن وظيفتي».

ضغطت على يدي وقالت: «لن تذهبي بعيدًا أليس كذلك؟ سأفتقدكِ كثيرًا، فأنتِ قريبتي الوحيدة في هذا العالم».

- «لا تقلقي، سأزوركِ في أيام إجازتي»، وابتسمت لتغضن وجهها القلق، وأدركت أنه

ربما لديها بعض التحفظات فيما يخص الزواج والانتقال مع عائلة غريبة، «وعندما تُرزقين بأطفال، سأكون خالة مُحبة لهم».

زاد قلقها وقالت: «لستُ متأكدة فيما يخص هذا الجانب»، وانخفض صوتها ليصبح همساً وقالت: «يسمع المرء إشاعات فظيعة. سمحت لبيلي بتقبيلي وكان هذا جيداً، ولكن بخلاف ذلك ...».

- «أخشى أنني لا أعرف أكثر منكِ»، اعترفتُ لها، «لكني متأكدة من أن الحياة مع مَنْ تحبين ستروق لكِ. فقد كان بابا وماما يحبان بعضهما طيلة حياتهما حتى فطر قلبها، أليس كذلك؟».

- «وماذا عن ولادة الأطفال؟»، كانت لا تزال تهمس، رغم أننا كنا وحدنا، «تموت النساء طوال الوقت أثناء المخاض، أليس كذلك؟».

- «أنتِ فتاة قوية وفي تمام صحتكِ يا لويزا. وستتزوجين رجلاً ثرياً يمكنه تحمل نفقات أفضل الأطباء».

رمقتني بابتسامة متفائلة صغيرة وقالت: «آمل أن تجدي رجلاً يحبكِ قريباً يا أختي، أريد لكِ السعادة».

- «سيكون هذا حسنًا. لكن في الوقت الراهن، سأستمتع بتحديات وظيفتي الجديدة».

- «هل مكان عملكِ بعيد عن لندن؟ قلت إنكِ ستزورينني ...»

- «لا تقلقي. سأكون قريبة منكِ. وسأحيطكِ علمًا حالما يكون لدي عنوان تكتبين لي رسائل إليه».

ولحسن الحظ، غيرت لويزا الموضوع وتجولنا حول الشقة، لتقرر إذا كانت ستأخذ قطع أثاث والدي القليلة المتبقية بحالة جيدة. كان هناك منضدة كتابة مرصعة صنعها والدي لوالدتي في الهند ورفض التخلي عنها، طلبت من لويزا أخذها. وباقي الأغراض ستعرض للبيع.

- «أرجوكِ احتفظي بالمال كله، سأعال جيدًا».

هززتُ رأسي وقلت: «لا. ستأخذين المال لفستان زفافكِ؛ لا نريد أن نكون مدينين لعائلة بيلي بكل شيء. وسأقبض أجرًا جيدًا». لاحت ابتسامة على وجهها جعلتني أدرك كم ما زالت صغيرة في السن.

- «كما تشائين. كنتُ قلقة قليلاً بشأن فستان زفافي. سنختار فستانك - باعتباركِ وصيفتي -

بلون أزرق مخضّر. ما رأيكِ؟ سيبدو مذهلاً للغاية مع شعرك الأحمر».

تشابكت أيدينا ونظرنا إلى بعضنا بعضا، وأدركنا كلانا ألا شيء في حياتنا سيبقى على حاله مرة أخرى. وقبل أن نفترق، قدمتني رسميًا لخطيبها اللطيف نوعًا ما، الذي رأيته يدخل ويخرج من محل والده ويبدو جليًا أنه مفتون بأختي، لكن أخلاقه وطريقة كلامه لن تكون ملائمة كصهر محتمل بالنسبة لوالدي. وفي طريق عودتي إلى المنزل، حاولت إعادة النظر في مشاعري، أنى لي هذا الحكم التنفجي على زوج أختي المستقبلي وأنا خادمة؟! كنت أدنى منه في سلم الطبقات الاجتماعية، ومع ذلك، رسّخ فينا والدي الاعتقاد بأننا ننتمي إلى صفوة الطبقة الأرستقراطية. هل عليَّ أن أقبل الزواج برجل من الطبقة الدنيا إذا كان لي نصيب يومًا ما؟ يبدو أن لويزا لم تلاحظ لهجته اللندنية أو افتقاره إلى المفردات، وكانت سعيدة. فقلت لنفسي بحزم أن هذا هو كل ما يهم.

وفي صباح يوم السبت، جاء رجل ومعه عربة لنقل ما تبقى من منزلي السابق الذي بيعت أغراضه كلها، وانتقلتُ إلى القصر صباح يوم

الاثنين. قد يبدو ما قلته شيئًا عظيمًا، لكن الواقع لم يكن براقًا كما يبدو. فقد خصصت لي غرفة بمفردي في الطابق العلوي، أسبارطية للغاية، وباردة بلا ريب، ومجهزة بسرير إطاره حديدي، وخزانة ذات أدراج مطلية باللون الأبيض تعلوها مرآة، وخطافان على الحائط لتعليق الملابس، لكنني سأتمتع ببعض الخصوصية على الأقل.

أخذت قياساتي لزيي الأبيض بالكامل: بلوزة وتنورة ومئزر كبير يغطيني، ويجب أن أخبئ شعري كله تحت قبعة صغيرة مستديرة. وقيل لي بحزم أن عليَّ تغيير المئزر ما إن تظهر أي بقعة عليه، ويجب أن أبقى نظيفة على الدوام، في حال اختارت جلالة الملكة أو أحد مسؤوليها الكبار زيارة المطابخ. وقفت أنظر إلى نفسي في المرآة، كان مظهري شبحيًا في زيي الأبيض، ابتسمتُ لنفسي ابتسامة صغيرة شجاعة وقلت: «سيكون كل شيء على ما يرام. أنا هيلين بارتون، وأنا طاهية ماهرة».

- «آه، الفتاة الجديدة هنا»، نظر السيد آنجيلو إلى الأعلى عندما دخلتُ المطبخ، «بشرى سارة، لقد أخبرونا فجأة ودون سابق إنذار أن علينا إعداد وليمة غداء. ستزور القصر ابنة الملكة،

الأميرة هيلينا وابنتها الأميرة ثورا. ها هي القائمة: حساء المرقة المركزة بالأعشاب، والخبز المحمص بالجبنة، وشرائح سمك موسى المسلوقة مع صلصة البقدونس، وبطاطا بالقشدة، و بيوريه فرخ الحمام، وكرفس بالقشدة، وقطع لحم خنزير مع التفاح، وملفوف أحمر مع بطاطا الدوقة، وبودينغ مثلج على طريقة الأمير ألبرت، وبودينغ كاري مع صلصة الفانيليا، وخبز الأنشوجة المحمص. سيد فرانسيس، ستتولى مهمة إعداد طبق السمك، والبودنغ مهمة السيد رولاند، وسأطبخ فرخ الحمام وقطع لحم الخنزير، وسيدة سيمز، ستعدين الحساء. وسأضيف الفتاة الجديدة إلى فريقكِ مؤقتاً. قلتِ ما اسمك مرة أخرى يا عزيزتي؟».

- «ب... هيلين يا سيدي»، كان قلبي ينبض بشدة، كنت على وشك ارتكاب أول خطأ لي.

- «حسناً يا هيلين، نادِني الطاهي وليس سيدي، رسمياً أنا سيد المطبخ، لكنه صعب النطق أليس كذلك؟ طاه فحسب ستفي بالغرض، وستنادين الجميع بـ «الطاهي» أيضاً ما عدا المتدربين. هل هذا واضح؟».

- «أجل أيها الطاهي».

أومأ لي وقال: «انصرفي إذاً، طاولتكِ قرب

النافذة. ليباشر الجميع عملهم. ليس لدينا الكثير من الوقت».

ذهبت إلى الطاولة المخصصة لي. فقالت السيدة سيمز: «يمكنكِ تقطيع الخضروات»، كانت سيدة مكتنزة مريحة المنظر، لم تبدُ مخيفة كبقية الرجال في المطبخ، الذين بانت ملامح الاستعلاء على محياهم، وهم ينظرون إليَّ باستياء إن لم تشِ نظراتهم ببغض صريح، «احرصي على تقشيرها جيدًا. لا تتركي أي قشور على هذا الجزر». وأشارت إلى عدة سلّات مليئة بالخضروات.

- «كم سنحتاج؟». سألتها.

- «ما يكفي لإطعام ثمانية أشخاص. نحتاجها لتزيين الحساء، ولا تحب جلالتها الحساء الصافي كثيرًا على كل حال، لذا، من المحتمل أن الأطباق ستعود كما هي».

أخذت نفسًا عميقًا واخترت بعض الجزر واللفت وحفنة من البقدونس. وبعد أن تفحصت السلال الأخرى قلت: «لا أرى أي بصل».

عبست السيدة سيمز وقالت: «لا تأكل جلالتها أي شيء من شأنه أن يجعل رائحة نفَسها كريهة. لا بصل، ولا ثوم، ولا توابل أجنبية».

- «فهمت». وبدأت في تقشير الجزر ثم قطعته.

- «لا تفعلي هذا»، همس صوت في أذني. استدرت فرأيتُ ولدًا طويلاً ونحيلاً، شعره أشد حمرة من شعري يقف بجانبي مباشرة. كانت ملامحه حادة وتعابيره صفيقة تعود لكوكني نموذجي، «نحن نقطع خضروات الحساء جوليان».

- «أوه، شكرًا لك». ورمقته بابتسامة مقتضبة. لم أعرف ماذا تعني «جوليان» بالضبط، لم تستخدم طاهية السيدة تيلي المصطلحات الأجنبية.

لا بد وأن الصبي لاحظ ترددي لأنه أخذ الجزر وقطعه إلى شرائح طولية خفيفة وقال: «هكذا يحبونها هنا».

كانت ابتسامتي ابتسامة امتنان حقيقي هذهِ المرة. أومأتُ له وعدت إلى العمل.

- «أنا نيلسون»، قال لي، «نيلسون بيغز»، وصمت مؤقتًا، بينما كان لا يزال يقطع شرائح الخبز إلى مكعبات، «هل قلتِ إن اسمك هو هيلين؟».

أومأتُ له، وأنا أتساءل في نفسي كيف سأطلب منه مناداتي بـ «بيلا» بدلاً من «هيلين».

- «مرحبًا بكِ في المطبخ يا هيلين. ستجدين أن السيد آنجيلو يدير المطبخ بصرامة وانضباط، ودائمًا

ما يكون صعب الإرضاء ومزاجي كذلك»، وأخفض صوته عندما قال جملته الأخيرة، «ولكن بشكل عام، لا يتطلب العمل الكثير، ما لم يكن لدينا مأدبة رسمية كبيرة، حينها يكون العمل محمومًا. ونحن نأكل جيدًا، ولأصدقكِ القول، إن هذا الجسم النحيل ليس نتيجة نقص التغذية». وابتسم ابتسامة واسعة.

- «هذهِ وبلا شك كمية طعام كبيرة بالنسبة لوجبة غداء. كل هذه الأطباق! ألا تتناول جلالتها عشاءً مناسبًا؟ أم أن هذهِ هي وجبتها الرئيسية؟».

- «على النقيض. نقدم أطباقًا أكثر في وجبة العشاء، تحب جلالتها الطعام، وسرعان ما ستلاحظين ذلك. وإن حدث ولمحتِ جلالتها يومًا ما، سترين أين يذهب كل هذا الطعام».

- «كف عن تعليقاتك أيها الشاب»، جاء صوت السيدة سيمز من الجانب الآخر للطاولة، «ليس من شأنك الحكم على ما تفعله أو لا تفعله صاحبة الجلالة. إذا كانت تحب طعامها، يجب أن تقول لها صحة وهناء. لم يتبقَ في حياتها سوى أشياء قليلة عزيزة على قلبها، تجلب لها السعادة»، وهزت إصبعها السمين علينا وتابعت، «والآن،

اعملا أكثر وتحدثا أقل وإلا سنتأخر كثيرًا. أنت تُظهر مثالاً سيئًا لفتاتنا الجديدة».

غمز لي نيلسون عندما عدنا إلى العمل. تشعر بحال أفضل عندما يكون لديك حليف.

وبحلول نهاية الصباح، لم تجد السيدة سيمز ما تشتكي منه بخصوص عملي. في الواقع، قالت: «أنا متأكدة من أنكِ ستحققين نتائج جيدة هنا يا فتاتي».

همست لها: «أشعر بالغرابة لوجودي بين الكثير من الرجال. هل بدأتِ هنا أيضًا عندما كنتِ شابة؟».

- «أوه لا يا عزيزتي. جئت إلى هنا قبل عدة سنوات. كانت صاحبة الجلالة تزور الليدي مالمسبري حيث كنتُ أعمل طاهية، وأعرَبَت عن رضاها على الطعام الذي قدموه لها. وبالطبع، لم يكن لدى الليدي مالمسبري أي خيار آخر سوى عرض خدماتي على الملكة، والتي بدورها قبلتها بكل يسر. مع أنه، من المضحك أنني عندما وصلتُ إلى هنا، نزلت مرتبتي وأصبحتُ أعمل تحت إشراف الرجال، ولم يسمح لي سوى طهي أبسط الأطباق».

سألتها: «هل تشتاقين إلى مكان عملكِ السابق؟».

- «أجل، في بعض الأحيان. فأنا فتاة ريفية، مثلك تمامًا، وأشعر بأنني محاصرة في المدينة الكبيرة، لكن أمثالنا ليس لديهم رأي يُذكر فيما يحدث، أليس كذلك؟ وعليَّ الاعتراف أن بيئة العمل هنا لطيفة بدرجة كافية في معظم الأوقات، والعمل ليس صعبًا للغاية، ويجب أن أقول، يسعدني وجود امرأة شابة أتجاذب أطراف الحديث معها، فالرجال منغلقون على أنفسهم، والسيدة غيليسبي ليست مصدر سعادة وبهجة تحديدًا».

ألقيتُ نظرة سريعة على الطاولة البعيدة، حيث تقطع سيدة متجهمة الوجه أعواد الكرفس بعنف سياف.

وبينما كنت أخلع مئزري، اقترب مني السيد آنجيلو وقال: «إذا كنتِ مهتمة بمعرفة ما يلزم لتصبحي طاهية مناسبة في هذهِ المؤسسة، أقترح عليكِ دراسة بعض كتب الطبخ لدينا على هذا الرف خلال وقت فراغكِ. ويمكنكِ البدء بالكتاب الذي ألفه ابن بلدي «تشارلز فرانكاتيلي»، كان طاهي الملكة والأمير ألبرت، وابتكر العديد من الأطباق التي أصبحت من أطباقها المفضلة

فيما بعد. خذيه وابدئي بتدوين الملاحظات، يمكنك أن تبدئي بعلم الصلصات البيضاء».

- «أمرك أيها الطاهي». تمتمت وذهبت لجلب المجلد الضخم الثقيل من الرف.

وبعد وجبة عشاءنا، جلست تحت ضوء المصباح الكهربائي في غرفتنا المشتركة وشرعت بالقراءة. وقلت في نفسي: «يا إله السماوات! كيف فكرت بأنني - بجهلي هذا - طاهية جيدة!». وأدركتُ الآن كم علي أن أتعلم. فتصفحت الكتاب صفحة تلو الأخرى، أكثر من أربعمئة وصفة، يتضمن الكثير منها أشياء لم أسمع بها من قبل، صعبة ومعقدة للغاية.

صفحات تلو الأخرى مخصصة للصلصات، وصفحات عديدة لأنواع الحساء المختلفة: حساء طائر الشنقب الكريمي الدسم، وحساء السلطعون الكريمي الدسم على طريقة فيتزاردنج، والذي تضمن إضافة نصف ليتر من القشدة المغلية، وبيوريه الهيليون على طريقة القديس جورج، الذي تضمن ثلاث دزينات من كرات لحم الدجاج المتبل الصغيرة، ونصف ليتر من شرائح لسان أحمر صغيرة. رحمتك يا إلهي!

نقرت بأصابعي بسرعة. ماذا تكون يخنة لُباب

الديك كثيرة التوابل المطبوخة على شكل صلصة بيضاء كثيفة القوام بحق الجحيم؟ أو يخنة حنك الثور كثيرة التوابل؟ في منزل آل تيلي، نادرًا ما كنّا نأكل الأحشاء الداخلية للحيوانات. كان السيد تيلي مغرمًا بالكبد واللحم المقدد، لكن السيدة تيلي تعتقد أن الأحشاء الداخلية هي طعام يناسب الطبقات الدُنيا، مَنْ ليس لديهم المال الكافي لشراء طعام أفضل، لذلك كانت وجباتنا عبارة عن لحم مشوي جيدًا على الطريقة التقليدية، وأرجل ضأن، وقطع وشرائح لحم، وفي بعض الأحيان كنّا نعد فطيرة شرائح لحم وكليات. لقد بدت هذهِ الوصفات معقدة بفظاعة.

«ضع نصف رطل تقريبًا من لُباب الديك في قدر صغير مملوء بالماء البارد، ثم ضع القدر قرب نار خفيفة لإزالةِ الدم القليل العالق فيه، ويجب توخي الحذر ألّا يصبح الماء دافئًا ...»، ثم تابعت القراءة، «وما إن يصبح لونها أبيض ... دلكها بالزبدة ... تطبخ على نار هادئة ... نشفها على محرمة ... قدر صغير، واليخنة كثيرة التوابل مع ملعقة كبيرة من الصلصة البيضاء الكثيفة ببيوريه البصل (صلصة سوبيز) والقليل من صلصة أليماندي ...».

يا إلهي! رفعت نظري عن كتابي ووجدت بقية الطهاة جالسين في غرفتنا المشتركة يقرأون الصحيفة أو يكتبون الرسائل. وتساءلت كيف تعلموا إتقان كل هذه الوصفات؟ ومن دربهم عليها؟ أم أنهم أتقنوها عن طريق الملاحظة العملية؟ لا أتصور أن أيًا من هؤلاء الرجال بنظرته الفوقية سيأخذُ من وقته ليعلمني كيف تصنع صلصة سوبيز. لذا، عدت إلى كتابي والإرهاق والارتباك يزداد مع كل صفحة.

بدأت وصفة حساء السلحفاة بشراء سلحفاة حية زنة 120 رطلاً، ثم تضمنت ثلاث صفحات تعليمات عن كيفية قتلها وإزالة قشرتها. فتمنيت وبكل تأكيد ألا أضطر إلى القيام بهذا، لا أظن أني أجيد قتل الحيوانات، لأنني كدت أصاب بالغثيان عندما وضعت السلطعون في الماء المغلي.

كيف سأتعلم كل هذا؟

رويدًا رويدًا، قلتُ لنفسي. أنا مساعد طاهٍ فحسب وسأتعلم بينما أراقب. وإن تمكن الطهاةُ الآخرين في المطبخ من طبخ كل هذهِ الأطباق، فسأفعلها أنا كذلك.

الفصل الرابع

وفي نهاية اليوم التالي، بدأت أتنفس الصعداء قليلاً. لقد تمكنت من تنفيذ كل المهمات التي أوكلت إلي وتلقيت إطرائين حتى - على نعومة صلصة اللحم والبطاطا المهروسة - لكن مررتُ ببعض اللحظات العابرة المتزعزعة، أولها عندما طلبت مني السيدة سيمز أن أناولها كوبًا من الدقيق، «ناوليني كوبًا من الدقيق يا هيلين». و كنت أهرس البطاطا ولم أستجب لها.

فصاحت بحدّة: «هيلين! استيقظي يا فتاة! ناوليني كوبًا من الدقيق».

نكزني نيلسون الذي كان يعمل بجانبي، وعندما نظرت إلى الأعلى وخدي يحترق خجلاً بعد أن أدركت أنها كانت تحدثني، تداركت الموقف وقلت: «أوه، أنا آسفة». وهرعت لجلب الدقيق.

- «بمَ كنتِ تحلمين؟»، قالت السيدة سيمز وهي تأخذ كوب الدقيق مني، «بشاب، بلا ريب».

- «أوه لا أيتها الطاهية. كل ما في الأمر أني كنت أركز على التخلص من كل التكتلات في هذه البطاطا».

- «حسنًا، عليّ أن أعترف أنكِ تقومين بعمل

جيد مع البطاطا».

عدتُ إلى عملي صاغرة خجلة. المشكلة أنني لم أدرك أنها كانت تحدثني، علي أن أتعلم الرد عندما يُنادون اسمي الجديد، مثل الكلب الذي يأخذونه إلى منزل جديد. ثم، وفي وقت لاحق من نفس اليوم، سألتني السيدة سيمز عن يوركشاير، حيث تعيش أختها الآن.

- «أين تقع ساوربي هول بالضبط؟ ذهبتُ لزيارة أختي مرة واحدة. تعيش في فيلي، بلدة ساحلية صغيرة ولطيفة، لكنها شديدة البرودة بسبب الرياح الشرقية قبالة البحر».

تذكرت أن العنوان كان بالقرب من ليدز وأخبرتها.

- «أوه، لكنها مسافة بعيدة أليس كذلك؟ قرب المستنقعات؟».

- «هذا صحيح. وتصبح كئيبة وباردة عندما تهب الرياح».

- «يمكنني تخيل هذا»، ورمقتني بابتسامة مواساة وتابعت: «وتثلج في الشتاء بلا شك».

- «الكثير من الثلج».

- «أنا لا أحب الطقس البارد. فهو سيء

لتقرحات أطرافي وتورمها. في الواقع، أنا سعيدة لأننا لا نذهب إلى بالمورال في الشتاء. فمنزل أوزبورن هو المكان الذي تقضي فيه الملكة أعياد الميلاد ويقع في جزيرة وايت. هناك الجو لطيف وممتع».

أردتُ أخذ الآثار المترتبة على كلامها هذا بعين الاعتبار فسألتها: «هل نسافر مع الملكة عندما تذهب إلى قصورها المختلفة؟».

- «يذهب بعضنا. تأخذ معها طاقمًا مختزلاً لأنها لا تقيم عادة الكثير من الحفلات والمناسبات في أوزبورن. فهو مكان حصري للعائلة. وفي بالمورال، حسنًا، تستخدم الملكة الخدم المحليين بشكل أساسي، وتأخذ معها السيد آنجيلو وطهاة آخرين لأنه يعلم ما تفضل من طعام».

- «وماذا يحدث للبقية حينئذٍ؟».

نكزتني السيدة سيمز وقالت: «عندما تغيب القطط، تلعب الفئران، إيه؟»، ثم صححت نفسها وقالت: «هذا لا يعني أنهم يسمحون لنا بالهرج والمرج، عذرًا منكِ، لكننا نقضي أوقاتًا مريحة ولطيفة، نُطعم بقية الطاقم، ونجرب صناعة أطباق جديدة قد تعجب الملكة. ونتناول عشاءنا باكرًا ونستريح، ويعزف السيد ويليامز البيانو إذا كان

موجودًا، ونغني معه أحيانًا، أو يقرأ أحدنا للبقية. إنه وقت ممتع حقًا».

وأنا مضطجعة على سريري الضيق في تلك الليلة، تساءلت كيف يمكنني إقناعهم بمناداتي باسمي الحقيقي. تجرأت على ذكر الموضوع للسيدة سيمز عندما كنّا نعمل معًا في تقطيع شرائح اللحم لفطيرة اللحم: «ألا تعتقدين أنه من الممكن أن تناديني باسم الدلع الذي كانوا ينادونني به في المنزل؟».

نظرت إلى الأعلى، والساطور في يدها وقالت: «اسم الدلع؟ ماذا كانوا يسمونكِ؟».

- «بيلا». قلت بخجل.

- «بيلا؟ لا يكون اسمًا لخادمة إلا نادرًا، أليس كذلك؟ منذ متى وهم ينادونكِ بهذا الاسم؟ قطعًا ليس في منزل السيدة التي نسيتُ اسمها؟».

- «أوه لا، ليس في منزل السيدة ساوربي»، قلت بسرعة، «كل ما في الأمر أنني لطالما أحببت اسم بيلا أكثر من هيلين، فاسم هيلين قاسٍ، ألا تعتقدين هذا؟».

تنشقت وقالت: «لا يمكننا اختيار الاسم الذي يعمدوننا به، أليس كذلك؟ فاسمي بالمعمودية ميلدريد، وأعترف لكِ أنه لا يروقني أيضًا،

لكن يؤسفني القول أن اسم هيلين سيلازمكِ يا عزيزتي، حتى تصبحين طاهية مثلي، حينها يمكنكِ تسمية نفسكِ السيدة بارتون».

وهكذا، كان عليَّ أن أضع أي تصوّر في مُناداتي إيزابيلا جانبًا، وأدرب نفسي على أن أصبح هيلين ببساطة.

وبعد عدة أيام، تعلمت أن أجيب عندما ينادونني باسمي الجديد. وبخلاف هذا القلق، لم يكن العمل شاقًا. فعندما لا يكون لدينا واجب تحضير إفطار، كنّا ننهض في السابعة والنصف صباحًا، ويُقدم الأفطار في الثامنة، وعادة ما يكون عصيدة وخبز ومربى وفي بعض الأحيان بيض مقلي أو لحم مقدد. كلفوني بالمهمات البسيطة، ويمكنني التعامل معها بسهولة، بخلاف خطأي الفادح مع الخرشوف، لم أرَ خرشوفًا من قبل ناهيك عن طبخه، ولم أدرك أن علي نزع الأشواك الحادة منه قبل تقديمه. ولحسن الحظ، انتبهوا لخطأي قبل أن أقع عين الملكة.

وكانت المهام التي كُلفتُ بها ضمن حدود إمكانياتي، لكن، لم أتمالك نفسي من النظر بدهشة ورهبة لبعض الأطباق التي تصنع في المطبخ. شيء ما يشبه الأناناس موضوع على

طبق بلوري فاخر، تبين أنه عصيدة طائر الحجل المطبوخة بصلصة غنية في هلام لحي. لقد كانت عملاً فنياً خالصاً.

وعادة ما يعد السيد آنجيلو أكثر الأطباق تعقيداً بنفسه. لمحته يعمل على طاولة مملوءة بعظام دقيقة، فهمست للسيدة سيمز: «ما الذي يعدّه الشيف؟».

ألقت نظرة خاطفة على الطاولة وقالت: «أوه أنه يعد فطيرة القبرة». وعادت إلى تقطيع اللحم.

- «فطيرة قبرة؟ تقصدين طائر القبرة؟ تلك الطيور الصغيرة؟».

سرح فكري بعيداً إلى ذلك اليوم في هامبستيد هيث مع والدي، عندما توقف فجأة ونظرة النشوة تعلو وجهه وأشار إلى السماء وقال: «أصغي، القبرة تغرد».

- «هذا صحيح»، قالت السيدة سيمز كما لو أن هذا موضوعاً عادياً للنقاش، «نحتاج إلى أربعين قبرة من سوق دنستابل لصنع هذهِ الفطيرة، ويجب إخراج العظام منها جميعها قبل طبخها. ويسعدني أن السيد آنجيلو هو من يقوم بهذهِ المهمة ولستُ أنا. لأننا سنكون في ورطة كبيرة إذ وجد أحد أفراد العائلة الملكية عظمة في طعامه».

- «لم تكن لدي أدنى فكرة أنهم يعدون فطيرة من تلك الطيور الصغيرة».

ابتسمت السيدة سيمز ابتسامة واسعة وقالت: «أوه أجل، الملكة مولعة بقبراتها. وفي بعض الأحيان نستخدم طائر الشحرور أيضًا».

سألتها بذهول: «تعنين أن علينا القضاء على أربعة وعشرين شحرورًا لنعد فطيرة؟»،

- «يقولون إن طعمها لذيذ، لكن يمكنكِ تناولها في فصل الشتاء فقط لسبب ما. ويغطون الفطيرة بطبقة من الإسكالوب البقري، وهذا بالطبع ما يجعل طعم أي شيء جيد».

وعادت إلى عملها من جديد بينما حاولت استيعاب أنني سأضطر يومًا ما إلى تعلم نزع عظام تلك الطيور الصغيرة إذا أردت تسمية نفسي طاهية محترفة. توقفت للحظات، هل سأرتقي بالمراتب يومًا ما في هذا المطبخ لأصبح مثل هؤلاء الرجال الذين يهيمنون على كل شيء بوضوح؟ وهل أردتُ أن أكون واحدة منهم؟

قررت أخيرًا أن أتعلم خطوة تلو الأخرى. وفي هذهِ اللحظة، كنتُ سعيدة بتعلم صنعتي.

وطيلة الأسبوع الأول، ما كنتُ لأخمن مطلقًا

أنني أعمل في القصر. ففي كل صباح، ننزل سلماً خلفياً غير مغطى بالسجاد إلى المطبخ ونعمل في عالمنا الصغير. يدخل ضوء الشمس عبر النوافذ العالية، لكننا لم نَرَ سوى السماء ولمحة بسيطة عن الطقس في الخارج. وفي كل صباح، كنّا نسمع حركة أقدامٍ وأوامر تصدر بصوتٍ عالٍ وصوت الفرقة الصُفرية تعزف أثناء سير الحَراس إلى الساحة الأمامية. وكانت هذهِ الإشارة الوحيدة على أننا لسنا في منزل اعتيادي. ولم نَرَ بالطبع أي شخص من العائلة الملكية، ولو حدث وخرجنا خارج القصر، يكون عبر البوابة الصغيرة البسيطة التي تؤدي إلى شارعِ قصر باكينغهام. لكن الطقس تحول عاصفاً خلال ساعة الاستراحة التي لدينا بعد تقديم وجبة الغداء، ولم تكن لدي أية نية في الخروج إلى العالم الخارجي. في الواقع، خرجت مرة واحدة خلال الأسبوع لأبحث عن أقرب مكتب بريد قرب محطة فيكتوريا، حيث رتبت حفظ أي رسائل تصلني في بريدهم الباقي. سيكون لدى لويزا وسيلة للاتصال بي الآن على الأقل.

ومع نهاية ذلك الأسبوع، تمكنت تقريباً من معرفة مَنْ في المطبخ. كان السيد آنجيلو، الإيطالي الكوكني، رئيساً للطهاة، ويعمل تحت

إمرته السيد فرانسيس والسيد رولاند طاهي الحلوى والفطائر، وهما طاهيان محترفان، كان السيد فرانسيس رجلاً كبيرًا في السن، حاجباه رماديان ووجهه عبوس على الدوام، وقد قيل لي أن السيد رولاند عصبي المزاج وحسّاس هو الآخر، وكان هناك أربعة طهاة يعرفون «بالطهاة الأجلاء (اليومَن)»: السيد فيلبس، والسيد ويليام، والسيد أوروك، والسيد فيتش، وهم أربعة رجال أعمارهم غير محددة، ووجوههم شاحبة وذقونهم حليقة، كان من الصعب علي في تلك المرحلة التمييز بينهم، لأن لا أحد منهم كان يعترف بوجودي على ما يبدو. والسيدتان الوحيدتان بينهم هما طاهيتان أكبر سنًا: السيدة سيمز والسيدة غيليسبي. ولم أتمكن من معرفة إذا ما كانت السيدتان أعلى رتبة من الطهاة الأجلاء (اليومَن) أم لا، لكنهم وبلا شك لا يسمحون لهما بتنفيذ الأطباق المعقدة. وكان نيلسون مساعد طاهٍ مثلي، وكان هناك ثلاثة شباب نحيلون ومَرحون بمثل عمري تقريبًا: آرثر وجيمي وفريد.

كان هناك أيضًا ثلاثة مطابخ، وغرفة غسل الأطباق يعمل فيها خادمان، رجل وفتاة تدعى روبي، يقشران البطاطا ويغسلان القدور. ويعمل معظمنا في المطبخ الرئيس الذي يحتوي على

مواقد تعمل بالفحم والغاز، وسفود للتحميص ومشعل فحم لإتمام العمل، لذا، كان المكان دافئًا إلى حدٍ ما على الدوام، وعلى أحد المواقد كان ثمّة قدرٌ مرق عملاق وضعت فيه كل القطع والأجزاء. وقد قيل لي أنه على هذهِ الحالة منذ عشرين عامًا!

أما السيد رولاند، فكان له مطبخه الأصغر الخاص بالكعك والمعجنات، وفيه المسيو دو جاردين العجوز المرح، وهو الحلواني في مطبخه الخاص. فهمت أنه كان في القصر منذ كانت الملكة فتاة شابة، واشتهر بأعماله الفنية بالشوكولاتة، لكن وظيفته الأساسية هي صنع الحلوى المتجلدة التي تعشقها الملكة. وبالإضافة إلى الحاشية المقربة للملكة، علينا إطعام باقي أفراد قصر جلالتها، كأمناء السر المتعددين، والحرس الملكي ووصيفات الملكة، الذين يتناولون طعامهم في غرف طعامهم الخاصة، وأخيرًا الخدم الذين يتناولون طعامهم في غرف طعام الخدم الكهفية ذات التهوية. وهذا يعني تحضير ثلاث وجبات بشكل أساسي، مع أن أفراد القصر يأكلون نفس طعام الملكة في بعض الأحيان. وبالنسبة لبقيتنا، كان الطعامُ بسيطًا وعاديًا إلى أقصى حد: حساء سميك، وفطيرة لحم أو بوديغ، ومعكرونة بالجبنة،

وفطيرة سجق، وأي شيء يُصنع ببقايا قطع اللحم التي لا يمكن تقديمها لأفراد العائلة الملكية. وكانت هذه مسؤولية السيدة غيليسبي التي كانت تبدع فيما يمكنها صنعه من الأجزاء التي لا يريدها أحد.

وفي أوقات الوجبات، علينا أن نخدم باقي الخدم. كالخدم الذين خلعوا زيهم قبل أن يجلسوا على الطاولة، والخادمات بمختلف مستوياتهن، وآخرين بمناصب غريبة ورائعة مثل سيد الأحذية، وسيدة البيّاضات، وآخرين غير واضحة مهامهم. كانوا يتجاهلوننا معظم الوقت، لأننا كادر المطبخ الوضيعين، ذلك لأن الرتبة هي كل ما يهم. وكان علينا أن نقدم لهم الطعام بترتيب الأسبقية، ولا يسمح لنا بتناول الطعام حتى نقدم لهم طعامهم. وذات يوم، جاءت امرأة على وجه الخصوص، أرفع مقامًا من البقية وجلست بعيدًا عند أحد أطراف الطاولة. وبينما كنت أقدم لها العصيدة، نظرت إلى الأعلى نحوي وقالت: «أنتِ جديدة هنا».

- «أجل يا سيدتي».

ابتسمت وقالت: «لا داعي لمناداتي سيدتي، فأنا خادمة هنا، مثلكِ تمامًا. ولا أختلف عنكِ سوى

ببضع مرتبات أعلى السلم. أنا خادمة جلالة الملكة الشخصية ومُلبِّستها. وعادة ما أتناول وجباتي على حدة، لكن جلالتها كانت تقيس فستانًا جديدًا طوال الصباح، واستغرق الأمر أكثر من المعتاد»، وتفحصتني ثم أردفت، «أنتِ فتاة جميلة، ولديكِ أسلوب لطيف. يجب أن تصلي إلى مراتب أبعد لكن انتبهي لنفسكِ. هناك من يغريهم الوجه الجميل والقدّ النحيل مثلكِ، ولستِ بالتحديد في وضع يؤهلكِ للرفض».

ألقيت نظرة خاطفة في جميع أنحاء الغرفة، وأنا أتساءل إلى مَنْ كانت تشير. وعندما عدت إلى غرفة نومي ذلك المساء، تفحصت نفسي في المرآة. قالت أنني «فتاة جميلة» ولطالما فكرت في نفسي على أنّي الفتاة العجفاء المزيلة التي كنتها في السابق. وكانت فكرة أن يراني أحدهم جذابة جديدة عليّ، لأن كادر السيدة تيلي كان يتألف بشكل شبه حصري من النساء، ما عدا البستاني والسائس والحوذي، وكانوا أكبر مني سنًا ولم يعيروني أي انتباه. ولاحظت الآن أن لي عودًا جميلًا ربما وعينان خضراوان واسعتان. كما انتبهت لاهتمام نيلسون بي. ربما ثمّة أمل في مستقبلي.

الفصل الخامس

ذهبت لزيارة أختي في منزل أهل زوجها المستقبلي بعد ظهر يوم الأحد. ولن أصفه على أنه منزل عادي أيضًا، لأنه كان كما قد يصفه والدي «مسخًا عظيمًا»، وهو نسخة طبق الأصل لقلعة من القرون الوسطى مشيدة من الطوب الأحمر، ومكملة بنوافذ رصاصية ومداخن متعرجة وبرج زينة عند أحد زواياه. وفي الداخل، كانت التحف الزهيدة ونباتات الدريقة أكثر مما موجود في منزل آل تيلي بكثير، وأربطة وصرر من المخمل الأحمر. لكن لويزا كانت سعيدة، ويبدو أن والدي بيلي قد أحسنا الترحيب بزوجة ابنهما المستقبلية. وكان لدي انطباع بأن والدة بيلي اعتبرتها صيدًا ثمينًا، فهي وبلا شك ستحب تقديم لويزا لصديقاتها، ابنتها الجديدة العزيزة، قريبة الأستقراطي، لا أقل من هذا. وبدت وكأنها مأخوذة بي أنا أيضًا، أجلستني بجانبها وأمسكت بيدي وسألتني:

- «أخبريني يا عزيزتي، هل ثمة رجل شاب في حياتكِ؟ ألا تلوح في الأفق أية أجراس أعراس؟».

هززت رأسي وقلت: «للأسف لا».

فقالت والدة بيلي: «ليس من الصواب أن تتزوج الأخت الصغرى قبل الكبرى. سيتعين علينا القيام بشيء حيال ذلك، أليس كذلك؟»، ونظرت إلى زوجها وقالت: «بيرت، ارتدِ قبعة التفكير خاصتك. مَنْ مِن معارفنا لديه ابن شاب غير متزوج، فتى مؤهل لطيف؟»،

فقال بيرت: «لا يحضرني اسم أحدهم هكذا دون تفكير مسبق. لكنني سأضع الأمر في الحسبان، كما تشائين».

- «أوه، حقًا هذا غير ضروري»، قلت بعجالة، «فأنا أشق طريقي بنفسي على خير ما يرام».

- «وما الذي تعملينه أيتها الفتاة الشابة؟»، سألني بيرت: «قالت لويزا أنكِ تعملين خادمة منزل. وهذهِ ليست حياة مناسبة لفتاة ذات نشأة حسنة مثلكِ».

- «أنا أعمل طاهية. وأنا أستمتع بالطهي حقًا. أتمنى أن أصبح رئيسة الطهاة يومًا ما».

- «قالت لويزا أنكِ كنتِ ذكية في الدراسة، عندما كنتما معًا في المدرسة».

- «هذا صحيح».

- «لذا يجب أن تفكري في طريقة تحسنين بها

حالك، لا أن تطبخي للناس. لكن لا تقلقي، كما قالت السيدة، سنفكر معًا ونأتي لكِ برجل شاب مستقبله جيد، أيه؟». وغمز لي بعينه.

قالت لويزا وهي ترافقني إلى الباب الأمامي: «في المرة القادمة التي تأتين فيها، سنجرب قياس فستانك. لا يمكنني الانتظار حتى ألبس فستاني. لو أنكِ رأيتِ القماش يا بيلا! سأبدو وكأنني أميرة. وفستانكِ سيكون رائعًا أيضًا».

- «أنا سعيدة جدًا من أجلكِ. ويمكنني رؤية أنهم يحبونكِ بالفعل».

- «بالفعل، أليس كذلك؟» وابتسمت بابتهاج، «من اللطيف أن أحظى بأم من جديد. لم يكن والدي بديلاً مناسبًا عنها، أليس كذلك؟».

أعطيتها العنوان الذي سترسل عليه الرسائل، وعندما رأته عبست وقالت: «لكن لماذا إلى مكتب البريد يا بيلا؟ شعرت بالحرج بما يكفي أمام أهل زوجي عندما اعترفت بأنكِ خادمة منزل، والآن أنتِ لا تخبريني حتى أين تعملين. هل تخجلين من مكان عملكِ الحالي؟».

- «على الإطلاق. كل ما في الأمر ...»، واستنبط عقلي كذبة أخرى بسرعة، لكنني لم

أتمكن من إخبارها لأختي فقلت: «الأمر أبسط بهذه الطريقة، لا تقلقي».

ومن الغريب أنني عندما عدت إلى القصر كنت أشعر باضطراب، لدي وظيفة جيدة، وفرصة لأرتقي في مهنتي، لكن بصرف النظر عن ذلك، لم يكن لدي شيء، لا مكان أسميه منزلي، ولا أحد يكترث لأمري سواء عشت أم متّ. صرفت هذا الشعور عندما انضممت إلى زملائي الطهاة في غرفة طعام الخدم، حول المدفأة الكبيرة.

سألني أحدهم: «ذهبتِ لزيارة أحدهم أليس كذلك؟».

- «أجل، ذهبتُ لرؤية أ ...»، وهممت بقول «أختي» ثم تداركت الأمر، لا يمكن أن تكون لهيلين أخت في لندن. وقلت عوضًا عن ذلك: «رفيقتي الخادمة في منزل الليدي ساوربي في لندن».

- «من اللطيف أن يكون لديكِ أصدقاء هنا»، قالت السيدة سيمز، «قد تشعرين بوحدة ووحشة في مدينة كبيرة جديدة عليكِ، خاصة عندما تكونين فتاة من الريف في الشمال».

أومأتُ لها ولزمت الصمت حكمة.

- «تعالي واجلسي لتناول بعض الشوكولاتة الساخنة»، ناداني نيلسون وهو يربت على المقعد بجانبه.

- «لقد تركتِ انطباعًا جيدًا لدى نيلسوننا»، تمتمت السيدة سيمز ودفعتني قليلاً، «ليس سيئًا إيه؟».

سكبت كوب شوكولاتة ساخنة لنفسي وجلست على المقعد بجانبه. يا إلهي، آمل ألّا أكون قد استدرجت نيلسون لشيء. لقد كان شابًا لطيفًا، لكن أخشى أنني ورثت تفجية والدي الفطرية وطمحت برجل أفضل. ربما بعد عام أو اثنين، قد أتصالح مع وضعي الحالي وأتقبله وأكون سعيدة عندما أخرج مع صبي مثل نيلسون. رمقني بابتسامة عريضة مشجعة وقال: «الطقس شديد البرودة اليوم، أليس كذلك؟».

أومأت له، ولففت يدي حول كوب الشوكولاتة، وشعرت بدفء النار يتسرب في عروقي. كفى أفكارًا متغطرسة. هذهِ هي عائلتي الجديدة، التي رحبت بي هنا، وبدأت أشعر بالانتماء.

وفي صباح اليوم التالي عدت مسرعة إلى غرفتي لأجلب منديلاً نسيته. وبينما كنتُ هناك، نظرت بسرعة خارج نافذتي. كان يومًا مشمسًا، والسماء صافية، وكانت نافذة غرفتي تطل على حدائق القصر. ولدهشتي، لمحتُ عربة حصان تجلس فيها امرأة عجوز مكتنزة وصغيرة، تعتمر قبعة سوداء وتضع على كتفيها وشاحًا أسود. لا بد وأنها الملكة. كنت قد رأيتُ صورتها عدة مرات من قبل، وصورتها على البنس. لكن ما أثار دهشتي أكثر هو الشخص الذي يقف قرب رأس الحصان، يقوده. كان رجلاً داكن البشرة، يرتدي زيًا شرقيًا غريبًا، وسترة من الحرير الوردي الفاقع، وبنطالاً فضفاضًا أخضر، وعمامة صفراء فاقع لونها كذلك. كانت ملابسه تشبه زي ممثل مسرحي. تساءلت عمّا كان يفعله هناك بمفرده مع الملكة.

ثم تذكرتُ أنني صعدت بسرعة لأجلب منديلي، وسأكون في ورطة إذا لم أعُد على الفور. فنزلت كل تلك الدرجات ركضًا وتسللت إلى مكاني في المطبخ. لكنني عجزت عن إخراج ما رأيته من بالي.

- «رأيتُ للتو أغرب منظر في حياتي»، تمتمت

للسيدة سيمز التي كانت تقطع سمك البلايس إلى شرائح بجانبي، «رجل شرقي يرتدي ألوان زاهية، ويقود حصان الملكة - على ما أعتقد - في الحدائق».

عبست وقالت: «هذا المُنشي اللعين!». وشخرت بمذمة.

- «مُنشي؟». لم يكن لدي أدنى فكرة عن معنى الكلمة.

- «هذا ما يسمونه. أعتقد أنه اسم يطلق على الكَتَبة الهندستانيون أو معلمو اللغة هناك في بلده. اسمه عبد الكريم، وهو صديقها الهندي. ألم تسمعي به من قبل؟ أرسلوه رعاياها في الهند هدية ليكون خادم طاولة، لكنه تملقها ليصبح مفضلاً لديها. ويحسب نفسه الآن أحد أمناء سرّها، ويتصرف كما لو أنه أعلى شأنًا منّا. وعلى ما يبدو، لن يقترف أي خطأ في عينها مطلقًا»، هزّت رأسها وتابعت، «لطالما كان الشباب الوسيمون يديرون رأسها، لكن هذا الرجل ليس شابًا ولا وسيمًا في رأيي. لكنها كانت تبحث عمّن يحل محل جون براون بعد وفاته، وقد استغل هذه الفرصة. وهي تعتقد الآن أن الشمس تشرق من رأسها! من الواضح أنه يريها وجهًا غير الذي يظهره لبقيتنا».

وجالت ببصرها حول المكان لترى إن كان أحدهم يسترق السمع، ثم قالت بصوت منخفض: «يأتي إلى هنا ويصدر الأوامر كما لو أنه أحد كبار مستشاريها وليس خادم طاولة بغيض. ويخبرنا كيف نطبخ طعامه الخاص، بكل وقاحة، فهو لا يأكل لحم الخنزير، ويريد أن يعرف كيف تُقتل الحيوانات. ولا أحد يطيقه في القصر سواها، وبالتأكيد هي الشخص الوحيد المهم هنا أليس كذلك؟».

التقيتُ به في وقت لاحق من ذات الأسبوع. هربت لبضع دقائق من العزلة بعد أن أزلنا طعام وجبة الغداء. وأخذتُ كتاب الطبخ الشهير من الرف مرة أخرى وكنت أنوي كتابة بعض الملاحظات لمدّة من الزمن. فانتقلت أبعد من الصلصات والحساء، ووصلت إلى وصفة حساء السلحفاة الشهيرة لكني قررت تخطيها لأن وصولها إلى قوائم الطعام غير محتمل، ولأني لا أنوي ذبح ورفع صدفة سلحفاة بوزن مئة وعشرين رطلا وإزالة أحشاءها. خرجت من المطبخ، فظهر أمامي شخص في الرواق المظلم، لا بد وأنني شهقت، لأنني رأيتُ لمعة جواهر على حرير أحمر كرزي وعمامة زرقاء براقة. كان منشي الملكة فيكتوريا يقف أمامي وينظر إليّ بازدراء.

- «أنتِ، يا فتاة. هل أنتِ خادمة في المطبخ؟».

- «لا. أنا طاهية».

- «هذهِ ليست طريقة ملائمة تتحدثين بها مع أسيادك. نادِني سيدي». قال بلكنة هندية واضحة. وكانت رائحته نفاذة.

فقلت: «أنا آسفة يا سيدي». وشددت على آخر كلمة.

- «اسمعي، لا أرغب في الدخول إلى المطبخ لأنه المكان الذي يطبخون فيه لحم الخنزير. اذهبي على الفورِ وأخبري رئيس الطهاة بأنني لست راضٍ أبدًا. لقد طلبت كاري الدجاج ودال عندما رغبت بضيافة بعض أصدقائي من بلدي، وأردت أن أترك انطباعًا جيدًا، لكن للأسف شعرت بالحرج، إذ ليس للدجاج نكهة، والدال كان مصنوعًا من البازلاء بدل العدس».

انتظرت. فلوّح لي بيد متأنقة فيها خواتم كثيرة وقال: «اذهبي الآن وأخبري هذا الطاهي، وعودي لي بجواب كيف ينوي إصلاح هذا».

بلعت ريقي عندما عدت إلى المطبخ. كان السيد آنجيلو قد أنهى عمله وجلس في غرفة طعام الخدم بجانب النار على كرسي جيد، يقرأ

الصحيفة. اعتذرت عن مقاطعة راحته وأبلغته بما قيل لي. رمى الصحيفة بشدة وقال:

- «لديه الجرأة ليقول هذا أليس كذلك؟ ألا يعلم أنك لن تستطيع إعداد طبق كاري جيد دون إضافة البصل مع التوابل، وبأنني لا أستطيع السماح بالمجازفة أن يتنفس هذا الضيف البصل والثوم في وجه الملكة؟ وما هو أكثر من ذلك، لا أرى لمَ عليَّ أن أكلف طاقمي بعمل إضافي لطبخ طعام خاص لخادم لعين واحد. لا نفعل هذا لأمين سرّها الشخصي وهو رجل نبيل محترم، ولا نفعله لوصيفاتها ذوات الرتب وانكليزيات حتى النخاع، إذاً لماذا بحق الله يجب أن نفعلها له؟ وعدس؟! لا نستخدم العدس، أليس كذلك؟ البازلاء المقشرة كافية بالنسبة لنا ويجب أن تكون كافية بالنسبة له كذلك».

وقفت في مكاني أشعر بالغثيان وأنا أستمع إلى ذلك التقريع المطول ثم قلت: «هل عليَّ أن أذهب إليه وأخبره بهذا يا حضرة الطاهي؟».

- «بالطبع لا»، ووقف، «لا أسمح لطهاة تحت إمرتي بالتعرض للإهانة. سأخبره بنفسي، وسأخبره لو أن الأمر عائد لي، لتناول طعامه مع بقية خدم القصر، في قاعة العشاء هذه، يتبختر في

القصر كطاووس لعين ويعطي لنفسه مقامًا وسموًا. تحتاج تلك العجوز إلى أن تستفيق وترى الحقيقة. لن أتفاجئ إذا كان يسرقها، سنكتشف أن جواهر التاج مفقودة عاجلاً أم آجلاً، وتذكري كلامي».

وخرج غاضباً من الغرفة. رغبت كثيرًا في اللحاق به ورؤية المواجهة بنفسي، وسمعتُ أصواتًا مرتفعة وسرعان ما عاد الطاهي ووجهه محمرًا وقال: «أخبرته شيئًا أو اثنين».

- «ألست خائفًا من أن يطردوك من عملك؟ أخبروني أن لديه حظوة عند الملكة».

- «يا بطتي، تحب الملكة طعامها أكثر منه»، قال هذا بابتسامة عريضة، «أظن أنني بأمان. وعندما تسنح لي الفرصة التالية للتحدث مع مدير الأعمال المنزلية حول القوائم، سأذكر أنه كان يحاول إجباري على طهي البصل والتوابل، وأعلم إنها لا تريد أن تتسرب الروائح إلى طعامها الخاص، وقدور طعامها تتشبع بطعم الكاري».

لم نتلقَ زيارة أخرى من الهندي، ولم أرَ الملكة في الحدائق معه مرة أخرى، فقد أصبح الطقس عاصفًا، ينزع أوراق الشجر ويطيرها من الأشجار خلف القصر، وأحيانًا تدفع الريح زخات المطر على نافذتي بينما أرقد على سريري.

زارنا شخص مثير للاهتمام في المطبخ في وقت لاحق من الأسبوع، رجل كبير في السن ذو مظهر مميز وله لحية مشذبة بعناية. كنت قد رأيت صورًا لأمير ويلز وتساءلت للحظة إذا كان هذا الرجل هو. وكنت على وشك الانحناء له لو لم ألاحظ أن البقية لم ينحنوا. همست السيدة سيمز: «إنه طبيب الملكة، السير جيمس ريد».

وتوقف كل العمل عند دخول هذا الزائر.

- «سيد آنجيلو»، كان صوته عميقًا وهادئًا، وفيه أثر لهجة اسكتلندية، «أود أن أكلمك إذا كنت لا تمانع».

- «بكل تأكيد يا دكتور ريد». مسح الطاهي يديه بمئزره وهو يقترب من الطبيب وقال: «هل ترغب بالجلوس؟ يمكنني إحضار كرسي لك».

- «لا داعي، شكرًا لك. ما أنا على وشك قوله لن يستغرق طويلاً»، وتنحنح ثم أردف: «أود التحدث بخصوص النظام الغذائي لجلالة الملكة. أنا متأكد أنكم لاحظتم أنها تأكل كثيرًا، تتخم نفسها، أجل هذا ما تفعله، ولا تمارس التمارين الرياضية أيضًا. وتقول إن ساقيها لم تعودا قادرتان على حملها، فقلت لها: بالطبع لن تستطيعا فعل

ذلك، فثمّة جسد بوزن كبير فوقهما»، توقف قليلاً وابتسم ثم قال: «والنتيجة أنها تصبح أكثر بدانة يوماً بعد يوم. وإذا استمّر الحال على ما هو عليه فستصاب بفشل في وظائف القلب، وداء السكري، وعسر الهضم، وكل أنواع الأمراض المزعجة، وتصبح عرضة لموت مبكر»، وجال ببصره بيننا ولاحظ أننا تركنا أعمالنا وكنّا نصغي إليه باهتمام. عبس فتظاهرنا بأننا عدنا إلى العمل، ثم تابع: «تقول إن لديها القليل لتعيش من أجله، وعزيزها عبدول هو الوحيد الذي يجلب لها السعادة»، سمعت السيدة سيمز تشخر، «سألتها إذا كانت ترغب في الموت حقّاً، فأجابت بالنفي، ليس لديها أي نية في الموت، مع أن فكرة لمّ شملها من جديد مع العزيز ألبرت كانت مغرية. كما أنها قالت إن السبب الوحيد الذي يجعلها تعتزم البقاء على قيد الحياة هو عدم رغبتها بأن يصبح ابنها ملكاً، فقد كان ضعيفاً وذو مثالب عديدة، وسيهدم الإمبراطورية حالما يتوّج ملكاً عليها»، أنهى حديثه، وكان الصوت الوحيد المسموع هو صوت السكين على لوح التقطيع.

سأله السيد آنجيلو: «ماذا تريدني أن أفعل بهذا الخصوص يا دكتور؟».

- «أجرِ بعض التعديلات على نظامها الغذائي».

تنهد السيد آنجيلو وقال: «ألتقي بمدير الأعمال المنزلية، وأقترح في بعض الأحيان بعض التعديلات على قائمة الطعام، لكن الأوامر تأتي مباشرة منها في أغلب الأحيان. ووظيفتي هي طبخ ما يُطلب مني وبطريقة جيدة».

- «تمامًا»، أومأ الطبيب وتابع، «لكن ربما يمكنك تقليل القشدة والزبدة خلسة في الصلصات والبطاطا المهروسة. وإذا سنحت لك الفرصة لتقدم اقتراحًا، ربما تستبدل البودينغ الثقيل بتفاحة مطبوخة».

ضحك الطاهي ضحكة مكتومة ساخرة وقال: «وهل تستمع إلى اقتراحاتك أيها الطبيب؟».

- «ليس في كثير من الأحيان. أعترفُ بهذا». وابتسم الطبيب.

- «وأنت رجل طب مؤهل بأعلى الدرجات. بالتأكيد لن تأخذ النصيحة من مجرد طاه. كل ما سنحصل عليه هو شكاوى من أن البطاطا المهروسة لا ترقى إلى المستوى المعتاد إذا قللنا القشدة».

أومأ الطبيب موافقًا وقال: «أتفق معك، لن

تكون مهمة سهلة. ولكن، ربما يمكننا تقليل الدسم ولو قليلاً في كل وجبة، وبذا نلغي عنصراً يسبب السمنة. وأنا متأكد من أن هذا القليل يساعد في هذه المرحلة، ولا نرغب في موت ملكتنا الحبيبة، أليس كذلك؟».

- «قطعًا لا»، قال السيد آنجيلو بشكل حاسم، «سنفعل ما بوسعنا يا دكتور. المشكلة أنها معتادة على طريقة حياتها هذه، وهي تعرف ماذا تحب ولن تحاول تجربة أي شيء جديد».

ربت الدكتور ريد على كتفه وقال: «افعل ما بوسعك يا سيد آنجيلو. لا يسعنا سوى المحاولة فحسب». ورحل.

الفصل السادس

عقدنا اجتماعاً بعد رحيل الدكتور ريد. كان السيد آنجيلو متشككًا في قدرتنا على تغيير النظام الغذائي لصاحبة الجلالة دون إثارة غضبها علينا.

سألنا: «أي اقتراحات؟».

وقف الآخرون صامتين بلا حراك، غير راغبين بالمبادرة. فرفعت يدي بتردد وقلت: «دجاج محمر. هل تحب هذا؟ يُفترض أن يكون هذا طعاماً صحياً وغير دسم».

- «لاحظت أنكِ كنتِ تقرأين كتابنا المقدس»، أجاب وعبس بوجهي، «كتاب طبخ أول طاه. هل وجدتِ أي أطباق يمكن وصفها على إنها «بسيطة»؟ إذا كانت دجاجة مشوية، فهي محشوة. ألقِ نظرة على الكتاب وانظري ما يوجد في الحشوات: المحار أو اللحم المفروم أو حتى بعض الطيور الصغيرة بداخلها».

أومأت برأسي بعد أن أدبني على نحو مناسب، لكن لم أقاوم رغبتي في الكلام وأضفت: «وماذا عن الأرنب؟ فيه لحم هبر أيضاً أليس كذلك؟».

- «أرنب؟!»، ونظر إليّ بازدراء وقال: «هذا طعام العامة يا عزيزتي».

- «يمكن لفطيرة لحم الأرانب أن تكون لذيذة. وقد لا تعرف حتى أنه لحم أرنب».

- «هل تحاولين خداع الملكة؟». نظر برعب.

- «لا أحاول خداعها أيها الطاهي. ما لم تسأل عن مكونات الفطيرة، لن نحتاج إلى إخبارها بذلك».

هز إصبعه لي وقال: «يمكنني أن أرى أنكِ فتاة ماكرة تتنكرين تحت مظهر البراءة الخارجي هذا. أيّة اقترحات أخرى مادامت الساحة لكِ؟».

نظرت لما حولي. كان بقية الطهاة يراقبونني باهتمام، وربما ينتظرون أن تسقط فأس السياف على رقبتي. فأخذتُ نفسًا عميقًا وقلت: «كنت أفكر بأن الميرانغ لا يحتوي على الدهون. ربما يمكننا إعداد قطع صغيرة تتناولها جلالتها مع الشاي؟».

هز رأسه وقال: «إلا أنها تحب أن ترى القشدة تنز من بينها. لكن ربما تمكنّا من تقليل كمية القشدة. هل تعرفين كيف تُعدين الميرانغ؟».

- «أجل».

- «ممتاز. يمكنكِ إعداد وجبة على سبيل التجربة لهذا المساء، وسنرى إذا كانت ستعجب الملكة أم

لا».

غمرتني السعادة، لكنها كانت سعادة ممزوجة بالخوف أيضًا، فقد لاحظوني في منصبي الجديد ومُنحت الفرصة لأثبت جدارتي.

حقق الميرانغ نجاحًا. وقيل لي أنني لو تجرأت وصنعت فطيرة لحم الأرانب، قد يقدمها الطاهي خلال وجبة الغداء. ففعلت هذا، وسمعنا أن الدجاج كان طريًا خاصّة في الفطيرة. ولم نقل ما يعارض هذا.

التقيت بلويزا وحماتها والخياطة التي ستصنع فساتيننا خلال استراحتي بعد الظهيرة، وعلمت أنهن اختَرن قماش من المخمل الأزرق الرائع لفستاني، الذي من المفترض أن يكون له رداء مزين بالفراء الأبيض. لا يمكن أن أكون أكثر سعادة، فأنا آمنة في وظيفتي وأختي سعيدة ومستقرة. كان كل شيء على ما يرام.

ألم نتعلم عندما كنا صغارًا المثل القائل: «إذا سار الكبرياء في المقدمة فسوف يتبعه الخزي"؟

كنا منهمكين في تحضيرات فترة منتصف النهار عندما ظهر أحد الخدم عند عتبة الباب. ووقف ينظر لما حوله حتى لاحظه أحد الطهاة وسأله عمّا

يريد.

- «هناك زائر يسأل عن الآنسة بارتون».

رفعت نظري من شرائح اللحم التي كنت أقطعها لأعد فطيرة الغداء، وخفق قلبي بسرعة.

- «الآنسة بارتون؟»، عبس السيد آنجيلو وقال: «لا تستقبل الآنسة بارتون زوّارًا خلال ساعات عملها ويفترض إنها تعرف هذا».

- «لا بد وأنَّ هناك خطأً ما، أنا متأكدة، لا أحد يعرف أنني أعمل هنا ولا أعرف أحدًا في لندن».

قال الخادم: «يقول الرجل الشاب أنه أخوكِ، وأن الأمر طارئ».

- «أخوكِ؟ لديكِ أخ؟ حسب ما فهمت، لا عائلة لديك». واكفهر وجه السيد آنجيلو. كان الأمر مقلقًا إلى حد ما.

شحب وجهي. هل يُعقل أن يكون لهيلين أخ في لندن؟ ألهذا السبب قررت البحث عن عمل في الجنوب؟ حاولت التفكير في عذر يخولني ألا أراه، لكني أدركت أن عليّ رؤيته، فقلت: «أنا يتيمة يا سيد آنجيلو. مات والداي منذ فترة طويلة، وليس لدي أدنى فكرة أن أخي موجود في لندن، أو أنه

يعرف بعملي هنا. لم نرَ بعضنا منذ وقت طويل».

- «أفترض أنه من الأفضل أن تذهبي وتتحدثي معه»، قال السيد آنجيلو بنفاد صبر، «لكن باقتضاب. أخبريه أنه سيكون لديك متسع من الوقت لرؤيته خلال استراحتكِ في فترة ما بعد الظهيرة».

- «أمرك أيها الطاهي». وتبعت الخادم خارج المطبخ وعبر الرواق.

تسارعت دقات قلبي وأنا أحاول السيطرة على أفكاري المذعورة، من غير المحتمل أنّه يعرف بوفاة أخته، سأضطر إلى إخباره بالحقيقة بلطف، وأخبره لمَ سرقتُ هوية هيلين. يجب أن أجعله يتفهم موقفي بطريقة ما وألتمس عطفه.

بدى الطريق عبر الرواق إلى ما لا نهاية. وتدفق ضوء الشمس الساطع من الباب المفتوح. انحنى الخادم قريبًا وقال بهدوء: «إنه ينتظركِ بالخارج. لم أرغب في السماح له بالدخول دون إذنكِ، ولكن إذا رغبتِ يمكنني ...».

فقلت بسرعة: «لا، سأتحدث معه في الخارج».

- «سأترك الأمر لكِ إذًا». ورحل الخادم.

أخذتُ نفسًا عميقًا وخرجت إلى الخارج في هذا

اليوم الخريفي المفعم بالحيوية. كان يقف بعيدًا عن الطريق، على أحد جوانبه، ينتظر قدومي. وكان شابًا نحيلاً يرتدي ملابس مبهرجة إلى حد ما. تقدم نحوي بحذر وسألني: «أنتِ هيلين بارتون؟».

كرهته من النظرة الأولى، وجهه نحيل وماكر، وعيناه تتحركان بسرعة وتعابيره متعجرفة. أتصور أن هكذا سيبدو شكل الثعلب إذا ضلت دجاجة قريبًا جدًا من عرينه.

خطرت لي فكرة، هيلين بارتون ليس اسمًا غير مألوف، سأخبره أنه جاء لرؤية هيلين الخطأ، ولست أخته. أنا هيلين التي عرضوا عليها العمل. كنت لا أزال أشكّل هذه الكلمات في ذهني وأتساءل كيف استلمت أخته رسالة القصر التي كانت مقصودة لي عندما قال: «كيف يعقل أنكِ لا تعطين أخيكِ روني قبلة؟».

فأجبته: «أنتَ لستَ أخي».

فقال: «بالطبع لا. فأنا شقيق هيلين بارتون، هيلين بارتون التي قدمت لهذه الوظيفة، والتي كان من المفترض أن تحصل عليها لولا ...». وترك جملته معلقة.

فأخذتُ نفسًا عميقًا وقلت: «ربما لم تسمع الخبر المروع يا سيدي»، خاطبته بطريقة لائقة مع علمي أنه لا يستحق هذا اللقب، وسمعت صوتي يتخذ نبرة الطبقة العُليا التي كان والدي يتحدث بها عندما يكون متوترًا، «قتلت عربة عمومية «أومنيبوس» أختك في بيكاديللي، وصادف أني رأيتُ الحادث. لقد كان أمرًا مؤسفًا ذاك الذي تعرضت له المسكينة، حاولت مواساتها وتهدئتها وهي تحتضر، وكانت تمسك الظرف في يدها، وكانت قلقة وتوسلتني أن آخذه إلى القصر وأخبرهم بما حصل. وعدتها أن أفعل ذلك، وبعد موتها، علمت أنه دعوة لمقابلة عمل «مساعد طاه» في القصر. وكنت أنا - بالصدفة المحضة - طاهية أيضًا، وكنت أبحث عن طريقة لأهرب من عبوديتي في ذلك الوقت، فبدا وكأنه هدية من السماء. لم تعد أختك المسكينة بحاجة إلى هذهِ الوظيفة، التي يمكنني القيام بها على أكمل وجه»،

قال: «وهكذا تقدمتِ بالطلب باسم أختي»،

- «أجل، فعلت ذلك. وأعلم أن هذا ليس شيئًا مشرفًا لكني لا أستطيع إعادة أختك إلى الحياة، والوظيفة كانت شاغرة وتحتاج مَنْ يشغلها. أعتذر لنقلي هكذا أخبار مأساوية عن أختك»،

هز كتفيه استهجانًا وقال: «صادف أني كنت لا أزال أعمل في منزل الليدي ساوربي في يوركشاير عندما وصلنا خبر مقتلها. فبعد موت والدتنا، قررنا أنا وهيلين البحث عن وظائف في لندن، لنجرب حظنا في هذهِ المدينة الكبيرة، وعندما حصلت هيلين على فرصة مقابلة لتعمل في القصر، كان هذا بمثابة ضربة حظ مذهلة لكلينا، وقد اتفقنا أن تؤمّن لي وظيفة في القصر الملكي أيضًا، ثم سمعنا بأنها قُتلت»، توقف فجأة وسحب الهواء عبر أسنانه ثم تابع: «تخيلي دهشتي عندما وصلتُ إلى لندن وسمعت أن الآنسة بارتون تعمل الآن في القصر. فكرت أنه من الأفضل أن آتي وأرى بنفسي»،

- «أعتذر إذا سبب الأمر إزعاجًا لك يا سيدي، فأنا لم أقصد أي أذى. لقد ماتت أختك وأنا طاهية ماهرة وهم راضين تمام الرضا عن عملي»،

- «ولِمَ لا تقولين الحقيقة وتفصحين عن اسمك؟»،

- «لأنني كنتُ أعمل لدى امرأة حاقدة تقدر خدماتي ولا تريد أن تخسرني. أخبرتني أنني إذا حاولت تركها، لن تعطيني أية تزكية. لقد كنتُ محاصرة في وضع لا أحسد عليه، وبدت هذهِ

الفرصة وكأنها المعجزة، حصلت أخيرًا على مهرب. أنت تقدر موقفي، أليس كذلك؟».

كان لا يزال يبتسم في وجهي بتكلف، فقررت أنه ابن عِرس أكثر مما هو ثعلب. تلك العينان الحاقدتان البغيضتان الغامقتان تتحركان بسرعة وهو يتفحصني.

- «ولم تخبريهم بالحقيقة هنا مطلقًا؟».

- «كيف سأخبرهم؟ سيطردونني إذا فعلت ذلك».

- «وماذا تظنين سيحدث لو أخبرهم شخص آخر؟».

حدقت في وجهه لمدّة طويلة. وكانت الرياح تعصف بأوراق الشجر وتحملها بعيدًا في الفناء الأمامي وتهدد بخلع قبعة الطاهي من على رأسي. فوضعت يدي لأثبتها وقلت: «يبدو أنكَ الشخص الوحيد الذي يعرف الحقيقة».

- «هذا صحيح»، وابتسم بتصنع، «أنا الوحيد، أليس كذلك؟ وما الذي يمنعني من الإسراع فورًا وإخبارهم بالحقيقة».

قلت بعبوس: «لا أظنني أفهم قصدك. لماذا قد ترغب في فعل هذا؟ أنا آسفة حقًا بشأن ما

حصل لأختك، آسفة بالفعل. لقد صدمتني رؤية جسدها راقدًا هناك، لكني لا أستطيع إعادتها إلى الحياة ولم آخذ أي شيء منها».

- «هل أنتِ متأكدة؟»، ورفع حاجبه، «هل تعرفين بمَ أفكر في هذهِ اللحظة؟ أعتقد أنكِ ربما لم تكوني الشخص المتفرج الذي زعمتِ أنكِ كنتِه، وإنما أنتِ من دفعها تحت العربة العمومية تلك».

حدقت في وجهه فاغرة الفم ثم قلت: «يا له من شيء سخيف لتقوله. أنا لا أعرف أختك حتى، ولم أقابلها مطلقًا، ولن أفعل شيئًا يؤذي إنسانًا آخر بكل تأكيد».

طوى ذراعيه على صدره وقال: «اسمعي، أعتقد أن هيلين ربما جاءت إلى لندن، وربما جلستما جنبًا إلى جنب في أحد المقاهي. ولحماسها بشأن وظيفتها الجديدة، أخبرتكِ بسبب قدومها إلى هنا، فقررتِ أن تغتنمي فرصتكِ، وتبعتِها إلى بيكاديللي ودفعتِها أمام العربة في اللحظة المناسبة».

قاومتُ غضبي وذعري وأجبته: «كيف تجرؤ على اقتراح شيئًا كهذا؟ قلت لك، لم أقابل أختك قطّ. لمَ قد أكذب عليك؟».

- «سبق وقلتِ كذبة كبيرة مؤخرًا على مايبدو»،

وابتسم بتكلف مرة أخرى وقال: «أظن أن الشرطة ستكون مهتمة كثيرًا بسماع قصتي، ما رأيكِ؟ تقتلين أختي، وتأخذين مكانها، وتعملين في القصر بذرائع زائفة؟ وإن صادف وظهر شاهد رآكِ تدفنينها؟ حسنًا، أغلب الظن أن حبل المشنقة سيلف على رقبتكِ على أقل تقدير، أليس كذلك؟».

كان قلبي يدق بسرعة لدرجة كنت أتنفس بصعوبة. لجاهدت كي أبقى هادئة، أو على الأقل أن أعطيه الانطباع بأنني كنت هادئة وقلت: «لستُ أفهم. هل تهددني؟ هل تحاول ابتزازي؟ لأني أخشى أنك تضيع وقتك، إذ لا مال لدي ولا عائلة ولا أقرباء، كنتُ خادمة معدمة مثل أختك تمامًا».

- «طريقة كلامك تقول العكس. في الواقع، لا تبدين مثل خادمة على الإطلاق».

- «لقد كان والدي رجلاً نبيلاً ووالدتي امرأة محترمة، لكنهما توفيا وأصبح لزامًا عليّ أن أعيل نفسي، وأصبحتُ خادمة عندما بلغت الخامسة عشر. عملتُ في البداية خادمة ثم أصبحتُ طاهية، وكانت حياتي صعبة وقاسية، مثلك تمامًا، ولا يمكنك لومي على اغتنام الفرصة الوحيدة التي

قد تسنح لي، أليس كذلك؟».

- «لا، لا ألومك».

- «إذًا ماذا تريد مني؟». أصبح صوتي حادًا ومتوترًا.

- «أظن أن هناك طرق يمكنك مساعدتي بها لتعزيز طموحاتي وتطلعاتي».

ضحكت بتوتر وقلت: «أنا أدنى مساعد طاهٍ هنا يا سيد بارتون، وليس لدي أي نفوذ على الإطلاق. هل أنت طاهٍ أيضًا؟».

- «أنا؟»، وهز كتفيه استهجانًا ودسَّ كفيه في جيوبه وقال: «كنت عدة أشياء. بدأت عملي ماسحًا للأحذية، وتسلقت طريقي لأصبح خادمًا، ثم وصيفًا، وأفكر في العمل في القصر الملكي أيضًا. لا أمانع العمل في وظيفة دنيا من جديد إذا لزم الأمر، لست متكبرًا. في الواقع، أتمنى العمل لدى أمير ويلز، يبدو أنه الرجل الذي قد تتوافق أفكاره معي، وهو رجل حر وبحوزته الكثير من المال أيضًا، أو هكذا يقولون».

- «ولِمَ لا تتقدم بطلب إلى قصره لمعرفة إذا كان ثمّة وظيفة شاغرة؟».

هز كتفيه استهجانًا وقال: «على عكس أختي،

لم آتِ ومعي توصيات رنانة. فقد حصل خلاف بسيط بيني وبين بعض الخدم. لقد كانت الطفل المدلل للعائلة، ودائمًا ما كانت تفعل كل شيء على أكمل وجه، أما أنا، ليس كثيرا، ولهذا يا آنسة مهما كان اسمكِ، يمكن أن نساعد بعضنا أنا وأنتِ، أنا أسكت عن خديعتكِ الصغيرة هذه، وأنتِ تتوسطين لي لأحصل على عمل لدى العائلة الملكية».

- «أخبرتك مسبقًا يا سيد بارتون، لا أتمتع بأية أفضلية، ولم ألتقِ بأحد من أفراد العائلة الملكية بعد. فكيف تتوقع مني أن أتوسط لك؟».

- «ستجدين طريقة، أنا متأكد من ذلك، وسأعطيكِ مهلة حتى نهاية السنة، ثم سآتي إلى القصر والحقيقة بجعبتي، وقد أقرر الذهاب إلى الشرطة مع نسختي مما حدث لأختي»، وسحب يده من جيبه فأخرج قطعة ورق منه وقال: «هذا عنوان إقامتي. سأكتبُ لكِ على عنوان القصر في حال غيرتُ مكاني. وسأتطلع بلهفة لسماع أخبار جيدة منكِ في المستقبل القريب».

فقلتُ له: «ماذا لو كشفتُ زيفك وخداعك؟ ماذا لو ذهبت إلى الداخل وقلت إن هناك رجل يضايقني؟ ادّعى أنه أخي، لكنه في الحقيقة ليس

كذلك، وإنما شاب كانت لديه آمال بالارتباط بي ولم يتقبل الرفض، والآن يحاول أن يسبب لي المتاعب. من تعتقد أنهم سيصدقون؟».

همّ بقول شيء، فتح فمه ثم أغلقه مرة أخرى. ثم قال أخيرًا: «أعتقد أنهم سيصدقونني».

- «أوه، ولماذا؟».

تصنع الابتسام مرة أخرى وقال: «لأني جئت وبحوزتي الدليل. لدي صورة تجمعني بهيلين، التقطت خارج ساوربي هول، وقد كتبت والدتي الورعة عليها: هيلين وروني، في اليوم الذي بدأ فيه العمل لدى السيدة ساوربي. ونظرة واحدة على تلك الصورة، كفيلة بأن يميز أي شخص أنكِ لا تشبهين هيلين»، ثم استدار وبدأ يمشي وقال: «سأتوقع أخبارًا جيدة منكِ قبل نهاية العام على أبعد تقدير».

ولم ينظر إلى الوراء عندما فتح البوابة الصغيرة في جدار الفناء الأمامي وترك الريح تغلقها خلفه. وقفت للحظات في هدوء الرواق المريح، أحاول استعادة رباطة جأشي. أعتقد أنني عرفت منذ اللحظة الأولى أن ما أفعله كان خاطئًا، وخلال محاولتي الهرب من واقعي بأي ثمن، أغفلت الإصغاء لصوت ضميري، ولم أتوقع أن

أعاقب على كذبتي، وها قد حلّ يوم حسابي. «وَتَعْلَمُونَ خَطِيئَتَكُمُ الَّتِي تُصِيبُكُمْ» هذا ما علّموه لنا في الكنيسة عندما كنتُ أذهب مع أمي إلى القداس. لكنها بدت في حينها خديعة غير مؤذية، وكما قلتُ لروني بارتون، لم أؤذِ أحدًا، ففي الواقع، فعلت للقصر معروفًا عندما قدّمتُ لهم طاهية جيدة، وها أنا الآن محاصرة مرة أخرى. فإذا ذهب إلى الشرطة وأخبرهم بقصته المختلقة تلك، ربما يصدقونه، ويعتقلونني ويحاكمونني بتهمة القتل.

وإذا لم أتمكن من تنفيذ ما يريد، وأخبرته بأنني فعلت ما بوسعي، هل سيرضيه هذا؟ المشكلة أنني أشك بوجود طبيعة طيبة يمكنني التماس عطفها داخله، من الواضح أنه لم يكن شخصًا مستقيمًا، وربما كان شوكة في خاصرة هيلين وسبب هروبها كل هذه المسافة إلى لندن. لكن، ما يطلبه كان مستحيلاً، يمكنني الذهاب إلى مدير الأعمال المنزلية للقصر وأخبره أن أخي يبحث عن عمل، لكنهم لن يقبلوه إلا بوجود أعلى التوصيات حتى لو زكيته بنفسي. على الأقل، لدي مهلة حتى نهاية العام، شهران تقريبًا، لأجد خطة هرب مناسبة.

أخذت نفسًا عميقًا أكثر من مرة، وعدّلت قبعتي

وعدت إلى المطبخ من جديد، فرمقني الشيف بنظرة سريعة لكنه لم يتفوه بكلمة عندما عدت إلى مكاني بجانب السيدة سيمز.

فقالت السيدة سيمز: «تبدين شديدة الشحوب يا فتاتي، هل كل شيء على ما يرام؟»، وعندما لم أجبها على الفور تابعت: «ألم تسرّكِ رؤية أخيكِ؟».

- «ليس تمامًا»، تمتمت.

- «أزعجتكِ رؤيته»، ولم يكن ما قالته سؤالاً.

- «لم نتقابل منذ مدّة طويلة، ولم نكن على وفاق تحديدًا».

- «وماذا أراد منكِ؟ المال؟».

- «لا، لا شيء من هذا القبيل، كل ما في الأمر أنني لستُ مسرورة لمعرفتي بأنه لحقني إلى لندن».

- «على الأقل لا يمكنه إلحاق الأذى بكِ هنا، أنتِ بأمان وكأنكِ وسط عائلتكِ هنا في القصر».

فابتسمت لها بوهن.

اقترب نيلسون وقال: «وإن حاول أحدهم إزعاجكِ يا آنسة هيلين، ما عليكِ سوى إخباري».

ولم أنتبه أنه كان يسمع حديثنا. فابتسمت له ابتسامة امتنان واسعة وقلت: «أنت طيب حقًا».

- «لا داعي لذلك، فنحن عائلة هنا، نعتني ببعضنا، ولا يهمني إذا كان أخوكِ، لن أسمح له بإزعاجكِ، وإلا سيتعين عليه مواجهتي».

خطرت على بالي فكرة رائعة، يمكنني إرسال نيلسون، ربما برفقة بعض أصدقاءه الأقوياء لترهيب روني بارتون ليتركني وشأني، لكن، حينها سيخبرهم روني بالحقيقة وسيعرف نيلسون أنني كذبت عليه، وقد يغير هذا من مشاعره تجاهي. تركت الفكرة وعدت إلى العمل وبدأت أقطع بسرعة لدرجة طارت قطع البطاطا عبر الطاولة، كما لو أن كل قطعة منها كانت رقبة روني بارتون.

هجرني النوم ليلتها، وكان المطر يتساقط عبر نافذتي والرياح تعوي عبر المداخن، كما لو أن العالم كله قد علق في لغطي وهياجي، قلتُ لنفسي بأن لدي طريقة للهرب، يمكنني قبول عرض أختي اللطيف بالسكن مع عائلة بيلي، لا يعرف روني بارتون اسمي الحقيقي، ولا يمكنه اقتفاء أثري، ثم أنني لن أكون ذات نفع له عندما أغادر القصر. تمعنت في تلك الفكرة، هل يمكنني فعلاً تحمل هكذا حياة؟ سأكون الأخت العانس التي يُشفق

على حالها، وستنشغل والدة بيلي في البحث عن عريس مناسب لي، وكانت فكرتها عن «المناسب» تختلف عمّا يجول في بالي، لكن، هل هذهِ الحياة أفضل من حياة أجد فيها نفسي في المحكمة متهمة بقتل هيلين بارتون، وأنا أعلم أنني في نظر هيئة المحلفين لستُ سوى كاذبة محتالة؟

استلقيت أحدق في الظلام الدامس ولا حل يلوح في الأفق أمامي. لم تكن عائلة بيلي سيئة، صحيح أنهم ليسوا من طبقة أصولي الاجتماعية، لكنني أنا أيضًا لم أعد أنتمي لهذهِ الطبقة. لقد قبلت لويزا بانحطاط وضعها الاجتماعي بسعادة تامة. لماذا أجد صعوبة كبيرة في الاعتراف بأننا الآن ننتمي إلى الطبقة العاملة ولسنا أرستقراطيين؟

يمكنني أن أستأنف تعليمي، كما اقترحت لويزا، ويمكنني التدرب لأصبح أستاذة. أبهجتني هذهِ الفكرة قليلاً حتى ذكّرت نفسي بأنني أجد شغفي في الطبخ. لقد أحببت الطبخ، وأنا سعيدة للغاية بوظيفتي الحالية، ولا أرغب في التخلي عنها، ومعها أي فرصة لمواصلة تعلّمي في المطبخ، والأهم من ذلك كله، كرهت أن أترك ابن عرس لزج مثل روني بارتون يتفوق عليّ. لن أهزم بدون مقاومة.

الفصل السابع

حاولت أن أضع كل أفكاري بروني بارتون جانبًا، وانخرطت في عملي بحماس. وأثنت عليّ السيدة سيمز والسيد آنجيلو بعد نجاح الميرانغ الذي صنعته. واقترح السيد آنجيلو على الشيف رولاند بأنه قد يرغب في استخدامي مساعدة له في صنع الكعك والمعجنات. وكنت قد لاحظت مسبقا أن الشيف رولاند كان شخصًا سريع التوتر، رجل فرنسي يشعر بالإهانة بسرعة. وكان ينظر إليّ وكأنني شيء قبيح وجده في عقب حذاءه. أعاد رأسه إلى الخلف بفظاظة وقال: «هل تلمح أن ربيع العمر قد فاتني، ولهذا أحتاج إلى شخص يساعدني؟»،

- «على العكس تمامًا»، قال السيد آنجيلو، «بكل بساطة، فكرت بأن هذهِ الفتاة الشابة لديها مستقبل واعد لتصبح طاهية تختص بالمعجنات، ويمكنها تعلم الكثير من خبرتك»،

خفّت حدة تعابير السيد رولاند وقال: «آه حسنًا، في هذهِ الحالة ... أفترض أن بإمكاني أن أعلِّمها شيئًا أو اثنين شرط ألا تعترض طريقي»،

قلت باحترام بالغ: «أوه لا يا سيد رولاند، أريد

التعلم بالفعل وسأكون في غاية الامتنان لك».

وقف ينظر لي ولفترة طويلة ثم تنشق وقال: «حسناً، لنجرب، ونرى كيف تجري الأمور».

تمتم نيلسون عندما عدتُ إلى مكاني في الطاولة المجاورة له: «أنا لا أحسدك على العمل معه، فهذا الشخص مزاجي ومعتد بنفسه كثيراً. لكن من الجيد أن السيد آنجيلو يرى أن لديكِ إمكانيات».

توردت خجلاً لأني أدركت أن نقلي يعني أنني تجاوزته، وقلت: «أوه أنا آسفة. لم أقصد أن أدفع نفسي إلى الأمام»، وتلعثمت «أؤكد لك أنني لم أفعل شيئاً لأحصل على الأفضلية».

ضحك وقال: «لا تزعجي نفسكِ، فأنا أعرف مؤهلاتي، ولا أعتقد أنني سأتمكن أبدًا من الحصول على خبرة في المعجنات. لذا، حظًا طيباً لك»، وانحنى قريباً مني وقال: «أنتِ فتاة مميزة حقًا، تعلمين هذا. اسمعي، ما رأيكِ في الذهاب في نزهة معي بعد ظهر الأحد القادم؟ قد نتناول الشاي في مكان ما، ونأكل شيئاً ليس علينا طهيه؟».

كان ينظر إليّ بتفاؤل. ماذا دهاني! كان صبياً طيباً، كيف يمكنني أن أكون متعجرفة كفاية

لأرفض طلبه؟

- «أود حقًا ذلك، لكن ...» وبدأت بالكلام فرأيت وجهه يبهت. كنت على وشك القول إن زواج أختي قريب ولدي جلسة قياس فستان وصيفة الشرف. لكنّي ابتلعتُ كلماتي في آخر لحظة، بالطبع، ليس لهيلين بارتون أخت.

قال بسرعة: «لا بأس، أتفهم هذا».

- «لا، أنت لا تفهم»، ونظرت إلى عينيه الزرقاوين الفاتحتين وقلت: «لدي صديقة ستتزوج»، وتابعت كلامي وأنا أحاول أن أبقى قريبة من الحقيقة ما أمكنني، «وأنا أساعدها في ترتيبات زواجها. هي تعتمد عليّ».

- «لم أعلم أن لديكِ أي أحد في لندن»، قال وهو لا يزال يشعر بعدم ارتياح، «اعتقدت أنكِ أتيتِ من الشمال».

- «إنها أحدى أسباب رغبتي في القدوم إلى لندن، هي الشخص الوحيد المقرب لي في هذا العالم، لقد قضينا طفولتنا معًا، وعندما علمت بأنها ستتزوج هنا، خضت المجازفة الكبرى ...».

أصبحت ملامحه أقل حدة وقال: «أتفهم ذلك. ومتى موعد هذا الزواج؟».

- «في غضون أسبوعين. وبعد ذلك، سيسعدني قضاء أمسية برفقتك».

- «ستفعلينها؟». وأشرق وجهه.

- «أجل».

كانت ابتسامته الواسعة لا تزال مرسومة على وجهه عندما عاد إلى عمله. ما الذي فعلته؟ تساءلت عندما بدأت في التقشير والتقطيع. لقد بدت لويزا سعيدة بما يكفي بمستقبلها، بأي حق أريدُ ما هو أفضل لنفسي؟ ثم قررت أن الأمر ليس كما لو أنه يريد الزواج مني. ربما، هو أيضًا أراد قضاء بعض الوقتِ مع رفقة طيبة في أيام إجازته، فهو يعمل وحيدًا بعيدًا عن المنزل، وقد أستمتعُ بقضاء فترة ما بعد الظهيرة مع صديق.

أقيم حفل زفاف لويزا بعد ظهر يوم ممطر من شهر نوفمبر. نُقِلنا تحت المظلات من العربة إلى الكنيسة، بينما هددت الرياح بقلب تلك المظلات من الداخل إلى الخارج. بدت لويزا جميلة وشابة في خمارها الطويل، وأزالت الطريقة التي ابتسمت بها لبيلي أي مخاوف قد تراودني. لقد أحبته، وكان ينظر إليها بالنظرة العاشقة ذاتها. فشعرت بالغيرة فجأة، لم ينظر لي أي صبي بهذهِ الطريقة، وتساءلتُ ما هو شعور الوقوع في الحب؟

وكيف سأحظى بفرصة لأقابل شخصًا يعني لي كل شيء في العالم؟

وأنا أشاهد مراسيم الزواج، غمرتني موجة مشاعر متضاربة، كنت قد كبتُ مشاعري عندما بدأت عملي في الخدمة، كلها عدا الغضب، وربما الخيانة، أجل، الغضب والخيانة. شعرت بأن والدي خذلني بأسوأ الطرق، وسرق مني طفولتي وكرامتي. لم يحاول العثور على عمل متواضع لنفسه، ولم يكن يتقبل فكرة انحدار مستواه إلى ما دون طبقته الاجتماعية، لكنه كان مستعدًا لبيع ابنته إلى العبودية. شعرت بالدموع تترقرق في عينيّ. ربما قسوت عليه في حكمي، وربما كان وضعه الصحي أسوأ مما توقعناه، وسمم الكحول كبده بالفعل. ووجدت أنني وفي أعماقي أكنّ الحب والغفران للويزا، وبارقة أمل لمستقبلي كذلك. سأصبح طاهية من الدرجة الأولى، وقد أقابل يومًا ما رجلاً ينظر لي بالطريقة التي ينظر بها بيلي إلى أختي في هذهِ اللحظة.

توقف المطر بعد انتهاء المراسيم ما يكفي ليسمح لنا بالتقاط صور على درجات الكنيسة. ثم أعادونا بعد ذلك إلى منزل بيلي لتناول وليمة إفطار حفل الزفاف. كنت سعيدة لأنني لم أستسلم لمخاوفي

وأطلب العيش مع لويزا في بيت أهل زوجها، عندما وجدت أن مكاني كان بجانب ابن عم بيلي على المائدة الطويلة. كان صبياً نحيلاً تملأ البثور وجهه يدعى ألجيرنون، وتسميه والدة بيلي «ألجي العزيز». مرت في بالي ذكريات المدرسة وتذكرت أن «ألجي» اسم طحالب تطفو فوق سطح البرك. ووجدته غير جذاب بنفس القدر، خاصة عندما كان يزدرد طعامه ويقضمه بصوتٍ مسموع.

- «يعمل ألجي محاسباً في خطوط السكك الحديدية»، قالت والدة بيلي ودفعتني بخفة، «لن تحصلي على أفضل من هذا».

قلت في سري: «بلى يمكنني الحصول على أفضل منه». واستأذنتهم بذريعة حاجتي لمساعدة لويزا في تغيير فستان الزفاف إلى ملابس السفر. ثم انطلقت في العربة إلى محطة بادينغتون لتقضي شهر عسلها في أحد فنادق توركوي.

قلت لها وأنا أعانقها: «أتمنى لكِ وقتاً رائعاً».

فهمست: «أتمنى ذلك. أنا مرعوبة في الواقع، لكنني أتوقع أن كل شيء سيكون على ما يرام، فبيلي لطيف، أليس كذلك؟ سيكون لطيفاً معي».

- «بكل تأكيد. وسيكون لديكما الوقت الكافي

لتتعرفا على بعضكما أكثر».

- «أجل»، وأمسكت بيدي، «وبعد الآن، لن يعود كل شيء كما كان في السابق، أليس كذلك؟».

- «أجل. لن يعود». ووقفنا ننظر إلى بعضنا بتوق وحزن، ربما كانت تتذكر - كما أتذكر - تلك الأيام الخوالي، عندما كنا صغارًا ووالدتي على قيد الحياة، نتكور بجانبها وهي تقرأ لنا كتابًا، أو عندما كانت تعزف على البيانو ونرقص على أنغامها. وكأن وقتًا طويلاً قد مر.

وهكذا، ذهبت لويزا في شهر عسلها، وعدت إلى القصر. تسللت مبتعدة بينما انشغل الجميع برمون حبيبات الرز على الزوجين المغادرين، قبل أن أضطر إلى رؤية ألجي من جديد. وعندما وصلت إلى مدخل الخدم، كان الظلام حالكًا والمطر يصب بغزارة. وكنتُ أسير ومظلتي مائلة إلى الأمام وأنا أصارع الريح، عندما ظهر أحدهم أمامي. وكانت قدماه كل ما تمكنت من رؤيته، فتوقفت، وتوقعت أن يتنحى هذا الشخص عن طريقي، وعندما لم يفعل، نظرتُ إلى الأعلى وإذا بي أرى روني بارتون يبتسم بتكلف في وجهي.

- «قضيتِ يومًا ممتعًا في الخارج؟ أراكِ تحملين

حقيبة سفر، أتساءل أين كنتِ؟ فقد قلتِ إنكِ لا تعرفين أحدًا في لندن».

- «هذا ليس من شأنك. تنحَ جانبًا من فضلك وكف عن مضايقتي».

- «نهاية العام تقترب»، وانحنى ليقف تحت مظلتي ووضع وجهه على بعد بوصات من وجهي وقال: «آمل أنكِ تعملين بجد على المهمة الصغيرة التي كلفتكِ بها».

- «ارحل واتركني وشأني». كنت متعبة وغاضبة.

حاولت دفعه جانبًا فأمسك معصمي بقوة غير متوقعة ولواه إلى الخلف وهسهس قائلاً: «لا تحاولي التخلص مني يا فتاتي. إياك ونسيان أنني أحمل حياتكِ على كفي. هل سبق لكِ ورأيتِ أولد بيلي؟ وماذا عن سجن هولواي؟ قيل لي أنه ليس مكانًا لطيفًا، والمشنقة أسوأ منه بطبيعة الحال، لكن ميتتها سريعة على الأقل، سقطة ثم كسرة عنق ثم وداعًا».

- «هيلين؟».

لم أسمع وقع خطوات أقدام أحدهم خلفي. استدرت، ثم صحت: «نيلسون». فخرج روني من

تحت مظلتي.

- «هل أنتِ بخير يا هيلين؟ هل يسبب لكِ هذا الرجل أي إزعاج؟».

- «أنا سعيدة حقًا برؤيتك يا نيلسون»، وشبكت ذراعي في ذراعه وقلت: «هلّا أخذتني إلى الداخل لطفًا؟».

- «بكل سرور». ونظر نيلسون إلى روني بارتون الذي تراجع عدة خطوات إلى الوراء وقال: «اتركها وشأنها، هل تفهمني؟ هيا ارحل، بسرعة».

- «حسنًا، فلتهدأ. سأرحل، الآن على الأقل». قارن روني نفسه بنيلسون الأطول منه بكثير واستدار ليرحل. أخذ نيلسون حقيبة سفري وفتح البوابة وسمح لي بالمرور قبله.

- «هل أخبرَتكَ بالحقيقة»، صاح روني خلفنا، «أراهن إنها لم تفعل».

أغلقت البوابة، ووصلنا إلى الباب. فأغلقت مظلتي التي تقطر ماءً ودخلت إلى الداخل وأنا أرتجف.

فسألني نيلسون: «مَنْ كان هذا الرجل؟ هل هو خاطب رفضتِه؟».

- «لا، إنَّه أخي، لكننا لسنا على وفاق، وأنا أحاول البقاء بعيدة عنه».

- «ماذا يريد؟ كان يطلب المال، أليس كذلك؟»».

- «لا. لم يطلب المال، أراد مني خدمة لم أستطع إسداءها له. وهو لحوح بشأنها».

- «لا تقلقي. أنتِ بمأمن منه تمامًا هنا، فأنتِ بين أصدقائكِ»، ثم قال ونحن نشق طريقنا عبر الممر إلى الدرج: «ماذا كان يقصد بقوله إخباري بالحقيقة؟»».

ماذا عساي أن أقول؟ خطر ببالي أنني أستطيع إخبار نيلسون بما فعلته بالضبط. سيتفهم، لكنني أدركت أنني لا أستطيع أن أثقل عليه بسر لا يمكنه مشاركته مع بقية طاقم المطبخ، وقد أعرِّض وظيفته للخطر في حال كشفت كذبتي، لا، عليَّ الاحتفاظ بسري لنفسي.

فقلت: «شيء لا أستطيع إخبارك به في الوقت الراهن. ليس صادمًا ولا خطرًا، أقسم لك. لكنه مجرد شيء يخص حياتي السابقة لا يمكنني مشاركته معك بعد».

نظر إليَّ بجدية، تلك العينان الزرقاوان الصافيتان

كانتا مضطربتان وقال: «هل أنتِ واقعة في مشكلة ما يا هيلين، لأنه إذا كان الأمر كذلك ...». وتلاشى صوته.

- «لستُ واقعة في مشكلة بالطريقة التي تفكر فيها، إنّه مجرد شيء محرج يجب تسويته، يتعلق بأخي، من فضلك تي بي يا نيلسون، لم أفعل أي شيء من شأنه أن يحط من قيمتي في نظرك، أقسم لك».

- «بالتأكيد لم تفعلي ذلك، فأنتِ فتاة طيبة ومحترمة ولديك معايير عالية، وقد لاحظت ذلك منذ اللحظة الأولى»، وتوقف قليلاً ثم قال: «هل ستخرجين معي للتنزّه يوم الأحد القادم؟».

- «أود ذلك بكل سرور»، أجبته وأدركت أنني كنتُ أقول الحقيقة، فأنا أحتاج إلى صديق وحليف. وكان من دواعي سروري أن يكون لدي شخص يعتقد أنني مميزة. فأضاءت ابتسامة جميلة وجهه بالكامل لدرجة أنني ابتسمت لا إراديًا.

الفصل الثامن

من الغريب أنني وبعد أن انتهزت الفرصة، واتبعت نصيحة والدي، أتيحت لي فرصة أخرى لأغتنمها. كنت أحرز تقدمًا جديدًا مع الشيف رولاند، لدرجة أنه قال على كعكة الغريبة التي صنعتها بأنها «مقبولة» وعلى الفطائر المنتفخة المحشوة بالقشدة بأنها «ليست سيئة على الإطلاق».

ومن جهتي، استمتعت بفرصة إعداد مختلف أنواع المعجنات والكعكات والفطائر، حتى لو تعين علي تحمل طبيعته المزاجية. وفي أحد الأيام، كان يقطع القشور المسكرة إلى شرائح رقيقة جدا وعطس، وبطبيعة الحال، أدار وجهه جانبًا لكن السكين قطعت أصبعه، فأطلق وابلاً من الشتائم واللعنات باللغة الفرنسية، بكلمات كانت خارج مفردات طفولتي. ومن ردة فعله، قد تظنه تعرض لهجوم بفأس، لا جرح نفسه بسكين، فجلبت له خرقة مبللة بسرعة لأوقف النزيف وقلت له بالفرنسية: «هدئ من روعك، ليس الجرح سيئًا، أؤكد لك».

- «ليس سيئًا؟»، وشرع بالعويل.

فسمعت السيدة سيمز فورة غضبه وجاءت لترى ما الذي يحصل وسألته: «ماذا حدث يا سيد رولاند؟»،

- «لقد حكم عليّ بالهلاك! ستُدمر مسيرتي المهنية». وسحب إصبعه عن القماش ورفعه، والدم يسيل منه.

- «هذا هراء. إنّه جرح بسيط لا أكثر»، ولم تُظهر السيدة سيمز تعاطفاً يذكر، «سنربطه بإحكام. اذهبي يا هيلين واحضري علبة الإسعافات الأولية».

قال بإصرار: «لا، يجب أن أذهب إلى المستشفى في الحال. يحتاج بعض الغرزات قبل فوات الأوان». ولم يصغ لما نقول. وفي النهاية، طلبت المنسومية - وهي عربة بعجلتين وجواد واحد، مقعد الحوذي فيها خلفي - وغادر بسرعة.

قال السيد آنجيلو: «أصبح الأمر منوط بكِ الآن لتحضير ما يُقدم مع شاي جلالتها يا فتاتي. أرى أنه صنع الإيكلير، لكن القُريصات يجب أن تُخبز طازجة. هل يمكنني الاعتماد عليكِ في خبزها؟ اصنعيها قبل أن يأخذوها لها مباشرة، لتبق الكمكات دافئة. أصبحتِ تعرفين الآن أنها لا تحب مربى التوت، فراولة أو مشمش فقط،

والقشدة المخفوقة كثيفة. هل هذا واضح؟».

- «أجل، أيها الطاهي». وشعرت بمزيج من الخوف والحماس في نفس الوقت، فقد أصبح إطعام الملكة مسؤوليتي. كانت السيدة روبينز تصنع كعكات لذيذة للغاية في مكان عملي السابق - أو على الأقل بالنسبة لي - لذا صنعتها بنفس الطريقة، باستخدام زبدة باردة للغاية، وضعف كمية القشدة، والقليل من مستخلص الفانيليا، وأخرجت الكعكات من الفرن في اللحظة التي أصبح لون سطحها ذهبياً ولففتها في منديل، ووضعتها في العربة مع بقية أغراض الشاي.

وفكرت في احتمالية أن السيد رولاند قد لا يعود في الوقت المناسب لعشاء الملكة، فسألتُ السيد آنجيلو إذا كان علي البدء في تحضير إحدى وصفات البودينغ.

نظر إليّ بلطف وقال: «من حسن حظنا أن الليلة هادئة وليس لدينا ضيوف ما عدا الأميرة لويزا. أظن أننا قد نتمكن من تقديم القشدة البافارية، ما رأيكِ؟ سأرسل السيد ويليامز لمساعدتكِ، فهو ليس سيئاً في تحضير البودينغ».

وهكذا، أرسل أحد الطهاة اليومَن إلى طاولتي، لم يبدُ سعيداً لفكرة مساعدتي، لأني وكما هو واضح

أصغر منه، لكني حاولت تلطيف الموقف بقولي: «أنا ممتنة لأنك أخذت من وقتك لتريني كيف أصنعه. سأتوتر كثيرًا لو تعين عليّ تحضير البودينغ لجلالة الملكة وحدي».

ابتسم ابتسامة واسعة وتمتم: «ضعي الكثير من القشدة والسكر فيها ولن تلاحظ أي شيء آخر. آه، ولا تنسي إضافة البراندي. لا أعرف كيف تأكل طعامها بهذهِ الطريقة، وشرابها كذلك. هل تعلمين أنها تحتسي نبيذًا مختلفًا مع كل طبق؟ وخمرة «شيري» قبل الوجبة، وخمرة «بورت» بعدها، وهي تكاد تبلغ عقدها الثامن. لا بد وأن لديها معدة فولاذية».

- «آنسة بارتون؟»، نظرت لأرى السيد فرانسيس يشير إليّ. ظننت أنهم سمعونا نثرثر عن الملكة وتوقعت أن أحصل على توبيخ، وعندما ذهبتُ إليه قال: «اخلعي مئزركِ في الحال. لقد طلبوا حضوركِ».

- «طلبوا حضوري؟»، ونظرت إليه برعب، وكان أول ما فكرت به هو أن روني قد ذهب إلى الشرطة.

- «الطابق العلوي. أرسلوا الخادم ليأخذكِ».

- «الطابق العلوي؟ هل تقصد الملكة؟».

- «هكذا يبدو».

- «يا إلهي، ماذا فعلت؟». كان قلبي ينبض بسرعة كبيرة لدرجة لم أستطع التنفس.

- «ستكتشفين الأمر حالما تصلين إلى هناك»، ثم قال، «هيا أسرعي، لا تجعلي جلالة الملكة تنتظركِ».

لم تطاوعني أصابعي وأنا أحاول فك خيوط مئزري، علقته على الحائط ومسدتُ تنورتي وخرجت إلى الرواق. كان خادم يرتدي زياً من المخمل الأسود ينتظرني قرب الباب.

سألني بدهشة: «أنتِ التي أرسل بطلبكِ؟ أليس كذلك؟».

- «ليس لدي أدنى فكرة»، وتلعثمت، «لا يمكنني التفكير فيمَ تريدني الملكة».

- «أرسلتني لأحضر الطاهي الذي أعدَّ القُريصات اليوم. هذا كل ما أعرفه».

- «أنا ذلك الطاهي».

- «تعالي إذاً، اتبعيني».

وقادني على طول الرواق بخطى واسعة، عبر

باب ثقيل يؤدي إلى عالم مختلف. كان أمامنا درج رخامي كبير ملتوي تتوسطه سجادة حمراء، صعدناه بسرعة لدرجة كان عليَّ رفع تنورتي كي لا أقع، ووصلت إلى الأعلى منقطعة الأنفاس. ثم سارع بي عبر صالة واسعة فيها صور لملوك سابقين تزدريني، وكانت هناك تماثيل في المشاكي، وتحت أقدامنا سجادة أكسمينستر، والجدران مغطاة بتطريز كثيف، وما إن تمكنتُ من استيعاب كل هذا حتى توقف الخادم أمام باب مزدوج وفتحه بحذر.

- «طاهي الحلوى والفطائر التي طلبتِه يا جلالة الملكة».

وبهذِهِ الكلمات، تقريبًا دُفعت إلى الداخل. فدخلت إلى غرفة جلوس كبيرة، كانت غرفة مريحة وليست نخمة، بنوافذ طويلة تُفتح على حدائق جانب القصر، رُتبت أرائك مخلية وكراسي بذراعين حول مدفأة رخامية فيها نار موقدة.

جَلَسَت في أحد الكراسي ذات مسند الظهر المرتفع عجوز صغيرة. كنت قد رأيت صورًا كثيرة لها بالطبع، لكنها بدت أصغر حجمًا عن قرب، وقدماها ترتكزان على مسند الأقدام. في الحقيقة، عندما تراها عن كثب، تبدو لك وللوهلة الأولى

وكأنها جدة أحدهم، تضع وشاحًا أبيض حول كتفيها، وتعتمر قبعة من الدانتيل على رأسها. نظرَت إلى الأعلى بدهشة عندما دخلتُ وقالت: «أنتِ فتاة!».

- «أجل يا جلالة الملكة». وانحنيتُ لها.

- «ظننت أن كل طهاتي رجال. أين هو الطاهي المسؤول عن الحلوى والفطائر؟».

- «أنا مساعد طاهٍ فقط يا جلالة الملكة. لكن السيد رولاند، الذي يصنع المعجنات عادةً، تعرّض لحادث بعد ظهر هذا اليوم، وكان عليّ أن أتدخل وأحل محله. أعتذر إذا كانت جهودي لا ترقى إلى مستوى معاييركِ المعتادة».

- «حادث؟ وأفترض أنه ليس خطيرًا؟».

- «لقد جرح إصبعه يا جلالة الملكة. لكنه شعر أن الجرح يتطلب غرزًا، لذا نُقل إلى مستشفى محلي. لكن، أتوقع أنه سيكون بخير تمامًا بحلول الغد وسيكون قادرا على استئناف عمله».

كانت تنظر إليّ بعين ناقدة وقالت: «أنتِ تتحدثين بلباقة بالنسبة لخادمة. ما اسمكِ؟».

يا للهول! كنت على وشك أن أكذب على الملكة. طافت صور برج السجن والزنازين في

رأسي وقلت أخيرًا: «هيلين يا سيدتي، هيلين بارتون».

- «حسنًا يا هيلين، لقد استدعيتكِ اليوم لأننا وجدنا قُريصاتكِ لذيذة بشكل مُنْقَطِعِ النَّظِير، وكلانا أثنى على طعمهما».

كان ذلك عندما لاحظت إنها ليست وحدها، كان هناك رجل سمين ذو لحية رمادية مشذبة بعناية يجلس على كرسي عالي الظهر مقابل النار، رأيت صوره في الصحف، كان أمير ويلز، وكان يتفحصني بعينيه.

- «لم تذكري لي أنكِ توظفين شابات في المطبخ هذهِ الأيام يا أماه».

أجابته الملكة: «فكرت بأن الوقت قد حان لتكون للقصر نظرة تطلعية، القرن الجديد قادم، وستحظى الفتيات الشابات بفرصة ليُحدثن تغيرًا في حياتهن، ويعلم الله أن أغلب الطهاة في المنازل الكبيرة في جميع أنحاء البلاد من النساء، إنها موهبة طبيعية لدينا نحن الإناث»، وحركت نفسها في كرسيها ونظرت حولها في الغرفة، «بصراحة، لقد فكّرتُ منذ مدّة أن المطبخ بحاجة إلى دماء جديدة، فقد اشتكى لي عزيزي المُنشي أن طهاتي وعلى ما يبدو لا يستطيعون تحضير أبسط الأطباق

الهندية له، كان يستضيف أحد مواطنيه وكان مذاق كاري الدجاج غير مستساغ. المسكين عبدول مسلم ولديه نظام غذائي صارم للغاية».

قال الأمير: «لا أعرف لماذا يتعين على طاقم مطبخك بذل المزيد من الجهد من أجل خادم مثلهم»».

عبست الملكة وقالت: «خادم مثلهم؟ إنه رفيقي الوحيد وعزائي، كما تعلم جيدًا، وأنا أقدر نصيحته، حتى لو كان متسلطًا في بعض الأحيان، لكنه يعجبني، فهو يذكرني بعزيزي ألبرت عندما كان على قيد الحياة، ومن الواضح أنه يجلني»، تنهدت بعمق ثم أردفت، «لكانت الحياة بلا معنى لو لم يكن عبدول موجودًا فيها»».

- «هذا الشاب يعوزه التهذيب وهو أسوأ النصّابين، لكنكِ عمياء لدرجة لا يمكنكِ رؤيته على حقيقته لأنه يتملقكِ ويتزلف لكِ»».

انتصبت الملكة في جلستها ورمقته بأكثر النظرات غطرسة وقالت: «بصفتي ملكة لهذا البلد، أعتقد أن لدي الحق في اختيار رجال بلاطي وأصدقائي، وستتذكر ذلك يا بيرتي، إذا ما أصبحت ملكًا، ستفعل الشيء ذاته، وأتوقع أن الكثيرين سينتقدون اختيارك للرفاق»».

مدت يدها إلى صينية التقديم، وأخذت آخر قطعة من كعكة الغريبة ووضعتها في فمها، ثم تذكرت وجودي عند مدخل الباب على ما يبدو وقالت: «لن نناقش مثل هذه الأمور أكثر من ذلك، أنا من يضع القوانين في منزلي، وقررت أنني أريد إدخال الشابات إلى مطبخي، لإضافة حيوية الشباب ونشاطه. وها أنتَ ترى أنني كنت محقة في توقعي، تدخلت هذه الفتاة وخبزت لنا ألذ قُريصات تذوقتها على الإطلاق، أنهينا الطبق بالكامل أنا وأنت، وأجرؤ على القول لكُنّا هجمنا على الطبق الثاني لو أنهم قدموه لنا».

- «يمكنني الذهاب إلى المطبخ وخبز وجبة أخرى في الحال إذا رغبتِ يا سيدتي».

لكنها رفعت يدها وابتسمت ثم قالت: «لا يريد المرء أن تفسد شهيته لتناول العشاء. فكما اعتادت عزيزتي البارونة ليزن أن تقول: الاعتدال أكثر إشباعاً من الفائض».

ثم لوحت بيدها باتجاهي وقالت: «اذهبي الآن، أعتقد أنهم يحتاجونكِ لاستعدادات وجبة العشاء. لكنني سأتطلع إلى القُريصات التي ستصنعينها أنتِ بعد ظهر كل يوم من الآن فصاعداً. أخبري السيد آنجيلو أنني طلبت هذا».

- «أمرك يا جلالة الملكة». وانحنيتُ لها مرة أخرى وحاولت التراجع عن الغرفة، ودعوت الله ألا أصطدم بأي شيء ثمين في الطريق. وصلت إلى الباب بنجاح، ووقفت لحظة في الردهة بالخارج، أحاول تهدئة نفسي. لقد كانت حقًا لحظة رائعة، وتمنيت أن يكون لدي شخص أشاركها معه. لكنني خشيتُ إبلاغ السيد آنجيلو وخاصة السيد رولاند بتعليمات جلالة الملكة، قد لا يستحسنا فكرة فتاة مبتدئة في المجال تشق طريقها إلى الأعلى هكذا.

نظرت حولي أبحث عن الخادم الذي أحضرني إلى هنا لكني لم ألمحه، فعدتُ أدراجي عبر الصالة، وفي منتصف الطريق على الدرج الكبير سمعت وقع خطوات خلفي، توقفت مؤقتًا وألقيتُ نظرة خاطفة فرأيتُ أمير ويلز يتبعني. سويت نفسي بالحائط لأسمح له بالمرور لكنه اقترب مني أكثر.

قال: «لِمَ العجلة يا صاحبة العينين البراقتين؟». كان ينظر لي شبه مبتسم

أجبته بصوت أقرب إلى الهمس: «يجب أن أعود إلى واجباتي يا صاحب السمو الملكي. لا بد لي من إعداد البودينغ لوجبة العشاء».

- «كلام فارغ»، وأطلق ضحكة مكتومة عميقة وقال: «لن يشتكِ أحد إذا أبقتكِ الملكة لفترة أطول، أليس كذلك؟ أو عطّلكِ أمير ويلز حتى»، واقترب مني أكثر من اللزوم لدرجة غير مريحة ثم قال: «يا لكِ من مخلوق لطيف محبوب»، ورفع يده ومسّد خدي وقال: «هل أرى خصلة شعر كستنائية تحت هذهِ القبعة ناصعة البياض؟»، وقبل أن أفعل أي شيء، نزع القبعة عن رأسي، ولذعري تناثر شعري على كتفي، فأشرقت عينا الأمير وقال: «لقد كنتُ محقًا»، وأخذ خصله ولفها بين أصابعه وقال: «لدي نقطة ضعف حيال الشعر الأحمر. يفترض أن الصهباوات متقدات وشهوانيات جدًا، أليس كذلك؟ هل أنتِ متقدة وشهوانية؟».

- «لا يا سيدي»، تمتمت، «أنا متأكدة من أنني امرأة شابة هادئة ومحترمة».

ضحك وسحب شعري وقال: «ذلك لأنكِ لم تقابلي الرجل المناسب لإيقاظك بعد. أراهن أنكِ ستكونين نمرة يومًا ما».

شعرت بوجنتي تحترق، أحاول التفكير بطريقة تمكنني من الفرار، لكنه ثبتني على الجدار، ولا يمكن لأحد أن يجرؤ على دفع ولي العهد.

- «أرجوك يا سيدي، دعني أذهب»، همست، «يجب أن أعود إلى المطبخ صدقًا».

قال وعيناه تتحداني: «أراهن أن لديكِ مواهب أكثر من مجرد صنع القُريصات».

فهمت إلامَ كان يرمي لكنني أجبته: «ربما لدي مواهب أخرى يا صاحب السمو. أخبروني أن يدي ماهرة في صنع المعجنات».

أعاد رأسه إلى الوراء وضحك من قلبه على ما قلت ثم قال: «يا لكِ من فتاة بريئة حلوة. لا يمكنني الانتظار حتى ... لا يمكنني الانتظار حتى أتذوق معجناتكِ، أيتها الشابة، أو تجربة مهارة يدكِ. لِمَ لا تأتين وتطبخين لي؟ أنا متأكد من أنه يمكننا أن نجد لكِ عملاً في منزلي، المزيد من المال، وامتيازات أخرى. سأستمتع بالتعرف عليكِ بشكلٍ أفضل».

أشتعلت وجنتاي خجلاً وجفّ فمي لدرجة نطقت الكلمات بصعوبة: «لا يمكنني القيام بهذا يا صاحب السمو. فقد بدأت العمل حديثًا لدى الملكة، وسيكون رحيلي الآن غير لائق، ويُعتبر عقوقًا لجلالتها التي منحتني تلك الفرصة الرائعة».

- «فاتنة ونبيلة أيضًا»، وترك خصلة الشعر تسقط

على كتفي، وتتبع خط رقبتي بإصبعه حتى وصل إلى أعلى فستاني الذي منعه من التقدم أكثر وقال: «لكن، فكري في الموضوع يا حلوتي. لن تكون واجباتكِ شاقة عندما تعملين معي، أعدكِ بهذا، وأنا أسافر كثيراً، الريفيرا ممتعة جداً في الربيع ...». ورمقني بابتسامة لعوبة.

- «سيكون شرفاً لي أن أعمل في منزلك بكل تأكيد يا سيدي، لكنني شديدة الامتنان لصاحبة الجلالة».

- «أفترض أنني سأقبل الرفض، في الوقت الحالي، وسأعود إلى المنزل حزيناً مثقل القلب».

كنت محرجة ومرتبكة لدرجة اختفت الأفكار المترابطة منطقياً من رأسي، لكنني تذكرت شيئاً فجأة وتمتمت قائلة: «لدي خدمة واحدة أود أن أطلبها من سموك، جاء أخي مؤخراً إلى لندن معي وهو من أشد المعجبين بسموك. تساءلت إذا كان بإمكانك أن تجد له مكاناً في منزلك ...».

لم أنهِ جملتي بعد لكنه ابتسم ابتسامة واسعة وقال: «حينها سيتعين عليكِ القدوم لزيارته بصورة متكررة، أليس كذلك يا صاحبة العينين البراقتين؟ واجبات الأخت، كما تعلمين».

وعندما لم أتفوه بكلمة أومأ برأسه وسألني: «ما اسمه؟».

- «روني يا سيدي، رونالد بارتون».

- «وهل السيد بارتون طاهٍ أيضًا؟».

- «لا يا سيدي، لكنه شغل عدة مناصب في منزل كبير في يوركشاير ويعرف البروتوكول. أنا متأكدة من أنه سيرحب بفرصة أن يكون خادمًا لسموك».

مسد خدي مرة أخرى وقال: «اطلبي منه القدوم لرؤية كبير الخدم الخاص بقصري، يمكننا إيجاد مكان له بكل تأكيد، إذا وعدتنا أخته بزيارته».

- «هذا لطف منك يا سيدي»، تمتمت دون أن أعده بشيء، «سيكون ممتنًا للغاية أؤكد لك».

- «سأسمح لكِ الآن بالعودة إلى مطبخك، فأنا أيضًا لدي موعد تأخرتُ عليه»، وابتعد عني، «لكن سأتطلع بشوقٍ لرؤيتكِ من جديد قريبًا عندما يكون لدينا أنا وأنتِ الوقت الكافي».

أربكتني الطريقة التي نظر لي بها لدرجة أحمرّت وجنتاي من جديد، فضحك وربت على خدي وتجاوزني ونزل الدرج عبر البهو ومنه إلى الأبواب

الأمامية الكبيرة، فأسرعت عبر باب الممر وعدت إلى أمان الجزء الخاص بي من القصر.

الفصل التاسع

في اللحظة التي أُغلق فيها الباب الكبير المتأرجح خلفي، وقفت وحيدة في الممر الفارغ، أحاول بصعوبة تمالك نفسي، لم يخطر على بالي قطُّ أن أكون مرغوبة - بأي طريقة - في نظر أي رجل. ولم ينظر لي رجل بهذهِ الطريقة من قبل. في الواقع، كان لي تواصل قليل مع الرجال قبل عملي في القصر، إذ يتألف معظم كادر منزل السيدة تيلي من النساء، ما عدا السائس والحوذي وبستانيين وكانوا كبارًا في السن. صحيح أن نيلسون بدا مهتمًا بي، لكنه كان شابًا مسالمًا، ولم أعتبر اهتمامه إلا نوعًا من الصداقة ولا شيء ذو طبيعة جنسية، وقد وصلتني سمعة أمير ويلز بالطبع. فقد ذكرت الصحف أنهم لمحوه مع تلك المرأة في سباق الخيل، أو مع تلك المرأة الأخرى يتعشى. يُقال إن لديه عشيقة على الدوام، ويبدو الآن أنه وضع عينه عليّ.

قلت لنفسي: «لا تكوني سخيفة! لم يكن الأمير مهتمًا بي حقًا، بل كان يستمتع بمضايقة خادمة شابة»، لكن المرء يسمع بالأسياد الذين لديهم مخططات أخرى لخادماتهم، ومَن يستخدمون نفوذهم ليحصلوا على مرادهم، غالبًا ما تحمل

الفتاة العواقب في حين يمضي الرجل في شؤونه دون اكتراث. ولكن، كيف تقول لا للأمير؟ كانت هناك إجابة واضحة: «احرصي على تجنبه». وتذكرت شيئًا آخر: «لقد أوفيت بالتزاماتي تجاه روني بارتون وتحررت منه. يمكنه أن يعمل لدى الأمير، ويبقى استغلال هذهِ الفرصة أمرًا متروكًا له». لكنني لا أخطط لزيارته في قصر الأمير بكل تأكيد. وكنت على يقين من أن الأمير سينساني على أي حال في حينها.

دسست شعري على عجل في قبعتي وعدت إلى المطبخ، ودارت العيون كلها نحوي عندما دخلت، وقال السيد آنجلو بإلحاح: «حسنًا؟ هيا تحدثي. هل وضعتِ الكثير من البيكاربونات في القُرَيصات؟ هل سيطردونكِ؟»،

- «لا، أيها الطاهي. بل أثنت الملكة عليّ، وقالت إن القُريصات لذيذة، وطلبت مني أن أخبزها لها كل مساء».

- «حسنًا، هذا تغير في الأحوال، أليس كذلك؟»، ورفع السيد آنجلو حاجبه وقال: «لن يكون السيد رولاند سعيدًا بهذهِ الأخبار عندما يعود»،

- «أنا آسفة يا حضرة الطاهي، آسفة حقًا. لم

أفعل شيئًا لأفرض نفسي، أقسم لك».

- «لا يمكنكِ منع نفسك من أن تكوني طاهية جيدة. استغلي هذهِ الموهبة جيدًا».

وبينما هممت في العودة إلى طاولتي، أمسك بيدي وقال: «هل أنتِ بخير؟ تبدين شاحبة للغاية؟ يمكنني تخيل أن استدعائك للمثول أمام جلالتها للمرة الأولى قد يكون مروعًا بالنسبة لكِ، لكنكِ جئتِ مكللة بنجاح باهر».

- «ليس الأمر هكذا أيها الطاهي. لقد كانت لطيفة معي. إنه ...». وقطعت كلامي غير راغبة في الحديث عن الموضوع.

- «هيا، قولي ما عندكِ. ماذا فعلتِ؟ كسرتِ تحفة نفيسة؟ تعثرتِ بالسجادة؟».

- «لا، كان أمير ويلز هناك و ...». ومرة أخرى لم أنهِ كلامي.

- «أصبح ودودًا أكثر من اللازم معكِ، أليس كذلك؟ هذهِ ليست المرة الأولى التي يعجز فيها عن كبح نفسه من التودد إلى الخادمات. لكن لا تقلقي، فهو ليس شغوفًا بوالدته، لذا لن يأتِ إلى هنا كثيرًا، وعندما يفعل ذلك، احرصي على أن تبقي في المطبخ»، وأومأ لي باقتضاب وقال:

«والآن عودي إلى عملكِ وإلا لن يكون هناك بوديغ للملكة وستفقدين حظوتها من جديد».

كنت لا أزال محمرة من الخجل عندما عدت إلى طاولتي. فرفع نيلسون نظره عن البطاطا التي كان يقشرها وغمز لي وقال: «ارتقينا إلى الأعلى؟ أليس كذلك؟».

- «هذا ليس مضحكًا. لقد كنت مرعوبة».

- «أخبريني كيف كان الوضع، هناك في جانبهم الآخر من القصر؟ فاخر جدًا؟».

- «الدرج والأروقة فاخرة جدًا بكل تأكيد، فيها الكثير من اللوحات والتماثيل والمزهريات. لكن غرفة الجلوس كانت عادية تمامًا، مثل أي غرفة جلوس تراها في أي منزل كبير بالضبط».

- «والملكة؟ كيف كانت تبدو؟ لم أرَها شخصيًا، بصرف النظر عن رؤيتها عبر النافذة».

- «صغيرة ومستديرة. ولا يوحي مظهرها على أنها الملكة على الإطلاق. وكانت لطيفة للغاية معي».

- «لقد صنعتِ لها الطعام الذي تحبه. يقولون إن الطريق إلى قلب الرجل عبر معدته، والأمر ذاته ينطبق على الملكة، فالأكل هو عزائها الوحيد، أو هكذا سمعنا».

قالت السيدة سيمز وهي ترفع نظرها من شريحة اللحم التي كانت تقطعها: «كف عن القيل والقال أيها الشاب نيلسون، وإلا لن تُسلق حبات البطاطا تلك في الوقت المناسب»، وعندما مررت بها لأعود إلى طاولتي تمتمت: «ربما عليكِ أن تنتبهي لنفسكِ يا عزيزتي. هناك من يشعر بالإهانة بسهولة».

- «لأن الملكة استدعتني؟».

- «لأنكِ أدنى منهم في السلم الوظيفي وحصلتِ فجأة على حظوة الملكة».

- «أنا آسفة حقًا. لم أقصد الإساءة لأحد».

- «بالطبع لا تقصدين. لكن بيئة مغلقة كهذهِ ليست صحية، فهي تولد الغيرة والشك. ومن ناحيتي، أقول لكِ تهاني وأتمنى لكِ التوفيق، لكن هناك آخرين قد لا يتهانون في رش القليل من الملح في البودينغ، لذا كوني على أهبة الاستعداد».

- «شكرًا لكِ. سأفعل».

وعدتُ إلى عملي، أفصل صفار البيض في جفنة. وألقيتُ نظرة سريعة على أرجاء المطبخ بينما كنت أعمل، أي واحد منهم قد يرغب

في النيل مني؟ من الواضح أن السيد فرانسيس، مساعد رئيس الطهاة، كان يكرهني وأوضح أنه لا ينبغي لأي امرأة أن تكون بالقرب منه. والمرأة الأخرى، السيدة غيليسبي، لم تكن ودودة تماماً. وطهاة «اليومَن» الأربعة، الذين اعتبروني مصدر إزعاج لا بد منه، والمتدربين الثلاثة الذين كان من السهل التعامل معهم. في الحقيقة أنا لا أعرفهم إلا لماماً، كنّا نتجاذب أطراف الحديث في الوجبات، وبدوا ودودين كفاية. والفتاة الأخرى الوحيدة كانت روبي، خادمة حجرة غسل الأطباق، وكانت أقل مني رتبة. لكني كنتُ على يقين من أن السيد رولاند سيحمل ضغينة بسهولة، وعليّ أن أفكر ملياً كيف سأنقل هذهِ الأخبار إليه.

عاد في ذلك المساء، بينما كنّا نجمع عربات نقل الطعام لتدفع إلى الأعلى لعشاء الملكة، وقال لي: «أعتذر لأنني تركتك في وضع صعب، ولكنني سعيد بذهابي إلى المستشفى، فقد أخبروني أنه كان من الممكن أن يُصاب جرحي بالعدوى ويتقيح وقد أموت بسبب تسمم الدم»، ورفع يده المغطاة بضمادات كثيرة وتابع، «لذلك أخشى أن الأمر كله متروك لكِ الليلة وآمل أنكِ لم تحاولي صنع أي حلوى خارج حدود معرفتكِ».

- «أوه لا أيها الطاهي ... فقد أمرني السيد آنجيلو بعمل قشدة بافارية بسيطة بما أن الملكة تتناول عشاءها مع الأميرة لويزا فحسب».

- «هذا جيد. جيد جداً. آمل أن خدمة الشاي قد جرت على خير ما يرام؟».

- «أجل يا حضرة الطاهي. في الواقع، بلَغَنا أن الملكة وجدت القُريصات لذيذة».

- «هل صنعتُ أنا هذهِ القُريصات قبل مغادرتي؟ لا يمكنني أن أتذكَر. لكن لا أظن أنني صنعتها».

- «لا يا سيدي، أنا من صنعتها، وهي إحدى الأشياء القليلة التي تعلمتُ صناعتها جيداً من الطاهية في عملي القديم. كان لديها وصفة ممتازة».

- «لقد أنقذتِ الموقف. أنا مدينٌ لكِ».

- «ولأن الملكة استمتعت بتناول القُريصات، تساءلت إذا باستطاعتي القيام بهذهِ المهمة كل يوم، من بعد موافقتك يا حضرة الطاهي».

عبس لحظة ثم أومأ برأسه وقال: «ولِمَ لا؟ سيكون لدي وقت فراغ لصنع الكعك الأكثر تعقيداً الذي تحبه كثيراً».

وهذا كل شيء.. لقد فعلتها!

وما إن أنهيتُ البوديغ حتى أسرعت إلى غرفتي وكتبتُ رسالة إلى روني بارتون.

التقيتُ اليوم بأمير ويلز، وقد أبدى استعداده لمنحك وظيفة في خدمته. يجب أن تذهب إلى خادمه الشخصي وتذكر أنك أخي، وستحصل على الفرصة التي سيمنحها لك الأمير. وبذا أكون قد أوفيت بالتزامي تجاهك. وعليه، لا أرغب بسماع أخبارك مرة أخرى.

ثم تسللت بعد العشاء وأودعت الرسالة في أقرب صندوق بريد. ولم أتلقَ إجابة، لكنني فعلت ما طلبه، ولم يعد لديه أي سبب ليضايقني.

خرجت مع نيلسون نتمشى يوم الأحد ذاك، كان يومًا قارس البرودة وبائسًا. هددت الريح بخلع قلنسوتي عن رأسي، فمد لي نيلسون يده وشبكت يدي بيده بكل سرور بينما كنا نجوب الشوارع. واقترح نيلسون أنه يوم غير مناسب للتنزه في الحديقة فوافقته. ومشينا إلى محطة فيكتوريا، ثم ركبنا قطار الأنفاق إلى ساوث كنسنغتون وزرنا متحف التاريخ الطبيعي، يا له من مبنى مهيب! يشبه قصر باكنغهام، وأمضينا فترة ما بعد الظهيرة ممتعة نتمعن المعروضات - ديوراما للحياة البرية من

جميع أنحاء العالم، والهياكل العظمية للديناصورات ومجموعة الصخور والمعادن - وكانت الأخيرة أكثرها روعة في رأيي، وأفترض أن كل امرأة تنجذب تلقائيًا إلى الأحجار الكريمة.

تجاذبنا أطراف الحديث بشكل ودي أثناء سيرنا، وحرصت كل الحرص على عدم التفوه بالشيء الخطأ، وكاد لساني يزل عندما اقترحت أن نزور معرضًا بعينه، ففوجئ نيلسون وسألني: «هل زرتِ هذا المكان من قبل؟». وكنتُ على وشك القول إن والدي أخذنا إلى كل المتاحف عندما كنّا صغارًا، لكني منعت نفسي في اللحظة الأخيرة وقلت عوضًا عن ذلك بسرعة: «لا، لكنني رأيتُ السهم على الحائط يوجهنا إلى هذا الطريق». وبعد هذا، اختفت لطافة أجواء ما بعد العصر، أو على الأقل بالنسبة لي. وتصرف نيلسون كما أن لو أن شيئًا لم يتغير. وعندما وقفنا أمام معرض السهول الأفريقية ورأينا زرافة قال: «ما رأيكِ في هذا؟ أتساءل كم من الوقت يستغرق البلع إذا كانت رقبتك بهذا الحجم؟».

وعندما لم أجبه مباشرة قال: «هل كل شيء على ما يرام يا هيلين؟ أتمنى ألا يكون وجودي معكِ مملاً أو مسيئًا؟».

- «على العكس. أنا أعتذر لك لأنني كنتُ مثالاً سيئًا للرفقة اليوم. لقد كان أسبوعًا مزعجًا». ثم أخبرته عن لقائي بأمير ويلز.

اغتمّ وقال: «سمعت عنه. وظننت أن سبب عودتكِ مرتبكة إلى المطبخ كان صدمة لقائكِ بالملكة».

- «أدعو الله أن يكون من النوع الذي يحب إرباك الخادمات الشابات ويغازل كل أنثى. لا أعرف ماذا سأفعل إذا طلب أن أرسل إلى قصره، أو إذا انفرد بي».

- «اركليه في مكان يتذكره جيدًا»، قال نيلسون ثم أدرك أن تعليقه هذا قد يكون مُسيئًا للغاية عندما تقوله لفتاة شابة، «أنا آسف، ما كان ينبغي علي قول ...». وتلعثم في حرج.

ضحكت وقلت: «على العكس، كان اقتراحًا مثاليًا». فانضم إليّ يضحك.

- «أنتِ فتاة رائعة يا هيلين. أعلم أنه لا يحق لي أن أسأل، وبالطبع أنا فقط مساعد طاه بسيط مثلك ولستُ في أي وضع يسمح لي بالتفكير في المستقبل، ولكن هل هناك فرصة أن تعتبريني شخصًا ترغبين في أن يتقرب منكِ بشكل صحيح؟».

يا إلهي! أنا معجبة به، واستمتع برفقته، لكنه كان صديقًا، ورفيقًا، لا أكثر.

- «نيلسون، لقد قيل لي بعبارات لا لبس فيها أن الخروج مع زميل عمل غير محبذ. ولا أريد أن أفقد وظيفتي».

وعندما رأيتُ خيبة الأمل في وجهه قلت: «أنا حقًا معجبة بك، وأمضيتُ وقتًا رائعًا هذا اليوم، وأود بكل تأكيد أن أكرر الخروج معك، لكن دعنا نأخذ الأمور بالتدريج، ما رأيك؟ وكما تقول، لا أحد منا في وضع يسمح له بوضع أي خطط للمستقبل، بخلاف ما يتعين علينا طهيه لوجبات الغد».

ابتسم ابتسامة واسعة وقال: «أنتِ محقة في هذا».

- «الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أعدك به هو أنه لا يوجد شخص آخر في حياتي».

- «هذا جيد إذًا»، وأومأ لي برضا وقال: «ما رأيكِ في الذهاب لنرى إذا كان لديهم غرفة لشرب الشاي هنا؟ أرغب بشرب كوب شاي ساخن وكمكة، وماذا عنكِ؟».

وافقت. وأثناء احتساء الشاي، أخبرني عن

عائلته، ووالدته المسؤولة عن العائلة، وأخوانه وأخواته الست. وتعرض والده لحادث أثناء عمله في السكك الحديدية عندما كان نيلسون في الثانية عشر من عمره، وبدأ على الفور في العمل ليعيل عائلته: «بدأتُ عملي ماسح أحذية، ثم تدرجت صعودًا حتى أصبحت مساعد طاهي. واكتشفت أنني أحب الطبخ».

- «مثلي تمامًا، فقد بدأتُ عملي خادمة منزل. أنهض في الخامسة صباحًا لأشغل المرجل وأوقد نيران المواقد».

- «لدينا الكثير من القواسم المشتركة، لا عجب أننا نتوافق بشكل جيد».

وأدركت أنه نعم، لدينا الكثير من القواسم المشتركة. هل أخطأت في التفكير بما يفوق مستواي الحالي فيما يخص الرجل الذي أرغب في الزواج به يومًا ما؟ ثم تذكرت الوعد الذي قطعته في مقابلتي، لن يكون لدي أي خطيب، سيكون هذا عذرا مناسبا إذا بدأ نيلسون في أخذ صداقتنا على محمل الجد.

الفصل العاشر

مرت الأيام ولم يصلني شيء من روني بارتون، لذا كان علي الافتراض أنه قدّم على الوظيفة لدى أمير ويلز وحصل عليها، وبعد هذا، علمتُ أنه يمكنني التنفس بارتياح. قمت بكل ما طُلب مني، وصنعت فُريصاتي اليومية، وفي المساء كنت أدرس في كتب الوصفات وأنا أتساءل إذا كنت سأتمكن يومًا ما من صنع سوفلييه أو مازارين تُعجب الملكة.

اقترب عيد الميلاد، وأبلغونا أن الملكة ستغادر إلى منزل أوزبورن في جزيرة وايت حيث ستنضم، كما هي عادتها، إلى أفراد عائلتها الآخرين لقضاء الإجازة، وستصطحب معها السيد آنجيلو والعديد من كبار موظفي المطبخ من الرجال فقط، لأنهم لا يحبون ضم النساء إلى المجموعة بسبب ترتيبات السفر، إذ من غير اللائق حشر امرأة في عربة من الدرجة الثالثة مع سبعة رجال، وإلا ستضطر إلى استخدام نفس المرافق عندما تحتاج إلى تلبيه نداء الطبيعة. وأخبروني أننا - الذين تخلفنا - سنطبخ لأعضاء القصر وستكون قائمة أبسط بصورة عامة وسيُسمح لنا بالانضمام إلى عائلاتنا في يوم عيد الميلاد إذا رغبنا في ذلك، سيكون

هناك يكفي من الطهاة الذين ليس لديهم روابط عائلية لإعداد عشاء عيد الميلاد. هل أرغب بالانضمام إلى لويزا وعائلتها الجديدة؟ لستُ متأكدة على الإطلاق، لكنني اعتقدت أنه قد يكون من الفظاظة ألا أفعل ذلك.

سافرت إلى هايغيت في إجازتي التالية بعدما عادت من شهر العسل. بدت مختلفة بطريقة ما، أكثر اتزانًا وبلوغًا. وكان شعرها مكدسًا على رأسها بطريقة مثالية، وكانت ترتدي فستانًا أخضر غامق بياقة عالية. مدت يديها إليّ عندما دخلت وقالت: «بيلا، كم تُسعدني رؤيتكِ. لا تعرفين عدد المرات التي فكرت فيها بكِ عندما كنّا مسافرين. تعالي واجلسي بجانب النار، وسنحتسي القليل من الشاي»، والتفتت إلى الخادمة التي تحوم قربنا وقالت لها: «من فضلكِ أخبري الطاهية أننا أنا وأختي سنحتسي الشاي الآن ولن ننتظر سيدتكِ».

- «كما تأمرين يا سيدة هاريسون». وغادرت الخادمة.

تمعنتها باهتمام. هل حوّل شهر زواج واحد هذهِ الفتاة إلى امرأة بالغة واثقة من نفسها؟

وما إن أُغلق الباب حتى رمقتني لويزا بابتسامة بنّاتية شيطانية واسعة وقالت: «إنه أمر ممتع أليس

كذلك؟ أحب فعلاً أن يكون لدي من ينتظر أوامري. لقد مر وقت منذ أن تعين عليّ فعل كل شيء بنفسي. حتى أن لدي خادمة حماتي لتصفف شعري».

- «يبدو خلاباً. كيف كان شهر العسل؟».

- «كان الفندق مريحًا جدًا. وفيه مستنبت زجاجي يواجه المتنزه، نجلس داخله عندما تسوء الأحوال الجوية، ويقرأ بيلي الصحيفة وأنا أقرأ مجلة المرأة ونحتسي الشاي».

كنت لا أزال أتمعن وجهها. هل تحاول التصنع، أم أنها قد تحولت حقًا إلى شخص غريب؟

- «هذا ليس ما قصدته. كيف كان شهر العسل؟».

ألقت نظرة خاطفة لما حولها ثم انحنت مقتربة مني وهمست: «كان فظيعًا إلى حد ما في البداية. أعني، لم يكن لدي أي فكرة عمّا ينتظرني. هل تعرفين بالضبط ما يستلزم؟ إنه لأمر صادم يا بيلا، ما يحب الرجال فعله بأجسادنا. لماذا لم يخبرنا أحدٌ بذلك؟!».

- «أمنا ماتت».

- «لكن هل يمكنكِ تخيلها تخبرنا أمورًا كهذه؟ كانت مهذبة ورقيقة على الدوام. وأراهن أنها ما كانت لتنطق بكلمة حتى. لكن لأصدقك القول، كان بيلي صبورًا معي، وتعلمت الآن أن أتحمله».

- «تتحملينه؟ أليس من المفترض أن يكون شعورًا أكثر إيجابية من التحمل؟».

رفعت كتفيها بلا مُبالاة وقالت: «أعترف أنني لا أستمتع بالعلاقة الحميمة بقدر ما يستمتع بيلي على ما يبدو. أعني، كل هذا الارتداد إلى الأعلى والأسفل واللُهاث. ولكنني أفترض أنه التزام ضروري على المرأة المتزوجة إذا كانت تريد أطفالاً، وقد أستمتعُ به أكثر مع مرور الوقت. مع أنه - بيني وبينكِ - أعتقد أنه سخيف إلى حد ما ومزعج عندما أكون متعبة في نهاية اليوم وأفضل أن أنام».

توقفت عن الكلام عندما فُتح الباب وجاءت الخادمة تدفع عربة الشاي. وسمحنا لها بصب الأكواب لنا. فلاحظت بارتياح أن الكعك الصغير لا يرقى إلى مستوى معاييرنا في القصر.

- «بخصوص عيد الميلاد، لدي أخبار طيبة. يمكنني الحصول على يوم عيد الميلاد إجازة إذا أردتِ ذلك».

بدت علامات الخيبة على وجهها وقالت: «أوه بيلا عزيزتي. أنا شديدة الأسف لكننا سنذهب إلى مزرعة العائلة في عيد الميلاد، إلى جد بيلي في الريف، وسنذهب لأسبوع كامل. هل تعتقدين أن صاحب عملكِ قد يمنحكِ إجازة أسبوع لتذهبي معنا؟».

- «أخشى أنه لن يفعل. لدي أجازة ليوم عيد الميلاد فقط».

- «أنا آسفة جدًا»، قالت مرة أخرى، «لن يبدو عيد الميلاد عيدًا بدونك».

- «لا بأس. أنا على يقين أنني سأحظى بوقت ممتع مع زملائي الخدم».

مدت يدها وأخذت يدي بين يديها وضغطت عليها وقالت: «لا يمكنني تحمل التفكير بكِ تعملين خادمة يا بيلا بينما أستمتع أنا بكل هذا. هذا ليس صائبًا، وليس عدلاً. ألن تغيري رأيكِ وتأتين للعيش معنا؟».

- «أنتِ لطيفة للغاية يا لويزا، لكني لا أرغب أن أكون الأخت العانس مع حماتي، لتكون مهمتها إيجاد زوج مناسب لي»، وابتسمتُ لها، «أنا أحب مكان عملي فعلاً، وأبلي بلاءً حسنًا فيه،

ترقيت إلى مساعد طاهٍ للحلوى والفطائر».

- «أوه، لا بد وأنه مطبخ كبير جدًا إذا كان هناك طاهٍ مخصص للحلوى والفطائر فقط، ومساعد أيضًا. لدينا طاهية واحدة وخادمة مطبخ هنا».

- «إنه مطبخ كبيرٌ جدًا».

- «أوه، لا بد وأنه فندق أو مطعم»، وأشرق وجهها، «كنت قلقة من أن يكون مكانًا غير ملائم».

- «ملائم تمامًا، أؤكد لكِ. كل ما في الأمر أنه غير مسموح لي بإخبارك، حسب قواعد الشركة».

- «فهمت»، وبدت أسعد الآن، «أنا سعيدة لأنكِ في وظيفة جيدة، مع أني أتمنى ألّا تضطري لكسب رزقكِ بنفسكِ».

- «لكنني أستمتع بذلك. لقد أصبحتُ ماهرة جدًا».

- «وستلتقين بشخص ما قريبًا، أنا متأكدة من هذا. شخص يسعدكِ كما يسعدني بيلي».

- «آمل ذلك». وجلسنا هناك، وأيدينا لا تزال متشابكة.

اقترب عيد الميلاد، وغادرت الملكة وحاشيتها، ووقفنا مصطفين في البهو لتمنحها توديعًا مناسبًا. فرّت متكئة على ذراع منشيها الهندي، مستخدمة عصاها في المشي، لكنها أومأت برأسها نحونا. وعندما لمحتني، لاحظتُ التميز في عينيها، رمقتني بابتسامة صغيرة، ثم ساعدوها على ركوب العربة، أو بالأحرى رفعوها ووضعوها في العربة التي انطلقت بعد ذلك مبتعدة. تمنى لنا السيد آنجيلو عيد ميلاد مجيد، وقال بأن مضيف النبيذ قد تلقى أوامرًا بفتح زجاجة كلاريت وزجاجة بورت فقط لاحتفالاتنا. وغادر أيضًا برفقة كبار الطهاة، تاركًا السيد فرانسيس مسؤولاً عن المطبخ، وسيدتين ونحن المتدربين لتولى المسؤولية أثناء غيابه.

كانت أيام قليلة ممتعة. تألفت وجباتنا من الحساء واليخنات تليها بودينغ شحم الماشية، وكانت الوجبات تُحضّر بسهولة وتزال بسهولة. تساقط الثلوج عشية عيد الميلاد، فخرجنا إلى الحديقة نلعب بكرات الثلج، وانضمت إلينا السيدة سيمز وصرخت عندما اصطدمت بها كرة الثلج، لكن السيدة غيليسبي رفضت بصرامة، كانت امرأة غريبة، مهذبة بما فيه الكفاية لكنها متحفظة للغاية وغير ودية إطلاقًا. وفي ذلك المساء أحضر

أحد المتدربين شجرة عيد الميلاد وزيناها بالشموع والكرات الزجاجية والسلاسل الورقية، ثم جلسنا حول الشجرة ننشد التراتيل.

كنت في طريقي إلى غرفتي عندما سمعت صوت أحدهم يناديني، فاستدرت لأرى نيلسون خلفي في الرواق.

- «أردتُ أن أقول ميلادًا مجيدًا فحسب. سأغادر صباح الغد إلى منزلي وسأقضي اليوم مع والدتي العجوز والعائلة. لكني لم أرغب بالذهاب قبل أن أعطيكِ هذه، ولم أحبذ إعطاءها لكِ أمام الآخرين. لا أريد أن تراودهم أي أفكار»، وناولني علبة صغيرة وقال: «ليس بالكثير لكني وددت أن أهديكِ تذكارًا».

فتحتها وأنا أدعو الله ألا تكون الهدية جواهرًا، أو خاتمًا على وجه الخصوص، لكني وجدتُ داخل العلبة كيسًا خزاميًا مطرزًا بطريقة جميلة بالورود.

- «طلبت من أختي أن تصنعه لكِ. فهي تطرز للخياطة».

- «هذا جميل»، شعرت بالحرج لأنني لم أشترِ له شيئًا. لا بد وأنه أدرك هذا، لأنه رفع يده وقال: «لا، لا تقولي شيئًا. من المتعارف عليه أن يُغدق

الشبّان فتياتهم المميزات بالهدايا، لا العكس».

- «هذا لطف كبير منك يا نيلسون. أقدر ذلك حقًا»، وقفنا وحدنا في المدخل، قريبين من بعضنا فقلت: «يجب أن آخذ هذا إلى غرفتي وأضعه في مكان آمن».

- «قبل أن تذهبي»، ووضع يده على ذراعي ليوقفني ثم قال: «انظري إلى الأعلى».

فنظرت، وأنا أتساءل عمّ يتحدث. كنا نقف في الرواق المتقشف الذي لم يكن فيه زينة من أي نوع.

- «يا لها من مفاجأة! نبات الهدال. أتساءل من وضعه هناك».

كان غصن الهدال يتدلى من المصباح الكهربائي العلوي، وعلى حين غرة، أخذني بين ذراعيه وبدأ يقبلني. لم أقاومه أو أدفعه، تركته يقبلني، وعندما ابتعدنا عن بعضنا، أشرق وجهه بابتسامة مبهجة وقال: «هذا أفضل عيد ميلاد على الإطلاق. سأتذكر هذا لوقت طويل».

ذهبتُ إلى فراشي وحاولت تقبل ما حدث للتو. هل كان عليّ ردعه؟ هل شجعته الآن أكثر من اللازم؟ وبالنسبة للقبلة الأولى، كانت رقيقة،

وليست مخيفة على الإطلاق، لكن، ألا يفترض أن يشعر المرء بشيء؟ في الواقع، كل ما شعرتُ به هو شفتيه الباردة قليلاً تضغط على شفتي، ليس بطريقة مزعجة، لكنها وبالتأكيد ليست احساسًا ساحرًا كما تصورها الروايات الرومانسية.

استلقيتُ على سريري أستمع إلى صوت الرياح وهي تهز زجاج النوافذ، أحاول تقبل ما حدث. علمتُ أنه كان معجبًا بي، لكن هذا كان أبعد من حدود الصداقة، والمشكلة أنني أردت المزيد، أردت أن أقع في الحب، وأن ينسى قلبي نبضه عندما ينظر إلى أحدهم، وأن أعيش حياة سعيدة إلى الأبد. لكني لا أستطيع تخيل حياة مستقبلية مع نيلسون ووالدته العجوز وأخوته الصاخبين في منزل يقع خلف معامل الغاز. مع كل ما حصل لي، أظن أنني لم أتخلَ عن جذوري الأرستقراطية. وقد أفعلها يومًا ما.

نمت أخيرًا واستيقظت على صوت أجراس الكنائس من بعيد، فتمتمتُ لنفسي: «عيد ميلاد مجيد». وفكرت في أعياد الميلاد في الماضي، عندما كانت والدتي على قيد الحياة، كنتُ أجد جوربًا وبرتقالة وقشدة الشوكولاتة المخفوقة، وفي بعض الأحيان أجد كتابًا وقفازات، لم تكن هدايا باهظة

الثمن مطلقًا، لكنها كانت مثيرة بنفس القدر، وعلى مدار السنوات القليلة الماضية، كان يوم عيد الميلاد يعني الاستيقاظ فجرًا لأشعل نيران المواقد، ثم أسرع لأعداد الحشوة ووضع الديك الرومي في الفرن. لن يكون لدينا الكثير من العمل اليوم على الأقل، ولدي هدية أفتحها بالإضافة إلى أخرى استلمتها مسبقًا.

كنت قد اشتريت دفتر مذكرات بقفل ومفتاح للويزا وأرسلته لها في الوقت المناسب قبل مغادرتها إلى الريف، ووصلني منها طرد، لكنني انتظرت حتى صباح عيد الميلاد لفتحه. حضرنا القدّاس في كنيسة القصر أول الأمر، وبعد ذلك عدنا لتناول إفطار فخم مكون من النقانق والبيض ولحم الخنزير المقدد. حشيت الطيور ووضعتها في الأفران، وبعد ذلك تجمعنا حول الشجرة.

تلقى الجميع هدايا من جلالة الملكة، عبارة عن قلادة ملكية تحمل صورتها الجميلة، وهدية أخرى من السيد آنجيلو عملية أكثر، منديل جديد لكل واحد منّا، ثم فتحتُ هدية لويزا أخيرًا، كانت قلادة جميلة من حجر الجشمت ووشاحًا دافئًا وجُنيه ذهب، فترقرقت عيناي بالدموع، لقد مرت سنوات عدّة منذ أن جلب لي أحدهم أي

شيء جميل أو مميز، وشعرت بالذنب لأني انتقدت رغبتها في الزواج في حين تكفلتُ أنا بمصاريف تعليمها، ولأنها لم تقدِّر تضحياتي. والآن أرى أنها كانت تهتم بي حقًا.

بدأت وليمة عيد الميلاد في الساعة الواحدة، انضممنا إلى طاقم القصر الآخرين في صالة طعام الخدم. وكانت الطاولات مغطاة بأقمشة بيضاء ومزينة بالإيلكس واللبلاب، ووضعت المفرقعات بجانب كل طبق. جُلب ديكين روميين وأربع أوزات، جلودها محمصة ببراعة وتلمع. وقطع لنا السيد فرانسيس شرائح اللحم بينما كانت سلطانيات البطاطا المحمرة، وحشوة الكستناء وحشوة البصل والمريمية وصلصة الخبز، وكرنب بروكسل، والقرنبيط مع الصلصة البيضاء والملفوف مع المرقة تُمرر بيننا، وسُكب نبيذ الكلاريت. سحبنا مفرقعاتنا واعتمرنا قبعاتنا الورقية وقرأنا الشعارات والأحجيات السخيفة وعرضنا ألغازنا وألعابنا، ثم تلونا صلواتنا وأكلنا حتى أتخمنا ولم يعد ثمة مجال للقمة أخرى.

ثم نُفخت الأبواق وأُحضر بوديغ عيد الميلاد، يتوجه بالبراندي وغصن إيكلس مغروز فيه، ساعدتُ في تحضيره في أحد عيد المسيح الملك

في نوفبر، وأرسلنا معظمه مع الطهاة إلى منزل أوزبورن، وبقي الكثير منه من أجلنا، يقدم مع الكاسترد وزبدة البراندي التي أعددتها. وكان في داخلها قطع فضية كثيرة فئة ثلاثة بنسات، وكنتُ محظوظة لأجد واحدة منها.

- «تمنيّ أمنية». قالت لي خادمة الاستقبال التي كانت تجلس قبالتي.

لم أكن متأكدة ماذا سأتمنى فهمستُ لنفسي: «ليكن عامًا إيجابيًا لي، لا أريد مفاجآت غير سارة أرجوك».

قد تعتقد ألّا أحد سيفكر في الطعام مجددًا لأسابيع بعد هذهِ الوليمة الضخمة، لكننا ومع ذلك، قدّمنا الشاي، في وقت متأخر قليلاً عن المعتاد، وأصرَّ السيد رولاند على إعداد كعكة عيد الميلاد لهذا الشاي، وكانت كعكتنا تحفة فنية بكل تأكيد. فقد وضعت على رف تتألق بقشدة زينة ملكية تنتظر الأشكال الخزفية لتكمل مشهد الثلج. وقد زُينت بزلاجات ورجال الثلج وأطفال يرمون كرات الثلج.

جلسنا حول النار بعد تناول الشاي، متخمين لدرجة عجزنا فيها عن فعل الكثير، ولعبنا بعض ألعاب الحفلات مثل قطة الوزير، وتمثيلية

الأحجيات، ووضعنا أطباق الديك الرومي البارد والبط والمخلل والخبز لاحقًا، لكنني لم أتمكن من أكل شيء.

قال نيلسون أنه أفضل عيد ميلاد بالنسبة له، وكان كل ما يمكنني التفكير فيه أن هذا هو ألطف عيد ميلاد قضيته منذ سنوات.

الفصل الحادي عشر

بزغ فجر العام الجديد، العام الذي بشّر بإثارة اليوبيل الماسي الكبيرة؛ لقد مرّ ستون عامًا على اعتلاء ملكتنا العرش. لكنه لم يبدأ بابتهاج كبير، إذ عادت الملكة من بيت أوزبورن وهي تعاني من نزلة برد مروعة وفي مزاج نكِد. وتلقينا تعليمات بصنع جميع أنواع المرق الشفائي، بالإضافة إلى هلام قدم العجل. وكانت جلالة الملكة تُعيد معظم الأطباق، معلنة أن الطعام مقرف وعديم الفائدة. وبذا لم تكن هناك أية حفلات أو مناسبات، لذلك، أمضينا نحن الطهاة المتدربون أوقات فراغنا نتدرب على صنع أطباق جديدة ومعقدة من مكتبة كتب الطبخ، وكنّا نرسلها إلى السيدات والسادة في القصر أو نتناولها نحن. وقد تداولت الألسن همسًا في القصر أن صحة الملكة آخذة في التدهور وقد لا تنجو لتحتفل في الصيف.

- «إياكِ وتصديق هذا»، همس لي نيلسون، «هي طائر عجوز صلبة العود، وعنيدة أيضًا. ستتمسك بتلابيب الحياة فقط لتحرص على أن تركب العربة وتعبر الميدان المشجر».

ارتحت كثيرًا لأن علاقتي بنيلسون عادت إلى

مسارها الطبيعي الآمن. أثلجت بغزارة بعد عيد الميلاد، وأصبح التنزه في الخارج متعذرًا ومحفوفًا بالمخاطر، لذا، لم نخرج كثيرًا. وسمعت من لويزا أن قضاء عيد الميلاد في الريف كان مملاً للغاية، وأن جد بيلي شرب الكثير من الخمر، لكني لم أحظَ بفرصة زيارتها شخصيًا لأسمع التفاصيل، إلا أنني كنتُ سعيدة في قرارة نفسي لأني لم أتمكن من الذهاب معهم، لكان قضاء الوقت محجوزين بسبب الثلج مع أقارب بيلي بمثابة كفّارة.

ولم تسنح لي الفرصة لزيارة لويزا حتى نهاية يناير. وعندما ذهبتُ إلى المنزل الكبير في هايغيت في إجازتي المسائية، ظننتُ أن لويزا تعاني من خطب ما، شيء ما مختلف فيها، حتى اتضح الأمر لي فسألتها: «هل أنتِ حامل؟».

هزت رأسها وقالت: «لا علم لي بهذا، لا. هناك شيء آخر يجب أن أخبركِ به، لكنني لستُ متأكدة منه بعد»، توقفت مؤقتًا، ولفّت خيط حبات الكهرمان الأسود الطويل الذي كان يطوق عنقها ثم قالت دون تفكير: «بيلي يريد أن ننتقل للعيش في أستراليا».

لم أتوقع هذهِ الأخبار قطعًا. «أستراليا؟ أليس هذا المكان الذي يُرسلون إليه المُدانين؟ لأي

سبب؟».

قالت: «تعتبر جزءًا مزدهرًا من الإمبراطورية هذهِ الأيام، فيها الكثير من الأراضي الجيدة، وهم يحثون الناس على الذهاب واستيطانها باستماتة، وكان والد بيلي قد أخبره أنه سيوفر له كل ما يحتاجه لبدء مزرعة للأغنام أو الماشية، ويمكنه الحصول على آلاف الأفدنة، ويمكننا تصدير الأغنام والصوف إلى إنكلترا، وبذلك ستكون لدينا فرصة لنصبح أثرياء حقًا يا بيلا. سنكون ذو شأن، وفي أستراليا لا يهتمون إذا كان والدك جزارًا أو كانس مدخنة».

عجزت عن الكلام. فقالت أخيرًا: «قولي شيئًا».

فتمتمتُ: «أنا سعيدة من أجلكِ، إذا كان هذا حقًا ما تريدينه يا لويزا».

- «هذهِ هي المشكلة تحديدًا. لست متأكدة من أن هذا حقًا ما أريده يا بيلا. أعني، أريد أن يحظى بيلي بفرصة المضي قدمًا وتحقيق شيءٍ ما في حياته، لكن أستراليا بعيدة جدًا، وتساءلت ...»، توقفت ونظرت إليَّ ثم قالت: «هل يمكن أن تأتي معنا. أنتِ كل ما لدي يا بيلا، وعندما يتعلق الأمر بالولادة والأمور الأخرى، حسنًا، أخاف خوضها بمفردي»، ومدّت يدها وأخذت يدي ثم

أردفت: «ستأتين، أليس كذلك؟ سيهتم بيلي بكل شيء»».

دارت الأفكار في رأسي. لم أرغب في التخلي عن أختي الوحيدة، ولكن ماذا سينتظرني في مزرعة تبعد آلاف الأميال عن بلدي سوى فرصة الزواج من مزارع والبقاء في مكان مجهول. وماذا عن طموحاتي في الطبخ؟ وفرصة عيش حياتي؟ خطر لي وللمرة الأولى: عليّ أن أضع حياتي في المقام الأول. فهززت رأسي وقلت: «أعتذر يا لويزا لكني لا أستطيع، فلدي أحلامي وطموحاتي، وأريد أن أصبح طاهية جيدة، بل طاهية محترفة. وأريد أن أعيش حياتي بطريقتي، لا أن أكون عالة - الأخت المسكينة غير المتزوجة - في حياتكِ».

- «سمعتُ أن هناك الكثير من الرجال غير المتزوجين في أستراليا».

- «مزارعون ورعاة بقر ورجال أفظاظ وغير متعلمين. أريد أفضل من هذا لنفسي يا لويزا».

- «وهل تظنين أن عملكِ طاهية سيمنحك الاحترام والمكانة التي تريدينها؟»، قالت بحدة، «الطاهي هو خادم أيضًا»، وتجمعت الدموع في عينيها وقالت: «أنا آسفة. كان هذا غباء مني. كل

ما في الأمر أنني لا أريد الابتعاد عنك كثيرًا».

هززت رأسي وقلت: «وأنا آسفة أيضًا. ولا أريدك أن تبتعدي كثيرًا، لكنني وجدت مكانًا أشعر فيه بالانتماء يا لويزا. أحب عملي وأتعلم المزيد بمرور الوقت. يجب أن تري الكعك الذي يمكنني صنعه الآن».

وابتسمت لها ابتسامة مشجعة، لكنها ابتعدت وهي لا تزال مستاءة. فخطر ببالي أنها تشبه والدي إلى حد ما، فقد كان يشعر بالضيق عندما لا يحصل على ما يريد، لكن في هذهِ الحالة، لم يكن الأمر تافهًا، فقد يكون الانتقال إلى أستراليا أمرًا مربكًا لأي أحد.

- «ربما عندما تستقرين هناك، وتتمكنين من إخباري بظروف العيش وكم تبعدين عن المدينة، سأفكر في الأمر. حتى أنني قد آتي لزيارتكِ، لكن ليس الآن، ليس عندما بدأتُ للتو في العثور على مكان لنفسي في العالم».

قالت بصلابة: «حسنًا إذًا، حري بكِ أن تعانقي أختكِ الصغيرة للمرة الأخيرة، لأننا قد لا نرى بعضنا مرة أخرى».

سألتها بفزع: «هل ستغادرين بهذهِ السرعة؟»،

- «لا، لن نغادر حتى حلول الصيف على أقل تقدير، فلدى والد بيلي وكيل عقارات يعمل على إيجاد أفضل أرض زراعية له، وعلينا الحصول على تصريح سفر».

- «في هذهِ الحالة ستريننى مرة أخرى، أيتها الأوزة الغبية. هل تعتقدين أنني لن أزوركِ حتى حلول الصيف؟».

فرمقتني بضحكة حزينة وقالت: «بالطبع ستفعلين هذا. لكن حالما نقول وداعاً، سيكون وداعاً بالفعل»، وأمسكت يدي وضغطت عليها بقوة وقالت: «فكري في الأمر يا بيلا. سيرتاح بالي كثيراً عندما أعلم أنكِ ستذهبين معي إلى تلك البلاد البعيدة».

- «سأفكر في الأمر يا لويزا». قلت لها، مع أنني كنتُ قد اتخذتُ قراري بالفعل.

شعرت بالذنب عندما رأيتُ الأمل يلوح في عينيها وهي تقول: «قد تكون مغامرة رائعة. لديهم كنغر وكوالا وكل الأشياء الممتعة».

- «لا يمكنني الزواج بكنغر يا لويزا». وأضحكتها لأخفف حدة التوتر.

أمضيت بضعة أيام بائسة أشعر بالذنب والغضب

بالتناوب، لأنها وضعتني في مثل هذا الموقف الصعب، لا رغبة لدي في الذهاب إلى أستراليا والعيش في مزرعة بكل تأكيد، لكنني رأيت الخوف في عينيها، وكانت صغيرة جدًا. ثم ذكّرت نفسي بأنني أضع عائلتي في المرتبة الأولى منذ وفاة والدتي، فقد تحملت سنوات من الذل والعبودية من أجل لويزا، وأريد أن أصبح طاهية محترفة، والأكثر من ذلك كله، أريد أن أكون امرأة مستقلة أعيش حياتي وفقًا لشروطي. وقد حان وقتي الآن.

شغلت نفسي بحماس لتحسين مهاراتي في الطهي، وابتكار ما قد تصبح أطباقًا مميزة، بينما كنا ننتظر البيان اليومي حول صحة الملكة وتعافيها من مرضها الحالي. ثم وفي أحد الأيام بداية فبراير، عندما بدأ الثلج بالذوبان وأصبح المشي في الخارج مزعجًا، استدعانا السيد آنجيلو جميعنا. كان لديه إعلان من جلالتها، لقد شعرت الملكة أنها لن تتحسن طالما بقت في لندن، لذلك قررت أن تسافر إلى الريفيرا على الفور. لقد قضت فصول الشتاء على ساحل البحر الأبيض المتوسط عدة مرات من قبل، وكانت تنزل سابقًا في فنادق أو فيلات تابعة لنبلاء آخرين، ولا تأخذ معها سوى خادماتها الشخصيات ومرافقيها، بيد أن فندقًا جديدًا بُني

خصيصًا من أجلها هذهِ المرة.

- «هل تصدقون إن اسمه إكسلسير ريجينا»، قال السيد آنجيلو وهو يبتسم، «وهو مكان ضخم ورائع، فيه جناح كامل للملكة وحاشيتها. لذلك تخطط هذهِ المرة لأخذ عدد أكبر من أفراد قصرها».

سأله أحد المتدربين يدعى جيمي: «هل سيشمل هذا طاقم المطبخ أيها الطاهي؟».

- «نعم، مع أنني لا أظن أننا سنأخذك معنا يا فتى، ستواجه الكثير من المتاعب في أجواء الريفيرا الحارة مع الفتيات الفرنسيات». وابتسم ابتسامة عريضة مرة أخرى.

سأله السيد فيلبس: «أليس لديهم طهاة في الفندق؟».

- «بلى، لكن الملكة تفضل أن يُحضَّر طعامها بالطريقة التي اعتادت عليها وبواسطة أشخاص تعرفهم. وهي ترتاب الطعام الأجنبي كما نعلم جميعنا».

- «إذًا مَنْ ستأخذ؟». أصرَّ جيمي.

قال السيد فرانسيس بسرعة: «أتمنى آلا أكون من ضمنهم. فأنا على أبواب التقاعد، وكبير جدًا على مثل هكذا رحلة شاقة، بالإضافة إلى أني لا

أتحمل حرارة الجو بعد الآن».

أجابه السيد آنجيلو: «إنها ليس فحسب يا سيد فرانسيس، وليست الكونغو. لكنني سأحترم رغباتك. سيكون طاقمًا صغيرًا، ولن نطبخ إلا لها ولعدد قليل من أقاربها المقربين. وفي حال قررت إقامة حفلة أكبر، فسيكونون طهاة الفندق تحت تصرفنا. حسنًا، من يود الذهاب؟ يجب أن آخذ رغباتكم بعين الاعتبار». وجال ببصره حول المطبخ.

قالت السيدة غيليسبي: «لا أعتقد أنك تريد أن تأخذنا نحن السيدات، لن يكون من المناسب لنا السفر مع الرجال، أو الخروج بدون مرافق في أماكن أجنبية».

وافقتها السيدة سيمز بشدة: «السيدة غيليسبي محقة. فالحكايات التي يسمعها المرء عن هؤلاء الفرنسيين والإيطاليين كثيرة. ليس لديهم لباقة على الإطلاق، يقرصون الأكفال».

قال السيد رولاند: «أنا فرنسي وأستاء من ذلك. فأنا أحسن التصرف مثل أي رجل إنكليزي، لا بل أفضل من معظمهم».

فقالت السيدة سيمز على عجل: «أنا لا أقصد جميع

الفرنسيين يا سيد رولاند. يمكن لأي شخص أن يرى أنك رجل نبيل».

قال السيد آنجيلو: «بالطبع سنأخذ السيد رولاند معنا، إذ كيف ستعيش جلالة الملكة بدون كعكها وحلوتَها؟»، وأومأ للسيد رولاند، «بالإضافة إلى ذلك، سنحتاج إلى شخص ما ليترجم لنا ويتواصل مع عمال المطبخ الفرنسيين»، وجال ببصره بيننا ثم قال: «أعتقد أن علينا اصطحاب طاهيين، السيد فيلبس والسيد ويليامز، بصفتهما الرجال الأعلى مقامًا، إذا لم يكن لدى أي منكما اعتراض؟».

أجاب السيد فيلبس: «لا على الإطلاق يا سيدي. أعتقد أن الهواء على شاطئ الريفيرا سيكون أكثر ملاءمة للروماتيزم الذي أعاني منه».

وأضاف ويليامز: «وأنا أيضًا لا أمانع الابتعاد عن أمطار الشتاء».

- «هذا كل شيء إذًا»، قال السيد آنجيلو، «نحتاج إلى أحد الطهاة الشباب ليُعد التحضيرات الأساسية. نيلسون؟ يبدو أنك الأكثر خبرة من بقية أقرانك».

نظرتُ إلى نيلسون، كان وجهه محمرًا وقال: «لو

سمحت يا سيدي. أفضل عدم الذهاب بعيدًا عن والدتي المريضة فهي تعتمد علي بغياب والدي كما تعلم».

تنهد السيد آنجيلو: «لا بأس يا نيلسون. أنا أحترم وجهة نظرك هذه. لذا أفترض أنه من الأفضل أن يكون جيمي بدلاً منك، بصفته متدرب أقدم. على الرغم من شكوكي بشأن إغراءات النساء الفرنسيات ...»، وضحكت المجموعة بصمت، «ما لم يكن لديه التزامات عائلية لا يمكنه الخلاص منها».

ابتسم جيمي ابتسامة واسعة وقال: «أوه لا يا سيدي، كنت أتوق للسفر ورؤية العالم، خذني معك، أنا لها».

- «حسنًا، لقد سوّي الأمر. سيتألف الطاقم منّي أنا، والسيد رولاند، والسيد فيلبس، والسيد ويليامز، وجيمي. وبالنسبة لأولئك الذين بقوا منكم، ستقدمون الطعام لأفراد القصر الذين لن يسافروا مع صاحبة الجلالة».

- «وسنقضي أوقاتًا ممتعة كذلك». تمتمت السيدة سيمز لي عندما عدنا إلى أماكننا.

وعندما انضممتُ إلى السيد رولاند في الجزء

الخاص بنا في المطبخ، بدا منطفئًا، وكان عليَّ أن أذكره أنه أضاف مسبقًا ملعقتين صغيرتين مليئتين بمسحوق الخبز إلى العجين. فقال: «شكرًا لكِ يا عزيزتي»، وهذا أمر غريب في حد ذاته، إذ لم يُعرف عنه امتنانه لأي أحد، وعادة ما كان ينسب الفضل كلّه لنفسه في أي شيء أخبزه. وأنا متأكدة أنه لم ينادِني «عزيزتي» من قبل. فسألته:

- «هل ثمّة خطب ما يا سيد رولاند؟ أم أنت متحمس لزيارة موطنك مرة أخرى».

نظر لما حوله ثم انحنى مقتربًا مني وقال: «على العكس يا هيلين، لا أتطلع إلى هذا ولو قليلاً. فأنا أخشى عبور البحر لأني أعاني من دوار البحر».

- «سيكون عبور البحر لفترة وجيزة بلا شك. فقد سمعت أنّه يستغرق ساعة واحدة في البحر من دوفر إلى الساحل الفرنسي».

- «ليس بالطريقة التي تُسافر بها»، ونظر مرة أخرى لما حوله ليرى إذا كان هناك أحدهم قريب ما يكفي ليسترق السمع وقال: «تستقل القطار إلى بورتسموث، ثم تأخذ اليخت الملكي إلى شيربورغ. وهذا يعني أن البحر يتقاذفنا ليلة كاملة. وأنا أعرف هذا لأنني سافرت إلى هناك مرة ولم أكررها مرة ثانية. ولأصدقكِ القول، لا

أكنُّ حباً لأبناء وطني من أهل الجنوب. فهؤلاء الناس في نيس، أغلبهم إيطاليون وقليل منهم فرنسيون، وكثير منهم أوغاد ولصوص».

- «لكن فكّر في أشعة الشمس الجميلة والفاكهة والأزهار».

- «أنتِ رومانسية مثل كل الفتيات الصغيرات. أنا أفكر في مصارف المياه السيئة والتيفوئيد».

ضحكت وقلت له: «أرى أنك لستَ رومانسياً على الإطلاق يا سيد رولاند».

- «لقد تعلمت أن الحياة صعبة وكئيبة يا هيلين، فنحن نولد ونعمل ونخلق أشياء جميلة تُلتهم في بضع ثوان ... ثم نكبر ونموت».

كنت لا أزال أبتسم، وبطريقة ما شعرتُ بالإطراء، فقد كانت هذهِ هي المرة الأولى التي يتحدث فيها معي كما لو كنت شخصاً وليس تابعاً. فقلت: «آمل أن يكون هناك ما هو أكثر من ذلك في الحياة. أعترف أن تجربتي الخاصة حتى الآن لم تكن رائعة، لكنني متفائلة بالمستقبل».

- «ستجدين وبلا شك شاباً يقع في حبكِ، وتتزوجينه وتتركيني بعدما وجدتُ مساعداً ماهراً يكون العمل معه ممكناً».

- «شكرًا لك يا سيدي»، قلت بالفرنسية، «يشرفني أن تعتقد ذلك، لكن ليس لدي أي نية في الوقوع في الحب حتى أتعلم وأصبح طاهية حلوى وفطائر جيدة».

عبس وقال: «كيف تعرفين لغتي؟ هل زرتِ بلدي من قبل؟».

أجبته: «لا يا سيدي، لقد تعلمتها عندما كنت فتاة صغيرة، فأنا أنحدر من عائلة جيدة، وكان والدي يتحدث الفرنسية بطلاقة، لكنه مات هو وأمي، واضطررت إلى العمل خادمة».

- «والآن أصبحتِ تعرفين أن الحياة صعبة»، قال موافقًا ثم تابع: «تذكرت الآن شيئًا، عندما قطعت إصبعي ونطقت ببعض الكلمات بالفرنسية، فهمتِني، أليس كذلك؟ وطلبتِ مني أن أهدئ من روعي».

أومأت له بالإيجاب وقلت: «لم أعرف المعنى الدقيق لهذهِ الكلمات، لكنني فهمت المشاعر التي تعبر عنها».

- «وبعد أن علمتُ الآن أنكِ تتحدثين بلغة بلدي، سأستمتع بالحديث معكِ من حين لآخر، أظن أني قد بدأت أفقد طلاقتي في الحديث، إذ لم أتحدث

بالفرنسية منذ وقت طويل».

- «هل أنت هنا منذ وقت طويل؟»».

- «جئت إلى هنا منذ طفولتي. كان والدي طاهي حلوى وفطائر قبلي في باريس، ثم دُعِي إلى لندن للعمل بصفة حلواني في مقهى غانترز. لقد تعلمتُ صنعتي من الأفضل».

- «بكل تأكيد. فقطع البتيفور التي تصنعها رائعة. أتمنى أن أتعلم المزيد منك عندما يكون لديك الوقت لذلك. كم من الوقت برأيك ستغيب الملكة؟».

- «عادة ما تبقى شهرين على الأقل. شهران من الماء النتن وحُمّى القش بسبب كل تلك الزهور». وتنهد.

فابتعدتُ عنه مذهولة، لقد رأيتُ السيد رولاند شخصًا صعب الإرضاء يعتبرني إزعاجًا لا بد منه. ويبدو الآن أن لدي فرصة لصداقة حقيقية معه في المستقبل، ولو قدرًا ضئيلاً منها.

وبعد هذا، عمّ المطبخ صخب وضجيج استعدادًا للرحلة الكبرى. اختار السيد آنجيلو بين كتب الطبخ التي يود أن يأخذها معه، بالإضافة إلى أوانيه ومقاليه المفضلة وقال: «يجب أن آخذ كل

وصفاتي معي. هذا واضح! وأعلم أنهم أخبرونا بوجود مطبخ مجهز بالكامل، لكن هل سيكون لديهم مقاس القالب المناسب لمهلبية الملكة المفضلة؟ أو توربان لتيرين الطرائد هذا؟ أو وعائي المخصص لسلق السمك؟ وهل يعرفون كيف يسلقون السمك في فرنسا؟ وأنّى لي أن أعرف ما هي أصناف السمك المتوفرة في الأسواق المحلية؟». وزادت كومة المعدات التي لن يتمكن من الاستغناء عنها أكثر فأكثر، فتساءلت كيف سيتمكنون من حملها.

ثم احتدم النقاش حول ما سيرتدونه، فقد كان الجو وبلا شك أكثر دفئًا في المناخات الجنوبية. تذمر الرجال من أنهم يرتدون بدلات غامقة في إجازاتهم. وكيف سيتمكنون من الحصول على بدلات من الكتّان؟ شاهدنا أنا والسيدة سيمز كل هذا باستمتاع وتمتمت قائلة: «كأنهم مجموعة نساء، يتساءلن عمّا سيرتدينه، وإذا كان سيبدو أنيقًا في فرنسا، لكنني سعيدة لعدم ذهابنا، وأتمنى أن يرحلوا لنعود إلى السلام والهدوء وروتيننا المعتاد مرة أخرى».

وأثناء ذلك، علموا أنهم سيغادرون أبكر مما توقعوا. فقد قررت جلالة الملكة، أو بالأحرى

أحد أمنائها، أنه من الأفضل أن يُسافر الطهاة قبلها ويكون المطبخ جاهزاً عندما تصل. فأصبح هناك ذعر إضافي كونهم سيسافرون بغضون يومين، وكان الخبر الجيد أنهم سيستقلون قطار القارب إلى دوفر ثم يعبرون القناة إلى بولوني بأقصر طريق. سيزيل هذا رحلة عبور البحر الطويلة، ولكن بدلاً من ذلك ستكون رحلة طويلة وغير مريحة إلى جنوب فرنسا بالقطار إذا كنت جالساً طوال الليل في عربة من الدرجة الثالثة.

شعرت أنهم كانوا جاحدين إلى حد ما لتذمرهم، سيسافرون إلى الخارج، ويرون العالم، ويسافرون بالفعل مروراً بباريس. استلقيت على سريري في تلك الليلة، وأنا أتخيل كيف يكون السفر، لقد ذهب والدي إلى القارة عندما كان شاباً، قبل أن يكلف بالجيش الهندي، ورأى الكثير من العالم. ربما يوما ما ...

نزلت في صباح اليوم التالي لأجد المطبخ في حالة ذعر: «ماذا يحصل؟». سألت نيلسون، وكان مشغولاً بتحريك العصيدة لإفطار الخدم.

فهمس: «إنه السيد رولاند. لقد تعرض لحادث. لقد كان ذاهباً إلى - كما تعلمين - في منتصف

الليل، وتعثر بالحقيبة التي فتحها على أرض غرفته، وسقط ولوى كاحله بشدة لدرجة لا يستطيع المشي عليها. وربما يكون كسرها».

- «أوه يا سيد رولاند المسكين! إذا كان لا يستطيع المشي، فكيف يمكنه السفر إلى فرنسا؟»».

- «هذهِ هي المشكلة بالضبط. لا يمكنه، فالطاهي في حالة مزرية»».

وما إن تفوه نيلسون بهذهِ الكلمات حتى دخل السيد آنجيلو إلى المطبخ غاضباً وانفجر قائلاً: «من بين كل الأمور الغبية التي يتعين عليه فعلها! لا يمكنه المشي، ولا يمكنه السفر! ماذا سنفعل الآن؟! هذا ما أود معرفته. ليس لدينا طاهي حلوى وفطائر، ولا يعرف أيٌ منّا كلمة بالفرنسية ما عدا أسماء الأطباق التي يتعين علينا طهيها، وهذا لن يفي بالغرض، أليس كذلك؟ كيف سنشق طريقنا عبر فرنسا، إيه؟ ومن سيطلب لنا في السوق ويتحدث إلى هؤلاء الرجال الأجانب في الفندق؟»».

قال نيلسون: «عفواً يا سيدي. لكن هيلين تتحدث الفرنسية»».

عمَّ صمت فوري في المطبخ، وتحولت العيون

كلها نحوي، فشعرت بوجهي يحترق خجلاً.

سألني السيد آنجيلو: «هل هذا صحيح؟ هل تتحدثين الفرنسية حقًا، أكثر من عبارة (هذهِ ريشة عمتي)؟».

أومأت له، وواجهت صعوبة في إجبار نفسي على الكلام: «أجل يا حضرة الطاهي. أنا أتحدث الفرنسية بشكل جيد».

- «هل كان أحد والديكِ من ذلك البلد؟».

- «لا يا سيدي، لكن والدي كان يسافر كثيرًا وقد تلقى تعليمًا جيدًا. تعلمتُ الفرنسية في المدرسة، وكنّا نتحدث بها أحيانًا في المنزل».

قال السيد آنجيلو: «غير معقول! أنتِ مليئة بالمفاجآت أيتها الفتاة الشابة. لديكِ مهارة في صنع المعجنات وتتحدثين الفرنسية. لا أرى بديلاً آخر، ستصطحبكِ معنا».

- «أنا يا سيدي؟». نطقتُ الكلمات بصعوبة.

- «أجل أنت. اذهبي الآن، من الأفضل أن تبدأي بحزم أمتعتكِ».

كدت أطير من فرط حماسي وأنا أصعد الدرج، سأذهب إلى فرنسا! ولم تصدمني الحقيقة إلا عندما وصلتُ إلى غرفتي. فإذا أراد المرء الذهاب

خارج البلاد، أليس عليه أن يملك جواز سفر؟ وليس لدي جواز سفر، وإذا كان لا بد من إصداره لي، فكيف سيكون باسم هيلين بارتون؟ سأحتاج قطعًا إلى تقديم محضر عن ولادتي قبل منحي جواز سفر. سأضطر إلى ابتكار سبب يمنعني من السفر فحسب. إنفلونزا مفاجئة ... وخطر لي حينها أن هذا هو بالضبط ما فعله السيد رولاند، لقد أوضح عدم رغبته في الذهاب إلى فرنسا، وعلى حين غرة أصيب كاحله بشدة لدرجة يتعذر معها ذهابه. يا له من أمر يناسبه!

نزلت مرة أخرى ووجدت السيد آنجيلو يلف قوالب المهلبية في الصحف قبل وضعها في صندوق. فقال وهو ينظر إليّ: «هذا قالبها المفضل، وأشك أن لديهم قالب على شكل أرنب، فهي تحب هذا القالب منذ أن كانت فتاة».

- «راودتني فكرة مقلقة أيها الطاهي. أفترض أن المرء يحتاج إلى جواز سفر للسفر إلى الخارج، وليس لدي واحد».

- «لا أحد منّا يملك جواز سفر. لكننا لا نحتاجه، فلدينا خطاب مرور يثبت أننا جزء من حاشية الملكة وسيسمحون لنا بالمرور دون عوائق. وسأجعلهم يضيفون اسمك معنا، لكن عدا عن

ذلك، كُلُّ شيء سيكون على ما يُرام. والآن أسرعي، ليس لدينا أي وقت نضيعه».

الفصل الثاني عشر

سأذهبُ إلى فرنسا. وليس إلى فرنسا فحسب، بل إلى الريفيرا الفرنسية. وكأنه أفضل من أن يكون حقيقة، ساورني شك بأن أحدهم سيأتي ويخبرني بأنهم ارتكبوا خطأ ولا يُسمح للخادمة بالسفر.

سحبت حقيبة سفري من تحت سريري وبدأت أحزم ملابسي المثيرة للشفقة. لم يكن لدي أي شيء مناسب لمنتجع عصري أو مناخ دافئ.

كان لدي بزة عمل، وفستان شتوي، وقميص قصير - أصبح ضيقًا الآن - وتنورة صيفية تعود لأيام سبقت عملي في الخدمة، وزي جيد ارتديته في زفاف لويزا ومعطف شتوي فقط. تساءلتُ للحظات إذا كان بمقدوري زيارة لويزا على وجه السرعة وسؤالها إذا كان لديها ملابس إضافية أستطيع استعارتها، لقد رأيتُ جهاز عرسها وكان زاخرًا بالكثير. لكني تذكرت أنها أقصر مني، وكبريائي منعني من طلب معروف. لكنها أعطتني جنيهًا ذهبيًا هدية عيد الميلاد، ولا يزال محفوظًا في حقيبتي اليدوية، ولدي معاشي منذ أكتوبر في حساب توفير. قد أجد خياطًا يصنع لي ملابس مناسبة عندما نصل إلى فرنسا.

ووضعتُ فستاني المخملي الأزرق مع أمتعتي، مع اعتقادي بعدم وجود مناسبة لارتدائه، فالآن وبعد إيماني بحدوث المعجزات حقًا، أردت أن أكون مستعدة لمعجزة أخرى.

أخبروني أننا سنغادر في تمام الحادية عشر من صباح اليوم التالي على متن قطار القارب، وستلحقنا الملكة وحاشيتها بعد يومين، فكتبتُ للويزا وأخبرتها بسفري خارج البلاد، وبأنها لن تسمع أخباري لمدة من الزمن، ثم واجهت المطر المتجمد العاتي لوضع الرسالة في صندوق البريد.

ولم يغمض لي جفن ليلتها، كنت متحمسة وقلقة نوعًا ما بصراحة. صحيح بأني أصبحت ماهرة في صناعة المعجنات والحلوى، إلا أنني كنتُ لا شيء مقارنة بالسيد رولاند، ناهيك عن كوني أعمل دائمًا تحت إشرافه. وأنا أعلم مدى حب الملكة لمعجناتها. ماذا لو لم يرقَ ما أصنعه لمعاييرها؟ ثم طمأنت نفسي بأنه سيكون هناك طهاة فرنسيون في الفندق، ويمكنني أن ألتمس النصيحة منهم. ثم يفترض أن يتعافى السيد رولاند في غضون أسبوع أو نحو ذلك ويرسل للانضمام إلى المجموعة.

وعندما حضرتُ لتناول الإفطار في الصباح،

يمكنني القول إن باقي المجموعة كانوا متوترين مثلي أيضًا. وكان السيد ويليامز يتمتم للسيد فيليبس: «ما كنتُ لأختار يومًا كهذا لعبور القناة، ألست محقًا؟». ثم قطعا كلامهما عندما انضممتُ إليهما على الطاولة ونظرا إليّ بنظرات توحي بأنّي متطفل غير مرحب بوجوده.

قرع المطر النوافذ العُليا وعوت الرياح عبر المداخن، لدرجة أن السيد آنجيلو ذهب ليطلب الإذن باستخدام بوابة النقل، حيث يمكننا تحميل أمتعتنا دون نقعها. وما إن بدأنا بتحميل الصناديق العديدة التي اعتبرها الطاهي ضرورية، حتى ظهر مُنشي الملكة يقول إن صاحبة الجلالة تود أن تكلمنا. فصعدنا السلم الكبير ودخلنا غرفة الإفطار الرسمية حيث كانت جلالة الملكة جالسة على طاولة طويلة، أمامها طبق مكدس بالبيض والكلى ولحم الخنزير المقدد وسمك الحدوق المسلوق. ووقف خادمها الهندي خلفها ووجهه مكفهر يرمقنا بنظرات استهجان وتعجرف. رفعت الملكة نظرها عن طعامها وقالت: «أردتُ أن أقول لخدمي المخلصين: رحلة سعيدة، أتمنى لكم رحلة آمنة وأن يكون كل شيء جاهزًا لوصولي».

أجاب السيد انجلو: «سيكون كل شيء جاهزًا يا

جلالة الملكة».

- «حسن جدًا. والآن اذهبوا»، وصُرفنا من جديد، ونحن نسمع الملكة تقول: «ناولني بعض من هذهِ المرملاد. لا ليست هذهِ. الزنجبيل».

وعندما رُبطت القطع الأخيرة بالجزء الخلفي من العربة، تأهبنا للمغادرة. وجاء الخدم الآخرون لتوديعنا. فلمس نيلسون ذراعي وقال: «رحلة آمنة. استمتعي بوقتك يا هيلين، لكن لا تتحدثي مع أي فرنسي غريب، مفهوم؟».

ضحكت وأجبته: «كيف يمكنني قضاء الوقت في فرنسا دون التحدث إلى أي فرنسي يا نيلسون؟!».

قال وهو يخفض صوته: «أنت تعرفين ما أعنيه. أعرف أن الفرنسيين يمكن أن يكونوا مقنعين للغاية، ولا أريد أن يلعب أحدهم بعقلك».

قلت: «أعدك ألا أحد سيلعب بعقلي. اعتنِ بنفسك حتى أعود».

- «سأفعل». وأمسك بيدي وضغط عليها ثم ساعدني في صعود العربة وانطلقنا خمستنا محشورين وصناديق المطبخ على حجرنا.

من الواضح أن السيد فيلبس كان غير مرتاح لجلوسه بالقرب مني. وأدركت أنه في الأشهر التي

قضيتها في المطبخ لم يخاطبني بكلمة مطلقًا فقلت له: «لا تقلق يا سيد فيلبس، لن أعضك».

فقهقه جيمي.

قال السيد فيلبس باحتشام: «ليس لدي أي شيء ضدك شخصياً يا آنسة بارتون، لكني أعتقد أنه من الخطأ اصطحاب امرأة في رحلة طويلة وشاقة كهذهِ. ماذا لو مرضتِ؟ أو أغمي عليكِ؟»».

- «أؤكد لك أن صحتي في أفضل أحوالها، وبأني لم أفقد وعيي في حياتي قط. وأعدك أنني سأبذل قصارى جهدي للتأكد من عدم إزعاجك بأي شكل من الأشكال»».

قال جيمي وهو يغمز لي: «لن تقول عدلاً أكثر من ذلك يا سيد فيلبس». وأملتُ أن تكون غمزته ودية، فلا أريد أي تعقيدات في هذهِ الرحلة.

وصلنا إلى محطة ڤيكتوريا، وكان السيد آنجيلو يوجه الحمالين أثناء تحميلهم الأمتعة في شاحنة الحارس. ووجدنا مقاعدنا وانطلقنا بعد دوي الصافرة. لم تكن بداية مبشرة، لأن وابل المطر غمر النوافذ بعد خروجنا من المحطة، فتخططت بالأوساخ جراء ذلك، وبدت الأفنية الخلفية التي

مررنا بها كئيبة، لكنها كانت أول رحلة قطار حقيقية لي، وكانت أول مرة أسافر فيها من لندن، وكنت مصممة على الاستمتاع بكل لحظة.

وبحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى ميناء دوفر، لم يتحسن الطقس. كنا غارقين في الماء، والرياح تجلدنا بينما كنا نحاول جاهدين المشي على الألواح الخشبية التي تصلنا بالسفينة، وكان علينا التنافس مع الركاب الآخرين على ركن المساحة الجافة في صالون الدرجة الثانية. وكان المعبر متلاطم الأمواج بالفعل، ويمكنني تفهم سبب خوف السيد رولاند منه كثيرًا، فقد كنّا محشورين معًا على المقعد الذي يدور حول الحائط، وكان القارب يترنح ويتمايل مع الأمواج، مما جعل الوقوف أمرًا مستحيلًا. اشتكى السيد فيلبس بينما كان السيد ويليامز شديد الشحوب، وحتى جيمي الصفيق كان صامتًا. والغريب أنني شعرت أنني بخير.

- «لا تقلق يا سيد فيليبس»، قلت له، «ليس أمامنا الكثير».

- «لا أعتقد أنني سأعيش لأرى فرنسا». وتأوه وحبات العرق تتصدت على جبهته. فاضطر فجأة إلى النهوض والاندفاع عبر الحشد في اتجاه

المراحيض. ولم يعد لبعض الوقت، وعندما عاد، بدا لونه أخضر فاقترحت عليه:

- «دعني أحضر لك كوبًا من الماء».

وشققت طريقي إلى المشرَب وعدت بكأس ماء انسكب القليل منه فأومأ بامتنان. وعندما افترق الحشد، نظرت من نافذة الصالون، وكان هناك، أمامنا، ساحل فرنسا. وعلاوة على ذلك، توقف المطر. فتركت الآخرين وخرجت إلى السطح. كان البحر لا يزال مرقطًا بالقمم البيضاء، لكن الأمواج هدأت الآن وأصبحت لفات لطيفة فحسب. وكان بإمكاني رؤية منازل مطلية بألوان زاهية تصطف على طول الميناء، ومنحدرات بيضاء مثل تلك التي تركناها وراءنا.

مررنا بقارب صيد ونظر الرجال الذين كانوا على متنه لأعلى ولوحوا. وكانوا جميعًا يرتدون ثيابًا زرقاء زاهية وأظهروا تباينًا ملونًا مع أشرعة القارب الحمراء، فشعرت بالغبطة والابتهاج، أنا هنا، بيلا ويفرلي، خادمة منزل سابقة، وأكثر الخدم وضاعة، على وشك أن تطأ قدمي القارة الآن. وسأستغل هذهِ الفرصة لأقصى حد.

تحركنا بخفّة عبر الجمارك الفرنسية بفضل رسالة جلالة الملكة، ورافقونا حتى ركبنا قطارنا. ويبدو

أن السادة قد تعافوا، فقد قدّم لنا السيد ويليامز شطائر اللحم البارد التي أعدها في حال لم نجد طعامًا ملائمًا أثناء رحلتنا، وأكلناها بامتنان. ولم أتوقف عن التحديق من النافذة، كان كل شيء مختلفًا تمامًا: الستائر المطلية بألوان زاهية على نوافذ المنازل، وأشجار الحور الممتدة على طول الطرق، والخيول الصفراء الكبيرة التي تعمل في الحقول، والقرويون في ثيابهم. تقت لألمح باريس للمرة الأولى، لكن الظلام حلّ مع اقترابنا من حدود المدينة الخارجية. نظرت من النافذة بينما كنا نمر عبر الشوارع الخلفية، ثم عبر الضباب المظلم، فلمحته هناك، أطول من أي مبنى رأيته في حياتي، يرتفع عاليًا في سماء الليل وصحت: «ها هو ذا يا سيد آنجيلو! انظر، برج ايفل». فاحتشد الآخرون لينظروا من نافذة القطار، لكننا فقدنا المنظر بعد أن مررنا بمبانٍ أخرى.

وصلنا إلى محطة الشمال بحلول الساعة السابعة مساءً، لكنها كانت الساعة الثامنة بتوقيت فرنسا. وكان علينا استئجار عربة لتقلنا عبر المدينة إلى محطة ليون، التي سيغادر منها قطارنا إلى نيس. ونظرًا لأنني كنت الشخص الوحيد الذي يتحدث الفرنسية، كان علي أن أستجمع شجاعتي واستأجر وسيلة النقل، لكن السائق كان معتادا على نقل

زوار إنكليز، ولم أكن بحاجة لقول أكثر من «محطة ليون، كم تطلب أجرة؟». ولا أعرف إذا كان المبلغ الذي دفعته صفقة جيدة أم لا. فقد قام سائق العربة بعرض درامي يشتكي من كثرة أمتعتنا التي نحملها معنا، وحشرنا مرة أخرى وأمتعتنا خلفنا، ولم أحصل إلا على لمحة عابرة لمنازل شاهقة وأنيقة، ومصاريع للنوافذ، ومقاهي ذات مظلات مشرقة وطاولات على الرصيف. وكانت الروائح المغرية تنبعث باتجاهنا، وكانت رائحة تبغ التدخين مختلفة عن رائحة الغليونات والسجائر في بلدي - أجمل ورائحتها أكثر عشبية ولاذعة - وروائح الطهي جيدة كرائحة البصل والثوم وتحميص البن، وكانت هناك أصوات غريبة ومختلفة أيضًا، مثل صوت أكورديون، وصوت امرأة تغني، وبعد ذلك جاء جدال صاخب من نافذة الطابق العلوي، كلها عملت متجمعة لتذكرني بأنني كنت في أرضٍ مختلفة.

قال جيمي وهو يحدق خارج النافذة ليلاً: «أنا محبط بعض الشيء، فالناس هنا يشبهون سكان لندن تمامًا».

قال له السيد فيلبس بحدة: «وماذا كنت تتوقع يا ولد؟ متوحشين يرتدون وزرات؟».

- «لا، لكنك تسمع أمورًا عن الفرنسيين، أليس كذلك؟ تعلم ... أوه لا لا. راقصات الكانكان والجوارب الشبكية؟».

- «نادرًا ما تجدهن في شوارع المدينة في منتصف الشتاء»، أجابه السيد فيلبس، ورسم ابتسامة على وجهي. وفي محطة ليون، قدم السيد آنجيلو لكل واحد منّا علبة تحتوي على نقود فرنسية وقال: «أجركم الأسبوعي بالفرنك. ولا تسألوني كم تعادل بالجنيهات لأنني أجهل هذا مثلكم تمامًا، وحتى نتعلم، كونوا حذرين ألا يحاول أحدهم خداعكم». فأومأنا له موافقين، وأخذنا منه أجورنا. ثم اقترح أن نجد شيئًا نأكله، بما أنه لا وجبة عشاء لأمثالنا مسافري الدرجة الثالثة في القطار.

فعلّق السيد ويليامز بينما كنا نحدق في قائمة كافتيريا المحطة: «على الأقل يمكننا جميعًا قراءة هذا القدر من الفرنسية. لكني لستُ متأكدًا تمامًا ما هي الغرنويل؟».

أجبته: «ضفادع يا سيد ويليامز».

- «لا سمح الله!»، رفع عينيه وقال: «لا تقولي أن علينا العيش على الضفادع للأشهر القليلة المقبلة».

- «هناك أصناف أخرى يا سيد ويليامز»، وأشار الطاهي إلى القائمة، «لكن، أظن أن علينا تناول حساء الخضار، ما رأيكم؟ تحسباً كي لا يزعج معدتنا الطعام الأجنبي أثناء الرحلة».

وهكذا، تناولنا حساء الخضار في مطعم المحطة، كان غنياً بالنكهات ولذيذاً، والخبز الذي قُدِّم معه كان شهياً. وبعد أن تزودنا بطاقة كافية من الطعام، بحثنا عن مقاعدنا في القطار واستقرينا فيها، جالسين على مقاعد قاسية لليلة طويلة ومزعجة. وفي تمام التاسعة انطلقنا من المحطة، اهتزت العربة وتمايلت كثيراً، وعاد الغثيان إلى السيد فيلبس من جديد.

قال جيمي: «أراهن أن الملكة لن تسافر بهذهِ الطريقة».

- «لا»، وافقه السيد آنجيلو، «لديها قطار خاص ينتظرها في شيربورغ، وفيه عربتان مخصصتان لها فقط. تنام في إحدى العربات المؤثثة بسرير ملائم، وعربة أخرى تستخدم غرفة جلوس. وأعتقد أن الأثاث يأتي من القصر أيضاً».

- «هل تعلمون ماذا سمعت؟»، قال السيد ويليامز، «سمعت أنها أمرت بشحن أثاث غرفتها

الخاصة إلى الفندق في نيس».

- «من حسن حظ البعض»، قال جيمي، «أعني نيس للبعض». وتلاعب بالكلمة فأضحكنا جميعاً.

- «اصمت ودعني أنام»، قال السيد فيلبس، «أشعر بتوعك مرة أخرى، وكلما جاء الصباح أبكر كان أفضل».

أغمضت عيني وحاولت النوم. توقفنا في محطة تلو الأخرى: ديجون، وماكون، ثم وصلنا إلى مدينة ليون ومكثنا هناك لمدّة كافية لتناول القهوة على رصيف محطة القطار. وحاولت أن أنام، وغفوت من حين لآخر، لكن رأس جيمي سقط على كتفي. ولم نتوقف في محطات أخرى لمدة من الزمن، حتى انزلقتُ في نوم دام حتى بزوغ الفجر الرمادي، عندئذ، وصلنا إلى الميناء الكبير لمدينة مرسيليا. كان الأشخاص الموجودين على رصيف محطة القطار هنا، مختلفين تماماً عن الرجال والنساء الأنيقين اللذين رأيتهم في باريس. كان هناك رجال يرتدون قمصاناً مخططة، وقبعات على رؤوسهم، ونساء ملفوفات بأوشحة براقة وتنانير عريضة ملونة. وكانت لغتهم أقسى ومصحوبة بلَكنة غريبة. غادرنا المحطة مرة أخرى إلى المرحلة

الأخيرة من رحلتنا.

أصبحت المناظر الطبيعية كثيرة التلال وبرية، ثم أشرقت الشمس فجأة فلمحنا البحر الأزرق لأول مرة. أطلقتُ شهقة حماس صغيرة، فالألوان زاهية للغاية! وثمّة منازل بيضاء مصاريعها خضراء أو صفراء زاهية، وأزهار حمراء وبرتقالية تتناثر على الجدران ناصعة البياض، وزرقة البحر الأبيض المتوسط المتلألئ على مرمى البصر، لقد كان منظرًا مبهرًا بعد أيام الشتاء الإنكليزية الكئيبة. لا يمكنني الانتظار حتى إلى نيس!

بدا جيمي أكثر حيوية من بقيتنا. وقف عند نافذة القطار يحدق إلى البحر وقال: «مَن يرغب في الغطس في البحر الأبيض المتوسط، إيه؟»».

قال السيد آنجيلو: «أعتقد أنك ستجد البحر باردًا نوعًا ما يا ولدي، لا يزال فصل الشتاء هنا أيضًا، كما تعلم، حتى لو كانت الشمس مشرقة. وإلى جانب ذلك، أخشى أن يكون الشاطئ في نيس كله حجارة».

- «حجارة؟ لا رمال مثل مارغايت؟»».

قال السيد آنجيلو: «كله الحجارة. حصى صغيرة مستديرة كريهة تجعل المشي مهمة عسيرة».

فسألته: «كيف تعرف عن الشاطئ في نيس يا سيد آنجيلو؟ هل كنت هناك من قبل؟».

- «أجل يا آنسة بارتون. لقد رافقت جلالة الملكة عندما استأجرت فيلا قبل بضع سنوات، لكنني لم أسكن في منطقة الفندق الجديد. على حد علمي أنه في حي يسمى سيمز قرب جانب التل، لذا ستكون تجربة تعليمية لي بقدر ما ستكون لكم جميعًا».

تبعت سكة الحديد ساحل البحر وتوقفنا في محطة صغيرة تلو الأخرى. ولمحتُ قوارب صيد في البحر وبينها يخت بخاري جميل وأنيق. كان رفاقي في السفر هادئين إلى حد ما طوال الليل، لكننا أصبحنا منتعشين.

- «هلّا نظرتم إلى هذا»، وأشار إليه جيمي، «تعلمون لِمَنْ يعود هذا، أليس كذلك؟».

سأله السيد آنجيلو: «هل هو يخت أمير ويلز؟».

- «أظن أنه كذلك، فقد رأيتُ صورته في المجلة»، أجابه جيمي، «ليس سيئًا. أتساءل إذا كانوا سيدعوننا على متنه أم لا».

قهقه السيد ويليامز وقال: «تلك أمانيك يا فتى. سيكون لديه فريق الطهاة الخاص به وكل شيء،

آخر».

- «بما في ذلك العشيقات، لا شك في ذلك». وغمز لي جيمي.

- «انتبه لكلامك يا فتى، فمعنا سيدة».

- «أعتذر يا آنسة بارتون». وانحنى لي جيمي باستفاضة مبالغة.

أجبته: «أؤكد لك أنني لا أشعر بالإهانة بسهولة يا جيمي». وانتهت المحادثة بينما كنا نشاهد اليخت.

بدأ نبض قلبي يتسارع، أمير ويلز في الريفيرا. عادت كل تلك المخاوف التي نحيتها جانبًا من لقائي بالأمير كالطوفان من جديد. وحاولت إقناع نفسي أنه لن يتذكرني حتى لو قابلني مرة أخرى، وبأنني ربما كنت إحدى مغازلاته غير المؤذية المنسية منذ فترة طويلة، لكن حقيقة وجود يخته هنا في الريفيرا كانت غير مريحة.

- «هل يقيم أيضًا مع الملكة في نيس؟». سألت دون تكلف.

قال السيد آنجيلو: «لا، لديه فيلا خاصة به في مدينة كان».

قال جيمي: «لن يقترب منها. فهي لا توافق على أفعاله وتحيطه علمًا بذلك».

تنفست بارتياح أكثر عندما سمعت ذلك. لستُ متأكدة تمامًا كم تبعد مدينة كان، لكنه على الأقل لن يكون في فندق الملكة، وكنت أؤيد فكرة إبعاد أمير ويلز عن الملكة. ثم ظهرت فكرة أخرى مقلقة في ذهني: روني بارتون. لم أسمع حتى الآن إذا كان الأمير قد وظفه، ولكن إذا كان كذلك، فمن المؤكد أنه سيكون في أدنى درجات الخدم، وبالتالي لن يرافق صاحب عمله إلى فرنسا. قلت لنفسي: لن يكتشف أبدًا أنني هنا. وحتى لو فعل، لقد أوفيت بدوري في الصفقة. وآمل ألا يكون لدي ما يدعو للقلق.

الفصل الثالث عشر

- «يجب أن أذكر لكم شيئًا واحدًا قبل وصولنا إلى نيس»، قال السيد آنجيلو بينما بدأ القطار يبطئ، «لا تريد الملكة لفت الانتباه إلى نفسها أثناء تواجدها خارج البلاد. لن نذكر أنها الملكة فيكتوريا، فهي تحب أن تدعو نفسها الليدي بالمورال».

- «حقًا؟»، بدا جيمي مستمتعًا، «كم عدد الأشخاص الذين قلت إنها ستحضرهم معها؟».

- «حوالي خمسة وأربعين شخصًا، على ما أعتقد. من غير الأقارب الملكيين».

- «هل سيحضر أقاربها أيضًا؟».

- «بعضهم، هكذا سمعت. ابنتها بياتريس من باتنبيرغ وأولادها، والأميرة هيلينا، وهي الآن أميرة شليسفيغ هولشتاين، أليس كذلك؟ أوه، وأعتقد أن هناك ابنة عم ألمانية شابة مدرجة ضمن الحضور، الأميرة صوفي من مكان ألماني لا أتذكره وربما لا أستطيع نطقه، بالإضافة إلى خطيب الأميرة، الكونت لا أعرف اسمه».

- «ومع ذلك تريد أن يعتقد الناس إنها الليدي بالمورال البسيطة العادية، ومنزلها مليء بأفراد

العائلة الملكية هكذا؟»، وقهقه جيمي، «خمسة وأربعون تابعًا، رؤساء أوروبا المتوجين، ألن يعطي ذلك انطباعًا للناس المحليين بأنها قد تكون الملكة فيكتوريا؟ أضف إلى ذلك مظهرها المميز، ألستُ محقًا؟ سيدة بهيئة زلابية مستديرة ترتدي خمارًا».

قال له السيد آنجيلو محذرًا: «لا تكن غير محترم يا فتى، أيًا كان ما تختار أن تفعله أو تقوله أو ترغب بأن ينادونها به، لا يجوز لأمثالنا المجادلة فيه».

- «وماذا عن ذلك المُنشي الهندي المروع؟»، سأل السيد وليامز، «لا تقل لي إنها ستحضره معها؟».

- «أخشى أنها ستفعل يا سيد ويليامز»، ورفع السيد آنجيلو عينيه بيأس، «كان ثمة خلاف مروع حول ذلك، في حال لم تسمع به».

فقال السيد ويليامز: «لم نسمع شيئًا، فنحن محبوسون في المطبخ، وقد نكون كذلك في عالم آخر، أليس كذلك؟».

- «حسنًا»، وانحنى السيد آنجيلو مقتربًا ثم قال: «السادة من أهل قصرها - أعني السادة المحترمين فعلاً - لم يتمكنوا من تحمل الرجل، فهددوها بالاستقالة الجماعية إذا جلبت المُنشي معها.

فأخبرتهم أن يغربوا عن وجهها وليضربوا رأسهم في الحائط، سيسافر المُنشي معها».

- «لم تقل ذلك حرفيًا، أليس كذلك؟»، وبدا السيد وليامز مذعورًا.

- «شيء من هذا القبيل»، وابتسم السيد آنجيلو ابتسامة خجولة.

سأله السيد وليامز: «وهل استقالوا؟».

- «لم يفعلوا، أو هكذا فهمت. والمُنشي قادم سواء أحببنا ذلك أم لا. لكن ليس لدي أي نية في صنع الكاري من أجله».

قال جيمي: «سيثير فضول السكان المحليين، وهو يتجول بملابسه الغريبة تلك كأنه طاووس».

قال السيد آنجيلو مبتسمًا مع جيمي: «بالتأكيد. ناهيك عن الزمّارين الاسكتلنديين الذين يرافقونها دائمًا».

- «الزمّارون؟ هل تقصد الذين يعزفون على مزمار القربة؟»، وجلس السيد فيلبس، يبدو الآن مفعمًا بالحيوية، «يرتدون أثوابهم الجبلية؟ التنورة الكلتية وكل شيء؟».

قال السيد آنجيلو: «الكلتية وكل شيء يا سيد فيلبس».

- «ومع هذا علينا أن ندعوها الليدي بالمورال؟».

أومأ السيد آنجيلو وقال: «أعتقد أن السبب وراء ذلك هو رغبتها بالإشارة إلى أن زيارتها هذهِ ليست زيارة رسمية، وبذلك لن يشعر كبار الشخصيات بأنهم ملزمون بترتيب ترحيب رسمي ومآدب».

- «آه، هذا منطقي إذًا». وأومأ السيد فيلبس برأسه.

لم يكن ذلك منطقيًا بالنسبة لي. لماذا تحاول الادعاء بأنك شخص عادي من الطبقة الأرستقراطية، ومع ذلك تحضر معك فوجًا من الزمارين الاسكتلنديين وتصل في قطار خاص؟ من المؤكد أن اسم الليدي بالمورال لن يخدع أحدًا.

وصلنا إلى محطة نيس في منتصف الصباح. كانت أشعة الشمس دافئة عندما نزلنا من مقصورتنا، وقفنا على رصيف المحطة نمطط أجسادنا المتعبة وأطرافنا المحشورة، بينما كان المحرك يهسهس وينفخ وكأنه سيد مسن متعب يتطلع إلى الراحة.

- «هيا اذهبي يا هيلين»، قال السيد آنجيلو

ودفعني بخفة، «اعثري لنا على وسيلة نقل إلى الفندق».

كانت فرصتي الحقيقية الأولى لتجربة لغتي الفرنسية، وهي المرة الأولى التي يعتمدون فيها على مهاراتي. فانطلقت متوجسة قليلاً، صحيح أن لغتي الفرنسية كانت جيدة جدًا في المدرسة وفي المنزل مع والدي، لكنني لم أجربها قطُّ مع فرنسيين حقيقيين. وبدا أن سكان الجنوب يتحدثون بلهجة غريبة فيها خنّة غير مسموعة في الشمال. ومع ذلك، خرجتُ من المحطة ووجدت مجموعة العربات المفتوحة. وبحلول الوقت الذي انضم فيه الرجال إلينا، يتبعهم حمالون كُثُر وأمتعتنا المكدسة عاليًا، كانت هناك عربة تنتظر. وعندما رأى السائق حقائبنا وصناديقنا الكثيرة، أطلق سيلاً من الكلمات الفرنسية بسرعة، ملوحًا بيديه بحيوية. فهمت جوهر كلامه فقط فقلت لهم: «يقول إن خمسة أشخاص بالإضافة إلى كل هذه الحقائب ستكون فوق احتمال جواده ليصعد أعلى التل. سنحتاج إلى عربة منفصلة أخرى للحقائب».

- «لا بأس»، وافق السيد آنجيلو، «حري بكِ أن تجدي لنا عربة أخرى للأمتعة يا هيلين».

ولم يكن ذلك صعبًا. فقد تجمع سواق آخرون

حولنا، مهتمين بمجموعة الأجانب الذين يسألون عن فندق إكسلسيور ريجينا. ونشب شجار بينهم لتنافسهم على خدمتنا.

- «لستم من العائلة الملكية؟». سألني أحدهم وهو ينظر إلى ملابسنا.

- «لا، لكننا من طرف سيدة إنكليزية مرموقة ... الليدي بالمورال».

ضحك وقال: «أتيتم مع ملكتكم. نعرف هذا».

ياله من سفر متخفي!

- «لقد شيدوا الفندق خصيصًا من أجلها»، تابع الرجل، «وكلف ملايين الفرنكات. ولم يُبخل عليه بأية نقود، ليصبح أفضل من القصر. انتظروا حتى تروه».

كُدِست الحقائب الأخيرة في عربة مفتوحة ثانية. وغادرنا المحطة واجتَزنا شوارع التسوق المزدحمة، حيث تتزاحم الحمير مع العربات الآلية والسيارات المتفرقة. كانت الشوارع مرصوفة بالحصى، لذا كنّا نرتد بشكلٍ غير مريح ومحتويات صناديقنا تهتز اهتزازًا مخيفًا. وصلنا إلى منطقة سكنية وبدأ الطريق في الصعود. في البداية كانت هناك مباني سكنية أنيقة، ثم عندما

صعدنا التل، أصبح بمقدورنا رؤية الفيلات التي تتوسط الحدائق. وكانت هناك أزهار على الأشجار والشجيرات، وكانت رائحة الهواء رائعة منعشة وحلوة تشوبها رائحة البحر قليلاً. ثم أصبح الطريق أكثر انحدارًا، ففهمت سبب اعتراض سائق العربة على حمل حصانه حمولة ثقيلة.

أصبحنا الآن فوق المدينة، وحدائق السوق وبساتين الزيتون بين الفيلات المبنية حديثًا، وبرزت أمامنا الجبال، متوشحة بالخضار في هذا الوقت من العام. فعجزت عن احتواء حماسي وغبطتي، كانت هذهِ المرة الأولى التي أرى فيها جبلاً، وشجرة زيتون، ونخلة. رمقت الرجال معي في العربة بنظرة خاطفة، ولم يبدُ عليهم الحماس بقدري حتى ولو شعروا به. في الواقع، كان السيد فيلبس ينظر متطيرًا.

- «وكيف يُفترض بنا أن ننزل إلى المدينة، هذا ما أود معرفته. هل سنمشي كل هذهِ المسافة نزولاً ثم نعود أدراجنا صعودًا من جديد؟».

قال السيد ويليامز: «عن نفسي، لا أعرف إذا كنتُ أرغب في النزول إلى المدينة. هل رأيتم النظرة التي اعتلت وجوه هؤلاء الناس؟ لصوص داكنوا البشرة، هكذا يبدو مظهرهم. سيسرقونك

ويحزون عنقك دون تفكير».

أجابه السيد آنجيلو: «أوه، بالتأكيد لا يا سيد ويليامز».

- «الأمر هيّن بالنسبة لك يا سيد آنجيلو»، أجابه السيد ويليامز، «فأنت تبدو مثل واحد منهم، وأنا أبدو أجنبياً، لذا سأكون هدفا رئيسياً للسرقة».

قال جيمي فجأة: «انظروا إلى الأعلى. أراهن أن هذا هو ما نتجه إليه».

التفتنا لننظر إلى حيثُ يشير. ارتفع بناء شاهق من الحدائق بحجم القصر وبنفس روعته ورونقه، وارتد إلى الوراء بما يشبه المنحنى عبر منحدر التل، تعلوه الأبراج التي رفعت منها أعلام العديد من الدول. وعلى واجهته كانت لافتة «فندق إكسلسير ريجينا». لقد وصلنا.

هرع حمالو الفندق للترحيب بالعربة، وفتر حماسهم عندما شرحت لهم بالفرنسية أننا خدم الليدي بالمورال، وقال أحدهم: «نحن نعرف من هي. لستِ بحاجة إلى الاستمرار في التظاهر معنا. وإلا لماذا يبنون لها فندقاً؟ انتظروا هنا، سأستدعي المدير. أعلم أنه يريد أن يرحب بكم».

وقفنا ننتظر. وفي هذهِ الأثناء، راقب السيد

آنجيلو بعين النسر الحقائب والصناديق تُنزَل من العربات، وطلب مني أن أدفع للسوّاق. طلبوا مبلغًا كبيرًا من المال على ما يبدو، لكني لستُ على دراية بقيمة الفرنكات، فهمست لأحد الحراس لأستعلم عن المبلغ الصحيح الذي يُدفع أجرة نقلنا من المحطة إلى هنا، فأخبرني ودفعت على هذا الأساس، ولم يُعجب السوّاق بذلك، لكنهم لم يجادلوا أيضًا.

ظهر المدير، كان رجلاً نبيلاً كأحد أفراد العائلة الملكية بمعطفه الطويل وياقته العالية، ولديه شارب أسود أنيق، وقال: «مرحبًا، مرحبًا بالضيوف الأعزاء القادمين من قناة سيمز إلى فندق إكسلسير ريجينا. هل أنتم جزء من حاشية الملكة المبكرين بقدومكم».

- «نحن كادر المطبخ»، أجبته بالفرنسية، «السيد آنجيلو وباقي الطهاة».

- «آه»، بهت حماسه تمامًا، «وأنتِ مترجمتهم يا آنسة؟».

- «أجل».

- «لا يتحدثون الفرنسية؟».

- «لا».

- «مرحباً بكم أيها الأصدقاء الأعزاء وخدم جلالة الملكة»، تحدث باللغة الإنكليزية، «نظرا لأن الفندق ليس مزدحماً في هذهِ اللحظة، يسعدني أن أطلعكم شخصياً على غرفكم».

قال السيد آنجيلو: «هذا لطف منك يا سيدي». ولفظ كلمة «سيدي» بالفرنسية بصورة خاطئة.

أدخلنا عبر مدخل كبير، كان البهو مغطى بسجاد باللون الأزرق الملكي الغامق، مزين بشعار ملوك فرنسا «زهرة السوسن».

- «ألا يوجد مدخل للخدم يمكننا استخدامه؟». سأل السيد فيلبس وهو ينظر بتوتر.

هزَّ المدير رأسه. «ليس لجناح الملكة في الفندق. فقد صُمم المدخل بحيث يمكنها القدوم مباشرة من عربتها إلى المصعد، وليس عليها صعود أي درج. نحن نتفهم ضعف بنيتها وعدم قدرتها على المشي».

كنّا قبالة مصعد مصمم بواجهة حديدية أنيقة عندما قال: «ستشغل الملكة الطابق الأول بالكامل، وسيكون ضيوفها وعائلتها في الطابق الذي يليه، وسيشغل ملحقوها العسكريون الطابق الثالث مع أفراد قصرها المهمين، وسيكون أمناء سرها مع الطبيب في الطابق الرابع، ومرافقوها

الأقل أهمية في الخامس، وستكون غرفكم في الطابق العلوي، سآخذكم إلى هناك بواسطة مصعدنا الجديد، وفي الأيام القادمة، أخشى أن على الخدم استخدام الدرج الخلفي لتجنب مصادفة أحد أفراد الحاشية الملكية أو إزعاجهم، بطلب المصعد في الوقت غير المناسب».

قفز خادم المصعد يرتدي ملابس أنيقة وسحب بابًا من الحديد المطاوع ليسمح لنا بالدخول. وكانت هذهِ المرة الأولى التي أستقل فيها مثل هذهِ الأداة غريبة الشكل، شعرت بقليل من الخوف ولمحتُ السيد فيلبس يرمق السيد ويليامز بنظرة خاطفة وأدركت أنهم لم يألفوا المصاعد مثلي.

- «وأين المطابخ؟». سأل السيد آنجيلو.

- «تقع في الطابق الأرضي، في الجزء الرئيس من الفندق، وليس في الجزء المخصص لصاحبة الجلالة. ستشاركون مساحة المطبخ مع طهاة الفندق. ومع ذلك، فقد خُصص ركن مناسب من المطبخ لكم، وفقًا لرغبات صاحبة الجلالة »، توقف مؤقتًا مع إغلاق بوابة المصعد، وسمعنا صوت صرير ثم بدأنا في الصعود ببطء، «يسعدني تقديمكم إلى زملائكم طهاة الفندق عندما تستقرون

في غرفكم».

توقف المصعد أخيرًا برجّة، وفُتحت البوابة لنا. خرجنا إلى الطابق السادس.

- «يمكنكم اختيار غرفكم يا سادة على طول هذا الرواق بناء على رتبتكم»، قال المدير وهو يقف جانبًا ليسمح لنا بالخروج من المصعد، «الحمام في نهاية الرواق، لكن، بالنسبة لكِ يا آنسة، أظن أن عليكِ استخدام الحمام في الطابق الخامس، مع أمناء سر الملكة الأقل رتبة والمسؤولين ذوي الرتب الدُنيا.

قلت: «أوه لا يا سيدي، هذا لن يكون صحيحًا، فأنا أحد الطهاة، وأنا أدنى من هؤلاء الرجال رتبة».

- «مع ذلك، أعتقد أنك تفضلين مشاركة الحمام مع سيدات القصر بدلاً من مشاركته مع هؤلاء الرجال».

- «هل يناسبك هذا يا سيد آنجيلو؟». لم أرغب في الإساءة إلى أي من الرجال في هذهِ المرحلة من رحلتنا بكل تأكيد.

فأجابني: «أعتقد أن هذا صائب ومناسب تمامًا يا آنسة بارتون. لا يجب عليكِ مشاركة المرافق

الصحية مع رجال مجموعتنا».

وعندما ذهبوا لاختيار الغرف، سمحت لنفسي بنزول سلم إلى الطابق الخامس. لم تكن هذه السلالم بأي حال من الأحوال كبيرة، بل ضيقة ومصنوعة من الحجر. وكانت الغرفة التي عرضت عليّ بسيطة أيضًا، فيها سرير بإطار حديدي وخزانة ذات أدراج وخزانة ملابس ضيقة وحوض غسيل، لكن المنظر من النافذة كان رائعًا. وقفت أحدق في الخارج لحبس المنظر الخلاب أنفاسي، كانت مدينة نيس بأكملها تقع تحتي، مبانٍ بيضاء أنيقة على طول واجهة بحرية تصطف على جانبيها أشجار النخيل، وفيلات بألوان باستيلية تتشبث بسفوح التلال وخارج المنحنى الأزرق المتلألئ للخليج. لم أرَ مطلقًا شيئًا جميلاً هكذا في حياتي، وكان تفكيري أنني لا أرغب في المغادرة أبدًا.

الفصل الرابع عشر

انتزعت نفسي من سطوة المنظر على مضض وبدأت أفك أمتعتي، ثم فكرت أنه من الأفضل معرفة ترتيبات المطبخ لأتمكن من تقديم تقرير إلى الطهاة الآخرين. ولم أستقل المصعد هذه المرة وفضّلت نزول السلالم، فنزلت الواحد تلو الآخر، وكان كل درج أكبر من سابقه حتى وصلت إلى الدرجين الأخيرين، كانا ضخمين للغاية، ومصنوعان من الرخام، تتوسطهما سجادة حمراء، وعندما وصلت إلى طابق الملكة، ذهبت أبحث عن باب قد يؤدي إلى المطبخ، لكني لم أجد واحداً ولم أرغب في مد رأسي أو استراق النظر، في حال اتهمت بالتطفل أو الأسوأ، فتوقفت قليلاً في الردهة أفكر.

هذا صحيح، لقد قيل لي أن المطابخ تقع في الجزء الرئيس من الفندق، فخرجت من مدخل عربة الملكة، ونظرت حولي في الفناء الأمامي، ولم ألمح أي مدخل متواضع، فتجرأت على الدخول عبر الأبواب الرئيسية، ولم يوقفني أحد، ثم وجدت نفسي في بهو أخاذ عالٍ يتكون من طابقين فيه أعمدة رخامية ويتوسطه درج كبير.

وكانت غرفة الطعام مهيبة بنفس القدر، فيها

طاولات مغطاة بقماش ناصع البياض بين أعمدة رخامية ومنصة أوركسترا وأشجار نخيل كاملة الحجم. ولحسن الحظ، كانت فارغة في هذا الوقت من الصباح. وفي نهاية المطاف، أدركت افتقاري الواضح لأية مكانة اجتماعية.

- «هل يمكنني مساعدتكِ يا مدموزيل؟»،

قال صوت من خلفي، فاستدرتُ لأرى نادلاً يحدق في وجهي بغضب وفوقية واستهجان شديد. اعتذرت منه وأخبرته أنني جزء من حاشية جلالة الملكة، وبأنهم أرسلوني لأحدد مكان المطابخ التي سيعمل فيها الطهاة الإنكليز، فأصبح ودودا وقادني بنفسه عبر غرفة الطعام وعبر غرفة استقبال فيها طاولات ترحيب، وأخيراً عبرنا الباب الذي يؤدي إلى المطابخ. تركني هناك عند هذهِ النقطة، فدفعت الباب وفتحته بحذر، فاستقبلتني الروائح الشهية وقعقعة الأواني والمقالي. يُفتح الباب على غرفة طويلة وحديثة، مضاءة بمصابيح كهربائية قوية، وكان هناك رجال كُثُر يرتدون زي الطاهي الأبيض منهمكين في العمل، وكانت الروائح المنبعثة من تلك الأواني على الموقد مغرية، ولم يرفع أحدهم بصره إلى الأعلى عندما دخلت.

فقلت بصوتٍ عالٍ باللغة الفرنسية: «عفوًا أيها السادة».

نظر الرجل الذي كان يقص بطة على الطاولة الأقرب إليّ، وبادر بالكلام بعنف قادمًا نحوي وملوحًا بيديه وكأنه كان يبعد الدجاج عنه: «ماذا تفعلين في مطبخي يا مدموزيل؟ غادري في الحال. هذا المكان ممنوع على ضيوف الفندق».

كان شابًا لائق المظهر، حليق الذقن، عيناه داكنتان تلمعان على نحو خطير.

- «أستميحك عذرًا يا سيدي، لكني أحد أعضاء حاشية الملكة، أرسلونا مسبقًا لنتحضر لقدومها، ونرغب بمعرفة أين سيكون مكان عملنا، وهل سيكون لنا مطبخ مستقل أم سنتشارك هذه المساحة معكم؟». وسعدتُ بتحضير الجملة مسبقًا في رأسي عندما نزلت الدرج قبل التفوه بها، لأنه كان مُقلقًا إلى حد ما، وكانت لغتي الفرنسية صدئة بالتأكيد.

فقال بازدراء: «طُهاة الملكة؟»، ثم استدار إلى زملائه الطهاة الذين كانوا يتمعنونني باهتمام، «لقد حذرونا من هذا، وقالوا لنا أن الملكة سترُسل طهاتها من إنكلترا، لإنها تعتقد أننا الفرنسيون لا نعرف كيف نحضر الطعام». فضحك الرجال

الآخرون.

- «على العكس يا سيدي»، أجبته بسرعة. وشعرت بخدي يحترق، وحاولت البقاء هادئة قدر الإمكان، «الملكة سيدة كبيرة في السن، وينبغي عليها اختيار طعامها بحذر، ولهذا، أرادت التأكد من أن تكون الأطباق مألوفة لمعدتها ولن تمرضها». وكانت هذهِ بالطبع كذبة صريحة، ذلك أن الملكة كانت تحبّ الأطباق غير المناسبة تمامًا لمعدة امرأة عجوز، ويبدو أن لديها معدة فولاذية، لكنني ظننتُ أن الفرنسيين قد يكونون أكثر حساسية تجاه مهاراتهم الشهيرة في الطهي، لذا أملتُ أن يفي هذا التفسير بالغرض، لكنه كان لا يزال يحدق بي.

- «ربما لا تعرف ملكتكِ أن الطاهي الفرنسي يمكنه إعداد أي وجبة، حتى أشدها مللاً واعتيادية، على الرغم من أنها قد لا تكون مملة تمامًا مثل الطعام الإنكليزي».

ضحك الرجال مرة أخرى.

أجبته: «أظن أنك لم تتذوق الطعام الإنكليزي من قبل. وآمل أن تتاح لك الفرصة لتذوق بعضًا مما نعده أثناء إقامتنا هنا. والآن، بالنسبة لترتيبات المطبخ ...».

عبس وقال: «أنتِ مترجمتهم؟».

- «أنا أيضًا أحد الطهاة».

- «امرأة تعمل طاهية؟»، وأطلق زفرة استهجان وقال: «وماذا تفعلين بالضبط؟».

- «أطبخ وجبات ممتازة، كما آمل. ولكن فيما يتعلق بذلك، أنا لست طاهية بعد، وما زلت أتعلم تعقيدات تحضير الطعام الجيد». أو على الأقل هذا ما كنت أتمنى قوله. سأحتاج إلى توسيع مفرداتي الفرنسية إلى ما وراء تلك الموجودة في حجرة الدراسة.

كان لا يزال ينظر إليَّ بازدراء: «هل كان على الملكة أن ترسل امرأة، ومتدربة؟! أليس لديها طهاة مناسبون في خدمتها؟».

- «الكثير منهم. لكنني هنا بصفتي عضو في المجموعة لقدرتي على التحدث باللغة الفرنسية، لأن لا أحد منهم يتحدثها. والسيد رولاند، طاهي الحلوى والفطائر، وهو فرنسي أيضًا، تعرض لحادث مؤسف في اللحظة الأخيرة منعه من القدوم لذلك أُرسلتُ أنا مكانه».

- «بصفتكِ مترجم لهم لا طاهي الحلوى والفطائر على ما أظن».

كم وددتُ أن أصفع هذا الوجه المتعجرف، لكنني ضبطت نفسي وقلت له: «في الواقع، أرسِلتُ لكليهما. فأنا متدربة تحت إشراف السيد رولاند. ومع أنني لستُ بمستوى كماله، إلا أن الملكة أعربت عن رضاها عمّا أصنعه من معجنات». ووقفت هناك أحدق في عينيه وبعد أن أُثيرت روحي القتالية، رأيتُ تعبير الازدراء يتحول إلى شك، وربما الفضول.

- «هل توظيف النساء طاهيات أمرٌ طبيعي في إنكلترا؟ وهل باقي الطهاة في مجموعتكِ من النساء».

- «لا، أنا المرأة الوحيدة».

- «حمدًا لله على هذا. وهل لدى الملكة نساء أخريات يعملن في مطبخها؟».

- «قليل جدًا. فقط أنا وامرأتان كبيرتان في السن، طاهيتان أيضًا. وبالنسبة لي، لقد وُظفتُ حديثًا لأن الملكة تؤمن بضرورة منح الشابات فرصة للتقدم».

- «وكيف تتحدثين اللغة؟ هل وُلدتِ في فرنسا؟ هل تنحدر عائلتكِ من بلدنا؟».

- «لا يا سيدي. لقد تعلمت عندما كنت فتاة

صغيرة، فقد نشأت لأكون سيدة، لكن ولسوء الحظ، مات والداي، وبقيتُ وحدي في العالم وكان علي أن أكسب رزقي».

رقّت تعابيره وقال: «وما اسمك؟».

ترددت ثم قلت: «هيلين. هيلين بارتون».

- «آه، الجميلة هيلين». وابتسم بالفعل.

- «وما اسمك يا سيدي؟».

- «اسمي جان بول لوبان. الشيف لوبان».

لم أتمكن من كبح ضحكتي، ظننت أنه قال «لابان» وتعني بالفرنسية «الأرنب» فقلت له: «بالنسبة لأرنب، تبدو جسورًا لا يهاب شيئًا».

أضحك تعليقي باقي الطهاة مرة أخرى، ورأيت بإيماءة رأس أنني سجلت نقطة.

- «آه، جيد جدًا»، وبدا مستمتعًا الآن، «لكن للأسف اسمي «لوبان» وليس «لابان». لكنكِ محقة. أنا جسور لا أهاب شيئًا».

- «أعتذر عن مقاطعتك يا شيف، ولكن هل تريد تذوق الصلصة قبل إضافتها إلى القريدس المفروم؟». نادى عليه أحد الطهاة الآخرين.

أجاب جان بول لوبان: «أثق تمامًا في حكمك يا

هنري»».

حدقتُ فيه بفضول. «أنت رئيس الطهاة هنا؟».

- «أجل».

- «أنت صغير جدًا على منصب رئيس طُهاة».

- «لا، في الواقع أنا في الخامسة والخمسين من عمري لكني عشت حياة جيدة مرفهة»، أجاب بصوت عالٍ لدرجة أن الرجال الآخرين في الغرفة نظروا إلى الأعلى وضحكوا. وكان يبتسم عندما استدار نحوي وقال: «في الواقع، أنا في الثلاثين من عمري فقط، وأنا صغير لأكون رئيس طهاة، لكنني بدأت في مطبخ والدي عندما كنت في السادسة عشر، وتعلمت مهاراتي من الأفضل، والرجل الذي بنى هذا الفندق حديث في طرقه وتطلعي أيضًا. كلنا هنا طهاة شباب وطموحون، وسنبتكر أطباقًا جديدة تمتع المشاهير العالميين الذين سينزلون في هذا الفندق».

قلت: «فرصة عظيمة بالنسبة لك».

هز رأسه وقال: «ولكِ كذلك على ما يبدو. حسنًا، يا مدموزيل الطاهية، يجب أن أعود إلى صدر بطتي، وإلا ستتأخر خدمة الغداء لدينا. لقد سألتِ عن مرافق المطبخ، في الواقع، أبلغونا

بضرورة مشاركة المطبخ مع طهاة الملكة، وتلقينا تعليمات لبذل كل ما في وسعنا لاستيعابكم وجعل إقامتكم مقبولة ومريحة، لأن هذا الفندق بُني خصيصًا لإقامة ملكتكم، وبالتالي نأمل أن يفِد العديد من الزوار النبلاء والمتميزين. لذا فإن الطاولات الموجودة في الجانب الآخر من المطبخ محجوزة لكم، وكذلك المواقد الموجودة على ذلك الجدار البعيد، والمقالي المعلقة أعلاه تحت تصرفكم، وأرجوا إبلاغي في حال احتجتم إلى أي معدات أخرى. أنا متأكد من إمكانية الحصول عليها بسهولة».

ابتسمتُ ابتسامة واسعة وقلت: «يجب أن ترى ما جلبه رئيس طهاتنا معه من معدات، لم يخاطر بشيء. أتمنى أن تكون هناك مساحة كافية لتخزين كل شيء»».

- «لا يعتقد أننا نملك قدورًا ومقالي في فرنسا؟»، وأصبح أقل ودية مرة أخرى.

- «بالطبع يفعل. لكن جلالة الملكة دقيقة جدًا بالطريقة التي تحب أن تُحضَّر الأشياء بها، ولا يريد أن يُخطئ»».

- «أتفهم تمامًا بصفتي طاهٍ، أنا أفضل معداتي الخاصة. يحتاج المرء إلى معرفة كيفية أداء مقلاة

بعينها».

قلت: «أشكرك على وقتك، وعلى تخصيص مساحة لنا في مطبخك. سأحضر الطهاة لتقديمهم لك عندما تكون أقل انشغالاً».

- «بكل تأكيد. طاقم مطبخي يتطلع إلى التعرف عليهم»، قال هذا بتصنع، كما لو كان يردد ما قيل له أن يتفوه به فحسب، وانحنى قليلاً ثم قال: «نحن ندرك جيدًا أن هذا المطبخ، وهذا الفندق، لن يكون موجودًا لو لم تقرر ملكتكم زيارة نيس يا مادموزيل. ويأمل الجميع في هذهِ المدينة أن تكون هي سببًا كافيًا لجلب الزوار من جميع أنحاء العالم، وبذا تتحول مدينتنا إلى منتجع شتوي عصري. وبالنسبة لي شخصيًا، ستتاح لي الفرصة لإظهار مهاراتي لأصحاب الرتب والأموال. ومن يدري، ربما سيدعوني إمبراطور أو مليونير أمريكي للعمل لديه».

- «هل تريد مغادرة نيس؟»، صحت، «لكنها بالتأكيد أجمل مكان في العالم».

- «أنت محقة في هذا»، قال موافقًا، «لكن لدي رغبة في رؤية العالم قبل أن أستقر»، وتوقف قليلاً، ثم قال بصوت أكثر رسمية، «والآن إذا سمحتِ لي، عليَّ العودة إلى استعداداتي». وعاد

إلى عمله. وخرجت أنا من المطبخ. ووجدتُ هذهِ المرة باب مرور مماثل في جانبنا من المطبخ، والذي أفضى إلى ممر آخر ضيق يؤدي إلى غرفة طعام خاصة بالملكة. نظرت إلى الداخل، بدت كأنها غرفة في أي منزل ريفي، ليست كبيرة، لكن الجدران كانت مزينة برسومات ملكية مناسبة، وقد تتسع الطاولة لاثني عشر شخصًا على الأكثر. ومن الجانب الآخر، كانت هناك غرفة طعام أكبر، يتناول فيها أفراد العائلة الملكية طعامهم. وفي حال أرادت الملكة إقامة مأدبة عشاء كبيرة، لا أعلم كيف وأين ستقيمها! قد تستولي على صالة طعام الفندق الرائعة. على كل حال، هذا ليس من شأني.

اتبعت الرواق وخرجت من خلف السلم. آه، هكذا فاتني الباب في المرة الأولى، كان مخفيًا بمكر. وهناك توقفت قليلاً لأول مرة لألتقط أنفاسي، فقد كان لقائي مع الشيف لوبان مخيفًا. وآمل ألا يكون كل الفرنسيون عدوانيين ويحبون المواجهة، وليسوا وسيمين بشكل محرج هكذا أيضًا.

الفصل الخامس عشر

أبلغت السيد آنجيلو على نحو وافٍ بأنني حددتُ موقع المطابخ وقابلتُ رئيس الطهاة في الفندق، وحذرته من أن وجودنا يعتبر مصدر امتعاض إلى حد ما، وبألّا يتوقع استقبالاً مُرحِبًا بأذرع مفتوحة. أومأ وقال: «لستُ متفاجئًا من هذا. لن يروق لي أنا أيضًا أن يُزَج طهاة أجانب في مطبخي عنوة. لا تقلقي. سنتفق حالما يرى جودة إعدادنا للطعام على الأرجح، هلّا أخذتِني إلى هناك من فضلكِ؟"

- «أعتقد أن علينا الانتظار حتى ما بعد وجبة الغداء. فهُم مشغولون جدًا في الوقت الحالي».

- «بالطبع. لقد نسيتُ أن هذا فندق شغّال أيضًا، وسيكون هناك ضيوف آخرين. بالإضافة إلى أن الوقت حان لتناول شيئًا أيضًا. أفترض أن هناك غرفة طعام للموظفين، حيث من المفترض أن نتناول وجبات طعامنا، أم يُتوقع منا طهي طعامنا؟»،

- «لم أسأل عن ذلك. في الحقيقة، كان الشيف يتفضل علينا إلى حد ما. وكنت متلهفة للفرار».

قال: «إذًا سنخرج ونجد لنا مقهى نتناول وجبة

طعام جيدة بما تبقى لنا من نفقات السفر».

استُدعي الآخرون، وذهبنا بحثًا عن مكان لتناول الطعام. وبعد الاستفسار، علمت أن هذهِ المنطقة أعلى التل كانت كلها حدائق وڤيلات وفنادق فخمة. ولنجد مقهى عاديًا، علينا النزول إلى المدينة مرة أخرى. قال لنا بواب الفندق: «هناك عربة ترولِّي (حافلة كهربائية). لقد شُيِّد خط جديد خصيصًا لهذا الفندق».

فأجبته: «أوه، هذه أخبار جيدة».

هز كتفيه بلا مبالاة وقال: «لسوء الحظ، إنها أكثر عرضة للعطل بانتظام. ربما ستعمل جيدًا اليوم».

كانت الحافلة الكهربائية تعمل اليوم، ونزلنا بسلام أسفل التلة المرتفعة شديدة الانحدار إلى المدينة. ووجدنا مقهى جميل صغير، اختار الرجال طبق باستا، واخترت أنا طبق عجة بيض. لطالما اعتقدت أن البيض مخصص للإفطار فقط، لذلك لم أجربه من قبل. لكن هذا الطبق لم يخيب ظني، فقد كان خفيفًا ورقيقًا ومحشوًا بالقريدس الصغير. كانت كل لقمة بهجة، ولاحظتُ أن تقدير الطعام كان أسلوب حياة في فرنسا. فقد قُدِم الطبق مع خبز مقرمش خُبز حديثًا، لدرجة

كان لا يزال دافئًا، ومعه زبدة حلوة. وأخطأتُ في طلب كوب من شاي عندما قدموا لنا إبريق نبيذ، يبدو أن الفرنسيين غير معتادين على الشاي، أو على الأقل، ليس بقدر ما يحبه الإنكليز. وصلني الشاي خفيفًا للغاية وكأنه ماء مغلي برائحة خفيفة، وبجانبه شريحة ليمون.

قال السيد آنجيلو عندما رأى علامات الاشمئزاز بادية على وجهي وأنا أرتشف الشاي: «أعتقد أن علينا الاعتياد على احتساء النبيذ مع الوجبات من الآن فصاعدًا. سمعت أنه لا يمكننا شرب الماء، كونه مشكوكًا فيه. لذا، إما النبيذ أو لا شيء»».

- «نبيذ؟ في منتصف النهار؟»، سأله السيد وليامز، «أنت تعرف أنني لا أحتسي المشروبات الكحولية. أنا ممتنع عن تناولها مثل أي شخصٍ في الجزء الذي أعيش فيه من ويلز. لقد قطعتُ عهدًا».

- «إذًا عليك بشرب بالحليب، أو الشاي الذي يشبه شاي هيلين»».

وعندما ذهبنا لنركب لنعود أدراجنا، أخبرونا أن الحافلة الكهربائية تعرضت لأحد أعطالها العديدة، وعلينا قطع الطريق سيرًا على الأقدام كل هذهِ المسافة. وصلنا إلى الفندق نشعر بالحر

والتعب وقليلاً من الغضب. وقال الرجال أنهم سينالون قسطًا من الراحة، وبأنهم ليسوا في عجلة من أمرهم لمقابلة الطهاة الفرنسيين العدائيين. ونظرًا لعدم وصول الملكة حتى بضعة أيام، لن نضطر إلى التسرع في إعداد المطبخ لها، ولن نحتاج إلى طلب الطعام بعد. وهكذا، كان وقتنا ملكًا، وكانت هذهِ أخبار رائعة بالنسبة لي، إذ لا أتذكر وقتًا كانت لي فيه هكذا رفاهية، وبكل تأكيد ليست في مثل هكذا ظروف. فارتديت بلوزة وتنورة قطنية وخرجت للاستكشاف، ولاحظتُ أروع الحدائق أمام الفندق، كانت أشجار النخيل الباسقة تصطف على جانبي ممر المشاة، سعفها يهمس ويطقطق ويتمايل في النسيم العاصف الذي يهب من البحر. وحتى في هذا الوقت من العام، كانت ثمّة مشاتل أزهار مليئة بأزهار زاهية أجهل أسماءها، وانتشرت نباتات متسلقة حمراء وصفراء على الجدران، وكانت هناك تعريشات ونوافير ومرج للعب الكروكيت، وملعب تنس، ودفيئة مليئة بالنباتات الغريبة، وفي مقدمة الحديقة عرض يوضح اسم الفندق بالورود. كان كل شيء مثيرًا وساحرًا جدًا لمن نشأ في لندن. صحيح أنني جربت حرية هامبستيد هيث، لكنها كانت منذ وقت طويل، وكأنها في حياة أخرى،

أو حتى في حلم. سرت في الممرات المكنوسة بحذر، وتوقفت لأشم رائحة مسكرة للغاية، وكانت أشجار فيها أزهار بهيئة المذررة الصفراء رائحتها زكية للغاية. ثم جلست على مقعد تحت إحدى هذهِ الأشجار ونظرت حولي، وخلتني في الجنة. ثم تغلب عليَّ التعب الناتج عن سهر الليل في القطار، وغفوت على ما يبدو لأنني سمعت صوتًا يقول بالفرنسية: «ابقي بالضبط حيث أنتِ. لا تتحركي».

جلست، متيقظة على الفور، ووجدت نفسي أحدق في امرأة ترتدي ملابسًا أنيقة. ومع مثالية وجهها، إلا أنني خمنت أنها في منتصف العمر، ربما في الأربعين أو نحو ذلك. وكانت ترتدي فستانًا حريريًا بلون رمادي فاتح، أكمامه منفوخة من الأعلى وضيقة من الأطراف كقدم الضأن، وتنورة ضيقة وصِدار بإزار. وتضع على رأسها قبعة صغيرة وأنيقة، وتحمل مظلة حريرية مهدبة لدرء أشعة الشمس عنها. لم تبعد نظرها عني، فنظرتُ لما حولي لأرى إذا كنت في خطر أو أنني قد خرقت إحدى القواعد. وخطر لي بالفعل أن الحديقة محجوزة خصيصًا لنزلاء الفندق، وهذا لا يشمل الخدم. قاومت رغبتي في النهوض بشدة لإنها طلبت مني آلا أتحرك.

- «سيدتي؟»، سألتها بالفرنسية، «هل ثمة خطب ما؟».

قالت وهي تتجه نحوي: «لا شيء.. في الواقع، إنه مثالي».

- «ما هو؟». وبدأتُ أتساءل إذا كانت قد تأثرت قليلاً.

فقالت: «أنتِ يا فتاتي الجميلة. أنتِ ما كنتُ أبحث عنه بالضبط».

خطر ببالي الآن أنها قد تكون سيدة أنيقة تحاول تجنيدي للعمل في أحد بيوتها سيئة السمعة.

جلست بجانبي وسألتني: «هل تقيمين في الفندق؟».

أجبتها: «نعم، لقد وصلت لتوي. أنا عضوة في حاشية الملكة ... في حاشية الليدي بالمورال، أُرسلت مسبقًا للتأكد من أن كل شيء جاهز قبل وصولها».

- «بالطبع»، قالت، «الليدي بالمورال، إيه؟»، وغمزت لي، «سخيف جدًا، كوننا نعرفها جميعنا. أخبريني، هل أنتِ إنكليزية؟». سألتني بلغتي، وهذا ما أكد شكوكي بأنها إنكليزية مثلي تمامًا، مع أن لغتها الفرنسية كانت لا تشوبها شائبة، إلا إن

هناك لمحة خفيفة من الغربة في نبرتها.

- «أجل».

- «هل لي بمعرفة اسمك؟».

تساءلت إذا كان بمقدوري اخبارها بالحقيقة، إذ لا داعي لتعرف تنكري. لكن دائرة المغتربين صغيرة فقلت لها:

- «اسمي هيلين بارتون».

- «سررت بمقابلتكِ يا هيلين»، ومدّت لي يدها المغطاة بقفاز أنيق وقالت: «أنا ماري كروزر».

- «كيف حالكِ؟»، وصافحتُها، «هل تقيمين في الفندق أيضًا؟».

- «أوه لا، أنا أعيش هنا. هل ترين تلك الڤيلا على يميننا؟ تلك ڤيلتي «ڤيلا أنجليكا» اسم سخيف، ألا تعتقدين ذلك؟ وهي إحدى نزوات زوجي. قال إن المنظر جميل لدرجة أن الملائكة يريدون العيش هنا. تراوده النزوات من وقت لآخر».

نظرت إلى الڤيلا الرومانسية وسط حدائق جميلة. وفكرت في لقبها فسألتُها: «هل زوجك فرنسي؟».

- «أجل. الماركيز دي كروزر. فرنسي مفعم

بالحياة. ظنت عائلتي أنه غير مناسب لي تمامًا عندما التقينا في حفلة باريس. لكنني أخبرتهم أن أفضل ما يمكنهم إيجاده لي هو مجرد بارون أو فيكونت، وكان ماركيزًا. ولأصدقكِ القول إن الندم لم يساورني قط. إذ رغم اندفاعه للحياة وحبه للمغامرة، أثبت إخلاصه بشكل ملحوظ، وقد منحته أربعة أبناء أصحاء. لذا كل شيء على خير ما يرام»، وتوقفت قليلاً وتنهدت ثم قالت: «اشتاق لإنكلترا من حينٍ لآخر، لمسرح لندن، والقُريصات مع القشدة المخثرة، الآن وبعد أن أصبح الريفيرا مكان الملكة في فصل الشتاء، سيصبح بمقدوري أن أكون بين أبناء جلدتي من جديد».

- «أظن أن المكان هنا رائع»، قلت لها، «لو أني كنتُ أعيش هنا، لما رغبت بالانتقال أبدًا».

قالت: «الفرنسيون مُتعِبين إلى حد ما أحيانًا. الكثير من القيل والقال والمكائد ومن ينام مع من. ولحسن الحظ، لم تستهوِ هذهِ الأمور فرانسوا مثلي. ولهذا السبب هربنا من باريس في المقام الأول وبنينا هذه الفيلا. وهو ما يقودني إلى مهمتي الحالية. هل أنتِ متفرغة هذا المساء؟».

تزاحمت الأفكار في رأسي. كنتُ خادمة. هل

أدركت هذا من ملابسي وهي الآن تطلب مني مساعدتها في حفلة السهرة؟ لكن، ماذا لو أنها تدعوني لأكون ضيفة؟ هل يمكنني قبول دعوة من ماركيزة؟

- «أوه، أرجوكِ قولي نعم»، وضغطت يدي في يديها، «سيكون اجتماعاً مثيراً للاهتمام. لا شيء رسمي، لكني أحتاج وجودكِ كثيراً».

- «تحتاجينني؟ لأي غرض؟».

ضحكت وقالت: «لا تقلقي، أحتاج شعركِ يا صغيرتي. فكما ترين، التابلوهات هي موضة هذهِ الفترة، وكنت أتمنى عمل تابلوه تشارلز الثاني ونيل غوين، كما تعرفين، بائعة البرتقال التي قابلها خارج المسرح وأصبحت عشيقته المفضلة فيما بعد. إلا أن شعر نيل غوين أحمر، وللأسف لم أعثر على صهباء تقوم بدورها حتى ظهرتِ أنتِ الآن. لذا، أرجوكِ قولي إنكِ ستأتين، وستجعلين أمسيتي ناجحة».

كيف لي أن أرفض؟ «بالطبع. يسرني الحضور يا ماركيزة».

ضغطت على يدي أكثر وقالت: «نادِني ماري. أعلم أننا سنصبح صديقتين مقربتين»، وعادت

تمعن وجهي من جديد، «يا له من وجه جميل، إنكليزي تماماً. لا تعرفين شعوري في منزل كله ذكور مشاغبين. كم أتوق لابنة مثلكِ»، ونهضت، «أوه، ها قد وصل تجّار النبيذ، يجب أن أذهب، وإلا سيضعون كل شيء في مكانه الخاطئ. إلى اللقاء حتى نلتقي هذهِ الليلة. تعالي بحدود الثامنة ليتسنى لنا قياس ثوبكِ وضبطه عليكِ». وقفزت واقفة وأسرعت عبر الممر بأقصى ما سمحت لها تلك التنورة الضيقة.

الفصل السادس عشر

انتظرت حتى استيقظ السيد آنجيلو من غفوته بعد الظهر ثم أخذته للقاء زملائه الطهاة الفرنسيين. كان الاجتماع قصيرًا ومهذبًا للغاية، وآمل أن يكسر الحاجز عندما نعمل معًا.

- «يااللهول! إنه رجل غريب، أليس كذلك؟»، تمتم الشيف بينما كنا نرتقي الدرج، «أرى أنه سيكون مصدر مرح وتسلية. لكن، يجب أن تجري الأمور بسلاسة طالما التزمنا بالجزء المخصص لنا، والتزموا بالجزء المخصص لهم من المطبخ».

أومأت له وسألته: «وبالنسبة لهذا المساء، هل أنا متفرغة؟».

- «كلنا متفرغون حتى تصل جلالة الملكة إلى هنا. سيكون تفريغ الصناديق وترتيب الأرفف غدًا، وتجهيز مخزن حفظ اللحوم للوجبات الأولى. ولحسن الحظ، أحضرت الكثير من الأساسيات معي: التوابل والأعشاب والشاي الإنكليزي الجيد أيضًا، بعد ما مررتِ به اليوم».

- «وبخصوص هذهِ الليلة، هل تسمح لي بالخروج؟».

قطب حاجبيه وقال: «لا أحبذ فكرة خروج فتاة

شابة تتجول في مدينة غريبة ليلاً. ليس من دون مرافق. وجميعنا متعبون لدرجة لا يمكننا الخروج للتسكع والمرح».

- «أوه، لا أعتزم التسكع في المدينة يا سيدي. كل ما في الأمر أن سيدة نبيلة إنكليزية طلبت مني أن أساعدها في حفلة السهرة التي تقيمها».

- «سيدة نبيلة إنكليزية؟ ومن أين تعرفينها؟». كان لا يزال مرتابًا.

- «قابلتها في الحديقة بعد ظهر هذا اليوم. وهي تملك الفيلا التي يمكنك رؤيتها على يمينك».

- «وليس لديها خدم لحفلتها؟».

- «لديها. لكنها لا تريدني بصفتي خادمة. ستقيم تابلوه وتحتاج فتاة صهباء تؤدي أحد الأدوار».

- «ماذا تعنين بتابلوه؟».

- «بتموضع أناس أحياء بلا حركة ليمثلوا لوحة شهيرة أو مشهدًا تاريخيًا. وستقيم تابلوه تشارلز الثاني».

- «وتريدك لتجسيد؟».

- «نيل غوين».

هزَّ رأسه وقال: «تعرفين ماذا كانت أليس

كذلك؟ لم تكن مشهورة بسبب البرتقال الذي تبيعه».

ابتسمت لكلامه وقلت: «لن أمثل الدور يا شيف. كل ما عليّ فعله هو الوقوف ثابتة بلا حراك لمدة دقائق، ثم أعود إلى هنا. لستَ معترضًا على هذا أليس كذلك؟».

- «لا أعترض ذلك، احذري من هؤلاء الأرستقراطيين، هل تفهمين؟ فهم يعتقدون أن كل خادمة جميلة فريسة سهلة المنال».

- «لا تقلق، سأكون حذرة»، قلت له، «وأؤكد لك أنني لستُ فريسة سهلة المنال».

تمعنني لحظات ثم قال: «لا، لا أظنكِ فريسة سهلة المنال».

وعندما تعلق الأمر بالاستعداد للسهرة، عانيتُ التياع الحيرة. كنتُ قد جلبتُ معي فستاني الجميل من المخمل الأزرق الذي ارتديته في زفاف لويزا، وعدا عن ذلك، ملابسي كانت بسيطة إلى أبعد حد. لكن، ربما لم تتوقع ماري كروزر أن أكون من ضمن الضيوف، وإنما فنان ترفيهي فحسب، أدخل بسرعة عبر مدخل الخدم أؤدي دوري في اللوحة الفنية وأخرج من حيث أتيت عندما

أنتهي. ومن ناحية أخرى، لا أريد أن أُقَدَم للضيوف وأنا أرتدي فروكة قطنية قديمة في حال حدث هذا. وهكذا حُسم الأمر. ارتديتُ فستاني المخملي الأزرق وأرخيتُ شعري، لمعرفتي بأنه يجب أن يكون مُسدلاً في الجزء الخاص بي من التابلوه. وأخيرًا، وضعتُ عباءة مماثلة مطعمة بفراء أرنب على كتفي ونزلتُ الدرج، وعبرت الردهة وخرجت إلى الليل الرحب.

كانت الساحة الأمامية مُضاءة جيدًا، ومليئة بالحركة، عربات تصل وأخرى تغادر، وكانت أصوات الأوركسترا تنسابُ من الأبواب الأمامية المفتوحة. شققت طريقي دون عراقيل إلى فيلا آنجيليكا. كان اسم الفيلا منقوشًا على البوابة لكني كنتُ سأميزها بغض النظر عن اللافتة من الأضواء الساطعة المتدفقة من كل النوافذ، والصخب، والخادم الذي ينتظر في الفناء الامامي لاستقبال الضيوف. تقدمت بتردد، لستُ متأكدة إذا كان عليّ تقديم نفسي بصفتي ضيفة، أم أحد فناني الترفيه. لكن، ما إن اقتربت حتى تقدم نحوي خادم يرتدي ملابس سوداء اللون وقال: «طبتِ مساءً يا مدموزيل. من هنا لو سمحتِ».

واصطحبني إلى الداخل عبر الباب الأمامي، ووجدتُ نفسي فجأة في غرفة مليئة بأناس يرتدون ملابس أنيقة. كم مرة حلمت بهذا؟ عندما كان أبي يروي حكاياته عن زياراته لمقر الأسرة، والمآدب، والحفلات الراقصة في الهند، والحفلات في سافوي، وكنت أتخيل نفسي في أحدها وأتمتم «يومًا ما يا بيلا».

أصبح ما تمنيته حقيقة، وشعرت بالرعب وأنا أجول ببصري في أرجاء الغرفة، لم يكن ثوبي مناسبًا إطلاقًا، ليس هناك فساتين مخملية، لا شيء سوى الحرير بقدر ما أستطيع رؤيته. وكانت خصور السيدات أشد إحكامًا، وصدور فساتينهن منخفضة أكثر بكثير، والضجيج أعلى بكثير. كم بدا الجميع مرتاحين، يضحكون ويتحدثون، وكؤوس الشمبانيا في أيديهم، كانوا جميعهم ينتمون إلى هذا المكان، ولن أنتمي إليه أبدًا. حمتُ حول محيط الغرفة، وعندما جاءني نادل بصينية فيها كؤوس شمبانيا، ترددتُ قليلاً، هل عليّ أن آخذ كأسًا، لكنه كان شيئًا أُمسكه بيدي على الأقل. فأخذتُ كأسًا وارتشفت منه وجربتُ طعم الفقاعات اللذيذ.

ثم سمعت أحدهم يناديني، كانت ماري كروزر

قادمة نحوي وذراعيها ممدودتان: «لقد أتيتِ، يا طفلتي الجميلة، هذا لطفٌ منك. كنت خائفة من أنني ربما أخفتك بحماسي، أراكِ حصلتِ على مشروب. رائع! تعالي وقابلي بعض أبناء بلدك»، وأخذت ذراعي ووجهتني نحو رجل كبير السن يقف وحيدًا بجانب رف الموقد. وقالت: «زهرة إنكليزية أخرى يا لورد إس، هذهِ الآنسة هيلين بارتون. أنتِ تعرفين اللود سالسبري بلا شك يا هيلين»،

حاولتُ ألا أظهر دهشتي وذهولي. لقد قُدمتُ إلى رئيس وزراء إنكلترا! والغريب في الموضوع أنه من كان يشعر بعدم الانتماء، لم تكوى ملابسه جيدًا، وشعره لم يمشط بعناية، ومقارنة بباقي الضيوف، بدا رثًا بلا ريب. حاولت استيعاب هذا للحظات قبل أن يومئ لي بودية ويقول: «آنسة بارتون. هل وصلتِ حديثًا إلى الريفيرا؟»،

- «اليوم يا سيدي»،

- «ولديك القدرة على الحضور إلى الحفلة بعد تلك الرحلة المروعة؟ عجبًا عجبًا. أنا معجب بحيوية الشباب لديكِ، عندما أتيت إلى فيلتي، كان أول شيء أردت القيام به هو أخذ قيلولة. هل سنحت لكِ الفرصة لتنامي نومًا هنيئًا في القطار؟ أحسب

أن حتى أفضل مقصورات الدرجة الأولى، تتأرجح كثيرًا لدرجة يتعذر فيها الحصول على قسط من الراحة».

أجبته: «أعترف أنني لم أنم كثيرًا».

- «وماذا عن المعبر؟ جئتِ عبر الطريق القصير عبر بولوني، أليس كذلك؟».

- «أجل. وكان الطقس سيئًا، لكن أعتقد أنني بحّار جيد لأني تحملت البحر أكثر من البقية».

- «هذهِ هي الروح المعنوية! فقلوبنا نحن الإنكليز من خشب البلوط، أليس كذلك؟ ولدنا لنكون بحّارة».

- «لن يتفق معك رفاقي السادة بهذا الخصوص. فقد ساءت حالتهم الصحية قطعًا».

أعاد رأسه إلى الخلف وضحك وقال: «طفلة مبهجة. هل ستبقين مع الماركيزة كروزر».

قاطعتنا ماري: «لا يا لورد إس، فهي من ضمن حاشية الملكة. أرسلت للاستطلاع والاستكشاف».

- «ومتى ستصل الملكة؟». وانضم إلينا عدة ضيوف.

- «بعد ثلاثة أيام على أقل تقدير». أجبته.

- «وهل قررتِ أن ذلك الضخم البشع الجديد سيلائم احتياجاتها؟». سألني رجل شاب.

فقلت له: «تقصد الفندق؟ أعتقد أنه سيعجبها كثيرًا».

- «حري بها ذلك»، قال اللورد سالزبري: «فقد صُمم خصيصًا لها. وقيل لي أنه كلف ثروة. لنأمل أنهم سيستطيعون توسيع غرفهم عندما لا تكون هنا أو في حال قررت عدم القدوم إلى نيس مرة أخرى».

- «هي امرأة مسنة أليس كذلك؟»، قال الرجل الشاب، «في سنها، لا أحد يعلم».

- «أعتقد إنها ستعيش إلى الأبد»، قالت امرأة كبيرة في السن وضخمة، متألقة بزي أرجواني منقط بالألماس، وقهقهت، «لا تريد أن يعتلي بارتي العرش».

- «حسنًا، وهل ترغبين أنتِ بذلك؟». قال الرجل الأول، وضحك الجميع.

فقال الرجل الشاب: «احذروا مما تقولون يا رفاق. فقد تكون هذه السيدة ابنة اختها، وتبلغها بما قيل في هذا الحوار، وينتهي بنا المطاف في

سجن البرج».

- «لا أعتقد أنكِ تقربين للملكة، أليس كذلك؟»، سألتني السيدة الضخمة وهي تنظر لي عبر منظار الأوبرا، «ليس علينا مناداتكِ سيدتي، أليس كذلك؟».

- «أوه يا إلهي، لا. ما أنا إلا أحد أفراد قصر جلالتها».

وضعت ماري كروزر يدها على كتفي وقالت: «يجب أن آخذ هيلين منكم الآن. لديها مهمة صغيرة تؤديها من أجلي».

كنت ممتنة لهربي من هذه المحادثة، وسألتها: «هل تريدين أن أرتدي زيّي الآن؟».

- «أوه لا، لا يزال الوقت مبكرًا على هذا، فنصف ضيوفنا لم يصلوا بعد. لكني أردت التأكد من حصولكِ على شيء تأكلينه قبل أن أحتاجكِ. تعالي إلى هنا وكُلي ما شئتِ، أعلم أنه لم يبقَ وقت طويل على موعد العشاء، لكننا سنحضر مفاجأتنا أثناء تناولهم الطعام».

ثم دفعت أبوابًا مزدوجة مزينة بالذهب. فرأيتُ أكبر طاولة طعام وقعت عليها عيني في حياتي. تألقت الفضيات والزجاج في ضوء عشرات

الشمعدانات، وعلى تلك المائدة كان هناك أكثر أنواع الطعام إثارة للإعجاب: موس السلمون على شكل سلمون، ودجاج بارد، وسمّان، وطبق ضخم من المحار والقريدس ومخالب السلطعون، وجميع أنواع السلطات والفواكه والأجبان. رُتِب كل شيء بطريقة جميلة، لدرجة أنني لم أتجرأ على لمسه. وعلى أحد نهايات الطاولة كان هناك وعاء ضخم فيه خوخ. فصحت: «خوخاً في هذا الوقت من العام؟».

- «من دفيئتنا. وليس موسمه بالطبع، لكن فرانسوا يحب تناول الفواكه»، ودفعت ماري صحناً في يدي وقالت: «هيا، لا تخجلي».

لم أتناول الطعام منذ وجبة الغداء، ومع أن عجة البيض كانت لذيذة، لكنها لم تكن مشبعة، وعندما سألتُ عن الوجبات المخصصة للطهاة في الفندق، أخبروني أننا مرحب بنا لتناول طعامنا مع الطهاة الفرنسيين حتى ننصب مطبخنا ونشغله، لكنهم لا يأكلون إلا بعد تقديم الطعام للضيوف، وعادة ما يكون بحوالي العاشرة مساءً. وضعت ماري يدها على كتفي وقالت: «سأتركك إذاً».

ومع جوعي الشديد إلا أني لم أرغب بتعكير جمال الترتيب الرائع للطعام، أخذت القليل من

السلطة وعلب سلطمون وفريدس بالإضافة إلى شريحة دجاج بارد. ثم تغلب عليّ إغراء الخوخ وأخذتُ واحدة.

- «أقول إن هذا منظر رائع، ألا تعتقدين ذلك؟». قال صوت من خلفي.

استدرتُ صوب المتحدث. كان شابًا يافعًا، لا يكبرني سوى ببضع سنوات، نحيل وشعره أشقر ضارب إلى الحمرة، ومظهره إنكليزي للغاية، وكان شعره طويلاً، يزين رقبته بقماش مزخرف، لذا كان أول انطباع لي هو أنه شاعر رومانسي.

أجبته: «إنه جميل للغاية».

- «حمدًا لله، تتحدثين الإنكليزية»، ورمقني بابتسامة واسعة محرجة وقال: «لغتي الفرنسية رديئة للغاية، حتى أن مدربي يئس مني. وحاولت إقناع والدي بالذهاب إلى باريس لأحسن تلفظي لعدة أشهر، لكن أعتقد أنه شك بأني سأقضي وقتي في مساع أقل احترامًا».

- «حتى في أقل الأماكن احترامًا، ستمارس لغتك الفرنسية». أجبته فانفجر ضاحكًا وقال:

- «وهذا ما سيكون، يا الله. كم أنتِ فتاة رائعة. لماذا لم أقابلكِ من قبل؟ هل وصلتِ حديثًا؟».

- «أجل، حديثًا جدًا. لقد وصلت اليوم».

- «هل تقيمين مع والديكِ أو أصدقائكِ؟».

- «لا هذا ولا ذاك. أنا جزء من حاشية الملكة، أُرسلتُ مسبقًا لأحرص على أن يكون كل شيء كما تحب».

- «يا إلهي، أية مسؤولية كبيرة هذهِ. هل هي ضخمة مثل تماري عجوز كما يقولون؟».

- «إنها دقيقة جدًا بشأن ما يعجبها وما لا يعجبها». يمكنني قول الصراحة.

- «أنتِ أصحّ مني». وكشّر.

- «ومع من تقيم؟»

- «أقيم في فيلا في فيلفرانش سور مير، قرب طريق نيس الساحلي، وهو مكان أجمل، وفيه شاطئ مناسب ليس كله حجارة. كان والدي يعاني من النقرس، وقرر أننا بحاجة إلى أجواء أكثر دفئًا. أعترف أنني سيء للغاية في البروتوكول، كان عليَّ أن أقدم نفسي ... أنا جايلز ويفرلي».

شهقت، كنت أتحدث مع ابن عمي! أتذكر أنني سمعت والدي يذكر اسم «جايلز». لم يكن ابن عم المقرب، فقد كان والدي الابن الوحيد لأبيه،

وهذا يعني أن أجدادنا كانوا إخوة. وهذا ما يجعله ابن عم من الدرجة الثانية، أليس كذلك؟ لا يمكنني أبدًا فهم هذهِ الأشياء فهمًا صحيحًا. وبينما كنت أقوم بهذهِ الحسابات السريعة، قال: «وما اسمك، إلا إذا كنتِ تسافرين متخفية من أجل الملكة؟».

كم هو جميل لو تمكنت من إخباره أنني إيزابيلا ويفرلي، ابنة عمه. ترددت قليلاً، ووزنت الأمور وعقلتها، وخطرت في بالي صورة عودتي إلى أحضان العائلة واستعادة مكانتي الاجتماعية المستحقة في العالم، والتحرك بحرية بين هؤلاء الناس في هذهِ الحفلة، ثم تذكرت أن والدي حرِم من المساعدة عندما احتاجها، وكان بينهم خلاف كبير، كما سأخاطر بوظيفتي لدى الملكة إذا ظهرت الحقيقة. كانت مخاطرة لا أستطيع تحملها. فأخذت نفسًا عميقًا وقلت: «كيف حالك يا سيد ويفرلي؟ أنا هيلين بارتون».

- «هيلين!»، وهز رأسه، «إنه اسم قاسٍ جدًا لفتاة ساحرة مثلكِ. هل لديكِ لقب محبب ينادونكِ به في المنزل؟ يمكنني مناداتك به ما لم يكن شديد السخف، مثل دودي أو بانيكينز أو شيء من هذا القبيل».

- «في الواقع، ينادونني «بيلا» في المنزل، ووالدي كلاهما ميتان».

- «بيلا، هذا اسم رائع ومناسب تمامًا. وعليه، اسمكِ بيلا. أرى أنني أحرمكِ من طعامكِ. من فضلك اجلسي واستمتعي به»، وأشار إلى الكراسي حول الحائط. فجلست على أحدها، «قد انضم إليكِ قبل أن يصل الحشد إلى هنا». والتقط طبقًا لتوه عندما مدّت ماري رأسها من الباب وقالت:

- «ماذا تفعل يا فيكونت فيفرشام، تختلس عشاءً مبكرًا؟ يجب أن تأكل هذه الشابة الآن لأنني أحتاج إلى خدماتها لاحقًا، لكنك أيها الفتى العزيز، ستنتظر حتى يُعلن عن العشاء بعد الأداء».

- «أوه، يجب أن أقول لكِ يا ليدي كروزر، أنتِ مفسدة للبهجة. أنا أتضور جوعًا، وبالكاد بدأتُ أتعرف على هذه الفتاة الجميلة».

- «هذه الفتاة الجميلة تحتاج إلى الهدوء والسكينة لتأكل»، وأخذت ماري يده وابتسمت لي وقالت: «لا تصدقي أيًا مما يقوله لكِ هذا الشاب».

ابتسم لي جايلز ويفرلي ابتسامة واعدة وقال: «سأراكِ لاحقًا، أليس كذلك؟».

- «ربما. ولكن بمجرد وصول الملكة سأكون طوع بنانها ولن يكون لي وقت فراغ».

قال: «سنخصص بعض الوقت بلا شك».

قالت ماري: «اخرج. الفتاة المسكينة بحاجة لتناول الطعام قبل مفاجأتنا الصغيرة». وقادته إلى الخارج.

بالكاد تمكنت من ابتلاع لقمة. الفيكونت فيفرشام، ليس ابن عمي فحسب، وإنما فيكونت. بالطبع، فقد ورث شقيق جدي لقب الأيرل. وسمعت عن إيرل ألترنغهام والعقار في كينغسبري وقطيع الغزلان. وأرسل جدي إلى المستعمرات، كما يحدث دائمًا للأبناء الصغار، وولد أبي في الهند، وقضى طفولته في إنكلترا حيث درس في إيتون وأكسفورد كما كان مناسبًا لشاب، ثم أعيد إلى الهند بعد تعليمه بمأمورية في كتيبة رماحو البنغال. يا له من عالم غريب نعيش فيها تصنع حادثة ترتيب أسبقية المولد الفارق بين الوفرة والعوزا وعلى كل حال، كنت سعيدة بلقائه، بل ذهلت لأني حضرتُ حفلة وأُعجب بي ابن إيرل، وتساءلت إن كنتُ سأحظى بفرصة رؤيته مرة أخرى بعد التابلوه. ثم ذكرت نفسي بحدة بأنني هيلين بارتون، مساعدة طاهٍ، ولا أعرف

في الدوائر الاجتماعية ذاتها مع الفيكونت، ولا أملك خزانة ملابس تؤهلني لأتحرك في تلك الدوائر، حتى لو تمكنت من التهرب من مهامي من وقت لآخر.

«لا تفكري بأشياء فوق مكانتكِ الاجتماعية» كان شيئاً يُقال لكل الفتيات الشابات. لكن الحلم لا يضر. أليس كذلك؟

الفصل السابع عشر

ما إن انتهيتُ من تناول الطعام حتى أخذتني ماري بخفة إلى غرفة تنتظرني فيها خادمة لتساعدني في ارتداء الفستان.

- «هائل!»، صاحت الخادمة عندما رأتني، «شعرها مثالي. أين عثرتِ عليها؟ سيكون سيدي الماركيز مسرورًا للغاية لحصوله على نيل غوين».

- «في حدائق الفندق. ما زلتُ لا أصدق حُسن حظي عندما عثرت عليها مصادفة. هاكِ يا هيلين، جربي فستانكِ».

وعندما خلعت الخادمة فستاني، طقطقت بلسانها وقالت: «لا ترتدي المدموزيل مشدًا».

- «ما زالت فتاة صغيرة، لا تحتاج إلى المشد بعد»، قالت ماري، «انظري إلى خصرها الصغير!».

- «يجب أن يعتاد الجسم على المشد مبكرًا قبل أن يبدأ الخصر بالاتساع».

وساعدتني في ارتداء الفستان وشعرت بأنها شدت الخيوط الأمامية للفستان بإحكام شديد. رأيتُ نفسي في المرآة، وكانت النتيجة رائعة، كان قماش الفستان أنيقًا لونه أزرق مخضر، وأكمامه

منتفخة كبيرة وتنورته طويلة جدًا. والأكثر من ذلك كله، كان الفستان يناسبني تمامًا وكأنه صُنع خصيصًا من أجلي. وبينما تمعنته بدقة أكثر، أدركت أنه يكشف الكثير من صدري فقلت: «ألا يجب أن يكون هناك خطاف أو زر آخر هنا؟». وحاولت الإشارة إلى مكان نزوله بين نهديّ.

فقالت ماري: «بالطبع لا. أنتِ نيل غوين. وأنتِ تبيعين بضاعتكِ في كوفنت غاردن، أم أنها كانت ستراند؟».

كانت خادمة التلبيس تهز رأسها موافقة: «هذا جيد. لديها جسد جميل، وصدر مدور. انظري كيف يبرزهما الزي! لن يستطيع الرجال إبعاد نظرهم عنها».

شعرت بعدم ارتياح، لم أحضر حفلة كهذهِ من قبل، وكنت أعرف أن أمير ويلز وبعض الأستقراطيين كانوا كهولاً خليعين. هل استدرجوني لما هو أكثر من مجرد تابلوه على مسافة آمنة من الحضور؟ هل سأكون لقمة سهلة ما إن ينتهي العرض؟

بالتأكيد لا، أخبرتُ نفسي. لا يبدو أن ماري كروزر من هذا النوع، لن تسمح أبدًا بـ ...

- «والآن يا مدموزيل»، قالت الخادمة الفرنسية، «حان دور المكياج وتصفيف الشعر، وسيكتمل تغيير المظهر. اجلسي هنا أمام المرآة».

جلستُ أمام مزينة بالغة الفخامة على مقعد من المخمل العنابي. ووضعت قطعة قماش فوق فستاني لحمايته، وبدأت الخادمة بتصفيف شعري، لفّته وثبتته حتى كومته عاليًا على رأسي، وتركت خصلتان مجعدتان مرتخياتان أسفل خدي وحتى فتحة صدري. وبدأت تضع لي مستحضرات التجميل.

- «بشرتكِ جميله».، قالت وهي تدلك وجهي ورقبتي بالكريم، «لم تتلفيه بتعريضه لأشعة الشمس كثيرًا».

ضحكت وقلت: «نادرًا ما يكون الجو مشمسًا في لندن».

- «لا يفهم الإنكليز»، تابعت وهي تضع أحمر الشفاه على خدي، «يأتون إلى هنا ويتنزهون في بروميناد ديزونغليه بدون مظلة. فيبدون محروقين بأشعة الشمس كأنهم فلاحين».

بدت خدودي حمراء بصورة غير طبيعية، وعندما أضافت الكحل على جفني وقطرة قرمزية

من أحمر الشفاه على شفتي، كان عليّ التدخل فقلت: «ألا يبدو هذا المكياج مبالغًا فيه؟».

- «بالطبع لا»، أجابت ماري، «ستكونين على خشبة العرض وتحت أضواء ساطعة. ثم إنكِ مومس».

زاد شعوري بالضيق أكثر فأكثر وندمتُ على حضوري إلى حفلة بدون مرافق. ماذا لو أراد أحد اللوردات أخذي إلى غرفة خلفية، مَن سيدافع عني؟ ثم قلت لنفسي: جايلز ويفرلي سيفعل، لدي حليف هنا. قادتني ماري عبر ممرات كان من الواضح أنها مخصصة للخدم، وخرجنا إلى صالة رقص خافتة الإضاءة، صُفّت عدّة أسطر من الكراسي حول منصة، وكانت ستارة مخملية حمراء معلقة أمامها. وكان هناك أشخاص كُثُر واقفين يتحدثون، يرتدون أزياء تناسب تلك الحقبة الزمنية، شعر مستعار طويل وتنانير واسعة.

- «ها نحن ذا يا حبيبي»، نادت ماري أحدهم عندما اقتربنا، «كما ترى، لقد وجدت لك نيل غوين. أليست مثالية؟».

التفت إلينا رجل طويل القامة بشرته داكنة، تشارلز الثاني، شعره طويل ومجعد ينساب على

كتفيه، ومعطف من الفروكة المزركشة.

- «مساء الخير يا نيل»، وأخذ يدي وقبّلها، «إنها مثالية. أنتِ عبقرية يا حبيبتي».

- «تذكر أن هذا مجرد تمثيل يا فرانسوا»، وصفعته على يده صفعة خفيفة، «لا تدع نفسك تنجرف مع أية تخيلات أخرى».

- «كما لو يمكنني أن أفعل وأنتِ»، توقف قليلاً ثم أضاف، «تراقبينني مثل صقر».

فضحكت. من الواضح أن زواجهما كان جيدًا وبأنه كان مبنيًا على الحب.

ثم قادونا إلى المسرح، شهقت عندما رأيتُ إلى أي مدى ذهبت ماري في إنشاء المشهد، نُصب مسرح متكامل ملائم يمثل شوارع لندن القديمة، وفي أحد جوانبه كانت هناك عربة مليئة بالفواكه للبيع، يبدو حقيقيًا بشكل لا يصدق. وُضعنا في أماكننا، يبدو أن التصميم مأخوذ من لوحة، وأعطوني سلة برتقال أحملها بيد، وكان عليّ أن أقف بلا حراك وأنا أعرض برتقالة على الملك تشارلز، بينما كان الوفد المرافق له يراقب. لزمنا أماكننا المحددة.

قالت ماري: «سأُشير لكم عندما يكون الجمهور

في مكانه»».

غمز لي الملك تشارلز، لكنها كانت غمزة اطمئنان، وهمس: «لا تَحكّي أنفكِ أو تعطسي. يجب أن نكون مثل التماثيل».

سمعنا حركة كشط كراسي بينما كان رواد الحفلة يدخلون إلى صالة العرض، ومحادثات مفعمة بالحيوية بالفرنسية والإنكليزية، ثم أعطتنا الإشارة، رفعتُ برتقالتي وثبتتُ قدمي بإحكام، ثم رُفعت الستارة. وسلطت علينا أنوار شديدة السطوع، فرمشتُ وصفق الجمهور بحرارة، وتمنيت لو لم يذكر الماركيز أي شيء عن الاضطرار إلى حك أنفي لأنه بدأ يحكني، لكنني أجبرت نفسي على البقاء ساكنة، وذراعي لا تتحرك وأنا أحمل البرتقالة. سمعتُ تعليقات بذيئة من الجمهور وتظاهرت بعدم سماعها. بدت اللحظة وكأنها تطول وتطول، وتساءلتُ كم من الوقت يمكنني الاستمرار في رفع ذراعي؟ وأخيراً، صعدت ماري إلى المسرح وطلبت من الجمهور أن يشكرنا جميعاً على أدائنا الرائع. وسألتهم: «أليس هذا أجمل تابلوه شاهدناه هذا العام؟»».

أطفأت الأنوار، وأسدلت الستارة، ورافقوني إلى غرفة تبديل الملابس، حيث أزالت خادمة

ماري مستحضرات التجميل عن وجهي، وفتحت تسريحة شعري وساعدتني على ارتداء فستاني وقالت: «اختاري قماشًا آخر في المرة القادمة، فالمخمل ليس مناسباً في هذا الوقت من العام، الآن وقد اقترب الربيع».

- «يؤسفني القول إن هذا فستان السهرة الوحيد الذي جلبته معي»، اعترفتُ لها. وتذكرتُ الجنيه الذي بحوزتي، وإذا لزم الأمر، أضيف إليه أجري الذي لم أصرف منه شيئًا، وقلت: «هل تعرفين خيّاطة ماهرة أجرها غير باهظ؟».

- «والدتي، هي الأفضل، سأعطيكِ العنوان، تعيش في المدينة القديمة. اختاري قماشًا يعجبكِ وخذيه إليها وأخبريها أنكِ من طرفي، وستأخذ منكِ ثمنًا جيدًا».

لم أرغب بسؤالها إذا كانت مدخراتي الضئيلة كافية لدفع أتعاب خياطة جيدة وثمن القماش، أومأت وقلت: «رائع، شكرًا لكِ».

خرجتُ من غرفة الملابس، لا أثر لماري في الجوار. فتساءلتُ إذا كان عليَّ الانضمام من جديد إلى الحفلة أم استغلال الفرصة والتسلل إلى الخارج. رغبتُ في رؤية جايلز ويفرلي مرة أخرى، وربما احتساء كأس شمبانيا آخر. لم تدق

ساعة منتصف الليل بعد، لم تكن سندريلا مستعدة بعد لمغادرة الحفل الراقص والعودة إلى المطبخ. وبينما دخلت إلى سطوع أضواء البهو الكبير، لمحت ماري وفرانسوا، لا يزال يرتدي زي تشارلز، يتجاذبان أطراف الحديث مع رجل بدين ظهره نحوي.

- «أنا آسفة جدًا يا سيدي لأنك تأخرت كثيرًا»، قالت ماري بالإنكليزية، «لو أننا علمنا بقدومك، لانتظرنا بكل تأكيد».

- «حصلت مشكلة بسيطة في اليخت، وعطلتني. مزعجة جدًا، لكن، أصلح كل شيء الآن، وسأنتقل إلى فيلتي يوم غد، لكنني تمنيتُ أن تُتاح لي فرصة رؤيتك تمثل أحد أجدادي يا ولدي العزيز. في الواقع، ليسوا أجدادي، بل قل أسلافي، صحيح؟ لا أظن أن دماء ستيوارت تسري في عروقنا نحن الألمان. فنحن وبلا شك لسنا معروفين بكوننا شديدو البخل مثل الاسكتلنديين». وضحك من قلبه.

تراجعت بسرعة خلف نبات كبير محفوظ بوعاء. كان أمير ويلز، وقد حضر الحفل.

- «سمعت أن نيل غوين كانت بغي شهية وفاتنة»، قال الأمير، «هل هي شخص أعرفه؟».

- «ربما تعرفها، فهي جزء من حاشية والدتك»، قالت ماري، «دعني أذهب لأجدها وأقدمها لك، لكن يؤسفني القول إنها خلعت زيّها».

- «ماذا، تقصدين أن ليس هناك برتقال لأعصره؟». وضحك مرة أخرى.

نظرتُ لما حولي بجنون أبحث عن طريق للهرب. عدت من حيث أتيت، عبر الباب المفتوح، ورأيتُ خادمة ماري ترتب المكان. ربما يمكنني سؤالها كيف أجد مدخل الخدم وأهرب منه بهذهِ الطريقة. وفي تلك اللحظة، سمعت صوت ماري تقترب من الزاوية. ولم يكن لدي وقت للتفكير، اندفعت خلف تمثال روماني في كوّة. وأتت ماري نحوي.

- «هل رأيتِ الآنسة بارتون يا كلوديت؟». سألتها بالفرنسية.

- «ليس مذ ساعدتها في خلع الزي».

- «حقًا. أتساءل أين قد تكون»، واستدارت ماري، وعلامات القلق بادية على وجهها، ثم حدقت مباشرة في وجهي، «أوه، ها أنتِ ذا! بحثتُ عنكِ في كل مكان. ماذا تفعلين هنا؟»، ونظرت لي بارتياب، «هل تختبئين؟».

لا مناص من الاعتراف: «لأكون صريحة، كنتُ أبحث عن طريق للهرب، فقد رأيتُ أمير ويلز يصل، وكان لي لقاء مزعج معه في القصر. فقد ... مهد لممارسة الجنس معي».

- «أوه فهمت»، وأومأت، «أجل، هذا محرج، أليس كذلك؟ إنه شيطان عجوز وشقي. لا يمكنه أن يبعد يديه عن أي امرأة جميلة. إذا أفهم من كلامكِ أنكِ لا تريدين مقابلته مرة أخرى؟».

- «أفضل ذلك».

أخذت يدي وقالت: «سأريكِ طريق الخروج. تعالي معي»، وقادتني بسرعة على طول الرواق وعبر باب صغير يؤدي إلى ممر الخدم، وقالت: «هذا الباب الخلفي. يجب أن تلتفي حول البيت، لكن المكان مُضاء جيدًا».

قلتُ وأنا أتنفس الصعداء: «شكرًا جزيلاً لكِ».

- «يجب أن نتحد نحن النساء ضد فساد الجنس الذكري، أليس كذلك؟». وضغطت على يدي.

- «ماذا ستقولين للأمير؟».

- «لم أتمكن من العثور عليكِ، وربما عدتِ إلى المنزل، لستِ على ما يرام»، ثم شحب وجهها وقالت: «يا إلهي. أخشى أنني ارتكبت خطأً فادحًا

بإخباره أنكِ جزء من حاشية الملكة. لنأمل ألا يأتي بحثًا عنك هناك».

- «قيل لي أنه يبقى بعيدًا عن والدته عندما يكون في فيلته، كونها لا توافق على أسلوب حياته. لذا، آمل أن أتمكن من تجنبه».

- «وإذا لم يحدث هذا، ارفضيه ببساطة»، قالت ماري، «يحق للفتاة الرفض واختيار حبيبها بنفسها. أخبريه أنكِ مخطوبة لكونت روسي غيور يحب خوض المبارزات».

- «أنتِ مضحكة يا ماري. شكرًا لكِ». وضحكت.

- «يجب أن أعود قبل أن يأتوا بحثًا عني، هيا اذهبي، يجب أن نلتقي مرة أخرى قريبًا. تعالي واحتسي الشاي معي لندردش. سأحب ذلك».

- «سيكون ذلك رائعًا. لكن كما قلت للفيكونت فيفرشام، وقتي ليس ملكي ما إن تصل الملكة».

- «سنرتب الموضوع. فنحن جيران مقربون وأنا أتوق لرفقة إنكليزية». وقبلتني بخفة على خدي ودفعتني تقريبًا لأخرج من الباب. شققت طريقي عبر الحديقة واستمعت إلى الموسيقى والضحك المتدفق عبر النوافذ المفتوحة، ووصلت إلى البوابة

الأمامية وعدت إلى الفندق دون حوادث.

قلت لنفسي: «حسناً يا بيلا. لقد قضيتِ سنوات تحلمين بالإثارة والرومانسية والحياة الساحرة في منزل آل تيلي. وها أنتِ الآن تعيشينها». ما زالت لا تبدو حقيقية.

الفصل الثامن عشر

وعندما وصلتُ إلى الفندق، لم يكن هناك أي أثر لرفاقي الطهاة، فافترضت أنهم نيام، وذهبت إلى غرفتي وخلعت ملابسي وفتحت النافذة، تلألأت المدينة تحتي وكأنها سجادة أضواء. وكان من الصعوبة بمكان أن أشيح بصري عن ذلك المشهد الخلاب، فهمستُ لنفسي: «أنا هنا بالفعل». لم يكن حلماً، وما حصل الليلة كان حقيقة.

اضطجعتُ في سريري أستمتع بنسيم المساء العليل الذي ينساب من النافذة، ومرّت صور الأمسية في بالي: جايلز ويفرلي، ووقوفي على المنصة وتصفيق الجمهور، ثم تذكرت قول الأمير «ماذا، تقصدين أن ليس هناك برتقال لأعصره؟». ربما كنتُ بسيطة، لكنني لست ساذجة لدرجة ألا أفهم معناها الحقيقي. صليت أن يبقى بعيداً عن والدته طيلة فترة زيارته، وبأن أتمكن من تجنبه. لكنهم قالوا له أنني جزء من حاشية والدته، هل سيأتي بحثاً عني؟ صليتُ وتضرعت أن تظهر في طريقه امرأة مناسبة لتطلعاته بأسرع وقت.

استيقظت عندما بانت أول خيوط الصباح، على صوت هديل الحمام الواقف على الدرابزين خارج

نافذتي التي سمحت للشمس بغمر الغرفة، وعندما نظرت من النافذة رأيت البحر الأبيض المتوسط يتلألأ وكأنه مزين بألف ماسة. تنهدتُ برضا وعمق، ثم ارتديتُ ملابسي ونزلت لأتناول وجبة الإفطار. كان السيد آنجيلو والطهاة الآخرين يجلسون على طاولة طويلة من خشب الصنوبر يتناولون الإفطار، ولا يبدون سعداء. سألني السيد آنجيلو: «هل وصلتِ إلى المنزل بأمان يا هيلين الصغيرة؟ قلقتُ عليكِ. وشعرت بالذنب لأنني تركتكِ تذهبين دون مرافق».

- «عدتُ إلى هنا باكرًا، حوالي الساعة العاشرة. غادرتُ مباشرة بعد انتهاء التابلوه».

- «أحسنتِ. قلقتُ عليكِ».

- «كلنا سمعنا عن هؤلاء الفرنسيين»، قال السيد ويليامز، «وعندما أخبرنا السيد آنجيلو أين ذهبتِ، ظننا أنه أخطأ بسماحه لكِ بالذهاب».

فقلتُ له: «أنا قادرة على الاعتناء بنفسي يا سيد ويليامز. وعلاوة على ذلك، كنت جزءًا من لوحة فنية فحسب. كان عليَّ ارتداء زي والوقوف على خشبة المنصة. وهذا كل شيء».

اعترف: «حسنًا، لا بأس في هذا. اخذي

نفسكِ وتناولي فطوركِ. ستتغذين جيدًا أيضًا»، وشخر ساخرًا.

نظرت إلى أرغفة الخبز الطويلة الرفيعة وطبق الزبدة والمربى وأباريق القهوة والحليب.

فقال السيد آنجيلو: «هذا ما يأكلونه. حاولت أن أُفهِم ذلك الفرنسي، أين الفطور؟ لكن هذا ما يأكلونه. لا بيض ولا لحم مقدد ولا كلى. خبز فقط. من المدهش كيف يحافظون على قوتهم».

قال السيد فيلبس: «بواسطة النبيذ الذي يشربونه. إنهم ثملون تمامًا».

سألته: «ما هي خطتنا لليوم؟»، وقطعتُ لنفسي قطعة خبز كبيرة ووضعت كمية كبيرة من الزبدة والمربى وقلت: «ماذا تريد منا أن نفعل؟».

- «أريد منكِ يا آنسة بارتون تنظيم كيف سنطلب مؤنتنا»، قال السيد آنجيلو، «سأكتب لكِ قائمة للبقّال، وبائع الخضروات، والجزار، والسمّاك. يمكنكِ ترجمتها ومعرفة البائعين الذين يستخدمهم الطهاة الفرنسيون في الجزء المخصص لهم من المطبخ. ثم يمكنكِ أخذ القوائم إلى المحلات وترتيب توصيل المواد إلى هنا. أخبريهم أن الفندق سيدفع الفواتير».

- «أمرك يا سيدي».

أنهيتُ إفطاري. وفي الواقع، استمتعتُ بالمذاق غير المألوف للقهوة مع الحليب الساخن، ثم أخذتُ القوائم التي أعدها السيد آنجيلو، وذهبتُ أبحث عن الشيف لوبان في المطبخ لكنه لم يكن هناك، وجدتُ طاهياً يُدعى هنري يعمل على طبق معجنات.

سألته: «ما هذا؟». كان يحشو عجينة البف بمزيج بني غني.

فقال: «فطيرة السلق - تورت دو بليت - إنها تخصص منطقتنا».

- «وما هو البليت؟». كانت الكلمة غير مألوفة بالنسبة لي.

- «إنه خضار أخضر، مثل الملفوف، غير أن أوراقه الخضراء طويلة ومتعرجة». ثم رفع ساق النبات لأراها.

- «هل هذا سلق سويسري؟ هل ستعد فطيرة لاذعة؟».

- «لا يا مدموزيل، إنه للحلوى».

- «لكن طعم السلق لاذع».

- «لا على الإطلاق. إنها مصنوعة من الزبيب والصنوبر والسكر البني، وعندما تصبح جاهزة، سأدعكِ تتذوقين قليلاً منها. وسترين أن طعمها ليس مرًا على الإطلاق. بل لذيذ جدًا في الواقع».

سألته بعد ذلك عن طلب المؤن. وأخبرني أن أقدم قوائمي إلى مدير الفندق، وسيصلني كل شيء. لكنه أضاف بعد ذلك أن الشيف لوبان يحب اختيار لحومه وأسماكه وخضرواته بنفسه، فهو دقيق للغاية فيما يتعلق بجودة المواد.

- «وهل تعرف أين يتسوق هذهِ المستلزمات؟».

بدا مستمتعًا عندما قال: «في السوق يا مدموزيل. أين ستجدين كل شيء طازجًا كل صباح، إذا لم يكن في السوق؟».

- «السوق في المدينة؟».

- «بالتأكيد. في الجزء القديم منها قرب الواجهة البحرية. استقلي الترام إلى أسفل التل ثم استديري يسارًا. لكن عليكِ الذهاب مبكرًا وإلا نفدت كل المواد الجيدة».

شكرته وأبلغت السيد آنجيلو بذلك. فطلب مني الذهاب لتقصي أي نوع من المواد يمكننا إيجادها

في السوق. وفي هذه الأثناء سيُعد قائمة بالمؤن التي سيطلبها له الفندق. قال إنهم أخبروه أن بإمكاننا استخدام أي عناصر أساسية من المطبخ، لذلك لا داعي للقلق بشأن المواد الغذائية الأساسية.

- «اذهبي وألقي نظرة على ما في السوق. لكن لا تشتري شيئًا لأنني لست واثقًا من جودته. ولا نريد أن يفسد قبل وصول الملكة إلى هنا».

- «لن أفعل يا سيدي. إلا إذا وجدتُ شيئًا نود تجربته أولاً».

- «فكرة سديدة»، وأعطاني بعض الفرانكات، «لكن لا تدفعي الكثير مقابل أي شيء. سيحاولون خداعكِ لأنكِ أجنبية».

- «أوه، بالتأكيد لا».

- «إنهم مجرمون ولصوص هنا، والجميع يقول ذلك. وانتبهي لحقيبتكِ».

ابتسمت لنفسي وأنا أنطلق. لقد سافر والدي حول العالم وربانا دون تلك التعاملات، كنت متحمسة لتجربة الحياة في بلد آخر لأول مرة، ليس فقط في الأجواء الخلابة للفندق، ولكن في المدينة حيث يعيش الناس الحقيقيون. صعدت إلى الطابق العلوي لأجلب وشاحي، متحمسة

لفرصة استكشاف نيس بمفردي ولمستوى المسؤولية الجديد الممنوح لي. ورأيتُ قصاصة الورق التي تحوي عنوان والدة كلوديت في الدُرج العلوي. لقد قالت كلوديت أن والدتها تعيش في جزء المدينة القديم. قد أتمكن من شراء قماش وأخذه لها بما أن السيد آنجيلو ليس لديه أدنى فكرة عن الوقت اللازم للذهاب إلى السوق والعودة. فأخذتُ حقيبة يدي وانطلقت بتوقعات عظيمة.

كان الهواء باردًا في هذه الساعة من اليوم، أبرد مما توقعت. وكان عليَّ أن أذكر نفسي أننا ما نزال في فبراير حتى في الأجواء الجنوبية هذه. أحكمتُ لفَّ وشاحي حول كتفي وأنا أسير نحو موقف الحافلات الكهربائية. انتظرت، وعندما لم ألمح أثرًا لأي ترولي لفترة طويلة، بدأتُ بالمشي. كانت المدينة لا تزال تستيقظ.

كانت عربات الحليب توصل الحليب إلى عتبات المنازل، وبستانيون يشقون ممرات، ونساء ينشرن الغسيل، وأطفال يمشون إلى المدرسة يحملون أكياسًا على ظهورهم ، ووصلتني رائحة خبز لذيذة من المخبز، وأصوات أجراس تناهت إلى سمعي، ثم وصلتُ إلى كنيسة ورأيتُ الناس يتوافدون لأداء القداس، أغلبهم نساء، يرتدين

ملابس سوداء وعلى رؤوسهن حجاب أسود مربوط تحت ذقونهن. دوى الجرس في الهواء الطلق فوق رؤوسنا، صوته مختلف تمامًا عن أجراس الكائس الإنكليزية التي تدق في الأبراج.

تابعت السير في طريق الترام حتى وصلتُ إلى منطقة واسعة مفتوحة على الواجهة البحرية. وإلى يميني كان هناك ميدان رائع تصطف على جانبيه مبانٍ زهرية اللون، ثم البساتين ذات المروج الخضراء وأشجار النخيل، وعلى حافة الماء، امتد ممشى طويل على مد البصر، تصطف على جانبيه أشجار النخيل الجميلة، وسُرادق مزين بقبة شرقية منصوب على جسر فوق الماء، وزوجان إنكليزيان يوحي مظهرهما أنهما إنكليزيان بلا شك يمارسان رياضة المشي الصباحية. كان كل شيء حضاريًا. وقفت عند كشك يبيع التبغ والصحف وابتعت بعض الطوابع. لقد شعرت بالذنب من إرسالي رسالة سريعة إلى لويزا بطريقة فظة، لا بد وأنها قلقة عليّ عندما قلت إني سأغادر البلد دون أي توضيح. ثم فعلت ما أخبرني به هنري وانعطفت يسارًا، حيث ارتفعت تلة متوجة بحصن عند حافة الماء. وفي نقطة ما، دخل نهر صغير البحر، واصطفت النساء على جرفه يغسلن الثياب، ما جعلهن تناقضًا مثيرًا للاهتمام بينهن وبين فخامة

السُرادق المتلألأ بقبته الزجاجية ورفاهيته.

كانت نيس هنا مختلفة، أزقتها ضيقة، ورائحة الطهي المشبعة بالثوم، والغسيل المعلق من النوافذ، والحمير التي تحمل أكياسًا مكدسة، ورائحة صرف المجاري الكريهة. وكان عليّ الانتباه لموطئ قدمي، لأن الشارع غير نظيف. بدأتُ أنظر لما حولي وأنا أشق طريقي عبر الأزقة الضيقة، لكنني وجدت السوق في نهاية المطاف. كان المكان مزدحمًا يعج بالمارّة حتى في هذهِ الساعة المبكرة من النهار، نساء يرتدين تنانير مخططة بألوان زاهية وأوشحة سوداء مهدبة يساومن باعة الأكشاك ويتحدثن بصوت عالٍ مع الجيران، وكلاب تسللت بين الأقدام وتبحث على القطط. وكان مستوى الضوضاء شديدًا لدرجة تردد صدى صوت المنازل الطويلة الصفراء ذات المصاريع الخضراء. وكان أطفال الغجر والشبان القذرين يتربصون المارة من خارج الحشد. فتذكرت تحذير السيد آنجيلو وأمسكت محفظتي بقوة أمامي، وخبأتها تحت وشاحي عندما اقتحمتُ الزحام.

كانت أكشاك الفاكهة والخضروات عبارة عن مزيج رائع من الألوان: البرتقال والطماطم التي نادرا ما نراها في إنكلترا، والليمون الزاهي والبصل

الأرجواني، والخرشوف الشائك الذي رأيته لأول مرة في القصر، وفصوص ثوم عملاقة - ألن تصاب الملكة بالرعب لمجرد رؤيتها؟ - وخضروات أرجوانية لامعة على شكل خيار دهني منتفخ. سألت المرأة في الكشك: «ما هذهِ؟».

نظرت لي وكأنني زائرٌ من القمر وقالت: «هذا باذنجان يا مدموزيل. ألم تأكليه من قبل؟ لذيذ جداً، نصنع منه طبق الراتاتوي».

- «وتلك؟». وأشرت إلى خضراوات مستديرة ذات لون أحمر وأصفر، شديدة اللمعان. بدت وكأنها مصنوعة من الشمع.

- «الفلفل؟»، سألتني بدهشة، «لا تأكلون الفلفل في بلدكم؟».

قلت: «لم أره من قبل».

- «إذًا جربيه. وخذي الباذنجان أيضًا. طعمه لذيذ عندما نحشيه».

وهزت رأسها كما لو كنتُ مخلوقًا يُشفق على حاله. اشتريت واحدة من كل نوع، وبصلة أرجوانية نتيجة لإصرارها، وتابعت طريقي إلى الكشك الثاني. كانت هناك أنواع مختلفة من الزيتون في هذا الكشك. يعتبر الزيتون من

الكماليات النادرة في إنكلترا، ولم أجربه شخصياً، لكن هنا، يوجد كشك كامل مخصص للزيتون بألوان وأحجام مختلفة، منها خضراء دهنية، وأخرى سوداء رفيعة، وبعضها محشو بشيء أحمر، والبعض الآخر بجبنة بيضاء، وبعضها بزيت الزيتون، والبعض الآخر بلا شيء. أخبرت البائع في الكشك أن الزيتون غير مألوف بالنسبة لي، وإذا كان من الممكن أن يُعدَّ لي عينة من مختلف الأصناف. وكان الرجل عجوزاً بديناً يرتدي مئزراً مخططاً متسخاً، ضحك على طلبي، لكنه بعد ذلك أعطاني عينة أكثر سخاءً مما كنت أستحق. وعندما هممتُ بدفع النقود، أزاح عملتي المعدنية بيده وقال: «لا حاجة يا مدموزيل. إذا أعجبك فستعودين».

ثم انتقلت إلى أكشاك بيع الأعشاب، وفيها سلال كبيرة من الخزامي وإكليل الجبل والبقدونس ونباتات أخرى لم أستطع التعرف عليها. ثم وصلت إلى أكشاك الأزهار وتوقفتُ عند أزهار النرجس البري والفريزيا و النرجس الأسلي وأنواع أخرى لم أتعرف عليها، أشم عبق عبيرها المسكر. وكانت هناك أغصان أزهار صفراء زغبية تفوح منها رائحة رائعة. قاومت الإغراء وشققت طريقي إلى أكشاك اللحوم. وأدركت هنا أنني

خارج مجال تخصصي، فأنا أعرف القلب والرئة والكبد، وأكره الأمعاء، لكن ما هذهِ الكُل الصلبة المستديرة الصغيرة؟ هل هي طحال الحمل أو بنكرياسه؟ وهل هذا دماغ؟ وعرف ديك؟ وما هذه الطيور الصغيرة؟ قررت أخيرًا أن على السيد آنجيلو أن يختار لحومه بنفسه أو أن يطلب من الفندق جلبها له.

قادني أنفي إلى سوق السمك وصفوف الأكشاك هناك بالقرب من الواجهة البحرية. وأدركت أنني هناك أيضًا كنتُ مبتدئة. عرفت كيف تبدو الرنجة، والبَلَم - صغار الرنجة البيضاء - وكنت أعرف قطعة سمكة القد الكبيرة إذا وضعت أمامي، والقريدس والسلطعون، لكن ما تلك الأسماك المجنحة، ويا إلهي هل هذا أخطبوط؟ كنت قد رأيتُ صورته من قبل، منظره مرعب ومثير للاشمئزاز، كيف يمكن لأحدهم ...

قال صوت خلفي: «صباح الخير مسيو جونتي، أرى أن لديك أخطبوطًا رائعًا لي اليوم».

أجاب بائع الكشك: «حفظته خصيصًا من أجلك يا مسيو لوبان».

استدرتُ لأرى الشيف لوبان يقف هناك

وسلته قد مُلئت مسبقًا. نظر إليَّ بدهشة وقال: «مدموزيل! أنتِ مستيقظة مبكرًا. ظننت أن الإنكليز ينامون لوقت متأخر».

- «ليس الخدم»، أجبته، «عندما كنتُ أعمل خادمة منزل، كان عليَّ الاستيقاظ في الخامسة صباحًا لأشعل نيران المواقد. هذهِ الساعة ترف بالنسبة لي».

سألني: «هل تشترون طعامكم أيضًا من السوق؟»».

- «جئت لأرى بنفسي. ففي إنكلترا يصلنا الطعام إلى القصر».

- «كيف يختار رئيسك أفضل قطع اللحم، والأسماك الطازجة؟». سألني برعب.

- «أعتقد أنه يثق في الشركات التي زودت العائلة الملكية لأجيال بالمؤن».

قال بنبرة تعالي: «آه لقد نسيت. لا توجد خيارات كثيرة في إنكلترا. دائمًا لحم الضأن أو اللحم البقري المشوي والبطاطا المسلوقة والملفوف الكئيب، إيه؟ لن أزعج نفسي بأن أصبح طاهيًا إذا كان كل ما علي فعله هو وضع الشواء في الفرن».

- «هل لي أن أسأل لماذا تناصب العداء لكل شيء إنكليزي؟»، وشعرت أنني يجب أن أتوقف، ولكني لم أعد قادرة على ذلك، «أفهم أننا غزونا مطبخك، وهذا أمر مزعج بالنسبة لك. أؤكد لك، لا سيطرة لنا على ذلك ولا أنت أيضًا. ما الخبرة التي تؤهلك لكل هذا النقد والاستهزاء بالطعام الإنكليزي؟ هل سبق وكنت في إنكلترا؟».

أخذته شراستي على حين غرة: «لا يا مدموزيل. يؤسفني القول إني لم أغادر جنوب فرنسا مطلقًا. حتى أنني لم أزر باريس»، توقف مؤقتًا ثم عاد اختياله وأضاف، «لكن يمكنني فقط أن أكرر ما يسمعه المرء ويرى كيف يتصرف الإنكليز الذين يأتون للإقامة هنا. فهم يطلبون لحم الضأن ولحم البقر، ويريدون منا أن نطهو خضرواتهم حتى تنتهي وتذوي، لذلك أفترض أن جميع الإنكليز يحبون تناول طعامهم بهذهِ الطريقة».

- «ستتفاجأ يا حضرة الطاهي عندما أخبرك أن طعام جلالة الملكة هو الأكثر تعقيدًا. ففي بعض الأحيان يحتاج الطبق الواحد إلى ثلاثة طهاة طوال اليوم لتحضيره، ويكون مظهره ممتعًا للنظر ولذيذ المذاق أيضًا».

- «وهل تعتقدين أن طعامها لذيذ المذاق؟».

فكرت لحظات، لم تسنح لي فرصة تذوق كثير مما يقدم على المائدة الملكية، لكني قلت له: «بيني وبينك، أظن أنهم يستخدمون الكثير من الصلصات الغنية بالنكهات، لدرجة تلغي مذاق اللحم أو الخضروات، والمرافق الثانوي المفضل لجلالة الملكة مع اللحم المشوي هي صلصة القشدة بالفجل اللاذع لدرجة يصبح مذاق اللحم كالورق. تفضل الملكة تناول أغلب خضرواتها مهروسة. ولحمها غالبًا ما يكون عصيدة كثيرة التوابل أو تيرين، أشعر بالأسى عليها». وابتسمتُ ابتسامة واسعة.

أومأ كما لو أنه فهم وقال: «وهل لديكِ حنك يقدر طعم المكونات الجيدة؟»،

- «أجل»،

- «وكيف طورتِيه؟»،

- «لا بد وأنني ورثته عن والدي، فقد عاش حياة مترفة، وكان يقدر الطعام الجيد، وتدربت لدى طاهية ماهرة طبخت أطباقًا إنكليزية بسيطة مثل شرائح لحم الخنزير، ولحم الضأن المشوي، والدراج المشوي، والدجاج، وسمك موسى، والسلطمون، وكانت تقدم صلصة مع هذه الأطباق، لكنها لم تطغَ على نكهة اللحم أو

السمك».

أومأ برأسه وقال: «هل ترغبين حقًا في أن تصبحي طاهية؟».

- «أجل. أود أن أكون مسؤولة عن مطبخي يومًا ما».

- «أعتقد أنكِ قد تواجهين مشكلة هناك».

- «ألا تعتقد أنني سأكون جيدة بما فيه الكفاية؟». سألته ببرود.

- «لا أعتقد أنكِ ستجدين طاهيًا على استعداد لتلقي أوامره من امرأة».

- «ربما سيكون كادر مطبخي من النساء فقط. ففي النهاية، مَنْ يطبخ في المنازل الخاصة؟ معرفة الطبخ لدى النساء غريزية، بينما على الرجال تعلمها».

ضحك من قلبه على كلماتي وقال: «حسن جدًا»، ثم أصبح جديًا مرة أخرة وقال: «لكن ألا ترغبين في الزواج؟ ظننت أن كل الفتيات يرغبن بالزواج وتكوين بيت وعائلة».

- «ربما يومًا ما»، ونظرت إليه بتحدٍ وسألته: «وماذا عنك؟ هل أنت متزوج؟».

بدا محرجًا: «لدي مشكلة يا مدموزيل. لا أدري كيف أطلب من أي فتاة أن تتزوجني؛ من تريد زوجًا لا يعود إلى المنزل حتى منتصف الليل، ويغادر منزله فجرًا ليذهب إلى السوق؟ أنا متزوج من مهنتي».

- «مسيو لوبان. هل تريد أن ألف لك الأخطبوط؟». قاطعَنا بائع الكشك.

- «أجل يا صديقي».

- «أخبرني كيف يُطبخ الأخطبوط؟ يبدو أنه سيكون لزجًا ومطاطيًا».

- «سيكون كذلك بالفعل إذا طهيتِه أكثر من اللازم. عن نفسي أفضل أن أشويه على الطريقة الإسبانية. يمكن تقطيع المجسات إلى حلقات، أو تتبيلها وتقديمها كاملة، لكن عليكِ طهيها - دائمًا - إلى درجة الكمال، لكيلا تكون مطاطية عند المضغ. ستتذوقين قطعة منه عندما أقدمه كمقبلات هذه الليلة».

- «شكرًا لك، هذا لطف منك».

- «لستُ معروفًا بالعادة بكوني لطيفًا. لا بد أن لكِ تأثيرًا سيئًا عليّ».

والتقت أعيننا لجزء من الثانية. كان هناك

شيء في الطريقة التي نظر إليَّ بها أشعرتني بعدم الارتياح، كما لو أن هناك اتصال بالغ الرقة قد جرى بيننا. فقلت بسرعة: «لا أريد أن أعطلك عن عملك. تحتاج إلى تحضير قائمة الغداء».

- «بالفعل. إلى اللقاء يا مدموزيل الطاهية، سأراكِ لاحقًا في الفندق. عليك أنتِ ورفاقك تناول العشاء معنا الليلة. سأُعدّ (بويابيس) حساء السمك الحار. ستتذوقين من مأكولاتنا المحلية».

- «شكرًا لك. أتطلع إلى تذوقه، وتعلم وصفات جديدة إذا كنت على استعداد لمشاركتها».

- «أراكِ لاحقًا يا مدموزيل». وانحنى لي قليلاً ثم شق طريقه بين الحشد. انتبهتُ لنفسي أحدق وراءه وقلبي يخفق بسرعة. فذكّرتُ نفسي بأن الفرنسيين معروفين بطبيعتهم المغازلة.

الفصل التاسع عشر

بعد رحيل الشيف لوبان، تجولت في جزء السوق المخصص لبيع الأدوات المنزلية و«اختر وخذ ما تريد» ووجدت كشكًا يبيع القماش. كان قماشًا لعامة الناس، لم أجد الحرير ولا القماش المزركش، لكنني وجدت نسيجًا قطنيًا طويلاً مريحًا وناعم الملمس، بلون أخضر مزرق سيلائم لون شعري وبشرتي، وبدا رخيصًا للغاية بالنسبة لي، وأضفتُ بضعة ياردات من قماش الموصلين الخفيف للبطانة، ثم انطلقت أبحث عن والدة كلوديت، وبعد سؤالي لأكثر من مرة وتوجيهي والإشارة إليّ، وجدتها تسكن أعلى عدة درجات حجرية تؤدي إلى تل القلعة، استقبلتني بحرارة عندما قلتُ لها أن ابنتها أرسلتني، وسلمتها القماش، بعد أن واجهتُ صعوبة بالغة في فهمها، لأن لهجتها المحلية كانت قوية جدًا، وكانت تفتقر إلى معظم أسنانها، لكن الفكرة التي استخلصتها منها هي: نوعية القماش رديئة ولا تعرف إذا كان بإمكانها صنع فستان لائق منه أم لا. وضعتُ لها قلة المال التي بحوزتي، فقالت إنها ستحاول وأخذت قياساتي، وعندما غادرتها كان قلبي مُثقلاً بخيبة أمل، هل أنفقت

نقودي الغالية على شيء لا فائدة مرجوة منه؟ لكن كيف لي أن أعرف؟ ليس لدي خبرة في اختيار قماش لملابسي. وفي الواقع، لم أحظى بملابس جديدة منذ سنوات، سيكون أفضل من لا شيء على الأقل، حتى ولو لم يدم طويلاً كما قالت المرأة العجوز، لا أكترث حقًا. وإن أعجبني عمل العجوز، قد أتفاخر بإنفاق بعض المال الذي كسبته بصعوبة لتكوين خزانة ملابس جديدة.

عدت وأخبرت السيد آنجيو، وجربنا تكوين طبق، قلينا الباذنجان والفلفل والبصل بقليل من الدهن الحار والثوم المُحرّم والطماطم، ثم أعلنّا أنه لذيذ جدًا. وبعد أن وصفت السوق للسيد آنجيلو، قرر أن يطلب لحومه عن طريق الفندق من باب الاحتياط. وقال: «أعرف ما يعجبني».

وأخبرته كذلك بأننا مدعوون لتناول العشاء مع الطهاة الفرنسيين هذا المساء. ظن أنها لفتة حسن الجوار منهم، لكنني لا أشاركه الرأي، فقد ساورتني شكوك أنها طريقة الشيف لوبان بالقول: «انظروا إلى ما يمكننا صنعه». وهي طريقة يثير بها إعجاب الإنكليز الحمقى.

ثم بدأنا العمل، نناقش الوجبات التي يجب تحضيرها لوصول جلالتها.

وقال السيد ويليامز: «ستكون متعَبة بعد سفرها ليومين متتاليين. ربما علينا تحضير وجبة خفيفة سهلة الهضم. ما رأيكم بالسوفلييه؟ أو طبق سمك؟ أو ديك مخصي مشوي؟».

- «لا أوافقك الرأي. أظن أنها ستصل تتضور جوعاً، ذلك أن الطعام الذي يُقدم في القطار غير ملائم. وليس هناك عربة عشاء، سيتعين عليهم أخذ الوجبات من المحطات والحفاظ عليها حارة من أجلها. لذا، أظن أن علينا حثّ شهيتها، وجعلها تسعد بقدومها عن طريق تقديم طعامها المفضل. نعرف أنها تحب حساء الرز القشدي، والإنشوجة البيضاء، وشرائح لحم الضأن، وسنطلب مثلجات من حلواني الفندق. وماذا تعتقدون أيضاً؟».

بصفتي مساعد طاه، لزمتُ الصمت وتركت الرجال يضيفون الأطباق، لكن السيد آنجيلو استدار نحوي وقال: «وبالنسبة لطبق التحلية لجلالتها؟».

فكرتُ ملياً قبل أن أجيب: «تحب جلالتها بوديغ الرز والميلبري mehlbrei، أليس كذلك؟»، واستخدمت المصطلح الذي تقوله الملكة، «كاسترد الحضانة الألماني»، وأضفت، «وكل

أنواع البودينغ بالحليب والقشدة. ربما سأعد بودينغ الرز البارد وفطائر الكاسترد».

قال السيد فيلبس: «فكرة جيدة. لتستقر معدتها بعد السفر. ولو أن لديها معدة كمعدتي، لما ذاقت الطعام حتى».

تطوعت للذهاب إلى السوق لشراء صغار الرنجة البيضاء الطازجة يوم وصول الملكة، وطبخ السيد آنجيلو ديكين مخصيين، يقدم الطبق باردًا مع صلصة فيرونيك والعنب.

انضممنا إلى الطهاة الفرنسيين على العشاء ليلتها، وأعترفُ أن حساء السمك الحار (بويابيس) كان من بين ألذ الأطباق التي تذوقتها على الإطلاق. كان المرق غنياً، فيه طعم السمك والطماطم ونكهة لاذعة، تخرج في ملعقتك دون وقوع قطع سمك صغيرة ومأكولات بحرية أخرى، ويقدم إلى جانب خبز فرنسي محمص يغمس فيه. كان ممتازًا ببساطة.

سألتهم: «كيف تحضرون الصلصة؟».

وعندما علمت أنهم يبدأونها باثني عشر فصًا من الثوم، هزَّ السيد آنجيلو رأسه وقال: «لن توافق الملكة، أليس كذلك؟ لن تتقبل أي طعام يسبب

رائحة كريهة في فمها. تعرفين أنها تمنع النوم منعًا باتًا».

- «كيف ستعرف؟»، قال الشيف لوبان، «إذا طبخت الثوم جيدًا، لن يترك رائحة سيئة في نفسك»، ثم اقترب مني وقال: «وأنا حفظتُ لكِ لقمة من الأخطبوط»، وغرز شوكته فيما يشبه اللحم البني المشوي، ورفعه إلى فمي كما لو أنه يُطعم طفلاً. كانت لفتته حميمية بطريقة ما لدرجة أخجلتني. فتحتُ فمي بانصياع وشعرت بتفجر النكهات -الزعفران والثوم ومسحة التوابل واللحم الطري لدرجة يذوب بالفم - فأومأ برأسه برضا عندما راقب تعابير وجهي وقال: «يومًا ما سأعلمكِ كيف تطبخين الأخطبوط هكذا».

وابقى لي الطاهي هنري القليل من فطيرة السلق كذلك، كانت لذيذة ولن تعلم أبدًا أن فيها خضارًا. ذهبتُ بعد العشاء مباشرة إلى غرفتي ودونت ما أمكنني تذكره من الوصفة، ووصفة حساء السمك كذلك، في دفتر ملاحظات الذي أدون فيه الأطباق التي أعجبتني، والأطباق التي تذكرتها من أيام عملي مع السيدة روبينز، وأفكار خطرت لي قد أجربها يومًا ما. وفكرت بأنني قد أنشر كتاب طبخ خاص بي يومًا ما، وضحكت

على هذهِ الفكرة السخيفة، ثم خطر لي أنها ليست سخيفة على الإطلاق، كتاب وصفات من جنوب فرنسا؟ كم كتاب وصفات مماثل لدينا في إنكلترا؟ سأحاول كتابة ما أمكنني من وصفات، وأبدأ بالبوبابيس وفطيرة السلق الغريبة تلك.

وفي ذلك المساء جلست في غرفتي، أشاهد أضواء المدينة المتلألئة تحتي، وكتبت إحدى البطاقات البريدية إلى لويزا.

أختي العزيزة،

كما ترين، أنا في نيس. لقد قررت صاحبة العمل زيارة الريفيرا من أجل صحتها، وكنتُ محظوظة لأنها أخذتني معها لأطبخ لها. كل شيء جميل جدًا هنا، ربما عليكِ المرور بهذا المكان في طريقك إلى أستراليا!

مع حبي، أختك الحنون،

بيلا.

بدأتُ عملي في صباح اليوم التالي بجد. ستصل جلالة الملكة في صباح اليوم التالي، وقد استلمنا مؤنتنا وغُسلَت الأواني والقدور والقوالب ووضعت على الرفوف. وأسِف السيد آنجيلو على التوابل والصلصات التي لم يفكر في إحضارها معه،

ولأنه لم يجلب معه الكَفْت.

- «كيف سأُعدُّ طعامًا ملائمًا دون مرقة جيدة؟ يمكنني طبخ عظام العجل والدجاج والخضروات طوال اليوم على نار هادئة، إلا أنها ستكون بديلاً رديئًا للكَفْت الذي كان منصوبًا على النار منذ عشرين عامًا».

وشعرتُ بالارتياح لأنني لن أذهب إلى السوق كل صباح لأجلب المؤن. بصراحة، لن أعرف ما الجيد والطازج وما هو خلاف ذلك، خاصة عندما أجهل معظمها. كما أدركت أن تدريبي قد بدأ للتو، فإذا لم أتمكن من تسمية كل قطعة لحم وكل سمكة وكل خضرة في السوق، لا يمكنني تسمية نفسي طاهية. وربما سأتمكن يومًا ما من مرافقة الشيف لوبان إلى السوق عندما يكون لديه متسع من الوقت، وسيعرفني بالقطع الصغيرة التي توضع على صواني اللحم والسمك.

وأعترف أن فكرة قضاء الوقت معه كانت طائشة تمامًا، حذرت نفسي: «كوني عقلانية يا بيلا. لا فائدة من الوقوع في حب رجل فرنسي أكبر سنًا منكِ، خاصة عندما تكونين هنا لفترة قصيرة فقط». وأفترض أن السيد رولاند سيصل إلى هنا حالما يتمكن من المشي مجددًا،

وسأُرسَل إلى المنزل، لكنني لا أريد العودة، أريد أن أثبت جدارتي. كانت هذه فكرة مخيفة، فقد رأيتُ جودة وتعقيد إبداعات السيد رولاند في المعجنات، ولستُ قريبة من هذا المستوى بعد، لكن ربما يمكنني تعلم بعض الكعك الحلّي والمعجنات لمفاجأة الملكة. سمعت أنها تحب المفاجآت.

بدأت عملي بجد يومها، لمعرفتي أن الملكة قد تتوقع شايها في الوقت المحدد لكل يوم. وخبزت وجبة من البسكويت الحلو، وصفة ألمانية أعددتها مسبقًا وأحببتها. ثم قررت إعداد كعكة القهوة، فطلبت القهوة ومسحوق الكاكاو من الشيف لوبان، وكانت النتيجة هشة وندية كما توقعتها. قطعتها إلى طبقات وفردت كريمة الزبدة بينها، وكنت أرش السكر المطحون فوقها، وأتساءل عن نوع الزينة التي سأجدها في المطبخ. عندما التفتت لأرى شخصًا يقف خلفي. كان الشيف لوبان.

- «أهنئكِ على هذا»، قال بإنكليزية تشوبها لكنة فرنسية، ثم أضاف بلغته: «أكثر كعكة ساحرة وممتعة للنظر».

- «شكرًا لك يا شيف. أتمنى أن يكون مذاقها بجودة مظهرها».

- «أنا متأكد من ذلك»، أجاب، «أنا مُنبهر».

وعاد إليّ شعور الارتباك من جديد عندما قال: «ممتعة للنظر». رفع بصره من الطبق واستقر عليّ. من المؤكد أنني فسرت الموضوع أكثر مما يجب، وسمحت لخيالي أن يسرح معي بعيدًا.

استيقظنا مبكرًا صباح يوم وصول الملكة. من المتوقع وصول قطار جلالتها إلى المحطة في الساعة الحادية عشرة، وستكون مع حاشيتها في الفندق في الوقت المناسب لوجبة الغداء. سلمونا القائمة الرسمية بأسماء الحضور، وكان الأمر شاقًا للغاية، بشكل عام، سيرافقها حوالي أربعين شخصًا: ابنتاها الأميرة بياتريس والأميرة هيلينا، بالإضافة إلى أطفال بياتريس الأربعة الصغار، وابنة عم صغيرة من ألمانيا، الأميرة صوفي من مكلنبورغ وخطيبها الكونت فيلهلم من شلوسبرغ هوهنهايم، ودونهم مرتبة كانت وصيفات جلالتها وحراسها الشخصيون وأمناء سرها وطبيبها وخادمتها الشخصية وخادمات أخريات وخادم وزمارين جبليين وعبد الكريم المُنشي. تمعنت القائمة، انتصر الهندي في نهاية المطاف، ولم يتمكن هؤلاء الرجال أصحاب القوة والنفوذ من ردعه عن مرافقة الملكة. وابتسمت عندما قرأت القائمة،

كيف يعقل أن يصدق أي أحد أنها الليدي بالمورال فحسب، في حين أن نصف البلاط الإنكليزي يرافقها، بمن فيهم الحراس الاسكتلنديين بتنوراتهم؟!

وفي وقت مبكر من ذلك الصباح نزلت إلى السوق لشراء الرنجة البيضاء، ولم ألمح الشيف لوبان هذه المرة، وأعترف أنني شعرت بخيبة أمل لأنني أردته أن يطري على أنني أحذو حذوه. لحقت بالترولّي وعدت إلى الفندق بسهولة، ثم بدأت بصناعة الحلوى، وصنعت بودينغ الرز مع رقائق اللوز والزبيب والكثير من القشدة، وخبزت المعجنات وكاسترد البيض، وبحلول الساعة العاشرة، كان كل شيء جاهزاً، وكانت أضلاع الضأن جاهزة للشوي، وزينة الطعام جاهزة ومقطعة إلى شرائح بجانب أوانيها، والديوك المخصية منزوعة العظم ومستلقية في الأطباق. لذا، كل ما علينا فعله هو الانتظار.

ارتدينا أفضل بزاتنا الرسمية وخرجنا للانضمام إلى حفلة الترحيب كما كان متوقعاً منا. واصطف موظفو الفندق أيضاً، بمن فيهم المدير، مظهره أنيق ويرتدي فروكة طويلة وياقة مجنحة وقبعة. غمرتنا أشعة الشمس الدافئة أثناء انتظارنا، ورأيتُ

الحشود تبدأ بالتجمّع خارج أرض الفندق، حمل بعضهم رايات الاتحاد، وفي تمام الساعة الحادية عشرة والنصف، وصلت أولى العربات حاملة أثاث الملكة من القطار.

- «يا إلهي هل ترين هذا؟»، همس جيمي في أذني، «لقد أحضرت ذلك السرير الضخم الأحمر معها. وخزانة ملابس! هل تظن أن الفرنسيين ليس لديهم أسِرّة أو شيء من هذا القبيل؟»، ثم ابتسم وقال: «ربما تعتقد أن الأسِرّة الفرنسية فيها براغيث أو بق الفراش».

اعتقدت أنه أصبح شديد الصفاقة فتمتمت له: «حاذر لما تقوله وإلا ستقع في مشكلة مع السيد آنجيلو».

- «أنا أتحدث معك فحسب. نحن المبتدئون يجب أن نبقى معًا، أليس كذلك؟».

كان بإمكاني الإشارة إلى أنني مساعد طاه، بينما كان متدربًا فحسب، لكنني لم أفعل، لا ينبغي أن يصنع المرء أعداءً بل يحتاج إلى حلفاء. ذهب رجال الفندق للانضمام إلى الخدم الذين وصلوا بالعربات، وكان من المؤلم رؤيتهم يحاولون نقل سرير الملكة الثقيل وخزانة ملابسها من العربة إلى الداخل عبر مدخل العربة، وسمعت الكثير

من السب والشتم بالفرنسية، وتساءلت إذا كان المصعد سيتسع له أم يجب أن يُحمل الأثاث عبر السلم.

وصلت عربات أخرى، وهذهِ المرة وصلت الخادمات مع الأمتعة، ونُقلت الصناديق إلى الداخل، ولحد الآن لم تصل الحاشية الملكية. جاء الخدم لتحيتنا عندما رأونا واقفين هناك. وقال أحدهم: «من حسن حظكم أنكم لم ترافقوها، لقد كانت رحلة مروعة. ظننت أننا سنغرق في معبر البحر وسنموت».

فسأله السيد آنجيلو: «وأين الملكة الآن؟».

قالت إحدى الخادمات: «إنها تحظى باستقبال رسمي في محطة القطار. أرادت السفر متخفية دون أن يتعرف عليها أحد، ولكن عندما توقف القطار، كانت هناك فرقة تعزف، وكان العمدة ومسؤولو البلدة واقفين استعداداً لوصولها، وشابات بأذرع مليئة بالأزهار. تلك العجوز السخيفة، تصر على السفر بقطارها الخاص. كيف لا يمكن التعرف عليها؟».

- «صهِ يا ميزي، لا يجوز أن تتطاولي على أسيادكِ». نهرها أحد كبار الخدم وابتسمت له ابتسامة واسعة بالمقابل. فنظرت ميزي لما حولها

وقالت:

- «حسنًا، يجب أن أذهب وأبدأ بفتح أغراضها، تريد أن تشعر وكأنها في منزلها عندما تصل، وأنا مستعدة لأخذ قيلولة، لم يغمض لي جفن أثناء جلوسنا محشورين نحن الثمانية في عربة واحدة».

نُقلت قطع الأثاث واحدة تلو الأخرى، وسجاداتها وصناديقها، إلى الفندق. ثم عادت الخادمات والخدم ليصطفوا معنا. وصلت العربة لكنها كانت تقل سادة القصر الملكي، وكان الإرهاق باديًا عليهم كما لو أنهم أيضًا لم يناموا ليلة البارحة، ولم ينضمّوا إلينا بل ذهبوا إلى الداخل. وخلت أنني سمعت هتافًا، وصلتنا أصوات مزمار القربة مع النسيم أعلى التل، ثم لحناهم. ظهر الزمّارون أولاً يتقدمون أمام العربة الملكية، وتجمهرت الحشود خارج البوابات وهي تهتف بالفرنسية «تحيا ملكة إنكلترا». وتوقفت العربة الملكية خارج المدخل الرئيس للفندق، وفيها كانت الملكة وبناتها الاثنتين وأحفادها، يبدون بغاية الجمال، فاندفع مضيفو الفندق إلى الأمام لفتح الباب ومساعدتها على النزول. ووصلت في هذهِ الأثناء عربة أخرى فيها طبيب الملكة، السير جيمس ريد، والمُنشي عبد الكريم.

- «أنه المُنشي اللعين»، سمعت السيد آنجيلو يتمتم بجانبي، «يعتبر نفسه وبلا شك شخصية مهمة هذه الأيام. لا عجب أن السادة من حاشية الملكة قد ضاقوا ذرعًا به»».

وتوقفت عربات أخرى، إحداها تقل وصيفات الملكة والأخرى فيها المزيد من سادة القصر - أمناء سر الملكة، وحرّاسها الشخصيون، وأصحاب مناصب غريبة أخرى - وهكذا كان على سادة القصر - أغلبهم أرستقراطيون - أن يسافروا محشورين معًا في العربة، بينما كان للمُنشي عربة خاصة به تقريبًا، يتبع الملكة. وكنت متأكدة أن هذا لم يلقَ استحسانًا بين جماعات القصر المتآلفة.

قفز المُنشي من عربته وأسرع راكضًا إلى العربة الملكية، ودفع مضيفي الفندق بعيدًا عن طريقه واستعد لمساعدة الملكة في النزول.

تقدم مدير الفندق إلى الأمام يحمل باقة ضخمة من أزهار الربيع، وقال بإنكليزية مترددة: «مرحبًا يا جلالة الملكة. يا ألف أهلاً ومرحبًا. هذا فندقكِ الذي بُني خصيصًا من أجلكِ ينتظرك بكل سعادة».

أومأت له الملكة فيكتوريا باقتضاب وفحصت الفندق بعين ناقدة ثم قالت: «إنه كبير جدًا،

أليس كذلك؟ وأرجوك لا تخاطبني بصفتي جلالة الملكة، الليدي بالمورال سيفي بالغرض. أرغب في الإقامة في الريفيرا وأن أكون امرأة عادية تستمتع بأشعة الشمس».

- «أين المدخل المخصص لجلالتها؟»، سألت الأميرة بياترس بالفرنسية بينما استعدت الملكة لنزول العربة، «يفترض أن يكون لها مدخل خاص بها. فهي غير قادرة على السير لمسافة بعيدة كما تعلم».

- «بكل تأكيد. وأكرر أسفي واعتذاري ألف مرة لسموكِ»، أجابها المدير، «المدخل الخاص، من العربة مباشرة ثم إلى يسارك. سأرشدكِ إلى هناك».

وهكذا، جلست المجموعة الملكية من جديد، وانطلقت العربة تتبعه حتى توقفت بجانب مدخل خاص متوج بسقيفة زرقاء. مشى المُنشي بجانب العربة وساعد الملكة على النزول، فابتسمت له وهي تمسك بيده، ثم دلفت إلى الداخل تتكئ عليه وتستخدم عصاها، تبعتها الأميرتان، الأميرة هيلينا أولاً ثم الأميرة بياترس يمسك بيديها طفلاها ذوا الشعر المضفور، وابنتها الكبرى وابنها في أثرهم. وعلمت أن الأميرة بياترس تسكن مع والدتها بعد

وفاة الأمير المحبوب «هنري من باتينبيرغ» العام الماضي.

وصلت بعد ذلك عربة أخرى فيها فتاة شابة جميلة، شعرها مضفور وأشقر ضارب على البياض، برفقة رجل بدين ينظر لما حوله بنفور، كما لو أن هذا الفندق الذي بهيئة قصر فاخر لم يرقَ لمستوى توقعاته.

- «مَنْ هما؟»، همستُ للخادمة الواقفة بجانبي، «وهل هما أقارب الملكة».

- «أظن أنها الأميرة صوفي»، أجابت الخادمة، «إنها ابنة عم شابة للأمير ألبرت من ألمانيا. جاءت لتقيم في القصر ذات مرة، وكانت لطيفة للغاية، والسيد الذي يرافقها هو خطيبها ويسمونه فيلي. ولا أعرف شيئًا عنه».

- «تبدو صغيرة جدًا على الزواج، أليس كذلك؟»، همست لها.

- «أعتقد أنها في الثامنة عشر. وأفترض أنه عمر مناسب إذا كنت من العائلة الملكية»، أجابت الخادمة بصوت أعلى بعد أن دخل أفراد العائلة الملكية داخل الفندق، «لكنكِ لن تجديني أرتبط بزوج وأطفال حتى أبلغ الخامسة والعشرين على

أقل تقدير. أريد أن أعيش حياتي قليلاً».

- «أنتِ محقة». وسرحت أفكاري نحو أختي لويزا التي تزوجت في السابعة عشر من عمرها، ماذا عرفت عن العالم؟ وهل ستندم لاحقًا على ارتباطها بهذا الرجل وعائلته؟ ربما كنتُ فقيرة وبلا معارف، لكنني وعلى الأقل حرة في اختيار مصيري.

رفعت معنوياتي هذهِ الفكرة إلى حد كبير عندما عدت إلى المطبخ للمساعدة في مأدبة الغداء.

الفصل العشرون

يبدو أن مأدبة الغداء قد لقت استحساناً، لأن الأطباق عادت فارغة تقريباً ولم تكن هناك أيّة شكاوي، باستثناء زيارة سيدة حجرة النوم المسؤولة عن الأطفال الملكيين، لإعطائنا تعليمات حول طعامهم الخاص. من المقرر تقديم الحليب والخبز للأطفال في وجبة الشاي، ونظامهم الغذائي يتكون من الحساء والخضروات المغذية. وطلبت أن يكون الطعام عاديًا، لا حارًا ولا أجنبيًا. وأوصت أيضًا بالبيض المسلوق على الإفطار، والأسماك من حين لآخر. وكُلِّف جيمي بهذهِ المهمة.

- «أطبخ طعام الأطفال؟»، قال بقنوط، «كيف سأتعلم لأصبح طاهيًا محترمًا إذا كان عليَّ تحضير الخبز والحليب؟ حتى والدتي العجوز لن تفسد هذا الطعام، وكانت أسوأ طاهية في العالم. إنه لأمر عجيب كيف نشأنا دون أن يتسمم أيا منا».

فقال السيد آنجيلو مبتسمًا في وجه جيمي المروع: «احرص على صنع أفضل خبز وحليب على الإطلاق، وليكن البيض مسلوقًا إلى حد الكمال. هذهِ مهمة يفشل فيها معظم الطهاة».

وبعد وقت قصير من مغادرة السيدة، استقبلنا زائرًا آخر، المُنشي المُحتقَر شخصيًا. اجتاح المطبخ بتعجرف وقال: «لقد أرسلتني جلالة الملكة لأبلغكم أنها ترغب في إقامة حفل عشاء صغير هذا المساء، لأن رئيس الوزراء يقيم في مكان قريب. عشاء لاثني عشر شخصًا. واحرصوا على أن تكون القائمة مثيرة للاهتمام».

- «دائمًا ما تكون قوائم طعامنا مثيرة للاهتمام»، قال السيد آنجيلو ووضع الساطور الذي كان يستخدمه بضربة قوية.

- «لا أشاطرك الرأي»، أجاب المُنشي، «مرة تلو أخرى، أطلب طعامًا خاصًا، وأنتم تعلمون أن نظامي الغذائي يجب أن يتلاءم مع دياناتي، وعلامَ أحصل؟ أحصل على دجاج بلا نكهة، ويصلني حساء بازلاء تسمونه دال، وأتساءل مع نفسي، ماذا سآكل هنا؟».

- «ما يأكله بقية الخدم. هذا ما أظنه»، أجابه السيد آنجيلو.

- «أنت تهينني. أنا لستُ مجرد خادم. سأخبر جلالتها بهذا وسأجعلها تصرفك».

ابتسم السيد آنجيلو وقال: «لا أعتقد ذلك يا

صديقي. ذلك أن طعامها هو الشيء الوحيد الذي تحبه جلالتها أكثر منك، لذا لن أذهب إلى أي مكان. أما أنت، فعليك أن تحذر جيدًا إذا ما رغبت في البقاء».

- «ماذا تقصد بكلامك هذا؟ هل تهددني؟». وبرقت عينا الرجل.

- «لستُ أنا»، أجابه السيد آنجيلو، «لكني أعلم أنك لست على وفاق مع بقية أفراد البلاط».

شخر المُنشي بسخرية وقال: «وكأني لا أعرف هذا! لكنهم يشعرون بالغيرة لأنني المفضل لدى الملكة، ولا يمكنهم فعل أي شيء حيال ذلك». ثم خرج من الغرفة. فانفجر الطهاة الآخرون ضاحكين.

فقال السيد آنجيلو: «وغْد بغيض، سنهزمه في لعبته. سنحضر له طبق خضروات في كل وجبة، ونضع فيه الكثير من التوابل بحيث يخرج الدخان من أذنيه»، ثم صفق يديه وقال: «حسنًا، لقد سمعتم الرجل. عشاء لاثني عشر شخصًا».

ولم يُقلِق هذا السيد آنجيلو ولو قليلاً، لكنه أصابني بالذعر. حتى الآن، كنت أعتبر هذه المهمة بمثابة مزحة، وتحدٍ، ووقت لإثبات

جدارتي، وأدركتُ الآن أنني يجب أن أرتقي إلى مستوى التوقعات. لن تناسب المثلجات وبودينغ الأرز حفل العشاء. فحاولت التفكير ماذا كان السيد رولاند ليُعِدّ: كعكة مثيرة للإعجاب على أقل تقدير. فنظرت في كتب الطبخ، كعكة ميل فيوي (ألف طبقة) على طريقة شانتيلي، أجل يمكنني فعلها. يمكنني دائمًا ضمان أن تكون المعجنات جيدة، والبرتقال وفير هنا، هل أقدم قشدة البرتقال في قشرة البرتقال؟ بدا ممكنًا أيضًا. وماذا عن طبقٍ ثالث؟ فكرت في بودينغ الخبز والزبدة، ليذكرهم في الوطن، ولكن للأسف لم يكن لدينا خبز قديم، وكان هذا أحد عيوب التواجد في مطبخ شخص آخر، لذلك قررت أنني لن أخطئ طبخ البروفيترول، ومَنْ لا يحبه؟

جرى كل شيء كما أحببت. صففت البروفيترول على شكل برج ورششته بالشوكولاتة. أومأ الشيف لوبان برأسه إعجابًا عندما عبر بالقرب منّي، ويبدو أنها أعجبت السيد آنجيلو أيضًا، مع أنه لم يتفوه بكلمة.

وجرت وليمة العشاء بسلاسة، حتى أننا تلقينا رسالة تهنئة تفيد بأن الملكة وجدت الرغوة البيضاء لذيذة للغاية، وبأن اللورد سالزبري أثنى على قشدة

البرتقال. كنت مرهقة للغاية، ومرتاحة كثيرًا، لأتناول أي شيء في هذهِ اللحظة، لذا خرجت عبر باب الخدم إلى الجزء الخلفي من الفندق، في برودة الليل. كانت النجوم تزين السماء فوق وكأنها قبّة عظيمة، منظرٌ لم أرَه منذ مغادرتنا هامبستيد هيث. كانت كرة دخان تغطي سماء لندن دائمًا، لدرجة لا نعرف يقينًا إذا كان هناك قمر أم لا. وقفت أحدق بالنجوم، وأحاول تذكر مجاميع النجوم التي أراني إياها والدي، وتناهى إلى سمعي فجأة أصوات قادمة مباشرة من فوقي، فنظرتُ إلى الأعلى. كانت الشرفة تدور حول غرف الطابق الأول، وكان هناك سادة واقفين فيها يدخنون، وصلتني رائحة تبغهم إلى الأسفل.

- «ألا ترى أن عليه الرحيل؟». قال أحد الأصوات، أظن أنني ميزته، صوت اللورد سالزبري الذي يتميز بنبرة صوت السياسي - العميقة والحماسية- الذي اعتاد الحديث بصوتٍ عالٍ في البرلمان.

- «إنه مصدر إحراج، وفضيحة تامة». أعتقد أنني ميزت هذا الصوت أيضًا، سمعته من قبل بكل تأكيد. فيه لكنة اسكتلندية خفيفة، ربما كان الدكتور ريد، طبيب الملكة؟

- «يدّعي أن والده كان جراحًا عامًا في الهند، والحقيقة أن الرجل لم يكن سوى ممرض في المستشفى، والمُنشي هو شخص من الطبقة الدنيا، وهو منبوذ ومحتقر من قِبل المجتمع المحترم في دولته. وها هي الآن تأخذه أينما ذهبت، إنه أمر محرج للغاية. هددناها جميعنا بالاستقالة كما تعلمون، ولم يزعجها ذلك إطلاقًا. برأيي أنه سَحَرها».

- «تتأثر دائمًا بالرجال الوسيمين». قال صوت ثالث بنبرة عالية ومتقطعة.

- «لكن هذا الرجل ليس وسيمًا البتة. بل غريب في أحسن أحواله، ومكروهًا للغاية».

- «ليس معها، فهو يضع قناعًا آخر عندما يكون برفقتها، حلو وساحر كالمثلجات التي تحبها. ماذا يمكننا أن نفعل لنجعلها تدرك أنها تسخر من نفسها ومن بلدها؟».

أضاف الرجل الثاني: «أعتقد أن السكان المحليين يظنون أنه أمير هندي مأسور».

- «أخشى أن الأمر أسوأ مما تخيلتم يا سادة»، قال اللورد سالزبري مرة أخرى، «فهو ليس مجرد مصدر إحراج، ولكنه خطر على أمننا القومي. هل سمعتم باسم «رفيع الدين أحمد؟».

- «المحامي في المحاكم العُليا؟ من يترأس الرابطة الوطنية الإسلامية؟».

- «وما هذهِ؟». سأل الرجل الثالث.

- «مجموعة تعمل بنشاط ضد أمتنا. يريد طرد البريطانيين من بلاده، ويريد الحكم الذاتي للمستعمرة».

- «يا إلهي! وهذا المُنشي مرتبط به؟».

- «من أصدقائه المقربين في الحقيقة. ولدينا معلومات تفيد بأن المُنشي كان على علم بوثائق سرية للغاية، وقد نقل محتوياتها إلى هذا الشخص التابع للرابطة الإسلامية».

- «الاطلاع على مستندات سرية للغاية؟ كيف يعقل ذلك؟».

- «تسمح له بالبقاء في الغرفة عندما تفتح صناديق بريدها» قال الصوت باحتقار، «وهي رقيقة كفاية لدرجة قد تناقش الأمور معه أو ربما ينظر من فوق كتفها».

- «لكن هذهِ جريمة خيانة. والرجل جاسوس أجنبي ملعون».

- «هكذا يبدو».

- «هل أخبرت الملكة بهذا؟».

- «لقد فعلت، لكنها ترفض أن تصدق أن المُنشي العزيز يمكن أن يفعل شيئًا كهذا».

- «على الأقل يمكننا القول إننا بعيدون مسافة آمنة عن البلاط البريطاني».

- «على العكس تمامًا»، قال اللورد سالزبري بغضب، «لقد تلقيت معلومات تفيد بأن رفيع الدين أحمد في طريقه إلى نيس، هذا إذا لم يكن هنا بالفعل. من الواضح أنه يخطط للقاء المُنشي».

- «لكن يجب أن يُوقف بأي ثمن».

قال اللورد سالزبري: «أنا موافق. سنفعل ما في وسعنا للتأكد من عدم التقاء الاثنين. أنا متأكد أن بوسعنا تدبير اعتراض رجالنا في طريقه ومرافقته بهدوء. لكن إذا كان لا يزال بإمكان المُنشي الوصول إلى الوثائق السرية، فما الذي يمنعه من التواصل كتابيًا مع الجميع بدون استثناء؟».

- «يجب أن تُجبَر الملكة على التعقل». قال صوت عالٍ هذهِ الكلمات بسرعة.

- «ومن سيقوم بهذهِ المهمة؟».

- «ربما أمير ويلز. فهو يكره الرجل ولا يثق به بقدر ما نفعل. ومع كل مغازلاته، إلا أنه رجل

عاقل ويضع مصلحة بلدنا قبل كل شيء».

- «إنه يحب البقاء بعيداً عن والدته عندما يكون في الريفيرا، فهي لا توافق على عشيقاته».

- «يقتضي البروتوكول أن يأتي ويقدم احتراماته لوالدته، سأتحدث معه وربما سيجعلها ترى الحقيقة».

- «يبدو أن هناك حلاً واضحاً». قال الصوت العالي، يتحدث ببطء ونبرة محسوبة هذهِ المرة.

- «وما هو؟».

- «التخلص من المُنشي».

كانت هناك ضحكة متكومة متوترة ثم: «وكيف تقترح أن تفعل هذا؟».

- «توجد هنا كل أنواع الأمراض الغريبة كما تعلم، فالماء سيء للغاية. أو ربما نضع شيئاً في طعامه، حباً بالله».

- «أنت لستَ جاداً، صحيح؟».

- «في منتهى الجدية. على الرجل أن يرحل، والأمر متروك لنا لنجعل هذا يحدث».

- «وكيف تقترح تنفيذ هذا؟».

- «أنت الطبيب. لا بد وأنك تعرف ماذا يَقتلُ

الرجل، وكيف تجعله يبدو وكأنه تسمم غذائي».

- «يا عزيزي، أنا طبيب، وقد أقسمتُ على إنقاذ حياة الإنسان لا إنهاءها».

- «ليس عندما يكون ذلك في مصلحة العميل والمصلحة العامة».

- «ولا حتى في هذهِ الحالة. أنا آسف يجب أن أذهب وأرى إذا كانت الملكة تحتاجني قبل أن تأوي إلى الفراش». وسمعت الباب يُغلق فوقي.

قال الصوت العالي: «سيعود. وإذا لم يحدث ذلك، فسنضطر إلى البحث عن شخص آخر فحسب».

انتظرت قليلاً قبل أن أتجرأ على التحرك، لكني لم أسمع المزيد من الأصوات، فتسللت مرة أخرى عبر مدخل الخدمِ إلى المطبخ، حيث كانت الخادمات ينظفن آخر القدور.

- «اجلسي وكُلي»، ناداني السيد ويليامز، «تبدين مرهقة للغاية».

سحبت كرسي بجانبه وناولني وعاء فيه حساء الدجاج المصنوع من بقايا الديك المخصي غير المرغوب فيها وبعض الزبدة. كان هذا ما أحتاجه، طعام ينزلق إلى المعدة دون عناء.

فأومأتُ له بامتنان.

- «إنه لأمرٌ غريب، أليس كذلك؟»، وتابع بلكنته الويلزية المرحة، «أن نكون بعيدين جدا عن وطننا. كل شيء مختلف نوعاً ما، مطبخ جديد وتحديات جديدة، لا عجب أننا نشعر بارتباك واضطراب»، ثم رمقني بابتسامة تشجيع وقال: «أفترض أن الأمور ستكون على ما يرام. وأعتقد أنكِ تبلين حسناً».

شعرت بالدموع تتجمع في عيني. لم يعترف طهاة اليومن بوجودي قبل السفر إلا لماما. والآن لم يكن يحيطني بعناية أبوية فحسب، بل كان يمدحني.

غادرتُ حالما كان من اللائق المغادرة وصعدت إلى غرفتي، وما إن أغلقت الباب خلفي حتى اضطجعت على سريري وحاولت أن أنسى المحادثة التي سمعتها وأبعدها عن تفكيري، لكني عجزت عن ذلك، فقد كان العديد من السادة المهمين، من ضمنهم رئيس الوزراء وطبيب الملكة، يخططون للتخلص من خادمها الهندي، وكل تلك الأحاديث والمكائد والمؤامرات الخارجية والخيانة! لو أخبرني أحدهم لما صدقته، ولاعتقدتُ أنها مبالغة شديدة. لكنني سمعتهم بأذني ولا يمكنني

إخبار أحد.

فقلت لنفسي: «لِمَ القلق، فهو شيء لا يعنيني، وأنا لستُ مولعة بذلك المُنشي بكل تأكيد. وإذا كان جاسوسًا أجنبيًا، فلا بد أن يزيلوه بصورة أو بأخرى». لكن الحديث عن تسميم طعامه أخافني، فبعد كل شيء، أنا أحد طهاة جلالة الملكة، وأحد أولئك الذين يلمسون الطعام. وإذا حصل أي مكروه للمُنشي، ستحوم الشكوك حولنا أنا وزملائي.

الفصل الواحد والعشرون

لم يبدُ المشهد الذي سمعته حقيقيًا في ضوء الصباح، وتساءلت إذا ما كنت قد حلمت بذلك. تناولت الإفطار، مستمتعة بمذاق الخبز الدافئ وحلاوة مربى المشمش، ثم بدأتُ عملي وصنعت وجبة من الكعك الصغير وسكويت البراندي وحفظت كل شيء في علب معدنية. وكنت قد انتهيت للتو من قطع البراندي، وبدأتُ ألُفها وهي لا تزال دافئة حول مقبض الملعقة، عندما جاء الشيف لوبان وسألني: «ما هذهِ؟».

- «يجب أن تُملأ بالقشدة قبل أن تُقدَّم».

- «هل لي أن أُجرب قطعة؟».

رفعتُ له واحدة أنهيتها للتو، فأخذ قضمة وقال: «آه، فيها بهارات، الزنجبيل على ما أعتقد، والقليل من القرفة؟».

- «والبراندي بالطبع». أجبته.

استمتع بمذاق القضمة وقال: «وملمسه مثيرٌ للاهتمام، شريطي وهش. هل يمكنكِ مشاركة وصفتكِ معي؟ لدينا ضيوف جدد في الفندق يرغبون بتناول الشاي الإنكليزي».

- «يا إلهي! هناك وصفة إنكليزية تعتبرها جديرة

بالطهي؟ لن تنتهي المعجزات».

نظر إلي وضحك.

- «سأقايضك، وصفتي لبسكويت البراندي مقابل وصفتك للأخطبوط».

مد يده لي وقال: «موافق».

لم أكن مستعدة لصدمة الكهرباء التي شعرت بها عندما تلامست يدانا. لا بد أنني تلعثمت وفأفأتُ شيئًا ما بخصوص العودة إلى العمل، واحمّررت خجلاً، وأظن أن ارتباكي أضحكه، فقلت لنفسي «إنه يربككِ يا بيلا، يستخدم سحره الفرنسي ليجعلكِ مرتبكة، أنتِ لا تعنين له شيئًا». ولكن مع ذلك، كان من الممتع معرفة أن لمسة الرجل يمكن أن يكونَ لها هذا التأثير عليّ، فقد بدأت أتساءل إذا كنتُ غريبة أطوار أم لديّ برود لعدم إحساسي بقبلة نيلسون. والآن بتُّ أعرف أنني كنت أنتظر الرجل المناسب فحسب.

وسرعان ما اكتشفت أن العمل في الفندق كان مختلفًا تمامًا عن العمل في مطابخ القصر. كنّا معزولين عن حياة العائلة الملكية في القصر، ولم يكن لدينا أي فكرة عمّنْ جاء ومَن ذهب، وما الدراما التي تحدث، وكنّا نطهو الوجبات ونرسلها

مع الخدم ولم نعرف إذا أعجبتهم أم لا، ما لم تكن هناك شكوى، وهو أمر نادر الحدوث. أما هنا، فكنّا على مقربة من أولئك الذين نخدمهم. كانت ممراتنا الضيقة تمرّ خلف غرفهم، وكانت النوافذ مفتوحة، وكنّا نسمع محادثاتهم، وبذا، حصلنا على لمحات من حياتهم.

وبعد ما سمعته في الليلة السابقة، سمعت محادثة غريبة أخرى في ذلك الصباح. كنت قد خرجت لتوي من مدخل الخدم لأتنفس الهواء النقي بعدما وضعت الكعك والمعجنات في الأفران الساخنة. وتجولت في اتجاه مقدمة الفندق، مستمتعة بالنسيم الذي يهب من شاطئ البحر مع قليل من الملح، وكدتُ أستدير البرج في نهاية الفندق عندما سمعت صوتًا حادًا يقول: «لكن يجب أن تعطيه لي. أنا آمرك بذلك».

ألقيتُ نظرة خاطفة إلى الأعلى ورأيتُ نوافذ الطابق الذي فوقي مفتوحة. حسبته صوت أحد الأطفال الملكيين أول وهلة، لكن صوت رجل أجاب: «أنا أفكر في حياتكِ يا صاحبة السمو. أنتِ تعرفين أن والدتكِ لن توافق، وستصاب بالذعر لو عرفت بالأمر».

- «غير مسموح لك بإخبارها. أنا أمنعك تمامًا

من إخبارها بشيء». قال صوت أنثوي بحدة أكثر وفيه نبرة ذعر.

- «إذًا أطلب منكِ بإلحاح أن تتعقلي وتتوقفي عن تعاطي هذا الهراء ما دام بمقدوركِ فعله».

- «لكنني لا أريد أن أتوقف. أنه مصدر متعتي الوحيد في الحياة».

- «هذا خياركِ، لكنني لن أفعل شيئًا لمساعدتكِ. طاب يومكِ يا صاحبة السمو».

صدمتني هذهِ المحادثة بقدر تلك المحادثة الأخيرة. لا بد وأنها إحدى بنات الملكة ڤيكتوريا، ما لم تكن إحدى حفيداتها، لكن صوتها كان بالغًا لدرجة يستحيل أن تكون الفتاة ذات العشرة أعوام. ماذا أرادت؟ وهل كان هذا الدكتور ريد الذي رفض طلبها؟ الحياة في نيس أكثر إثارة للاهتمام قطعًا.

وكنت على وشك الاستدارة والعودة أدراجي لأراقب مخبوزاتي في الفرن عندما سمعت أغرب ضوضاء. كانت صرخة استغاثة أحد يختنق لم أميزها إطلاقًا، لذا كان عليَّ الركض حول المبنى لأرى بنفسي. كانت ثمّة عربة صغيرة يجرها حمار - وهو مصدر هذهِ الجلبة - تقف أمام مدخل

الملكة في مقدمة الفندق. هل هو فلاح يبيع الخضروات؟ لكني عدلت عن الفكرة لأني واثقة أن هكذا عربات لا يُسمح لها بالتواجد في الساحة الأمامية بجانب العربات الفاخرة. ثم راودتني فكرة أخرى، كم هو لطيف، لا بد وأنها جُلبت لأحفاد الملكة! فعدت وأخبرت مَنْ في المطبخ: «خمّنوا ماذا رأيتُ للتو؟ هناك عربة يجرها حمار تقف خارج الفندق».

- «أوه، إنها عربة الحمار. لقد سمعت بهذا»، ورمق السيد فيلبس بابتسامة واسعة عارفة وقال: «تقول الشائعات أن الملكة صادفت فلاحاً يسيء معاملة حماره، وكانت مصدومة ومستاءة لدرجة أنها دفعت ثمن الحمار على الفور، وهي الآن تحتفظ به في الإسطبل هنا لتتمكن من التجول في المنطقة بواسطة العربة الصغيرة»، وابتسم مرة أخرى واستدار نحوي وسألني: «إنه بالخارج الآن، أليس كذلك؟ لنذهب ونلقي نظرة، أود أن أرى بنفسي»».

قرر باقي الطهاة أنهم يودون إلقاء نظرة بأنفسهم أيضًا، فتكومنا خارج الباب الخلفي وأسرعنا نحو مقدمة الفندق. وعندما وصلنا، سمعنا صوتًا متسلطًا يقول: «لا، ليس هكذا، أيها الأحمق.

أمسك رأس البهيمة بينما أساعد جلالة الملكة».

كان مُنشي الملكة، وكانت الملكة متشبثة بذرعه وهي تتقدم إلى الأمام مستخدمة عصاها، يتبعها حفيداها، ووالدتهما تراقبهما بحذر.

- «لا يتسع المكان لكم جميعًا بلا شك»، قالت الأميرة بياتريس بينما كانوا يساعدون الملكة على الصعود، «وهل هذا الحمار الصغير المسكين قوي بما يكفي لسحبكم جميعًا في العربة؟».

- «هراء، إنهما طفلان صغيران، ولن يشغلا أي مكان على الإطلاق»، قالت الملكة، «تعالا يا أطفال، لنذهب في جولة».

صعد الطفلان بحماس، وحشرا نفسيهما بجانب جدتهما وانطلقت العربة، وسار السائس قرب رأس الحمار، والمُنشي بجانب الملكة. استدار السيد آنجيلو نحونا وقال بابتسامة استمتاع واسعة: «هذا ما يفعله بعض الناس للترفيه عن نفسهم. ومع هذا، أفترض أنك حتى لو كنت أمبراطورا لنصف الكرة الأرضية، فسيحدث العيش بصفتك فلاحًا لحظات فرقًا».

ثم عاد إلى المطبخ، وكنتُ على وشك اللحاق به عندما سمعت أحدهم ينادي: «أنتِ يا فتاة؟».

فاستدرتُ لأرى الأميرة هيلينا تلوح لي.

ذهبت إليها وانحنيتُ وقلت: «أردتِ شيئًا مني يا صاحبة السمو؟».

- «أجل. أريدك أن تقضي لي مهمة. خذي هذهِ الورقة إلى الصيدلي في المدينة وسلميها له، وادفعي له النقود واجلبي ما يعطيه لكِ إليَّ مباشرة، هل هذا مفهوم؟».

ودسَّت قطعة ورق في يدي.

احمررت خجلاً من الارتباك وقلت: «لكني لا أستطيع الذهاب سموكِ. لدي عمل أنجزه هنا».

- «هراء. أنا متأكدة أن عملكِ يمكنه الانتظار، أريد هذهِ المواد في الحال».

- «لكن سموك، أنا أحد الطهاة وعليَّ إعداد الجزء الخاص بي من وجبة الغداء، ولدي كعكات يجب أن أخرجها من الفرن في الحال».

كانت تنظر لي كما لو أنني حشرة غريبة تراها لأول مرة. «تقولين إنكِ أحد طهاة والدتي؟».

- «أجل يا سيدتي»، وأومأت لها ثم أضفت بجرأة، «وأنا أشغل منصب طاهي الحلوى والفطائر في الوقت الحالي».

- «طاهية؟ كم هو غريب وغير مألوف»، وتنهدت، «حسنًا، في هذهِ الحالة، لا أفترض أنه بإمكاني تعطيلكِ عن مساعيكِ. لن تكون والدتي مسرورة إطلاقًا إذا تأخرت وجبة الغداء عن موعدها المعتاد».

أحنيتُ لها باحترام وقلت: «أنا شديدة الأسف سموك. ألا يمكن لخادمتكِ أن تؤدي هذهِ المهمة من أجلك؟ أو خادم الفندق؟»».

- «أخشى أن خادمتي ستبلغ والدتي على الفور. لكنكِ محقة، لا بد وأن هناك صبي فندق يمكنه تنفيذ هذهِ المهمة. سأذهب وأرى». وانطلقت عبر الفناء الأمامي.

راقبتها وهي ترحل وأدركت حينها أنه كان صوتها القادم من النافذة تتجادل مع الطبيب. وفهمت الآن! لمحتُ ما كان مكتوبا في الورقة التي حاولت دسها في يدي: قنينتان من الهيروين، وقنينة من اللودانيوم، وعلبة إبر.

لم تكن لدي أي خبرة أو معرفة حقيقية بهذهِ الأشياء، لكنني سمعت شائعات، وكانت والدتي، قبل وفاتها، قد اعتادت استخدام اللودانيوم لدرجة أقلقت والدي. والآن فهمت سبب اليأس في صوتها، فالإبر لم تكن للخياطة، بل لحقن

المحلول في جسدها. كانت الأميرة هيلينا مدمنة مخدرات، وهذهِ حقيقة أخرى لا يمكنني إخبار أحد بها.

كنت أهم مسرعةً لألحق كمكاتي قبل أن تحترق عندما سمعتُ اسمي، أو على الأقل اسمي المُنتحل. قال صوت الرجل: «بارتون؟ لا، لا أعرف أحدًا بهذا الاسم ضمن حاشية الملكة». وكرر هذا بالفرنسية ولكن بلكنة إنكليزية قوية.

استدرت على عقبي لأرى أحد سادة جلالتها يتحدث مع ما يبدو وكأنه صبي مراسل. فأخذتُ نفسًا عميقًا وذهبت نحوهما وقلت: «أنا هيلين بارتون. وأنا أحد طهاة جلالة الملكة».

قال السيد: «أنتِ طاهية لجلالة الملكة؟ هذا لافت للنظر».

رأيتُ المراسل يحمل رسالة، فسألتُ بالفرنسية: «هل هذهِ الرسالة لي».

أومأ المراسل وسلمها لي وقال: «من الفيكونت فيفرشام».

أخذتها وخدودي تحترق خجلاً. «أخشى أني لا أملك المال معي ...». وتلعثمت.

- «دفع لي سيدي مبلغًا سخيًا، لا تقلقي». وانحنى

باقتضاب ثم انصرف.

كان السيد يحدق بي بطريقة أشعرتني بعدم ارتياح، ثم قال: «منذ متى تستلم الخادمات رسائل من فيكونت؟».

فأجبته: «تقابلنا في حفلة الليدي كروزر»، وكم وددت إخباره أن جايلز ويفرلي هو ابن عمي، «كنتُ مدعوة لأكون جزءًا من تابلوه».

هزَّ السيد رأسه وقال: «هذا ليس صائبًا. فالعلاقات العاطفية خارج طبقتكِ الاجتماعية لن تنتهي إلا بمأساة، للفتاة المعنية على وجه الخصوص».

- «لا يا سيدي. فالأمر ليس كذلك، وأنا أفهم تمامًا ما تقول. لقد وعدني الفيكونت فيفرشام أن يريني الساحل القريب من فيلته، وهذا كل ما في الأمر، وليس لدي أي نية في شيء آخر».

- «إذًا احرصي على أن تلتزمي بهذا. فالشباب الأرستقراطيون يميلون إلى الاعتقاد بأن الخادمات الشابات فريسة سهلة المنال إذا فهمتِ قصدي».

- «هل أنت متفرغ يا سير آرثر؟»، صاح رجل عليه من عتبات الفندق، «أود أن أكلمك إذا لم

يكن لديك مانع».

- «أتمنى أن تأخذي تحذيري على محمل الجد أيتها الشابة».

وأومأ لي السير آرثر باقتضاب وتركني واقفة هناك، راقبته يرحل باهتمام، لا بسبب ما قاله للتو، بل لأنني ميزتُ صوته. لقد كان صاحب النبرة المرتفعة، والكلام المتقطع في الشرفة ليلتها، وكان السير آرثر بيغ، أمين سر الملكة.

انتظرت حتى أصبحتُ بأمان داخل المبنى ثم فتحت الرسالة:

الآنسة بارتون العزيزة،

أتمنى ألّا تعتبري كتابتي لكِ وقاحة، لكنني استمتعتُ كثيرًا بمحادثتنا المقتضبة ليلتها، وأود رؤيتكِ من جديد. أعلم أنكِ أخبرتِني بأنكِ ستكونين طوع بنان الملكة، لكن وقتي ملكي، يمكنني القدوم في أي لحظة تكونين فيها متفرغة، أخطفكِ بعربتي بسرعة لساعة أو اثنتين. أود كثيرًا أن أريكِ المنطقة حول ڤيلتنا. إنها مكان جميل جدًا.

المخلص لكِ،

جايلز ويڤرلي.

قلت لنفسي، لا يجب أن أرد. فكما قال السير آرثر، لا فائدة ترجى من هذا. وعندما يكتشف جايلز ويفرلي أنني مجرد طاهية، سيكون الأمر محرجًا لكلينا، لكني استمتعت برفقته صدقًا، فقد بدا شابًا إنكليزيًا لطيفًا ومسالمًا. وما الخطأ الذي يمكن أن يحدث في ركوب العربة في وضح النهار؟ ثم خطرت لي فكرة شريرة، إذا حاول أن يكون خفيف ظل سأفصح له أنني ابنة عمه، وستجعله المفاجأة يتوقف ويفكر.

لقد فعلتُ أشياءً كثيرة لم تكن حكيمة أو معقولة مؤخرًا، وقد آلت جميعها إلى خير، وربما كانت هذهِ إحدى الفرص التي عليَّ أن آخذ بنصيحة والدي وأنتهزها. وبذلك، عقدت العزم أنه إذا أتيحت لي الفرصة، سأكتب لجايلز ويفرلي وأقبل دعوته.

وجاء لقاءنا بأحد أفراد الحاشية الملكية التالي في مساء ذلك اليوم. كنا قد أنهينا خدمة وجبة الغداء، وبدأنا نفرز العناصر التي عادت دون أن تؤكل، ويعود الكثير منها عادة، لأن الملكة ترغب في وجود اختيارات متعددة على طاولة الطعام في كل وجبة.

قال السيد آنجيلو: «لقد أحبّوا طبق السمك الذي

أعددناه يا سيد ويليامز، لم يرجع منه ولا لقمة».

أجابه السيد ويليامز: «يؤسفني ذلك، فقد كنت آمل بالحصول على قليل منه لي، بدا شكل طبق السمك مغرياً».

رفعنا بصرنا نحو الباب الذي فُتح ودخل منه الكونت فيلهلم خطيب الأميرة صوفي مسرعاً، ووقف ينظر لما حوله وقال: «أنتم الطهاة الإنكليز، أليس كذلك؟».

- «أجل، يا صاحب السمو، كيف يمكننا مساعدتك؟». سأله السيد آنجليو وانحنى له.

قال الكونت بإنكليزية تشوبها لكنة ألمانية قوية: «هذا ما أتمناه»، ثم تقدم مباشرة نحو السيد آنجيلو وقال: «لقد خاب أملي كثيراً بسبب الطعام الذي قدمتوه لأقاربي الملكيين».

- «من أي ناحية يا سيدي؟». قال السيد آنجيلو، ولم يكن ترويعه ولا خضوعه سهلاً، تقدم إلى الأمام ليواجه الكونت.

- «فلايش!»، قال الكونت، «لم يكن هناك ما يكفي من الفلايش».

- «أنت تقصد اللحم يا سيدي؟ قدمنا أضلاع الضأن في وجبة الغداء، والزغلول كذلك».

لوح الكونت بيديه باستخفاف وقال: «هذا طعام السيدات المسنات والرقيقات. أنا رجل، ويجب أن آكل اللحم لأحافظ على قوتي. أين شرائح لحم الخنزير؟ وأين لحم البقر؟ ولحم البقر المشوي الإنكليزي الشهير؟».

- «أنا آسف، نحن هنا في فرنسا، ولن تجد لحم بقري إنكليزي مشوي هنا».

عبس الكونت فيلهلم وقال: «هل تتعامل معي بقلة احترام؟ وهل تسخر مني؟».

- «قطعًا لا يا سيدي. ما أقوله هو الحقيقة. يؤسفني القول إن الفندق لم يتمكن من إيجاد قطع لحم بقر تناسب معاييري العالية حتى الآن. ويجب أن تفهم أننا تحت رحمة ما يرسله لنا الجزارون الفرنسيون. ففي فرنسا، لا يأكلون كميات كبيرة من اللحوم، فهو مكلف هنا، لذا لا يمكن الحصول عليه بسهولة. لكنني قدمت طلبًا بشحن اللحوم من إنكلترا إذا اقتضت الضرورة».

قال الكونت: «وفي هذهِ الأثناء، أتضور جوعًا».

أشك في ذلك، فبالنسبة لرجل شاب، كان جسمه بدينًا وممتلئًا بفظاعة، ولم يصل صِدارهُ البني

إلا لسرته.

- «احرص على أن تصلني كمية وفيرة من اللحم في كل وجبة. وإذا لم يتوفر اللحم المشوي، أرسل لي الكبد، والكلى والدماغ. طعام مغذي ومشبع. طعام يلائم رجلاً صحيحاً مثلي».

قال السيد آنجيلو: «كما تأمر يا سيدي اللورد». ويمكنني القول إنه لا يعرف كيف يخاطب كونتاً ألمانياً بصفة رسمية. هل كان من العائلة الملكية أم مجرد أرستقراطي؟

- «وشيء آخر»، وهز إصبعه في وجه السيد آنجيلو، «مَنْ المسؤول هنا عن الناكسبايزن؟ أو البودينغ كما تسمونها».

قال السيد آنجيلو: «إنها الآنسة بارتون».

استدار فيلهلم نحوي متفاجئاً وقال: «امرأة؟ تدعون امرأة تعد الأطباق؟».

قال السيد آنجيلو: «الآنسة بارتون طاهية بارعة». تمنيت أن أعانقه.

- «حسنٌ جداً». واستدار لمواجهتي.

فسألته: «هل ثمة ما لم يعجبك يا صاحب السمو؟».

- «الحلوى التي قُدمت - الكريمة والمثلجات وقطع المعجنات الصغيرة تلك - هي للنساء. وقدمتِ يوم أمس الميلبري، المصيدة التي نقدمها للأطفال في ألمانيا. أين الكوندل - الزلابية - وأين بودينغ شحم الماشية الإنكليزي؟ الحلوى التي ترضي بالفعل».

- «أعتذر يا سيدي، لا تحب الملكة الحلوى الثقيلة. وحلوى الميلبري هي المفضلة لديها، خصوصًا بعد السفر. أنت تتفهم بلا شك أن الوجبات مخططة لإرضاءها. ففي إنكلترا، يجب أن توافق على كل قوائم الطعام قبل إعدادها. وأنا متأكدة من أنها ستفعل ذات الشيء هنا ما إن تستقر».

- «اصنعي لها الميلبري واصنعي لها كريمة رغوية، لكن حبًا بالله اصنعي لي حلوى ملائمة».

- «سأبذل قصارى جهدي يا صاحب السمو». وانحنيتُ له مرة أخرى، وهو شيء أرضاه بالتأكيد.

- «ممتاز. تابعوا. تابعوا»، وهز يده باتجاهنا. ثم وفي طريق خروجه، توقف وقال: «ما هذهِ؟».

فقلت له: «بسكويت البراندي لوجبة شاي

اليوم».

التقط بسكويته ودسها في فمه وقال: «ليس سيئًا»، وقال وفمه لا يزال ممتلئًا: «وهذه الكعكة؟ هل الزينة من الشوكولاتة أم القهوة؟»، ولصدمتي، مرر إصبعه على قمة كعكتي وأخذ غرفة كبيرة من زينة الكعكة. مص إصبعه وقال: «آه شوكولاتة، جيد»، ونظر لما حوله مرة أخرى ووقع بصره على جيمي فسأله: «وماذا تطبخ أنت أيها الشاب؟».

- «جيمي متدرب لدينا»، أجابه السيد آنجيلو، «يطبخ الوجبات البسيطة، ولا يزال يتعلم».

- «جيد جدًا، تابع عملك». أومأ الكونت وخرج، وتأرجح الباب خلفه وانغلق.

- «أحمق لعين»، قال السيد آنجيلو ووجهه شديد الاحمرار، «يأتي إلى هنا وكأنه اللورد موك، كما لو أنه يملك المكان».

قلت له: «وانظر ماذا فعل بكعكتي! يجب أن أُزيل كل التزيين وأُعدّ وجبة جديدة».

- «أنا آسفٌ جدًا لأنكِ تعرضتِ للإهانة بهذه الطريقة يا آنسة بارتون»، قال السيد فيلبس، «لم أرَ شيئًا كهذا من قبل. ماذا عنك يا سيد آنجيلو؟

لم يحدث قطُّ في كل سنواتي التي قضيتها في المطبخ».

- «لم أرَ شيئًا كهذا. ولا أظن أن جلالتها ستقبل هكذا تصرفات»، قال السيد آنجيلو، «فهي لطيفة للغاية مع موظفيها على الدوام. أظن أنني سأتحدث مع أمين سرّها السير آرثر، لن نسمح لهذا البدين بأن يدخل مطبخنا ويخرج منه كما يشاء».

- «هل يمكن لأحدنا أن يساعدكِ يا آنسة بارتون؟»، قال السيد آنجيلو، «احضر سكر التزيين ومسحوق الشوكولاتة لطاهية الحلويات خاصتنا يا جيمي».

كان هناك جهد جماعي لإنقاذ كعكتي. وكنتُ لا أزال غاضبة لكني شعرت بالدفء من داخلي. عملنا معًا كفريق، نهتم ببعضنا.

الفصل الثاني والعشرون

وشاءت الصدف أن تكون فرصة لقائي بجايلز ويفرلي أقرب مما توقعت.

أبلغونا أن جلالة الملكة ستتعشى في اليوم التالي مع ابن عمها الملك ليوبولد، ملك بلجيكا، وتقع فيلته خارج نيس، وسيكتفي أفراد القصر الملكي بتناول عشاء بارد، ويمكننا قضاء فترة ما بعد الظهيرة استراحة.

- «أنا سعيد لأنه لن يأتي إلى هنا، ذلك العجوز القذر»، تمتم السيد آنجيلو بعدما أبلغنا بالأخبار، «لكان علينا إخفاء الآنسة بارتون في المطبخ»، ورمقنا بنظرة دراية وقال: «فهو معروف بميلهِ للفتيات الصغيرات. وقد تكونين كبيرة بالنسبة له يا آنسة بارتون، لكن زهرة شبابكِ ما زالت متفتحة».

سأل جيمي: «ألم يجلب عشيقته معه؟».

لا أعرف كيف يستطيع معرفة كل هذهِ الفضائح. ويبدو جلياً أن السيد آنجيلو كان يفكر بالموضوع نفسه فقال له:

- «من أين تجلب هذهِ الترهات يا جيمي؟ آمل أنك لا تخلط بين الشخصيات».

- «أوه لا يا سيد آنجيلو، لقد كنت أتجاذب أطراف الحديث مع بعض الخدم، وأخبروني بقصص لن تصدقها. يقولون إن لديه ميلاً للفتيات الصغيرات. تخيل عجوزاً مثله يفعل شيئاً مقرفاً كهذا. وهناك شيء آخر ...» توقف قليلاً واتسعت ابتسامته ثم قال: «يقولون إنه يترك أظافره تنمو بإفراط لدرجة يستحيل مصافحته دون أن يغرز أظافره بيدك. هل يمكنك تخيل هذا؟!».

قال السيد ويليامز باستهجان: «أنا مندهش من اختيار صاحبة الجلالة التواصل معه، حتى لو كان ابن عمها، تعرفون مدى دقتها فيما يتعلق بالسلوك الصحيح والإخلاص الزوجي».

فقال السيد فيلبس: «حسناً، أنا سعيد لأن صاحبة الجلالة ستذهب إلى هناك وليس علينا إطعامه. كم أتمنى وضع جرعة كبيرة من المُسهل في طعامه».

- «أنا مصدوم بك يا سيد فيليبس!»، قال السيد آنجيلو. وتوقف عن الحديث لهنيهة ثم انفجر كلاهما ضاحكين، «لن يتمكن من فتح باب الحمام بأظافره الطويلة تلك».

وانخرطنا جميعنا في الضحك.

- «هل تعتقدون أن أفراد العائلة الملكية جميعهم غريبو أطوار بصورة أو بأخرى؟»، سألنا جيمي، «وهل تظنون أنهم يسيئون التصرف لمجرد أنهم يستطيعون ذلك؟»».

- «يجب أن أشير إلى أن صاحبة الجلالة هي خيرُ مثال على اللياقة»، قال السيد ويليامز وهو ينظر إلى جيمي بحدة، «وأنا متأكد من أن بناتها مثلها أيضًا».

لم أذكر شيئًا عن الأميرة هيلينا، لكن جيمي يصعب إسكاته: «كان لديها رفيق اسمه جون براون بقي معها لمدة من الزمن، أليس كذلك؟ والآن لديها ذلك الهندي الذي يرافقها في كل مكان. هذا ليس طبيعيًا، أليس كذلك؟».

قال السيد آنجيلو: «ليس ثمة ما هو مريب في علاقتهما. هو ثعبان ماكر يلعب على إحساسها بالوحدة ورغبتها بالاهتمام، وهي تحب تواجد الشباب حولها، وتحب الغرابة. وإلا لماذا برأيك تسافر مع زماري القربة الجبليين بينما كان بإمكانها إحضار جنود عاديين لحراستها؟ لكن علاقتها معهم ليست سوى علاقة عاهل بتابعه، أنا متأكد من هذا».

- «سأخبركم مَنْ أيضًا ينرفزني»، قال جيمي،

«الكونت فيلي».

قال السيد آنجيلو: «أتفق معك أن سلوكه غير مقبول، لكني لا أعرف لماذا يقلقك ذلك».

- «أنا لا أتحدث عن عبثه بالطعام»، قال جيمي، «خرج من غرفة الطعام بعد عشاء الليلة الماضية وطلب مني الصعود لأراه في غرفته لاحقًا. حسنًا، لست وليد البارحة يا سيد آنجيلو، لقد فهمت مغزى طلبه هذا، لذا اعتذرت له وقلت إن عليّ العودة إلى المطبخ لأغسل الأواني والأطباق».

- «أنت محق يا ولدي»، قال السيد آنجيلو، «علينا نحن الخدم أن نحترس على الدوام، لا نعرف متى وأين نتعرض للتحرش والإساءة». ونظر إليّ وتذكر بوضوح أني أخبرته عن أمير ويلز.

كان هذا الموضوع يشغل تفكيري عندما صعدت إلى غرفتي، وكتبت ملاحظة إلى جايلز ويفرلي. لقد قال السير آرثر بيغ أننا فريسة سهلة. هل هكذا رآني جايلز ويفرلي؟ وماذا لو توقفت عربته عند الفيلا ودعاني للدخول، هل أدخل؟ وكيف يمكنني الرفض؟! لكن الحياة ستكون مملة إذا رفضت كل ما قد يمثل خطراً.

وهكذا، أمسكتُ قلمي وكتبتُ له أنني سأكون متفرغة في مساء اليوم التالي، وبأنني سأنتظر عربته عند مدخل الفندق. لم أرغب أن يراني أحد أصعد في عربة مع رجل غريب بلا شك!

ثم وبالطبع، باغتني السؤال: ماذا سأرتدي؟ لن أجلس في العربة وأنا أرتدي بلوزتي القطنية قطعًا. تساءلت إذا كان فستاني الجديد جاهزًا الآن، أم أن والدة كلوديت وجدت أنه من المستحيل خياطة فستان من هذا القماش. كيف سأعرف؟ لجأت إلى حيلة صغيرة.

- «بما أننا سنقدم عشاءً باردًا لأفراد القصر الملكي، هل تسمح لي بالذهاب صباح غد إلى السوق لشراء الفواكه والخضروات اللازمة لإعداد السلطة؟ فهي طازجة أكثر هناك».

رفع السيد آنجيلو حاجبه وقال: «إذا صدق حدسي، فأنا أظن أنكِ ستقابلين صبيًا يعجبكِ في السوق».

امتقعت خجلاً وتذكرت لقائي بالشيف لوبان لكني قلت: «أوه، لا يا سيدي، قطعًا لا. لكن أعترف أنني استمتعت بأجواء السوق، والأزهار بألوانها الزاهية، وسأذهب بلا إفطار كي لا أعطلك».

- «حسناً إذًا»، وأخرج قطعة نقود معدنية من جيبه وقدَّمها لي وقال: «أنتِ فتاة طيبة، وتعملين بجد. مَنْ أكون لأحرمكِ من هذهِ المتعة الصغيرة؟ اشتري لنفسكِ زهرة ربيع وأنتِ هناك».

- «شكرًا لك أيها الطاهي». وابتسمتُ له بابتهاج.

نهضت أبكر من المعتاد في صباح اليوم التالي، ولسوء حظي، كان الجو باردًا يتخلله تساقط رذاذ مطر. هذا قد يُفسد خطتي للتنزه بالعربة، على افتراض أنها عربة مفتوحة كحال أغلب العربات هنا. تعلمت ألّا أعتمد على التروّي، وبدأت السير، وقابلتُ العديد من الحرفيين في طريقهم إلى العمل، وحتى في هذهِ الساعة، عندما كانت الشمس قد بزغت للتو، ولكانت تُرى لو لم تحجبها السحب الكثيفة، كان السوق مكتظًا بالناس.

تسوقت أولاً، واخترت خضروات مختلفة، والليمون الهندي والتفاح والبرتقال لسلطة الفواكه. وكنت على وشك الذهاب إلى والدة كلوديت عندما رأيت الشيف لوبان. كان يقف عند كشك مليء بأشياء لم أميزها: كرات ترابية قذرة، وما يشبه قطع الروث. ولم يخطر على بالي قطُّ ما هي، وفيمَ قد يستخدمها. تغلب عليّ الفضول

أخيرًا فقلت: «عفوًا يا شيف».

استدار، وسرني أن أرى السعادة بادية عليه: «أرى أن الآنسة قد استيقظت مبكرًا! تهانيَّ. هل تبتاعين السمك اليوم أيضًا؟».

- «لا، اشتريت اليوم مكونات السلطة. فالملكة ستخرج اليوم، وسيتناول أهل قصرها عشاءً باردًا».

- «آها». وهزّ رأسه.

- «هل لي أن أسألك ما هذهِ الأشياء؟».

- «أنواع مختلفة من الفطر. ليس لديكم فطر في بلدكِ؟».

- «بلى، لكن الفطر الذي لدينا من النوع المدور، والمسطح. ولا شيء كهذا»، وأشرت إلى أجراس صغيرة بلون برتقالي فاتح، بدت مميتة بالنسبة لي، وقلت: «هل جميعها صالحة للأكل؟».

- «لن أقدمها لضيوفي ما لم تكن كذلك. هذا فطر الشانتريل «الإناثية»، طعمه رائع. وهذا فطر عيش الغراب البنّي»، وأشار إلى مجموعة سيقان بيضاء رقيقة، «وهذا نسميه فطر البوليطس، وهذا فطر البوق الملكي وهذا فطر الموريلس - لكن لا ينبغي عليكِ أبدًا جنيه بنفسك - فالموريلس السام

يشبهه تمامًا وقد يكون قاتلاً. جربي الشانتريل، يجب أن تطبخيه للكتكِ، ستحبه».

- «لكن هذا الشيء الذي ستشتريه. كيف يمكن للمرء أن يطبخه؟». بدا وكأنه كرة ترابية قذرة.

قلب عينيه وقال: «هذا يا حبيبة قلبي قيمته تساوي بالغرام أكثر من قيمة الذهب. إنه كمأة. أليس لديكم كمأة؟».

- «لا».

- «إذًا اسمحي لي بإعطائكِ بعض المعلومات. الكمأة فطر ينمو على جذور بعض أشجار البلوط تحت الأرض. ولا يمكن العثور عليه إلا بواسطة كلاب مدربة خصيصًا لهذا الغرض، أوه، والخنازير إذا تمكنتْ من الوصول إليها. نكهته مختلفة ولذيذة. نصنع منه زيت الكمأة للطبخ، أو نستخدم كمية قليلة لرفع جودة الطبق. سأدعكِ تتذوقين لقمة منه الليلة، وسترين، لقمة صغيرة فحسب. هل تفهمين. أغلى من الذهب، إيه؟».

- «شكرًا لك. سآخذ بعضًا من هذا الفطر البرتقالي، أسميته شانتريل؟ وسأجربه على الغداء».

ناول الشيف لوبان قطعة كمأة إلى البائع الذي

وزنها بدوره وذكر سعرًا خياليًا. وانتظر حتى اخترتُ فطر شانتريل جيد وقال: «هل ستعودين إلى الفندق الآن؟ إذا انتظرتِ قليلاً، يمكننا العودة سيرًا معًا».

- «لديَّ مهمة أخرى في المدينة. سأراك في الفندق»».

- «أفهم»».

أردت أن أقول «لا، لا تفهم»، لكنني قلت عوضًا عن ذلك: «لدي حقًا مهمة أخرى». يمكنني أن أرى أنه اعتبرها بمثابة رفض. لمَ يجب على الرجال أن يكونوا بهذا التعقيد؟

- «مدموزيل»، قال بعد تفكير، «يمكنكِ شراء الفطر من هذا الكشك. أعلم أنهم ينتقون فطرهم هنا بحذر وأمان، أما باعة الفطر الآخرون ليسوا حذرين تمامًا، ويمكن أن يقتلك فطر سيء بسرعة كبيرة»».

قلت: «شكرًا لك على النصيحة يا شيف. سأشاهد كيف تطبخه الليله».

- «ممتاز». أومأ لي وانحنى باقتضاب ثم سار في الاتجاه المعاكس.

شققت طريقي إلى المنزل الذي تشبث بحافة تل

القلعة. أعلم أنه لا يزال الوقت مبكرًا للزيارة، لكن والدة كلوديت خرجت من باب منزلها، بينما كنت أقترب، توقفت وابتسمت عندما رأتني.

- «أوه، إنها الشابة الإنكليزية. تساءلتُ متى ستعودين من أجل فستانك».

- «هل انتهيتِ من خياطته؟».

- «قد أضطر إلى إجراء بعض التعديلات الطفيفة، لكنني لا أعتقد ذلك. فأنا أخيط الأثواب منذ مدة طويلة كافية لتكون قياساتي صحيحة عادة، إلا إذا كنتِ تأكلين كثيرًا في الأيام القليلة الماضية».

- «أوه لا يا سيدتي». وضحكت.

- «تعالي إلى الداخل». وفتحت الباب لأدخل.

سألتها: «ألم تكوني في طريقك إلى مكان ما؟ لا أريد أن أعطلكِ».

- «يمكنه الانتظار. خرجت لشراء الخبز فحسب. تعالي». وأدخلتني إلى غرفة صغيرة مظلمة.

- «ما رأيك؟».

كانت دمية الخيّاطة ترتدي فستانًا جميلاً جدًا.

قلت بحزن: «لكنه ليس فستاني».

- «إنه فستانكِ، جربيه».

- «لكن لا ... فقماشي كان أزرق مخضر بسيط».

- «لم يكن قماشك قويًا كفاية ليصبح فستانًا كاملا. لاحظي أنني استخدمته لبطانة التنورة والأكمام».

أمسكت التنورة. كان القماش الآخر ذو لمعة ومزين بتصميم زهرة باللون الأزرق الملكي والذهبي: «لكن بقية القماش؟ إنه جميل».

- «بالفعل. المركيزة هي من أحضرته لي، لديها ذوق جيد».

- «لا يمكنني استخدام قماش سيدة أخرى». قلت بتلعثم.

ضحكت ضحكة واسعة أظهرت فمًا ينقصه العديد من الأسنان وقالت: «تجلب لي النسوة الثريات قماشًا كثيرًا، ويتبقى الكثير منه عادة، ولا يكترثن له. وعندما أقول لهن: ماذا تريدين أن أفعل بالقماش المتبقي؟ تقول: ما يحلو لكِ. أنا سعيدة بفستاني ولا أحتاج القماش المتبقي».

خلعت الفستان عن الدمية وهي تتحدث، ثم ساعدتني على خلع بلوزتي وتنورتي، ومررت

الفستان من فوق رأسي. كان مقاسه مثاليًا، ضيق عند الخصر كما لو أنني أرتدي مشدًا. وتقويرة الفستان أنيقة ومحتشمة كما يناسب شخصًا في موقعي. استدرت لأرى نفسي في المرآة القديمة المبقعة وقلت: «رائع».

ابتسمت كما لو أنها كانت تؤدي خدعة سحرية من أجلي وقالت: «إن خياطة فستان لفتاة جميلة مثلكِ أمر يستحق الجهد. ستخبرين أصدقائك أن فرانسين دوبوا تصنع ملابس جيدة، أليس كذلك».

- «سأفعل». وأسِفتُ لأنني لا أملك أصدقاء أخبرهم بذلك.

وما إن خلعته حتى لفّت الفستان في مناديل ورقية، ودفعت لها مبلغًا متواضعًا. وبعد حسبة سريعة أدركت أن عليّ إنفاق جزء من راتبي لشراء المزيد من الملابس، بما أن لديّ خياطة موهوبة تحت تصرفي فقلتُ لها: «أود أن تصنعي لي المزيد من الملابس. ماذا تقترحين، ومن أين أشتري القماش لتكون جودته أفضل؟ فأنا لا أعرف شيئًا».

ربتت على يدي وقالت: «دعيني أرى ما يمكنني فعله من أجلكِ. تعالي بعد أسبوع، وسيكون لدي

شيء من أجلكِ تقيسينه».

لم أستطع أن أشكرها كفاية، وأعتقد أنني طفت من فرحتي على طول الطريق إلى أعلى التل.

وبحلول منتصف النهار، انقشعت الغيوم وأشرقت الشمس من بينها. ويبدو أن السيد آنجيلو كان يعرف فطر الشانتريل من قبل، فقد طبخه في مناسبات سابقة في الوطن. طبخه بقليل من الزبدة وقدّمه طبقًا جانبيًا على الغداء، و سمع ردًا من الملكة بأنها سعيدة للغاية لأنه وجد الفطر البرتقالي الصغير مرة أخرى.

قال لي: «لديكِ عين جيدة يا فتاتي».

- «وسيعلمني الشيف لوبان كيف أطبخ الكمأة اليوم»».

- «يبدو أن هذا الشاب الفرنسي بدأ يألفكِ ويتصرف بحميمية معكِ. لو كنت مكانكِ لأخذتُ حذري»».

- «إنه سعيد لأنني اهتممتُ بطبخه فحسب»».

- «أوه، هل هذا ما يقوله لكِ؟»، وتوقف قليلاً ثم أضاف، «إنه رجل وسيم، لكنه أجنبي، وكنتِ ومازلتِ مصانة كل حياتك، لا تدعي الموضوع يتجاوز الطهي، مفهوم؟»».

- «بالطبع».

بدا عالمي وكأنه مليء بالرجال ذوي النوايا الحسنة فيما يتعلق بعفتي.

الفصل الثالث والعشرون

وما إن انتهت وجبة الغداء حتى هرعت إلى غرفتي، وغسلتُ نفسي بعناية لأزيل كل روائح الطبخ العالقة، ثم رششت ماء الورد وارتديت فستاني الجديد. أحمد الله لأن مدام دوبوا جعلته يُربط من الأمام. لا بد وأنها خمنت أنني لا أملكُ خادمة لتربط الخطافات من الخلف. مشطتُ شعري وربطته بعناية، وهممتُ بوضع وشاحي على كتفي، لكنني لاحظت أنه رث نفلعته، وفضّلت أن أتجمد بردًا على ارتداءه. ثم نزلت السلالم، وتسللت حول الجانب الآخر من المبنى، حيث ينزل الضيوف العاديون - أو بالأحرى الضيوف غير الملكيين، لأن الأسعار هنا باهظة جدًا بالنسبة للأشخاص العاديين - ثم شققت طريقي بنجاح عبر الحدائق وخرجت إلى البوابة الأمامية. ولم أنتظر طويلاً حتى بانت عربة تتجه نحوي. كانت عربة مفتوحة مثل أغلب العربات التي رأيتُها هنا، وهي عربة خفيفة بعجلتين يجرها حصان كستنائي جميل. وكان جايلز يمسك باللجام بنفسه، وشعره الأشقر الضارب على الحمرة يتطاير في النسيم. لقد بدا مظهره فاتنًا في الواقع. أوقف الحصان بجانبي وقفز من العربة وقال:

- «حسنًا، يا لها من متعة! مرحبًا يا بيلا. لطفٌ كبير منكِ الموافقة على الذهاب معي في نزهة. تبدين رائعة الجمال»، وساعدني على الصعود والجلوس على المقعد الجلدي ثم قال: «اتضح أنّه يوم جميل لنزهة سريعة، لقد شعرت باكتئاب شديد هذا الصباح عندما رأيت الطقس، لكنه تحسن تحسنًا ملحوظًا».

كان يفعل ما نفعله نحن الإنكليز عادة عندما نكون محرجين نوعًا ما ولساننا معقود. نتحدث عن الطقس.

- «ويبشر بأمسية لطيفة». قلت موافقة.

- «أجل بالفعل». قال بحماس، وأدركت أنه لا يتحدث عن الطقس.

شققنا طريقنا ببطء في الجزء المنحدر من التل، ثم استدرنا خلف المدينة القديمة ووصلنا إلى مرفأ صغير، حيث كانت قوارب الصيد تتمايل عند المراسي والصيادون يصلحون شباكهم. وعلى الجانب الآخر، بدأ الطريق في الصعود مرة أخرى، وهذهِ المرة عانق جرفًا بجانب البحر، وأسفلنا كان هناك بقعة مياه زرقاء مذهلة، وعلى يسارنا ارتفع سفح التل بحدة، بدأت الفيلات وحدائق متفرقة بالظهور هنا وهناك، ووصلنا عند

المنعطف، فشهقت! واتسعت ابتسامة جايلز كما لو أنه وضع هذا المشهد خصيصًا من أجلي. كان الخليج الضيق تحتنا، وهذهِ المرة، كانت القوارب المتمايلة يخوتًا جميلة وضخمة، انخفضت التلال الخضراء بحدة من جميع الجوانب، وانتشرت فيلات باستيلية هنا وهناك، محاطة بصفوف من أشجار السرو الداكنة أو أشجار النخيل العالية، والتصقت بلدة صغيرة بجانب التل وأسفلنا كان هناك ميناء مزدحم.

تبادلنا المجاملات على طول الطريق: كيف كنت أستمتع بوقتي في نيس حتى الآن، وإذا كنت قد حضرت أي حفلات أخرى، وما هو رأيي بالطعام الفرنسي. وفي الغالب كان جايلز يتحدث عن الأماكن المهمة، كما فعل ذلك الآن: «هذهِ هي بلدة فيلفرانش سور مير وهي ميناء مجاني. فقد ساعدت الملك الفرنسي ذات مرة لصد القراصنة أو الإيطاليين أو شيء من هذا القبيل، والآن ليس عليهم دفع أي ضرائب».

- «كم هو ملائم!». قلت، وأضحكته.

- «أعترف أن الفكرة تروق لوالدي، ولي أنا أيضًا. فرسوم انتقال الملكية على ممتلكاتنا ستكون معيقة بعد موته. وأتمنى أن أتمكن من المحافظة

عليها»، وهز كتفيه بلا مُبالاة وتابع: «مثل أغلب الرجال في مكانتي، أنا لا أنفع لأي شيء آخر».

فكرت في والدي الذي أُرسل إلى الجيش في الهند - مهنة لم يعتد عليها إطلاقًا - ثم أصبح رهن إشارة الضيوف في سافوي. لا بد أنه عانى وهو يعلم، لو أن ترتيب الولادة كان مختلفًا، لعاش حياة مرفهة، تمامًا كما عانيت عندما وجدت نفسي خادمة لعائلة حديثة العهد بالثراء. كم رغبت في إخبار جايلز بالحقيقة، يا تُرى ما مدى اكتراثه عندما يعرف؟ لكن لا يمكنني المجازفة. لو زل بكلمة واحدة في الوقت الخطأ للشخص الخطأ، سيصل الخبر إلى إكسلسير ريجينا وسيطردونني.

وعوضًا عن البوح بالحقيقة، تجاذبتُ معه أطراف الحديث بمتعة ونحن نطوف جانب الخليج.

قال: «هذا الطريق سيأخذنا إلى سان جان كاب فيرا. فيه الكثير من الفيلات الجميلة، والأموال الطائلة، روتشيلدز وأمثاله، وقد اشترى ذلك الشيطان العجوز، الملك ليوبولد، كل الممتلكات التي يمكنه وضع يده عليها. أفترض أنكِ قابلتِه؟».

- «لم أفعل، لكن الملكة ستتناول العشاء معه هذا المساء».

- «يقولون إنه بغيض للغاية ولديه عادات فاسدة، لذا، من حسن الحظ أنكِ تمكنتِ من تجنبه حتى الآن. لكنني أفترض أنكِ قابلتِ أمير ويلز؟».

- «أوه نعم»، قلت بشدة أكثر مما قصدت، «قابلت أمير ويلز».

تابع جايلز: «أشعر بالأسف على الرجل. أعني، كونه عالق في انتظار موت والدته، وليس له دور حقيقي في الحياة. وفي الواقع أفترض أنني مثله تمامًا، ليس لدي دور حقيقي أيضًا، ووالدي لا يسمح لي بتولي إدارة أيٍّ من عقاراته، فهو يعتقد أني سآتي على الأخضر واليابس وأضيع كل شيء بعد موته. وأخشى أنه لا يحترمني، وأشعر بخيبة أمل إلى حد ما».

- «لماذا؟».

- «أوه، لا أعرف. فأنا أفضّل الفن على الصيد، وكرهت المدرسة الداخلية، ولست جيدًا في رياضة الرُكبي. وهو يعتقد أنني ضعيف الجسم، لكنني لست كذلك، كل ما في الأمر أنني لستُ مثله. فهو ينحدر من عائلة متنمرين. في الواقع، يجب أن يكون الابن الأكبر متنمرًا».

- «وأنت ابنه الأكبر؟».

- «ابنه الوحيد. والوريث الوحيد، وأعدك بأنني لن أكون متنمراً أبداً، ولا حتى على كلبي. لا سيما على كلبي».

التقت عينه بعيني وابتسم. أظن أنني معجبة به، فهو طيب ونبيل. ثم ذكرت نفسي أن هذا لا يمكن أن يزيد عن حده. نزهة عربة ممتعة في مساء لطيف، وهذا كل شيء.

واصلنا المضي قدمًا بدل أخذ الطريق المؤدي إلى كاب فيرا، وانحدرنا نحو خليج صغير ساحر محاط بأشجار النخيل. أوقف العربة هناك وأشار إلى صبي يتسكع في الجوار، وقال له بلغة فرنسية ليست سيئة كما يدعي: «إذا راقبت الحصان، سأعطيك بقشيشًا جيدًا».

أجاب الصبي بحماس: «بالتأكيد يا سيدي». وذهب للوقوف قرب رأس الحصان.

ساعدني جايلز على النزول، وسرنا في حديقة صغيرة حتى خرجنا إلى الشاطئ. كان ثمّة ميناء صغير آخر على أحد الجوانب، ورصيف حجري ومنحنى مثالي من الرمال الصفراء الشاحبة حول الخليج.

- «أترين؟»، قال وهو يمسك يدي لننزل سلم من الدرجات الحجرية، «ليس مثل شاطئ نيس الفظيع على الإطلاق، تعيقكِ الأحجار، والانحدار الحاد ما إن تدخلي الماء. هنا يمكنكِ الوقوف في الماء أو الطفو، كما يشاء قلبكِ. هل تعرفين السباحة؟"

- «لم تسنح لي فرصة تعلم السباحة للأسف».

- «مؤسف».

وبدأنا السير على الرمال. كانت تجربة رائعة بالنسبة لي، شعرت بنعومة الرمل تحت أقدامي.

- «حسب معلوماتي، تحب الملكة السباحة متى ما سنحت لها الفرصة»، قال جايلز، «أنا متفاجئ من كونها لم تدعُ عائلتها الملكية للانضمام إليها. قد يكون مضيعة للوقت في بداية العام، لكني أؤكد لكِ، أنه سيكون رائعًا بغضون شهر أو اثنين. يجب أنَ تجربيه. سأعلمكِ إذا أحببتِ».

- «لكنني لا أملك زي سباحة حتى».

- «أجزم أن الخياطة المحلية يمكنها صنع زي سباحة لكِ من الآن وحتى أبريل. ستحبينه. الماء بارد في الربيع، لكنه منعش. يشعر المرء بتحسن كبير وهو مغمور في المياه المالحة».

- «كنتَ هنا من قبل، أليس كذلك؟».

- «مرتين. أقنا في مينتون مرة في ڤيلا مستأجرة، ومرة أخرى في كان، لكن هذا المكان بالتأكيد هو الأفضل. يفكر والدي في شراء ڤيلا هنا. وبطبيعة الحال، أنا أشجعه».

مشينا على طول حافة الماء، واندفعت الموجات الصغيرة نحو أقدامنا، ثم انحسرت، لكن الخليج كله كان هادئًا بشكل ملحوظ. فسألته بعفوية: «هل والدتك معك؟».

اكفهر وجهه وقال: «ماتت عندما كان عمري ستة أعوام فقط. كانت تنتظر مولودًا آخر، ولم تسر الأمور على ما يرام. كانت لطيفة ورقيقة، وكانت تحب أن تجلسني على ركبتها وتقرأ لي القصص. ما زلت أفتقدها، أليس هذا غريبا؟».

- «ليس غريبًا على الإطلاق. فقد ماتت والدتي عندما كنتُ طفلة، وأنا ما زلتُ أفتقدها بكل تأكيد».

- «هل لا يزال والدكِ على قيد الحياة؟».

- «لا، مات هو الآخر. لدي أخت متزوجة، ولكن بصرف النظر عن ذلك، ليس لدي أحد».

- «آه، لهذا السبب وُضعتِ تحت وصاية الملكة.

تصرف حكيم جداً».

لم يكن العمل في مطبخها كمن يوضع تحت وصايتها: «أنا أعمل لكسب رزقي، كما تعلم». شعرت بضرورة ملحة لتوضيح الموضوع.

- «بالطبع أنتِ كذلك، فالملكة مشهورة بكونها ربة عمل ظالمة. أنتِ لستِ واحدة من الوصيفات اللواتي تبقين حتى الواحدة صباحاً، أليس كذلك؟».

- «لا، لا شيء من هذا القبيل. ستكون كارثة»، وابتسمت، «لأنني أشعر بالنعاس عند العاشرة».

- «الملكة فريدة من نوعها، أليس كذلك؟»، قال جايلز، «تكاد تبلغ الثمانين عاماً وما زالت تسهر حتى منتصف الليل تتسلط على رئيس وزرائها، وتثبت يديها بإحكام في خاصرة الإمبراطورية»، ونظر بسرعة، «بالحديث عن الخاصرة، لا يفترض بي ترك حصاني في عهدة ذلك الصبي لفترة طويلة».

ألقيتُ نظرة مكرهة إلى الوراء ونحن نترك الشاطئ، ولا بد وأن جايلز كان يشعر بالمثل لأنه قال: «ربما سنرتب نزهة في الهواء الطلق في المرة

القادمة. إذا وافقتِ على مرة قادمة طبعًا».

ترددت مرة أخرى ثم سمعت الكلمات تخرج من فمي: «بالطبع. يسعدني التنزه معكِ مرة أخرى».

توهج وجهه فرحًا وقال: «ممتاز. أنا سعيدٌ جدًا، تجدني أغلب الفتيات اللواتي ألتقي بهن مملاً نوعًا ما، أخشى أنني لستُ مندفعًا كبقية الشباب».

- «أوه، أظن أن الاندفاع سيكون صعبًا جدًا على المدى البعيد». قلت هذا وضحك.

- «هناك محل حلويات صغير رائع في بوليو. ما رأيكِ في احتساء فنجان من القهوة معًا وتناول بعض المعجنات قبل أن نعود، إذا كان عليكِ العودة طبعًا؟».

- «عليَّ أن أعود حقًا. فقد حصلت على إذن لقضاء فترة بعد الظهيرة فقط».

- «حتى عندما تتناول الملكة طعامها في الخارج؟».

- «أخشى أن الأمر كذلك. في الحقيقة، إنهم صارمون للغاية مع الفتيات غير المتزوجات في المنزل».

- «بالطبع. أفهم. ولكن ما رأيكِ ببعض

المعجنات؟».

- «لن أقول لا للمعجنات. فقد فتح هواء البحر شهيتي للطعام».

ابتسم مرة أخرى كما لو أنني أعطيته هدية. وعدنا إلى العربة وانطلقنا إلى البلدة الصغيرة. ووجد جايلز أحدًا ليعتني بالعربة والحصان مرة أخرى، وتمشينا عبر شارع صغير إلى محل المعجنات.

كانت الكعكات والمعجنات المعروضة مبهرة، ومصنوعة بطريقة معقدة. اخترت كعكة مغطاة بالشوكولاتة والبندق المكرمل ولفائف الشوكولاتة فوقها. واختار جايلز بابا روم. فسألته: «ما هذا؟».

- «تشبه الكعكات المقلية، لكنها منقعة بشراب الرَّم، طعمها لذيذ جدًا. هل أنتِ متأكدة أنكِ لا تريدين تذوق واحدة منها؟».

- «لا أريد شراب الرَّم في وضح النهار. شكرًا لك».

- «أوه لا. بالطبع لا. لا يمكنكِ العودة ورائحة الكحول تفوح من فكِ، أليس كذلك؟».

- «ربما ليست فكرة جيدة».

كنّا نضحك عندما أخذنا معجناتنا لنجلس على طاولة صغيرة، وجلب لنا صاحب المحل

القهوة بالحليب. كان طعم المعجنات لذيذًا للغاية. وددت أن أطلب الوصفة، لكنه سيكون تصرفًا وقحًا. وعندما ألقيت نظرة سريعة على المعجنات المعروضة على المنضدة الزجاجية، أدركتُ كم عليّ أن أتعلم. يمكنني صنع حلوى مقبولة، لكني ما زلتُ أفتقر إلى مهارات الترتيب والعرض. وعقدت العزم على أن أتعلم أفضل ما يمكنني تعلمه عن المعجنات خلال فترة بقائي في فرنسا. ثم توقفت قليلاً لأفكر في مدى شغفي بهذا الأمر. هل حقًا أردت أن أصبح طاهية؟ حتى لو عرضت علي احتمالية الزواج؟ ألقيت نظرة خاطفة على جايلز الذي لا يزال يأكل بابا روم وجربت فكرة أن أكون «زوجة الفيكونت فيفرشام».

- «يجب أن تأتي إلى الكازينو يومًا ما». قال جايلز عندما غادرنا المقهى وتوجهنا نحو إكسلسير ريجينا.

- «أي المباني هو الكازينو؟».

- «لا بد وأنكِ لاحظتِه. المبنى الذي يقع على رصيف الميناء وفيه قبّة زجاجية. إنه مكان ممتع حقًا ورسمي بسخافة، لن يسمحوا لكِ بالدخول إلا إذا كنتِ ترتدين ملابس مناسبة. سمعت أنهم

طردوا اللورد سالزبري لأنه لم يكن يرتدي ملابسًا لائقة»، وقهقه ثم قال: «هل يمكنكِ تخيل أن يُطلب من رئيس الوزراء المغادرة؟».

- «لا أظن أنهم يعرفون أنه رئيس الوزراء، فهو لا يبدو جليلاً. أليس كذلك؟».

- «لا، هل رأيتِه يتجول في بوليو وتلك القبعة القديمة التي لا شكل لها على رأسه؟ قد يحسبه المرء متشردًا! أتساءل لِمَ لا تطلب الملكة منه ترتيب نفسه؟! فهي عادةً ما تتمسك بمَنْ يليقون بمقامهم. هل صحيح ما يُقال عن ذلك الرجل الهندي الذي يعيش معها؟».

- «ما هو الصحيح؟».

- «أنه ... أكثر من مجرد خادم، كما تقولون؟».

- «هل تلمح إن علاقتهما غير ملائمة؟ هي في السابعة والسبعين كما تعلم. ولقد قيل لي إنها تحب تواجد الشباب الوسيمين حولها».

- «لكن هناك كلام يُقال، سمعته في حفلة الليدي ماري. يقولون إنه يعتبر نفسه أحد رجال البلاط المحترمين، بينما في الواقع أرسلوه لها خادم مائدة».

- «أنت محق تمامًا في هذا، ثمّة الكثير من

السخط وعدم الرضا. فقد هدد جميع سادة القصر الملكي بالاستقالة إذا جاء إلى هنا مع الملكة. لكنهم تراجعوا للأسف، وهو هنا، يحاول السيطرة على الجميع».

- «والملكة تسمح بذلك؟».

- «لا تسمع أي كلام يقُال ضده، فقد رفع الكلفة معها وأصبح رفيقها طوال الوقت، بينما يتصرف بحقارة مع الجميع عداها، ويطلب أن يطبخ له طعام خاص به، ويركب في عربة وحده بينما يحشر السادة الحقيقيون جميعهم في واحدة».

- «أتساءل أين سيؤدي هذا؟»، قال جايلز، «أنا متأكد من أن أحدهم سيحاول فعل شيء حياله».

فأجبته: «أعتقد أنهم يحاولون ذلك». بصورة أو بأخرى، فكرت في سري لكنني لم أتفوه بالكلمتين الأخيرتين.

قال جايلز عندما عبرنا الطريق الساحلي وانحدرنا إلى نيس: «لقد قضيتُ فترة ما بعد الظهيرة رائعة معكِ. أتمنى أن نكررها قريباً، أو ربما يمكنكِ الهرب مساءً لنتناول وجبة عشاء في مكان ما؟ هناك مطعم صغير مثالي على صخرة، محاط بالماء.

أتوق لتجربته».

قُرعت الأجراس في رأسي، هذا جنون، لو اكتُشف أن جايلز يتودد إلى خادمة، فمن المحتمل أن أُطرد، ويقع جايلز في مشاكل مع والده. لا أعرف كثيرا عن الرجال، ربما كنت وسيلة لقضاء فترة ما بعد الظهيرة ممتعة فحسب، وربما يستمتع بمرافقة فتيات كثيرات في نزهة، وقد تكون لديه زوجة تنتظره في لندن، لا يمكنني المخاطرة من أجل شيء قد لا يؤدي إلى أي مكان، توقفت وأنا في منتصف فكرتي. هل أريد أن يؤدي هذا إلى مكان؟ رمقته بنظرة سريعة، كانت ملامح وجهه سمحة وهو لطيف وممتع. وعلي الاعتراف أن فكرة كوني الليدي فيفرشام، وتصحيح الخطأ الذي طال والدي، كانت مغرية للغاية، لكنني كنتُ أستبق الأحداث لا أكثر.

أنزلني جايلز خارج الفندق، وشكرته على هذه الأمسية الجميلة، وقال إنه من يشكرني وسيتطلع بلهفة ليراني مرة أخرى عندما تسمح الملكة بذلك.

- «أرسلي لي رسالة فحسب. سأنتظركِ بفارغ الصبر».

- «لستُ واثقة من إمكانية رؤيتك مرة أخرى، لا يسمح أن نخرج في مواعيد غرامية مع

الشباب».

ضحك وقال: «لن أسمي احتساء القهوة في بوليو موعدًا غراميًا، وماذا عنكِ؟ فقد كنّا منضبطين للغاية وأنا شاب محترم كما تعلمين. يمكنكِ البحث عني في كتاب بيورك الذي يضم بين دفتيه أسماء النبلاء، نحن عائلة عريقة، وأصلنا متين»، ثم اختفت ابتسامته واعتلى القلق وجهه وقال: «ما لم تكوني غير راغبة في رؤيتي مرة أخرى، وكانت رفقتي هذا المساء مملة للغاية. لقد قيل لي أنني لستُ متحدثًا لبقًا».

- «أوه لا، لقد استمتعتُ بوقتي حقًا. لكن وضعي الحالي معقدًا إلى حد ما».

- «سنتراسل في السرّ إذًا»، وابتسم بمكر وقال: «اكتبي لي عندما تكونين متفرغة، وإذا أردت الرد، سأرسلها إلى الفندق عوضًا عن حاشية الملكة، ولن يعرف أحد شيئًا».

قفز من العربة واستدار ليمسك يدي ويساعدني في النزول، وظلَّ ممسكًا بها لحظات أطول من اللزوم، وأظن أنه كان يفكر بقول شيء أو حتى تقبيلي. فتجنبتُ ذلك بابتسامتي المشرقة وقلت: «أشكرك مرة أخرى. يجب أن أذهب الآن قبل أن يلمحني أحد ويوبخوني».

دخلتُ إلى الداخل وأنا أشعر بالحرج الشديد. لقد شجعته، وخدعته، «عندما تسمح لي الملكة! بالطبع». لا تعرف الملكة أنني هنا في نيس من ضمن حاشيتها حتى! ولن يثمر أي شيء من هذا حتى لو أردته. لكن عليَّ الاعتراف أنه من اللطيف أن أُعامَل كسيدة، وأن أجلس بجانب شاب في عربة. فكرت بأن هذا ما اعتبره والدي ووالدتي من المسلمات في شبابهما، وشعرت بشيء من الغضب والاستياء الذي ظل يطاردني منذ أن أرسلت للخدمة.

الفصل الرابع والعشرون

كانت ثمّة إثارة عظيمة في فندق إكسلسير ريجينا، فقد جاءت الممثلة الفرنسية الشهيرة سارة برنهارد لتقيم فيه، ليس مع الملكة وإنما في الفندق الأصلي. وفي الواقع، تقول الإشاعات أن الملكة لا توافق عليها بسبب أساليبها غير المنضبطة. لذلك، فوجئنا جميعًا عندما أُعلِن أن الملكة طلبت من سارة تقديم عرض خاص لها ولأسرتها في الفندق. وعلاوة على ذلك، دُعينا جميعنا، وحولت غرفة الطعام الواسعة ذات الأعمدة إلى مسرح لحفلة المساء، وأُحيط أحد جوانب المنصة بأصيص النخيل.

كان علينا نحن الخدم أن ننتظر جلوس الحاشية الملكية بأكمله لندخل. وسُمح لنا بالوقوف في الخلف.

صعدت النجمة العظيمة إلى المسرح وقدّمت مونولوجات عدّة، كلها بالفرنسية. لكنها كانت ممتازة لدرجة أن المرء لم يكن مضطرًا حتى إلى فهم اللغة. شاهدها الجمهور مذهولاً بأجمعه، وانتهت بتصفيق حار، ثم نهض شخص ما من بين الحشد لمرافقتها من على المسرح، كان أمير ويلزا بالطبع، تذكرت أنني سمعت شائعة بأنها

كانت عشيقته. وقادها إلى الملكة لتُقدم لها رسمياً، فقررت أن هذا هو الوقت المناسب لمغادرة الغرفة قبل أن يلاحظني الأمير.

«أنتِ تطرين على نفسكِ كثيراً يا بيلا»، قلت لنفسي ما إن تسللت عبر الباب الخلفي لغرفة الطعام إلى الممر الضيق المؤدي إلى المطبخ، «غازلكِ الأمير مرة واحدة. هل تتوقعين أن ينتبه لكِ بوجود سارة برنهارد العظيمة؟!». وكان عليَّ أن أضحك على غروري. كدت أصل إلى المطبخ عندما سمعت صوت رجل يناديني باسمي - الذي انتحلته بالطبع، فظننته جيمي يريد أن يقول تعليقاً ساخراً على الممثلة لكنه لم يكن جيمي، بل روني بارتون!

- «حسناً حسناً»، قال وهو يبتسم بتكلف، «ها قد التقينا مجدداً، يا آنسة هيلين بارتون». وشدّد على الكلمات الأخيرة.

- «ماذا تفعل هنا؟».

- «مثلكِ تماماً. أغتنم الفرص عندما تسنح لي».

- «أنت مع أمير ويلز؟». نطقتُ الكلمات بصعوبة.

- «أجل. وأحوالي على خير ما يرام، والشكر

موصول لكِ في الواقع. هلّا ذهبنا إلى مكان ما لنتحدث؟ لنعوض ما فاتنا ونتذكر الأيام الخوالي في يوركشاير عندما كنّا يافعين؟».

قلت بغطرسة: «لا أعتقد أن لدينا أي شيء نقوله لبعضنا».

- «أوه، بلى لدينا. أحب أن أدردش مع أحد أبناء بلدتي، وأستعيد ذكريات الأيام الخوالي قرب المستنقع».

وكانت الفكرة الوحيدة التي خطرت على بالي هي أنني لا أريد أن أصادف أي أحد من الأسرة الملكية ولا الطهاة الفرنسيين، فقد يقول روني شيئاً خاطئاً ويشي بي بسهولة، وسيستمتع بهذا. فقلت له: «تعال إلى الخارج. يؤدي مدخل الخدم إلى الجزء الخلفي من الفندق، حيث لا يمكن لأحد إزعاجنا».

«هل تشعرين بالخجل من أن يراكِ أحدهم برفقة أخيكِ المسكين؟»، قال مشاكساً.

- «سيد بارتون»، قلت له ما إن خرجنا إلى هواء الليل المنعش، «روني. لقد فعلت ما طلبته مني، وعلى ما يبدو، أنت على وفاق مع الأمير، لذا لا أفترض أنك تريد شيئاً آخر مني».

- «ربما، وربما لا. لقد كانت والدتي العجوز التي طالت معاناتها تقول دائمًا أنني جشع. وقالت إن لديّ أفكار فوق طبقتي الاجتماعية وبأنني سأهلك لا محالة. لكن المسكينة هيلين الطيبة هي من هلكت في النهاية أليس كذلك؟ أما أنا فقد حالفني الحظ».

- «هل أصبحت أحد خدم الأمير؟».

ابتسم ابتسامة واسعة وقال: «بل أفضل من ذلك بكثير. أنا سائقه الشخصي».

لن يفاجأني شيء أكثر من هذا: «سائقه الشخصي؟!».

- «أخبرتك أنني دائمًا ما أغتنم الفرصة التي تتاح لي عندما أستطيع. سمعت أن الأمير سيشتري إحدى تلك السيارات الجديدة. فذهبت إليه وأخبرته بأنني أريد أن أكون سائقه وبأني أعرف كل شيء عن محركات الاحتراق».

- «وكيف تعرف ذلك؟».

- «لا أعرف. لكنني فكرت أنني سأكون قد تعلمتُ بحلول الوقت الذي يحصلٍ فيه على سيارة من ألمانيا. وهكذا، وجدت رجلاً في لندن، علمني بعض الأشياء عن محركات السيارات،

وكنت دائمًا صاحب عقلية ميكانيكية، فتعلمت منه بسرعة كما تتعلم البطة السباحة في الماء. وحتى الجزء المتعلق بالقيادة، ما إن تبدأ الجزء المربك، حتى يصبح الأمر سهلاً للغاية، يجب معرفة كيفية تغير التروس وما إلى ذلك، ولا يمكنك السير بسرعة كبيرة لأنه يخيف الخيول عندما تصادف العربات. ولم أدهس أي شخص حتى الآن». بدأ يبتسم، ثم بدا وكأنه يتذكر ما حدث لأخته وفزع.

فقلت بأدب: «أنا سعيدة لأنك وجدت مهنتك، ووضعًا جيدًا في الحياة. والآن، إذا سمحت لي، يجب أن أعود إلى جماعتي».

- «انصتوا لما تقول! أعود إلى جماعتي. أنتِ تعطين لنفسك مكانة وتتفاخرين بكونكِ تعملين لدى الملكة، أليس كذلك؟»».

اقشعر جسدي وقلت: «لا أعطي لنفسي مكانة كما تقول. فقد ولدتُ في عائلة محترمة، ولطالما تحدثت بهذهِ الطريقة. وتذكر أنني أخبرتكِ بأنني قبل أن أُجبَر على الخدمة، ترعرعتُ منذ نعومة أظفاري على إجادة ما أفعله دومًا».

- «إما هذا أو شخص ما في القصر قد أُعجب بك»، وكانت عيناه تتحداني الآن، «أنت فتاة جميلة المظهر. من المؤسف أنك أختي، وإلا

لغازلتكِ بنفسي. وبالحديث عن المغازلة ... الأمير مستاء منكِ كثيراً».

- «مني أنا؟». خرجت الكلمات كصرير.

- «عندما أخبرك أنه سيمنحني وظيفة، وعدته أنك ستأتين لرؤية أخيكِ الأكبر. ولم تزوريني ولو لمرة واحدة».

حاولت إبقاء نغمة صوتي خفيفة وقلت: «لا أعتقد أن الأمير سيهتم بطاهية متواضعة مثلي في الوقت الذي يمكنه اختيار أي امرأة أخرى يا سيد بارتون».

- «أوه، لكنكِ مخطئة. لقد رفضتِه، وهو يحب التحدي. لقد قال لي مرات عدّة: أين أختك؟ لماذا لا تأتي لزيارتك؟ وكان علي أن أكذب وأقول أنك لا تستطيعين الحصول على إجازة. لكن هذا جيد. يمكنني أن أخبره الآن أنكِ هنا ومتاحة».

وقبل أن أتمالك نفسي، تقدمت نحوه وأمسكتُ ذراعه وقلت: «أرجوك لا تفعل هذا».

ابتسم بتصنع واضح وقال: «لا تعرفين الخير عندما ترينه! فعندما تصبحين عشيقة الأمير لفترة من الزمن، ستنتقلين إلى المجتمع الراقي، ثم عندما

يسأم منكِ يترك لكِ ثروة تكفيكِ لبقية حياتك وآفاق للحصول على زوج مناسب. وستتركين العمل في المطابخ إلى الأبد».

نظرت له بتغطرسٍ وقلت: «جسدي ليس للبيع. عندما أحب رجلاً، سأتركه يلمسني، وليس قبل ذلك يا سيد بارتون».

- «أوه، انصتوا إليها، الآنسة العفيفة، ألستِ كذلك؟».

- «لن تخبره، أليس كذلك؟ من فضلك لا تفعل»، وندمت على ما قلتُ فوراً، لأنه كان من النوع الذي يتغذى على الخوف، ثم قلت: «على كل حال، سارة برنهارد العظيمة هنا الآن. وسيكون انتباهه مخصص لها فقط».

- «إنها من أخبار الأمس، وهو يحب عشيقاته صغيرات وجديدات، الأمير مسكين، ليس لديه ما يُسعده، أليس كذلك؟ لا وظيفة، ولا شيء يفعله سوى تسلية نفسه. لن تشاركه والدته أية مسؤوليات، ولن تسمح له في تولي الشؤون الخارجية أو الاجتماعات الحكومية، فهي تعتقد أنه ضعيف وسيصبح ملكًا سيئًا، لذلك تنوي الاستمرار في العيش لأطول فترة ممكنة».

- «ألا تعتقد ذلك أنت أيضًا؟».

- «من وجهة نظري، سيصبح ملكًا جيدًا، فهو ليس غبيًا كما تعلمين، ويحسن التعامل مع الناس. وعندما يصبح ملكًا، سيكون هذا أفضل بالنسبة لي»، ثم اقترب مني أكثر مع أننا كنّا وحيدان في الظلام، «بيني وبينك، يظن أن والدته العجوز بدأت تفقد عقلها، وبدأت تخرف».

- «أوه، لا أعتقد ...»، بدأت حديثي لكنه قاطعني: «ذلك الرجل الهندي، المُنشي، إنها مغرمة به، أليس كذلك؟ وهل تعلمين ماذا سمعنا؟ إنها تعرض له أوراقها المهمة، أوراقًا سرية، وأشياءً لا تشاركها حتى مع ابنها. لقد تحدث الأمير إلى الأطباء حول حصوله على شهادة تفيد بأنها مجنونة، وأنها لا تصلح لاتخاذ قرارات تخص سلامة بلدنا».

- «يبدو أنك تعرف الكثير عمّا يقوله الأمير أو يفكر فيه، ولا أتوقع أنّه يناقش أموره مع سائق وضيع مثلك».

لمس جانب أنفه وقال: «سيدهشكِ مقدار ما تسمعينه عندما تقودين سيارة. فأنت غير مرئية، يتحدثون كما لو أنكِ غير موجودة. وهو مكان جيد للدردشة السرية حقًا، حيث لا يمكن لأحد

سماعهم. أوه، لقد سمعت أشياءً من شأنها أن تجعل شعرك يتساقط، صدقيني. أعلم أنه سئِم من الطريقة التي تتصرف بها والدته، وهو مستعد لاتخاذ بعض الاجراءات».

أعرف أن أمير ويلز لم يكن الوحيد المستاء من وجود المُنشي، لكني لن أشارك أي معلومة سمعتها مع شخص مثل روني بارتون: «يجب أن أذهب». واستدرت لأغادر.

لكنه أمسكَ كُمّي هذهِ المرة ليوقفني: «هل تعلمين فيمَ كنتُ أفكر؟ ربما تكونين مفيدة بطريقتكِ الخاصة».

- «لقد ساعدتك يا سيد بارتون، ولا أدين لك بشيء آخر».

- «ليس لي، وإنما للأمير. لمصلحة البلد».

- «من أي ناحية؟».

مال نحوي وقال: «أنتِ طاهية، يمكنكِ إضافة شيء ما إلى طعام جلالتها».

- «هل تقصد أن عليَّ دس السُمّ في طعام الملكة؟ هل جُننت؟!». قلت الكلمات بصوت أعلى مما قصدت، كنت مصدومة.

- «لا أقصد تسميمها. أنا أفكر بشيء قد يُؤذي

معدتها، أو يسبب لها الإسهال، أو يضعفها بحيث تلتقط عدوى أي مرض يصادفها، وحتى الإنفلونزا البسيطة يمكن أن تقضي عليها. وستحصلين على مكافئة، أعدكِ بذلك».

- «لن أجرؤ أبدًا على فعل شيء كهذا! ولمعلوماتك، معدة الملكة فولاذية، فهي تأكل وتشرب ما قد يمرضك أو يمرضني».

- «هناك بعض الأدوية المسجلة ...». وتوقف.

- «هل قال لك رب عملك هذهِ الأشياء؟ وهل سيفعل شيئًا ليقتل والدته حقًا؟».

- «لا، لقد خطرت لي الفكرة للتو بينما كنا نتحدث، لكني أعرف كم سئِم من وضعه الحالي. وأعرف بما يفكر فيه حول استمرارها مع الهندي، وإذا حدث وماتت، فلن يحزن كثيرا. لذلك اعتقدت أنني قد أقدم له معروفًا صغيرًا».

كان دوري لأبتسم، وقلت: «لقد اتخذت خطوة خاطئة يا سيد بارتون. لدي الآن شيئًا أستخدمه ضدك إذا تفوهت بكلمة واحدة عني للأمير، أو لأي شخص آخر، سيسعدني جدًا أن أفشي السرّ وأقول إنك طلبت مني تسميم الملكة. وأعتقد أن هذا قد يكون جريمة عقوبتها الشنق، أليس

كذلك؟».

- «أنا لم أقل ...»، وأصبح مهزوزًا وقال: «لقد اقترحت فقط ...».

- «لنبقى بعيدين عن بعضنا في المستقبل. إذا رأيتك في أي مكان بالقرب من مطبخنا، فسأخبر رئيس الطهاة بما كنت تخطط له».

- «لن تفعلي»، وحدق في وجهي وقال: «لأنه إذا فعلتِ ذلك، فسأخبرهم بحقيقتكِ وما فعلتِه لأختي المسكينة».

- «ثم سيشنقوننا نحن الاثنين. هل هذا ما تقوله؟ أعتقد أن كلينا لديه كل الأسباب للبقاء صامتًا يا سيد بارتون. أنا ذاهبة الآن ولا أتوقع أن أراك مرة أخرى».

استدرت وعدت إلى الفندق، وتركته واقفًا هناك.

الفصل الخامس والعشرون

حاولت أن أبعد لقائي بروني بارتون عن فكري. أعتقد أنني أصبحتُ الآن خارج منطقة الخطر، فلو أخبرت أي أحد بما اقترحه عليّ سيقع في مشكلة كبيرة. وشعرت بأن عبء القلق الذي كنت أحمله بدأ أخيرًا ينزاح عن كاهلي، لكني قلقتُ على الملكة، فإذا كان لدى شخص وضيع مثل روني بارتون أفكارًا من هذا القبيل، ربما يكون لدى الآخرين الأفكار ذاتها، وقد لا يكره الأمير مساعدة والدته في الانضمام إلى حبيبها ألبرت في الفردوس، لذا، عقدت العزم على أن أُراقب بصرامة كل ما يذهب إلى طاولتها.

وفي الواقع، أعتقد أننا آمنون، فمطبخنا كان عالمًا خاصًا، ونادرًا ما كُنّا نرى فيه غرباء، وأفراد الحاشية الوحيدون الذين واجهناهم كانوا: المُنشي البغيض، الذي يأتي بانتظام ليشكو عدم قدرته على تناول أيًا من الطعام المُقدّم على الطاولة، والكونت فيلي المزعج بالقدر نفسه، الذي يعتقد أن بإمكانه الدخول إلى المطبخ وتناول ما يشاء كلما شعر بالجوع بين الوجبات، وهو أمر تكرر كثيرًا، وقد حاول السيد آنجيلو عبثًا أن يشكوه إلى السير آرثر، لكن الكونت فيلي كان قانونًا في حد

ذاته. ويبدو أن زياراته إلى المطبخ لم تكن تتعلق بالطعام فحسب.

- «لقد سئمت من ذلك الرجل». غمغم جيمي عندما كنا نقطع الخضار معاً.

- «أيُّ رجل؟».

- «ذلك الغبي الألماني. لقد أمسك بي في الردهة مرة أخرى الليلة الماضية، وثبتني على الجدار، هل تصدقين هذا؟ وأخبرني أنني فتى جميل، وبأنه متأكد أننا سنقضي أوقاتاً ممتعة معاً. فأخبرته أنني لستُ من هذا النوع لكنَّه لم يصدقني. وقال إن معظم الناس يستمتعون قليلاً من الاثنين، إذا فهمتِ ما أعني».

وفي الواقع، لم أفهم. ليس لدي سوى أفكار ضبابية عمّا يجري خلف أبواب الغرف المغلقة، ولقد منعني كبريائي من الاعتراف بجهلي للويزا، فقلت له: «أفترضُ أن هذه هي مخاطر العمل لدى العائلة الملكية»، وأومأت له لأواسيه، «فهم يعتقدون أنهم فوق القوانين التي تحكم الناس العاديين. لقد مهد أمير ويلز لممارسة الجنس معي».

- «حسناً، هذا أفضل بكثير من ذلك البغيض

فيلي، أليس كذلك؟»، أجابني وهو يبتسم ابتسامة واسعة، «على الأقل هو ليس منحرفًا، وهو بريطاني».

- «وهو أيضًا عجوز سمين وله لحية. لا يمكنني تخيل أي شيء أكثر إثارة للاشمئزاز من أن يلمسني. وإلى جانب ذلك، أنوي اختيار رفيقي عندما يحين الوقت».

- «أفترض أنني خرجت من السباق لهذا المنصب؟»، ورمقني بتلك الابتسامة الصفيقة مرة أخرى، «لقد أوضح نيلسون أن علينا البقاء بعيدين عنكِ».

- «نيلسون ولدٌ لطيف حقًا، لكنني لست مستعدة لأكون أكثر من صديقة له».

- «عجبًا يا هيلين مما قاله، لقد بدأ بتخطيط من سيعزف موسيقى الاستعراض في حفل زفافكما».

- «أو لا، حقًا؟»، وخفق قلبي، «لم أشجعه على شيء أقسم لك يا جيمي».

- «لكنه قال أنكِ سمحتِ له بتقبيلكِ».

- «هذا صحيح»، اعترفت، «لكنها كانت تحت الهدال عشية عيد الميلاد. ولا يمكنني قول لا، هل يمكنني ذلك؟».

- «في هذهِ الحالة، أعتقد أنّه من الأفضل أن تضعي الأمور في نصابها عندما تعودين إلى الوطن. وفي هذهِ الأثناء، هل تقبلين الخروج معي؟ سمعت أن الكرنفالَ قادمٌ».

- « كرنفال؟ تقصد مثل السوق الخيرية؟».

- «أوه، أكثر من ذلك بكثير. إنهم يحتفلون قبل الصوم الكبير».

- «مثل يوم البانكيك؟».

- «حسب ما سمعت، سيكون شغبًا مطلقًا، آلاف الناس في الشوارع يرقصون ويشربون، ويرتدون أزياءً وأقنعة، وهناك عوّامات كبيرة وشرائط. لا يشبه أي شيء رأيتِه من قبل!».

- «أود أن أراه ما دُمنا هنا، ويسعدني أن يرافقني شاب قوي مثلك، لكن لا أريد أن تراودك أيّة أفكار. سنذهب بصفتنا أصدقاء».

- « كما تشائين».

وهكذا اتفقنا على الذهاب إلى الكرنفال معًا، ثم أخبرَنا أمين سرّ الملكة أن جلالتها تود حضور الكرنفال في نيس، وهذا يعني أننا جميعًا سنحظى بأمسية في الخارج. إذًا، سأذهب في مجموعة مع أعضاء آخرين من حاشية الملكة، أسعدني ذلك

كثيرًا، صحيح بأن جيمي فتى طيب لكنَّه أصغر مني ولا أفكر فيه إطلاقًا كخاطب محتمل. سرحت أفكاري صوب جايلز ويفرلي وتساءلت إذا كان سيحضر الكرنفال هو أيضًا.

وقبل أيام قليلة من الحدث الكبير، أصبح الطقس معتدلاً، وأعلنت الملكة أنها ترغب في التنزه في الحديقة المجاورة للفندق. لقد كان مكانًا رائعًا، ولم تُتح لي الفرصة إلا لاستكشافه لمدّة وجيزة، لكنه احتوى على مدرج روماني، وصفوف من أشجار الزيتون الكبيرة، ودوامة للأطفال، وعلى الجانب الآخر دير قديم نسمع منه أجراسًا تُقرَع على فترات منتظمة.

وبما أنني كنت طاهي الحلوى والفطائر الرسمي، فقد وقع عليَّ التحضير للنزهة. شطائر رفيعة وصغيرة والبسكويت والكعك والعنب واليوسفي، وبالطبع قُريصاتي بالمربى والقشدة.

جاء السيد فيلبس وجيمي لمساعدتي في صنع كعكة الغريبة، وبسكويت الزنجبيل الألماني الذي تفضله الملكة، والماكارون، وفطائر الليمون الرائب، وأعددنا في اللحظة الأخيرة شطائر الخيار والبيض والجرجير وسمك السلمون المدخن، ولففناها على الفور في مناديل الكتان الرطبة لتبقى

طرية. وحضّرنا قوارير الشاي، ووضعنا كل شيء في سلال ووضعت في العربات.

تقدمنا أنا والسيد فيلبس للمساعدة في إعداد طاولة تقديم في ظل شجرة أوكالبتوس كبيرة. وبالنسبة لحدث غير رسمي، فقد استغرق الأمر بالتأكيد تخطيطًا كثيرًا

مد الخدم سجادات وكرسي لتجلس الملكة، إذ من غير اللائق أن تنزل الملكة إلى الأرض، وعُيّن الزمارون الاسكتلنديون لإبعاد المتطفلين، إلا أن هؤلاء الرجال الأشداء بتنوراتِهم، كان لهم تأثيرًا معاكسًا وجذب المزيد من المتفرجين.

وفي الساعة الثالثة، بدأ أفراد الحاشية الملكية بالخروج من الفندق، ووقفوا في مجموعات يتحدثون وينتظرون وصول العائلة الملكية قبل أن يتمكنوا من الجلوس، وفي الثالثة والنصف، وصلت أولى العربات، وعلى متنها الأميرة صوفي، والكونت فيلي، والأميرة بياتريس وأطفالها، وتبع ذلك عربة مكشوفة جميلة يجرها حصانان بيضاوان، ركبت فيها صاحبة الجلالة، والأميرة هيلينا، ولدهشتنا، المُنشي الهندي! الذي قفز إلى أسفل، ومد يده إلى الأميرة هيلينا، لكنّها رفضتها، ثم ساعدا الملكة معًا بالنزول على العشب.

ابتسمت الملكة بسعادة وهي تجلس على كرسيها، وأومأوا لنا ببدء حفلة الشاي. سكبنا الشاي ومرره الخدم إلى الحضور. ومرروا الشطائر المختلفة أيضًا، ولاحظت أن الملكة كانت تأكل بنهم وبسرعة نوعًا ما، وتساءلت كيف لا تصاب بعسر هضم! ثم قدمنا القُريصات. فقضمت قضمة أو اثنتين ثم نظرت من جهتي وقالت: «آه، طاهيتي الصغيرة التي تصنع القُريصات اللذيذة». وطلبت مني التقدم.

اقتربت بتوتر وانحنيت لها.

- «لم أعلم أنكِ كنتِ جزءًا من تجمعنا الصغير هنا، لكن كان عليَّ أن أخمن، لأنني شككتُ بوجود لمستكِ الخفيفة وراء الكعك الذي استمتعنا به».

- «شكرًا لكِ يا سيدتي».

- «احرصي على حفظ بعض القُريصات لابني. لقد وعد بالانضمام إلينا اليوم، مع أنه كعادته لا يلتزم بالمواعيد».

حاولت أن أبقي وجهي هادئًا. وانحنيتُ لها مرّة أخيرة وتراجعت، وتساءلت كيف يمكنني العودة إلى الفندق بسرعة، لكنني لم أكد أصل إلى موقع

الخدمة حتى صاحت الملكة: «آه، ها هو يأتي الآن، المتقاعس».

ولاحت عربة أنيقة في الأفق، صغيرة لا تسع إلا لشخصين، وتشبه العربة التي ركبتها مع جايلز. شعرت بارتياح لأنه لم يأتِ بسيارته ولم يحضر روني بارتون، شكرًا للمعجزات الصغيرة، كان الأمير يقود بنفسه. قفز برشاقة مدهشة بالنسبة لشخص بمثل حجمه، وسلّمَ اللجام إلى الخادم.

- «ها أنتِ ذا يا ماما». نادى بأعلى صوته وهو يتجه نحونا.

- «تأخرت كعادتك».

- «إنها نزهة في الهواء الطلق فحسب. ولم أعرف أن هناك ساعة محددة لمثل هذهِ الأشياء»، وقبّلها على خدها ثم أضاف: «وعلاوة على ذلك، كنت سأحضر السيارة، لكنها لا تحب التلال شديدة الانحدار. لذلك اضطررت إلى استخدام العربة من جديد».

فقالت له: «أنت محظوظ لأننا أبقينا لك بعض الطعام، بما في ذلك الكعكات التي أحببتها كثيرًا».

نظر الأمير في اتجاهي وقال وعيناه تتوهجان: «آه،

فتاتي طاهية القُريصات».

انحنيت له باحترام.

- «أنا جائع. وأطلب القوت على شكل قُريصات في الحال». وطلب مني أن أتقدم نحوه.

لم يكن لدي خيار آخر، وضعت القريصات والمربى والقشدة في صينية، وقلت للسيد فيلبس: «أحضر له الشاي في نفس الوقت». السلامة مع الجماعة.

اقتربنا منه معًا، حملتُ الصينية وأخذ الأمير القُريصة، وكان مثالاً للياقة ووالدته بجانبه. وأومًا لي بكل بساطة وعدتُ إلى مكاني. ارتجفت يدي قليلاً، كنت بأمان. وكان قلقي بلا داعٍ، فقد كنت فتاة القُريصات لا أكثر. لكنني علمت شيئًا مهمًا، لقد تفاجأ الأمير برؤيتي، وهذا يعني أن روني بارتون لم يشِ بوجودي هنا في نيس مع الملكة. يجب أن أشعر بالامتنان على هذا، لأنني أدركت أن لدي سلطة عليه وقد أمدني ذلك بشعور جيد.

اكتفت الملكة من الطعام، وهذا يعني ألا أحد من الحضور مسموح له بتناول المزيد. ففي اللحظة التي تُنهي فيها أيّة وجبة، يُحكم على تلك الوجبة

بالرفع، وهذا ما أزعج ضيوفها على ما أظن. حزمنا أغراضنا ووضعت البقايا في عربة تنتظرنا على مسافة قريبة. وبدأ أفراد الحاشية الملكية يسلون أنفسهم بمختلف الأنشطة. قُدمت مضارب التنس والريشة للعب تنس الريشة. وحاول الكونت فيلهلم إقناع الأميرة صوفي بالانضمام إليه، لكنها رفضت، تبادلا الكلمات، وابتعدت غاضبة. ثم شكَّلَ مع وصيفتان وأحد السادة فريقًا رباعيًا بعد ذلك. ولعب الأحفاد لعبة المطاردة، يصرخون كأطفال اعتياديين في كل مكان، وكانت الأميرة الصغيرة إينا تحاول أن تكون رزنة وتتصرف كسيدة، وذهبت لقطف الأزهار. وكانت هذهِ هي المرة الأولى التي أتيحت لي فيها فرصة رؤية العائلة الملكية تتصرف مثل أي عائلة اعتيادية أخرى.

- «انظري يا ماما. لقد صنعتُ باقة أزهار من أجلكِ». واقتربت الأميرة إينا من والدتها لتقدم باقتها.

فقالت الأميرة بياتريس: «لطيفة جدًا، يا حبيبة قلبي. لكن عليكِ أن تسألي عن الأزهار التي يمكنكِ قطفها، فكما أعرف تلك الوردية هي «الدفلى» وهي سامّة للغاية. تخلصي منها، واطلبي

من المربية أن تغسل يديكِ».

- «حاضر يا ماما». وبدت الفتاة الصغيرة متوترة وقلقة.

استدرتُ نحو السيد فيلبس وقلت: «إذا لم يعد لدينا شيء نفعله، سأتمشى قليلاً»، ورغبت بالابتعاد عن أمير ويلز في أقرب وقت ممكن، «لطالما رغبت في إلقاء نظرة على هذا الدير». وذهبتُ إلى الحديقة. توقفت قليلاً لمشاهدة دوّامة الخيل ثم اتجهت نحو الدير الذي يلوح في الأفق فوق الجانب البعيد من المروج، صعدت مجموعة من الدرجات ووجدت ساحة كنيسة صغيرة على أحد الجوانب. كانت مختلفة جداً عن مقبرة هاي غيت، المكان الذي دُفن فيه والديّ. كانت الأضرحة الرخامية الطويلة قريبة جداً من بعضها مثل مدينة صغيرة. وبينما كنت أتجول بينها، سمعت صوت بكاء، وعندما اقتربت من الزاوية، رأيتُ الأميرة صوفي تتكئ على قبر وتبكي بهدوء، فنسيتُ مقامي وسألتها: «ما خطبكِ؟ هل يمكنني مساعدتكِ في شيء؟»».

نظرت إليّ دون أن تعرف من أنا وسألتني بلكنة ألمانية قوية: «هل أنتِ أحد أفراد حاشية الملكة؟»».

- «أجل يا سيدتي أنا أحد طهاة الملكة. أعرف أنه لا يحق لي الكلام معكِ لكني كرهت أن أراكِ بهكذا محنة».

رفعت كتفيها استهجانًا وقالت: «ليس هناك ما يمكنكِ مساعدتي به، سأتزوج من وحش، من رجل لن أحبه أبدًا».

- «لا يمكنكِ الزواج رغمًا عنكِ، أليس كذلك؟».

نظرت إليّ بحزن وقالت: «أنتِ لا تفهمين كيف تجري الأمور بالنسبة لنا. فالزواج لا يكون بدافع الحب، وإنما بدافع القوة والسياسة. يظن والدي والملكة أن مكانة فيلهلم مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بالإمبراطور النمساوي، وأنه ودود للغاية مع القيصر الألماني».

- «لكن القيصر الألماني هو قريبها، أليس كذلك؟».

هزت كتفيها استهجانًا وقالت: «لفيلهلم طموحاته الخاصة. إمبراطورية ألمانية جديدة، خطير للغاية. ويرغبون في جذبه ليصبح ضمن قطيع الملكة، لذلك يجب أن أتزوجه ليصبح واحدًا منا. وهذهِ هي الطريقة المعمول بها هنا».

- «أنا آسفة من أجلكِ. لكن هل سيجبرونكِ على الزواج إذا رفضتِ؟».

- «هل تجرؤين على الرفض ومخالفة رغبات والدكِ والملكة؟ لا بد وأنكِ تعرفين كم هي مخيفة».

- «كنتُ سأذكرها بمدى حبها للأمير آلبرت وأخبرها أنكِ لن تحبي الكونت».

- «حاولت شيئاً من هذا القبيل، لكنها قالت إن الحب يأتي مع الوقت وبأنني صغيرة ويجب أن أكون صبورة»، ثم هزّت رأسها وتراقصت لفات شعرها وقالت: «لكن حسب ما سمعت، كان ألبرت رجلاً طيباً ولطيفاً، أما فيلهلم فهو متنمرٌ وأناني وفظ وانتقادي، وسوف يسيطر على حياتي»، ثم اقتربت مني وقالت: «لكن الأمر أسوأ من ذلك. هل تعلمين ماذا قال لي؟ قال إنني بمجرد أن أهبهُ وريثاً، لن يزعجني مرة أخرى».

- «أنا آسفة جداً من أجلكِ يا سيدتي».

ضحكت بحزن وقالت: «أعتقد أنني يجب أن أكون شاكرة لأنه لن يزعجني. لكنني أريد رجلاً يحبني. أريد أن أكون بين ذراعيه وأشعر بالأمان. هل ما أتمناه كثير؟».

- «لا على الإطلاق. هل والدتكِ لا تزال على قيد الحياة؟ أنا متأكدة أنها ستتفهم مشاعركِ».

هزت رأسها وقالت: «ماتت عندما كنتُ في الخامسة. ولوالدي سلسلة متواترة من العشيقات، كرهتهن جميعًا، نساء عاهرات مبتذلات. وكان عليّ الإقامة مع ابنة العم ڤيكتوريا لعدّة مرات، وكنت استمتع بإقامتي في القصر حتى الآن. لكنها لن تغير رأيها بشأن زواجي من فيلهلم. لقد حكم عليّ أن أعيش حياة تخلو من الحب».

ثم وعلى ما يبدو، أدركت أنها كانت تتكلم مع خادمة، وبأنها باحت بالكثير: «لن تكرري كلمة مما سمعتِه، أليس كذلك؟».

عدت إلى وضع الخنوع وقلت: «بالطبع لا يا سيدتي. يمكنكِ الاعتماد عليّ».

- «يجب أن أعود إلى الملكة. كان من الوقاحة أن أتجول مبتعدة عنهم، سيأتون بحثًا عني».

قلت لها: «يمكنك إخبارهم أن شواهد القبور القديمة فتنتكِ، أو أن المقابر ذكرتكِ بأمك العزيزة».

ضحكت وقالت: «أنتِ شخص ماكرٌ وحكيم. أتمنى لو أن مكانتكِ الاجتماعية قريبة مني، لكنّا أصبحنا

صديقتين. وأنا بحاجة إلى الصداقة في الوقت الحاضر بكل تأكيد».

- «أنا حاضرة في أي وقت تودين الحديث يا صاحبة السمو».

- «لا أعتقد أن السيدات سيتفهمن».

انحنيتُ لها باقتضاب وتركتها تنطلق قبلي، إلى مكان النُزهة.

بقيتُ في الدير، أراقب الأميرة تعود أدراجها بين الأشجار وعبر الحديقة. ثم عدت في طريقي ووجدت الجماعة الملكية لا يزالون جالسين يتحدثون. اختفى السيد فيلبس، لذا توجهت إلى الفندق، وتوقفت قليلاً لأذهب إلى الآثار الرومانية. كانت مثيرة للإعجاب، مدرج كبير بأقواس لا تزال سليمة، وزهور الربيع تنمو بين الشقوق في البناء. نسيتُ نفسي أتأمل حتى أعادتني هبة ريح قوية إلى الحاضر، وجعلتني أدرك أن عليَّ العودة إلى واجباتي، لدي العشاء لأحضّره، وعندما اقتربت من الممر، خرج شخص من الظل.

- «ها أنتِ ذا أيتها الفتاة الوقحة». قال أمير ويلز.

بلعت ريقي. كان رجلاً ضخم البنية يسد طريق

هروبي. وضع إصبعه تحت ذقني واقترب - اقترب أكثر من اللازم - وقال: «لقد كنتِ فتاة مشاغبة، لم تأتِ لزيارة أخيكِ، وكنتُ محبطًا للغاية. لقد أعطيته الوظيفة بسببكِ كما تعلمين».

- «أنا آسفة يا سيدي، ليس من السهل الحصول على وقت فراغ عندما يعمل المرء في المطبخ الملكي».

- «سأحرص على أن تُدعى والدتي للعشاء مع الأقارب مرارًا أثناء وجودها هنا، وحينها لن يكون لديكِ عذر عندما أرسل عربة لاصطحابكِ».

- «أنا متأكدة من أن لديك طهاة مهرة يا سيدي». أجبته وتعمدت إساءة الفهم.

ضحك من قلبه على هذا وقال: «أنتِ تعلمين جيدًا أنني لا أهتم بطهيكِ. أنتِ تسحرينني، لطالما ملتُ إلى الصهباوات، ولديكِ مسحة ... نقاء أجدها مغرية للغاية».

كان إصبعه لا يزال تحت ذقني. سحبني نحوه ووضع شفتيه الكبيرتين على شفتي. كانت لحيته واخزة وشفتيه رطبة، تمالكت نفسي ولم أصفعه أو أدفعه بعيدًا، كان يمسك رقبتي بيد ويده

الأخرى تتفحص جسدي، هالتني صدمةُ يده التي أمسكت بنهدي، وما إن انتهت قبلته حتى وضعتُ يدي على صدره وحاولت دفعه: «أرجوك يا سيدي، أتوسل إليك، أنا فتاة طاهرة وأعتزم البقاء هكذا حتى أتزوج».

كانت ينظر إليَّ باستمتاع، بل كان يتلذذ بذعري.

- «أوه العذراء الخجولة! كم هو ممتع، ولا يقاوم، لقد أيقظتِ رغبتي الآن حقًا».

- «لا يمكنني فهم سبب اهتمامك بي، في حين يمكنك الحصول على أي امرأة في العالم، سارة برنهارد تقيم في فندقنا».

- «كانت ممتعة لفترة، أؤكد لكِ. لكن عندما يتعين عليكِ التحدث بالفرنسية طوال الوقت يكون واجبًا ثقيلاً. أتعلمين، يمكنني أن أطلب من ماما أن تعيرني طاهيتها».

- «في هذهِ الحالة، سأذهب إليها وأطلب منها أن ترفض طلبك»، بعد الصدمة الأولية، عادت روحي القتالية، «أعلم أن والدتك لا توافق على تصرفاتك، ولا تريد أن أجبر على وضع أساومُ فيه على شرفي».

كان ينظر إليّ باهتمام الآن، كما لو كان يراني كشخص لأول مرة ثم قال: «أنتِ فتاة فصيحة، ومتعلمة، كيف أصبحتِ طاهية؟».

- «تيتمتُ من صغري وليس لدي عائلة تأخذني في كنفها. وبدأتُ في مجال الخدمة لأعيل أختي الصغرى».

- «جديرة بالثناء، مضحية بالإضافة إلى كونكِ عذراء».

- «أرجوك لا تسخر مني يا سيدي. لا يمكنك تخيل كم هو مؤلم أن أجد نفسي خادمة. وعبر مهاراتي في الطهي، تمكنت على الأقل من الارتقاء قليلا».

مسد خدي وقال: «أيتها الفتاة الغبية، ألا ترين ما أعرضهُ عليكِ؟ أنا أعرضُ عليكِ ما تطمحين له. مهرب من الخدمة. سأخصص لكِ ڤيلا جميلة هنا إذا أحببتِ، وسآتي لزيارتكِ عندما أكون في الريڤيرا، ولكِ حرية التصرف بباقي أوقات السنة، جِدي رجلاً يداعب خيالاتكِ، أو تزوجي حتى، لا أمانع، فأنا رجل كريم، لا أرفض المشاركة. وعندما نسأمُ من بعضنا، ستكون الڤيلا من نصيبكِ. ماذا تريدين أفضل من هذا؟!».

ماذا أريد أفضل حقًا؟ دارت الفكرة في رأسي. لِمَ أكون نبيلة وعفيفة بينما ليس لدي شرف؟ ففي النهاية أنا خادمة. اشترى ملك البلجيكيين ليوبولد فيلا لعشيقته. ولن أضطر فعلاً إلى العمل من أجل لقمة العيش مرة أخرى، لكن فكرة أن يلمسني هذا الرجل، ويمسك بي، ويفرض نفسه عليّ كانت أكثر مما أستطيع تحمله. فقلت بهدوء: «أنا آسفة حقًا يا سيدي، لكني أُفضل انتظار رجل يمكنني أن أحبه».

- «أنا متأكدٌ من أنكِ ستحبينني. أنا رجل محبوب. اسألي أيًا من عشيقاتي. سيخبرنكِ بمدى حسن معاملتي لهن».

- «لا شك عندي أنك رجل لطيف للغاية، لكن هذهِ ليست الحياة التي أريدها لنفسي».

تحولت نظراته إلى ارتياب وقال: «أنتِ لستِ من هؤلاء النسوة، أليس كذلك؟ تعلمين ما أعني، الشاذات اللعينات».

لم أعلم.

قهقه وقال: «أنتِ حقًا فتاة بريئة، أليس كذلك؟ أعني النساء اللواتي يَمِلن لنساء أخريات».

- «أوه لا»، واحمر وجهي خجلاً وصدمة

لاقتراضه. لم أعلم أن هكذا أناس موجودين من الأساس، «أرغب في الحصول على زوجٍ وعائلة في يوم من الأيام، عندما أصادفُ الرجل المناسب، لكن، حتى ذلك الحين ...».

- «حتى ذلك الحين، أنتِ ترفضين وريث عرش أقوى دولة في العالم. يجب أن أقول إنني معجب بنزاهتك أيتها الشابة، أجدكِ مثيرة للحنق لعينة، لكني أحترمُ قرارك. وأرفضُ أن يُقال عني أنني فرضت نفسي على امرأة»، وتراجع عني، «حسناً، من الأفضل أن أسمح لكِ بالعودة إلى أواني المطبخ والمقالي، أليس كذلك؟».

- «شكرًا لك يا سيدي».

لابد أنه شعرَ بالارتياح في صوتي فقال: «لا أثير اشمئزازكِ، أليس كذلك؟».

- «على الإطلاق يا سيدي»، كذبت، «أجدك رجلاً وسيماً. لكن ...».

- «لستُ الرجل المناسب لكِ، إيه؟».

أومأتُ له بامتنان.

- «اذهبي إذًا، هيا». وصفعني على مؤخرتي ودفعني أمامه عبر الممر، ولا أعتقد أنني تنفست حتى أصبحتُ بأمانٍ داخل الفندق. صعدتُ إلى

غرفتي ورششتُ الماء البارد على وجهي وشطفت فمي.

الفصل السادس والعشرون

كان يوم مسيرة الكرنفال مشمسًا وصافيًا. وكانت هذه أخبارًا جيدة، لأنه وعلى ما يبدو، هطلت أمطار استمرت لأيام قبل الصوم الكبير في العام المنصرم، لدرجة أُلغيت مسيرة الكرنفال.

انطلقنا نحن الطهاة نحو المدينة عند الشفق، وقال السيد ويليامز والسيد فيلبس أنهما لا يرغبان حقًا في حضور مثل هكذا حدث أجنبي ووثني، لكنهما شعرا بضرورة تذكير نفسهما بمدى تحضرنا في إنكلترا. ومع ذلك، كانا متحمسين للمشهد عندما اقتربنا من وسط المدينة، ومررنا بأكشاك تبيع أنواعًا شتّى من الأعلام والحلي والأطعمة.

صاح السيد آنجيلو: «جيلاتي! بوضة إيطالية أصيلة لم أتذوقها مذ كنت صبيًا. بالطبع نحن على بعد أميال قليلة من إيطاليا هنا، أليس كذلك؟ هل تريد واحدة يا سيد فيلبس؟».

- «أعتقد أنني أريد واحدة». قال السيد فيلبس موافقًا وهو ينظر إلى أكوام البوضة بألوانها الزاهية. وأرادَ السيد ويليامز وجيمي تذوقها أيضًا. لكنني رفضتُ تناول البوضة معهم، لأن درجة الحرارة انخفضت وكنت أشعر بالبرد

مسبقًا، لكنني ندمت على ذلك لاحقًا عندما رأيتُ تعبيرات الابتهاج التي اعتلت وجوههم.

كان ميدان ماسينا، تلك الساحة الكبيرة ذات الحدائق المجاورة المؤدية إلى الواجهة البحرية، مضاءة جيدًا بالمشاعل والمصابيح اليدوية بالإضافة إلى مصابيح الغاز المعتادة، ومليئة بالناس مسبقًا. وكان الحشد عبارة عن مزيج مبهج من الفلاحات، يرتدين تنانير مخططة فاقعة وأوشحة، ويختلطن بالعمال المخمورين. بالإضافة إلى العائلات أنيقة الملبس. وكان ثمّة الكثير ممن يرتدون أزياء غريبة كالمهرجين والقراصنة والهنود الحمر أيضًا. ونُصبت المدرجات لأولئك الذين يرغبون في الدفع مقابل رؤية أفضل، وكان ثمة مدرج خاص، أمام طريق المسيرة مباشرة، مخصص للملكة وحاشيتها.

- «الملكة تحب أن تكون جزءًا من الحدث»، تمتم السيد آنجيلو، «يرمون الأزهار من بعض العربات ذات المنصات، وهي تحب جمع تلك الأزهار ورميها على الشباب الوسيمين!».

كنا نبتسم ونحن نحاول العثور على مكان يمكننا فيه رؤية الموكب رؤية واضحة. وفي النهاية، شققنا طريقنا بين الحشود وأخذنا أماكننا وحشرنا مثل

أسماك السردين. وقفت امرأة ضخمة بجواري تفوح منها رائحة ثوم حادة ورائحة جسم غير مغسول. ومع حلول الظلام، وصلت الملكة وحاشيتها، وحضت بتصفيق حار عندما رافقوها شبه مرفوعة إلى منصة المشاهدة الخاصة بها، واتخذ باقي الحاشية الملكية أماكنهم حولها. أدهشتني رؤيتهم يجلسون على مقاعد صلبة اعتيادية مثل باقي المدرجات، على الرغم من توفير وسائد للملكة لرفعها عاليًا ما يكفي لتشاهد، ولاحظتُ أن المُنشي لم يسمح له بالجلوس قربها. فقد كان الكونت فيلهلم يسد طريقه، جالسًا في نهاية المقعد الخشبي الضيق. من المؤكد أنه ليس ما اعتادت عليه الملكة، لكن لا يبدو أنها تمانع. استطعتُ رؤية وجهها، وبدت متحمسة مثل فتاة صغيرة، تلوح للناس وتشير على الأشياء لأحفادها، ولا أثر لحراسها. كانت هذهِ الليلة مجرد الليدي بالمورال بالفعل، تستمتع مثل أي شخص آخر.

وما إن استقروا حتى سمعنا صوت فرقة الآلات النحاسية من بعيد، استقبلتها صرخات الناس وهتافاتهم، وبدت الفرقة مبهرة في زيها اللامع المزين بالجدائل، وخلفهم جاءت أول العربات ذات المنصات. لا أعرف ما كنتُ أتوقعه، لكنها كانت هائلة - رأس رجل كاريكاتوري

بشع، ارتفاعه حوالي عشرين قدمًا، فوق عربة يجرها فريق من الرجال، وكان فمه مفتوحًا، تبرز منه أقدام وكأنه يأكل الناس، لقد كان مرعبًا للغاية. وقالت المرأة التي كانت تقف بجانبي وهي تبتسم ابتسامة عريضة: «جيرمون». ولكزتني في أضلاعي، فأوضح الشاب الذي يقف في جانبي الآخر أن هذهِ العربات ذات المنصات هي تعليقات سياسية عادة، وجيرمون هو سياسي حريص على كسب المال على حساب الناس الفقراء. وتلتها عربات أخرى: تمساح ضخم، والمزيد من الرؤوس الضخمة، وعربات مزينة بأزهار، والمزيد من الفرق بجانبها رجال على ركائز خشبية، وبهلوانيين ومهرجين وراقصين يرتدون أزياء هزلية.

قال السيد ويليامز تعليقًا على فتاة شابة لا ترتدي سوى الريش: «أراهن إنها تشعر بالبرد».

هتف الحشد من حولنا، وتهكموا وصرخوا واحتسوا النبيذ من الزجاجة مباشرة، وتناقلوها بينهم. وبدا وكأن المسيرة استمرت إلى الأبد، وكنت قد سأمتُ الوقوف، والتعرض للدفع، ورائحة الثوم التي غطتني من فم جارتي الضخمة عندما سُمع فجأة ضجيج عالٍ غطى على ضجيج

الجماهير الصاخب.

- «ألعاب نارية»، قال السيد آنجيلو، «دائمًا ما تعقب المسيرة ألعاب نارية».

لكن الصرخات تعالت بعد ذلك. وكان أحدهم يصيح: «الملكة! أطلقوا النار على الملكة!». وعمّت الفوضى. حاولت أن أرى ما الذي يجري لكن الحشود المرعوبة كانت تتدافع وتموج، وتحاول الهرب من إطلاق النار، وتريد الابتعاد قدر الإمكان عن المنصة الملكية.

حاولت أن أحرر نفسي لأصل إلى الملكة، لكنني حُملت إلى الأمام مع الحشد المتدافع. كان مشهدًا سرياليًا، أطلق أحدهم النار على الملكة، كانت تلك الكلمات تضج داخل عقلي، يجب أن أرى إذا كنتُ أستطيع تقديم المساعدة، ولكن في هذه اللحظة، كان قلقي الرئيس هو خشيتي من أن أتعثر وأُداس. وعندما تباطأ زخم الحشد أخيرًا، لم أعد في ميدان ماسينا، بل في شارع جانبي مظلم وضيق، ولم يكن لدي أي فكرة عن مكان وجودي، وكان الناس ما زالوا يمرون تاركيني خلفهم، والتقطت شذرات من كلامهم: «الأناركيين! أطلقوا النار على ملكة إنكلترا!».

أردت أن أعود أدراجي، ونظرت لما حولي،

لكن لم يكن ثمّة ما يشير إلى وجود الطهاة الآخرين، ولا أي مؤشر على وجود أي شخص أعرفه، ولستُ متأكدة من الطريق الذي أتينا منه حتى. فقد حالَ الحشد دون تتبع لخطواتي، وكل ما يمكنني فعله هو الانتظار في المدخل حتى يتفرقوا. ثم اقتربت مجموعة رجال مشاغبين يغنون بصوت عالٍ فانكمشت في المدخل، لكنهم لمحوني وقال أحدهم وهو يخيم فوقي:

- «مرحبا يا حبيبتي، هل أنتِ وحدكِ يا صغيرتي؟ أوه، هذا سيء للغاية. تعالي معنا وستقضين أوقاتًا ممتعة برفقتنا».

كان لسانه ثقيلاً وتحدث وهو يبلع ألفاظه ويبتسم ابتسامة واسعة وكأنه معتوه. تحلقوا حولي، وأمسك أحدهم يدي وقال: «هيا بنا، لنذهب».

- «لا، أتركني، لا أريد ...». خذلتني لغتي الفرنسية في لحظة ذعري.

- «لكننا أولاد لطفاء»، وضع آخر وجهه أمام وجهي وقال: «ستحبيننا، أعدكِ».

جهلت ما يمكنني فعله، فقد كانوا خمسة رجال، اجتازنا بقية الحشد كما لو أننا غير مرئيين، وبدأوا

يدفعونني معهم.

- «اتركني، لا أريد ...». وكافحت لأحرر نفسي.

- «آه، كوليت، يا صغيرتي، ها أنتِ ذا»، صدح صوت رجل وخرج من الظلام، «ارفعوا أيديكم عن أختي الصغيرة على الفور. لدي سكين، ويمكنني أن أثبت لكم كم أنا بارع في استخدامها».

- «كنّا نعتني بها من أجلك يا صديقي»، قال أحدهم وأفلت ذراعي، «لا ينبغي أن تكون امرأة وحيدة في حشد كهذا، لا أقصد الإساءة».

قال الوافد الجديد وهو يخاطبني الآن: «ما كان عليكِ التجول وحدك يا أختي الصغيرة»، وأمسك كمّي بفظاظة وقال: «تعالي، لنذهب إلى المنزل الآن».

عجزتُ عن التفكير ماذا أفعل، كنت حقًا كَمَنْ يستجير من الرمضاء بالنار. من الواضح أن علي مجاراة الرجل القادم من الظلام والتمثيل بأنني أخته، إذ ليس لدي أدنى فكرة ماذا سيحصل إذا قلت إني لستُ أخته، قد يعيدني إلى الرجال الثملين، ولديه سكين ...

أمسك يدي وجرني إلى الأمام وقال: «لا

تقاومي، تعالي معي بسرعة». وأخيرًا، ميزت صوته.

في الظلام، يمكنني رؤية تقاطيع وجهه، كان جان بول لوبان، وكان يُحكم قبضته على يدي، أسرعنا معًا مبتعدين، وخرجنا من تيار الحشود إلى موضع خلفي لمنطقة سكنية هادئة.

فقلت أخيرًا: «يجب أن أتوقف، لا يمكنني أن أتنفس».

كنّا نسير بسرعة، فتوقف وقال وهو يحدق بي بحدة: «هذا تصرف أحمق فعلته، تخرجين وحدكِ في ليلة كهذهِ. من حسن حظكِ أنني أتيت».

- «لم أكن وحدي، كنت مع الطهاة الآخرين، وحصل إطلاق نار وصرخ أحدهم أن الملكة أصيبت، وبدأ الجميع بالركض وأجبرتُ على الركض معهم، وفجأة لم أعد أعلم أين أنا وظهر أولئك الرجال».

خرجت الكلمات من فمي بسرعة، ولست متأكدة من أن نحو فرنسيتي كان صحيحًا أو حتى مفهومًا. ودون سابق إنذار خرجت شهقة بكاء من فمي وقلت: «ولو لم تأتِ وتنقذني، لكنتُ ...». وبدأتُ بالبكاء.

لف ذراعيه حولي على الفور وضمني إليه بقوة وقال: «لا بأس يا صغيرتي، أنتِ بأمان الآن، أنتِ معي، كل شيء على ما يرام».

- «لكن الملكة. أطلقوا النار على الملكة». وانحدرت الدموع على خدي.

مسد جان بول شعري وقال: «لا تبكي، لا أظن إنها أصيبت».

- «هل أنت متأكد؟».

- «لا، لكن حسب ما يقول الناس، أخطأتها الرصاصة».

رفعت نظري إليه، كانت عيناه تتلألآن تحت ضوء مصباح الشارع، وفجأة بدأ يقبلني، ولدهشتي، استجبت لقبلاته، واقتربت بجسمي أكثر منه وشعرت قلبه يخفق مع قلبي. وعندما انفصلنا نلهث، كان يبتسم لي وقال: «اسمعي يا حبيبة قلبي، ليس علينا العودة مباشرة. ابن عمي يملك فندقًا صغيرًا قريبًا من هنا. لمَ لا نذهب إلى هناك لبعض الوقت؟».

- «لمَ قد أحتاج فندقًا بينما يمكننا العودة إلى سيميز الآن بعد أن مرت الأزمة؟».

ضحك وكأنني قلت شيئًا مسليًا: «لكنك تعرضت

لصدمة، ألا ترغبين بمكان نتعافين فيه وقد نشرب الكونياك؟ وأنت وأنا، يمكننا التعرف على بعضنا بشكل أفضل، بعيدًا عن الريجينا».

كل ما يمكنني سماعه في رأسي هو أمير ويلز عندما قال: «يمكننا التعرف على بعضنا بشكل أفضل». وهؤلاء الرجال الفظيعين يمسكون بي، فتراجعت إلى الخلف وصحت: «لا! لقد كونت انطباعًا خاطئًا عني يا سيدي».

نظر إليَّ متحيرًا وقال: «اعذريني إذا أسأت الفهم، لا رغبة لي بإهانتكِ، لكنكِ بالتأكيد لم ترفضي قُبلتي. في الواقع، لقد كوّنت انطباعًا بأنكِ ترغبين بقضاء الوقت لوحدكِ معي».

شعرتُ بوجهي يلتهب من الحرج وقلت: «تماديتُ قليلاً، بفعل الخوف والفوضى. لم أكن أعرف ما كنت أفعل».

- «أوه، أعتقد أنك كنتِ تعرفين ذلك جيدًا وكنتِ تفعلينه جيدًا أيضًا». ولم يستطع كبح ابتسامته.

سمعتُ صوتي عاليًا وباردًا: «يصدمني أنك تعتقد أنني من النوع التي تحلم بالذهاب إلى فندق مع رجل بالكاد تعرفه. لقد تربيت في عائلة محافظة،

أم أنه لمجرد كوني خادمة الآن، أصبحت فريسة سهلة؟».

تراجع خطوة مبتعدًا عني وقال: «لكن يا مدموزيل، لقد أسأتِ فهمي. ليس لدي رغبة في ...».

- «بالطبع لديك رغبة. أنت مثل كل الرجال، تصيدوننا نحن الفتيات البريئات».

فقال بصلابة: «أنا أعتذر يا مدموزيل. أؤكد لكِ أنني سأحافظ على مسافة بيننا في المستقبل».

- «يجب أن أعود إلى الفندق. قد تحتاجني الملكة».

- «الملكة بحاجة إليك؟ ولِمَ قد تحتاجك؟ أعتقد أنها إذا احتاجت إلى أي شخص، فسيكون طبيبها، وليس مساعد طاهٍ».

شعرت بكلماته وكأنها صفعة على وجهي فقلت ببرود: «شكرًا لك على إنقاذي يا سيدي. هلّا وجهتني إلى أسرع طريق لأعلى التل فحسب».

- «سأرافقك».

- «لا داعي. أنا متأكدة من أنك لا ترغب في تضييع وقتك مع مجرد مساعدة طاهٍ».

- «وإن يكن، لن أتركَكِ تتجولين وحدكِ في الليل. أعرف واجبي كفرنسي أمين. تعالي، من هنا».

وأخذ ذراعي وسار بي بسرعة كبيرة، ولم نتحدث بكلمة واحدة عندما صعدنا التل.

انقطعت أنفاسي وكنت خائفة من البكاء في أيّة لحظة. وعندما وصلنا إلى الفناء الأمامي للفندق، انحنى لي جان بول باقتضاب وقال: «أصبحتِ بأمان الآن». واختفى تحت جنح الظلام.

الفصل السابع والعشرون

وقفتُ في الظلام أحاول التقاط أنفاسي واستعادة رباطة جأشي قبل أن أدخل إلى الفندق. كانت الباحة الأمامية تعج بالحركة ومضاءة بأنوار ساطعة، تُظهر عربتا شرطة تقفان في الخارج وبجانبهما ما افترضت أنهم رجال شرطة فرنسيون. وكان هناك مراسلون صحفيون، وحشد فضولي يتألف من نزلاء الفندق، بالإضافة إلى المواطنين المحليين الذين وعلى ما يبدو تبعوا الموكب الملكي من المدينة إلى هنا.

نظرت حولي أبحث عن عربة الملكة، وتساءلت إذا كانت قد نُقلت إلى المستشفى بدل القدوم إلى هنا، لكني ارتحت عندما رأيتُ العربة تقاد إلى الإسطبل. كاد الفضول والقلق يقتلني وأنا أبحث عن وجه مألوف، حتى لمحت في إحدى الجهات عدة خدم ملكيين واقفين، فذهبتُ إليهم وسألتهم: «هل هناك أي أخبار؟ هل جلالة الملكة بخير؟».

فقال أحدهم: «محظوظة، هي محظوظة بالفعل. ربما كانت هذهِ المحاولة الرابعة أو الخامسة لاغتيالها، وفي كل مرة يخطؤون الهدف».

- «لم يخطؤوا الهدف هذهِ المرة تحديدًا»، قال

الآخر، «كادت تُقتل لو لم يدفعها الكونت الألماني جانبًا لحمايتها ويتلقى الرصاصة عوضًا عنها».

من الغريب حقًا سماع أن الكونت فيلي كان بطلاً.

- «الكونت فيلهلم ضُرب بالرصاص؟ هل مات؟».

- «لا، لقد أصابت الرصاصة كتفه فحسب، لم يكن مطلق النار بارعًا في الرماية، إذا سألتني. إنه أحد هؤلاء الطلاب المتعصبين الذين يريدون تغيير النظام العالمي».

- «هل هو طالب؟».

قال الرجل الأول: «لم يمسكوا به بعد، وأشك في أنهم سيفعلون مع حشد بهذا الحجم، لم يرَ أحد شيئًا حتى أُطلق النار، ثم ساد ذعر حقيقي، أليس كذلك؟ كان الجميع يركض ويصرخ، ألم تكوني هناك؟».

- «بلى، كنت هناك، لكنني انجرفت مع الحشد».

- «أنتِ محظوظة لأنكِ لم تُداسي. فقد كان هناك الكثير من الناس، أليس كذلك يا توم؟».

أومأ الآخر وقال: «هؤلاء الأجانب، سريعوا

الانفعال، ما كان هذا ليحدث في لندن».

تمنيتُ لهم ليلة سعيدة وصعدت إلى غرفتي، وما إن أصبحت هناك حتى تغلبت عليّ مشاعر ما حصل هذا المساء، وبكيت كثيرًا وأدركت أنني منذ اليوم الذي أصبحتُ فيه خادمة، لم أسمح لنفسي قط بالبكاء ولو مرة واحدة، وكان من دواعي الفخر ألّا يكسرني أي شيء أواجهه، أما الآن، كما لو أن شيئًا ما قد انقطع، سمحت لنفسي أخيرًا بأن يكون لدي مشاعر، وأدركت كذلك أنني أكنّ مشاعرًا تجاه جان بول لوبان وقد طردته بعيدًا.

وعندما نزلت أتناول وجبة الإفطار في اليوم التالي، لم يكن هناك أي أثر لرفاقي الطهاة. كان هنري وباقي الطهاة الفرنسيين يعملون في الجزء المخصص لهم من المطبخ، ولم يكن جان بول بينهم.

سألت هنري: «هل تناول أبناء بلدي وجبة الإفطار، أم أنهم لم ينهضوا بعد؟»».

فأجاب: «لم أرَهم اليوم يا مدموزيل، ربما لا يزالون نائمين بعد كمية المرح في الليلة الماضية. هل ذهبتِ إلى الكرنفال؟»».

- «أجل».

- «سمعتُ أن ملكتكِ كانت محظوظة بنجاتها».

- «أجل هكذا سمعت، ألم تذهب أنت؟"

هز رأسه نافيًا وقال: «لقد رأيته من قبل، ولا يروق لي الزحام واحتساء الكثير من النبيذ».

- «هل ذهب الشيف لوبان إلى السوق؟». وحاولت أن تبدو نبرة صوتي طبيعية.

- «أجل، غادر مبكرًا. أخبرته أن لدينا مؤونة كافية، لأن لا أحد أكل في الفندق ليلة أمس، لكنه لم يُصغِ لي. كان مزاجه سيئًا لسبب ما، ربما احتسى الكثير من النبيذ ليلة أمس».

تركته يستعد وسكبت لنفسي خبز ومربى وقهوة. ولا أثر للسيد آنجيلو والآخرين حتى الآن، بدأتُ أشعر بالضيق، فإذا لم ينزلوا قريبًا، ستكون مسؤولية تحضير الإفطار الملكي على كاهلي. وكنت أهم بمغادرة الطاولة عندما دخل الدكتور ريد إلى المطبخ وقال بلكنته الاسكتلندية الناعمة: «أنتِ الآنسة بارتون؟».

- «أجل يا دكتور. كيف لي أن أساعدك؟ هل تطلب الحاشية الملكية شيئًا مختلفًا على الإفطار بعد صدمة ليلة البارحة؟».

- «لا تريد الملكة أي إفطار اليوم، فقد أزعجتها الحادثة حقًا. ولا تشعر برغبة في الأكل وهو أمر غير اعتيادي بالنسبة لها، وستبقى في غرفة نومها. ويريد الكونت فيلهلم أن يُجلَب فطورة إليه في صينية إلى غرفته بأقرب وقت. «فطور مغذي» كما صاغها».

- «وكيف حال الكونت؟ هل جرحه خطير؟».

- «لا، مجرد خدش. وسيتعافى تمامًا بوقت قصير، لكن ليس هذا ما جئت لرؤيتك بشأنه. يبدو أن زملائكِ الطهاة قد تناولوا مثلجات إيطالية من كشك الليلة الماضية، أليس كذلك؟».

- «نعم لقد فعلوا، ولم أتناول المثلجات معهم لأنني كنت أشعر بالبرد».

- «إذًا يمكنني القول إنكِ محظوظة، تمامًا مثل الملكة».

توقفت قليلاً لأستوعب هذا وسألته: «هل هم مرضى؟».

- «حالتهم سيئة. أتمنى أن يكون مجرد تسمم غذائي فحسب، لكنني أشك في كونه زحار بسبب المياه الفاسدة. وآمل ألا يكون التيفوئيد أو أسوأ

من ذلك».

- «أسوأ؟ ماذا قد يكون أسوأ من التيفوئيد؟».

- «الكوليرا. فنحن نعلم أنَّه صُنع باستخدام مياه ملوثة. ولا أعرف فيمَ كانوا يفكرون، يأكلون المثلجات من كشك في الشارع وفي مدينة غريبة! من المحتمل أن المياه المستخدمة جاءت مباشرة من النهر، الذي يستخدم للصرف الصحي للمدينة كذلك».

- «هذهِ أخبار فظيعة».

- «أوافقكِ الرأي. سيكون لديكِ عمل فوق استطاعتكِ».

- «لم أفكر في هذا، كنتُ قلقة على زملائي. تيفوئيد؟ كوليرا؟ قد ينتشر هذا المرض في الفندق».

- «سآخذ احتياطاتي وأبقيهم معزولين. فإذا تمكنوا من حفظ السوائل في أجسادهم فسينجون منها، مع أنني لا أضمن لكِ شيئاً في هذهِ اللحظة، لكنني وبطبيعة الحال سأبذل قصارى جهدي من أجلهم. أقترح أن تغلي بعض الأرز مع القرفة، وسنقدم لهم ماء الأرز ليشربوه، يستقر هذا في معدتهم، وبعد ذلك القليل من مرقة اللحم».

- «كما تأمر أيها الطبيب».

- «وسأتحدث مع سكرتير الملكة وسأطلب منه استدعاء طاهيين فرنسيين لمساعدتك»، توقف قليلاً ثم أضاف: «من غير الممكن ترك فتاة شابة مثلكِ تواجه هذا القدر من المسؤولية وحدها. لكن تبدين راجحة العقل ومتمكنة، وأتوقع أن تمر هذهِ الأزمة بطريقة أو بأخرى».

وبهذهِ الكلمات، ربت على كتفي وغادر.

وقفت مكاني مثل تمثال، أحاول استيعاب كل هذا. كان رفاقي الطهاة مرضى وقد يفارقون الحياة، وربما جلبوا عدوى التيفوئيد أو الكوليرا إلى الفندق وعرّضوا حياة الملكة وحاشيتها للخطر. وأنا ... أنا بالكاد فكرت في مسؤوليتي الجديدة، كنت الطاهي الوحيد المتبقي الذي سيطبخ للعائلة الملكية وحاشيتها. حسناً، ليس أمامي سوى المضي قدمًا، فقررت أن عليهم القبول بوجبات بسيطة وخيارات محدودة حتى تصلني المساعدة.

بدأت العمل، ووضعت الرز والقرفة على النار، ثم أرسلت بطلب عظام البقر وأقدامها لأطبخها لمرضانا. وطبخت عجّة بيض ولحم الخنزير المقدد وأرسلته لغرفة الطعام الملكية، وتمكنت من صنع طبق الكيدجيري والمزيد من اللحم المقدد

للوصيفات وبقية سادة القصر. وملأتُ طبقًا بالصنفين وأرسلته للكونت فيلي المُصاب بيد الخادم، وتساءلت ماذا كان السيد آنجيلو سيختار لوجبة الغداء، عندما نظرت إلى الأعلى ورأيتُ جان بول يقترب مني وقال بصوت رسمي للغاية: «لقد أبلغني طبيبكم الملكي بالأخبار المؤسفة، يؤسفني ما حصل لزملائك. لقد أخبرت طبيبكِ أنني سأضع طاهيين موثوق بهما تحت تصرفكِ. واقترحت أن يقوما بجميع وجبات طعام أفراد القصر، بينما تقتصر واجباتكِ على صاحبة الجلالة وأقاربها من العائلة الملكية فقط، لعلمي بإخلاصكِ الشديد لملكتكِ».

- «شكرًا لك، أنت طيب للغاية. ورأيك يستحق التقدير الوافر».

وأنا أتفوه بهذهِ الكلمات كنت أشعر بعلقم كلماته الأخيرة. إخلاصي الشديد لملكتي! كان يسخر مني من أجل ليلة البارحة، لكنه وعلى الأقل كان يجعل مهمتي محتملة، وربما كان يحاول مساعدتي بصدق.

قررت طبخ طبق سمك مسلوق بسيط ودجاج بالزعفران على الرز لوجبة غداء العائلة الملكية، لديا دجاج بارد من الليلة السابقة. ولطبق

المقبلات، اخترت الكرفس القشدي الذي يحبونه وحساء الفطر. ولدينا كعكة اسفنجية باقية من وجبة شاي الليلة الماضية، نقعتها بالرمّ وصنعت ترايفل سريع. قد يكون طعامًا بسيطًا لكنني لم أقابل أحدًا لا يحب الترايفل الجيد، خاصة إذا أُضيفت إلية كمية كافية من القشدة، وحالما أصبح كل شيء تحت السيطرة، ذهبت لأبحث عن إحدى الوصيفات وأسألها عن أحوال الملكة: «ألا أستطيع تحضير شيء لتأكله؟».

- «قالت إنها لا تريد شيئًا»، قالت الليدي لايتون، «لا تزال منزعجة. ولا جدوى من محاولة التحدث معها عندما تكون في حالة مزاجية عنيدة. بل أشك أنها مصممة على جعلنا جميعًا نرى مدى استيائها من هذه الإهانة الأخيرة».

عدت إلى مطبخي. ولم أحبذ فكرة رفض الملكة تناول الطعام، فهذهِ علامة سيئة لِمَن هم في سنها، هذا يعني أنها تتخلى عن الحياة، وإذا كان ثمّة مرض مميت كالتيفوئيد في الفندق، ستكون أكثر عرضة للإصابة، إذا كانت ضعيفة. وطافت في بالي آخر محادثة لي مع روني بارتون واقتراحه الشائن بأن أطهو شيئًا من شأنه أن يُضعف الملكة لدرجة إنفلونزا بسيطة ممكن أن تهلكها،

وتذكرتُ فجأة أوقاتًا من طفولتي عندما كنت أمرض وألازم الفراش، كانت والدتي تعتني بي وتطعمني لقمات صغيرة لذيذة. فخطرت على بالي فكرة، شرعت بالعمل ثم حملت الصينية بنفسي إلى غرفة الملكة. كان المُنشي المخيف يقف على أهبة الاستعداد خارج بابها، وعندما رآني أقترب صرخ عليّ: «ما هذا؟».

- «إنَّه لصاحبة الجلالة، ليحفز شهيتها لتناول الطعام واستعادة قوتها. هلّا أخذته إليها من فضلك؟».

- «تلقيت تعليمات بتركها وشأنها. لا تريد أن ترى أحدًا، وهي بحاجة إلى الراحة. لذلك اذهبي بعيدًا». ولوح لي وكأنني ذبابة مزعجة.

- «أود أن تأكله بينما لا يزال دافئًا. إذا كنت تهتم لملكتك، سترغب بأن تتعافى بسرعة، ولن يحصل ذلك إذا رفضت تناول الطعام»، وأخذت نفسًا عميقًا لأنه كان رجلاً ضخمًا يسد طريقي وقلت: «إذا لم تأخذه إليها، فسأدخله لها بنفسي».

فقال بغضب: «لن تدخلي غرفة جلالة الملكة أيتها الخادمة الوضيعة».

- «مثلك تمامًا»، أجبته، «أعرف كل شيء،

عنك يا سيد كريم. أعلم أنك لست من عائلة مثقفة، وأنك أُرسلت بصفتك خادم طاولة، وهيِ وظيفة أقل من الطاهي بعدّة مستويات. لذا، تنح جانبًا، وإلا طلبتُ من السير آرثر والدكتور ريد مساعدتي».

- «على مسؤوليتكِ أيتها الفتاة الغبية». قال بغضب وهو ينظر إليَّ شزرًا.

قرعت الباب بحذر شديد، ثم فتحته ودخلتُ إلى غرفة نوم الملكة. لم تكن غرفة كبيرة، وكانت مفروشة بإفراط بالسرير الذي جلبته من إنكلترا معها، بالإضافة إلى خزانة ملابس كبيرة والعديد من الصناديق ذات الأدراج. ونظرًا لكونها في الطابق الأول، لم تكن تطل على المنظر الساحر للخليج مثل نافذتي. وكانت الملكة مستلقية على ظهرها، تبدو مثل دمية صغيرة بين كل تلك الوسائد المخرمة.

فقلت بهدوء: «جلالتكِ».

فتحت عينيها وقالت: «ماذا تريدين؟ قلت أريد أن أكون وحدي».

- «أغفري وقاحتي يا جلالة الملكة»، واقتربت أكثر، «لكن عندما تتعرضين لصدمة، يجب أن

تجددي حيوية نظامكِ. لقد جلبتُ لكِ الشاي الساخن الحلو، والذي من المفترض أن يكون أفضل علاج للصدمة، وصنعتُ لكِ ما اعتادت والدتي أن تعده عندما كنتُ أمرض في طفولتي. إنها بيضة مقلية مع الجنود».

- «جنود؟!» وجلست.

وضعت الصينية أمامها وقلت: «هذا الاسم الذي اعتادت والدتي أن تطلقه على أصابع الخبز المحمص الرفيعة. لأنها تقف منتصبة كالجنود».

- «جنود»، وابتسمت الملكة قليلاً ثم قالت: «لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن تناولت بيضًا مسلوقًا».

- «من فضلكِ تناولي قليلاً منه».

ارتَشفت قليلاً من الشاي وقالت: «هذا ليس شايًا صينيًا».

- «لا، إنه شاي بريطاني اعتيادي، لكنه قوي، وهو ما تحتاجينه في الوقت الحالي».

رفعت بصرها نحوي وقالت: «أنتِ شابة قوية وحازمة ألستِ كذلك؟».

- «ليس دائمًا يا سيدتي. كل ما في الأمر أنني قلقتُ عليكِ. وعندما قالوا إنكِ أردت البقاء

وحدكِ ورفضتِ تناول الطعام، خفت أن تكوني قد تخليتِ عن الحياة وتريدين الرحيل».

نظرت لي وضحكت ثم قالت: «هل ترين أنني أنوي الرحيل هكذا فحسب؟ يا عزيزتي الشابة، ولدت لآداء واجبي، ولا أنوي التخلي عن دوري كإمبراطورة وحاكمة إمبراطوريتنا العظيمة حتى اليوم الذي يدعوني فيه الله إليه. وأتمنى أن يكون بعد سنوات عديدة من الآن. وعلاوة على ذلك، لدي يوبيل للاحتفال به هذا العام».

- «يسعدني سماع ذلك يا سيدتي». لاحظت بارتياح أنها أخذت إصبعًا من الخبز المحمص وغمسته في بيضتها.

قضمت قضمة منه ثم قالت: «لأصدقكِ القول، تعبت من كل هذهِ الجلبة المحيطة بي. تصرفت بناتي كإناث هستيريات يصرخن ويغمى عليهن. أردت أن أُترك وحدي، لأفكر. عندما يواجه المرء فناءه، عليه أن يتوقف قليلاً. وهذهِ ليست المرة الأولى التي يُطلق فيها النار عليّ، كما تعلمين».

- «سمعت بذلك يا سيدتي. أن هناك محاولات عديدة لقتلكِ».

- «وجميعهم رماة لا يجيدون التصويب لحسن

الحظ»، قالت الملكة واعتلت وجهها ابتسامة رضى، «لكن عليَّ الاعتراف أنها زعزعتني هذهِ المرة أكثر مما ظننت. ففي الماضي، كان ألبرت العزيز بجانبي يواسيني ويحميني»، وتنهدت ثم قالت: «ما زلتُ أفتقده حتى بعد كل هذا الوقت. إنَّه جرح لن يلتئم أبدًا حتى انضم إليه مرة أخرى».

- «أفهم أن الكونت فيلهلم أنقذ حياتكِ».

شهقت شهقة ساخرة وقالت: «أظن أنها كانت ضربة حظ أكثر من كونها بطولة. وأعتقد أنه كان يحاول الابتعاد عن الطريق ودفعني جانبًا عن طريق الخطأ. لكننا سنترك العالم يظنه البطل، أليس كذلك؟».

وتساءلت إذا كنت سأتجرأ على قول أي شيء عن الأميرة صوفي، لم تكن لدي الشجاعة لفعل ذلك. أكلتْ المزيد من إفطارها، وكان من دواعي سروري أنها أنهت بيضتها المسلوقة وقالت: «كان هذا اقتراحًا ممتازًا. هل صدرت تعليمات بإعداده لي، أم أنكِ قمتِ بذلك مبادرة منكِ؟».

- «أنا وحيدة في المطبخ في الوقت الحالي يا سيدتي، جميع الطهاة الآخرين أكلوا مثلجات إيطالية في الكرنفال ويعانون الآن من مشاكل في

المعدة»، اعتقدت أنه من الحكمة عدم ذكر مدى خطورة هذهِ المشاكل في الوقت الحالي. سأترك الدكتور ريد ينقل تلك الأخبار لها.

- «قطعًا لا يمكنكِ إدارة مطبخ كامل بمفردكِ؟»، ونظرت إليّ بقلق.

- «لديَّ طاهيين من الفندق أوكلت إليهما مهمة مساعدتي، وسأتولى وجباتكِ الشخصية فقط حتى يتعافى الرجال. لذا، إذا كان لديكِ أيّة أطباق معينة ترغبين بها، أرجوكِ دعي خادم طاولتكِ يعلمني».

- «أحببتُ مذاق الفطر الذي تناولته منذ بضعة أيام. كان لذيذًا للغاية».

- «حسنًا يا سيدتي. سأذهب يوم غد إلى السوق وأجلب مجموعة مختارة من أجلكِ».

عبست في وجهي وقالت: «تبدين فتاة شابة من عائلة جيدة، كيف أصبحتِ طاهية؟ هل كان هذا طموحكِ؟».

- «ليس في البداية يا سيدتي. فقد تيتمتُ منذ طفولتي، وأصبحتُ وحيدة في العالم، وكان عليَّ أن أعيل أختي، لذا كانت الخدمة المنزلية خياري الوحيد. وفي وقت لاحق طورت اهتمامي بالطهي

ووجدت أن لدي قدرًا معينًا من الموهبة لذلك».

- «أليس لديكِ عائلة ممتدة تأخذك بعد وفاة والديكِ؟».

- «يؤسفني القول إن والدي كان منفصلاً عن عائلته، وليس لأمي أقارب». وأدركت أثناء حديثي أنني كنت أعطي تفاصيل عن عائلة بيلا ويفرلي، وليس عائلة هيلين بارتون. هل كان عليّ أختراع كوخًا في يوركشاير بدلاً من ذلك؟ لكن كان من المستحيل الكذب على الملكة.

- «أنتِ طفلة مسكينة. لكن، أعتقد أنكِ سعيدة في وضعك الحالي، أليس كذلك؟».

- «لا يمكن أن أكون أكثر سعادة يا جلالة الملكة. ففرصة إعداد الأطعمة الجيدة والأطباق الغريبة هو حلم كل طاهٍ. وأن أطبخ من أجلكِ، حسنًا، إنه ما يضرب به المثل القائل: الزينة على وجه الكعكة».

ربتت على يدي وقالت: «إذًا، أتمنى أن تبقي معنا لفترة طويلة، مع أنني سأفكر في إيجاد الزوج المناسب لك. ولا أعتقد أنه سيكون من الملائم بالنسبة لكِ أن تتزوجي بمستواكِ الحالي في الحياة».

- «أنا لستُ في عجلة من أمري للزواج يا

سيدتي».

- «ومع ذلك، لا تكتمل الشابة حتى يكون لها زوج وأولاد. لم أشعر بسعادة غامرة لكوني أمًا في البداية، ووجدت أطفالي مملين، لكن انظري إلى ما حققته الآن، لقد وضعت ذريتي في جميع البيوت الملكية العظيمة في أوروبا، وإذا حدث وواجهت أيَّ معارضة، يمكنني أن أدعو الحلفاء من مختلف الدول القوية، لكن يجب أن أعترف أن لحفيدي في ألمانيا أفكارًا كبيرة على ما يبدو، ولا يظهر مقدار الاحترام الذي يتوقعه المرء لجدته الإمبراطورة»، توقفت مؤقتًا تتأمل كلامها وربما تفكر إذا كان يناسبها نقل مثل هذهِ الأفكار إلى خادمة متواضعة مثلي، لكنها واصلت بعد ذلك: «وهذا أحد الأسباب التي دفعتني إلى دعوة الكونت فيلهلم للانضمام إلى الجماعة. يبدو أنه كلب مخلص للقيصر، لذا فإن زواجه من ابنة عمي الصغيرة طارئ في الوقت الحاضر».

فقلت: «أفهم أن صاحبة السمو، الأميرة صوفي، ليست سعيدة بهذا الزواج».

بدت متفاجئة لأنني تجرأت على ذكر هذا وقالت: «وكيف تعرفين هذهِ الأشياء؟ هل تتردد صوفي على المطبخ؟».

- «أوه لا يا سيدتي. وجدتها تبكي ذات يوم، عندما كنا في الحديقة. وكانت مكروبة وحاولت مواساتها».

- «صوفي تميل إلى أن تكون درامية وعاطفية للغاية، وهو ما ورثته من الدم الفاسد لعائلة والدتها، وقد نشأت لتكون شابة مدللة إلى حد ما، واعتادت أن تشق طريقها الخاص بنفسها. يمكنني رؤية أنها تقاوم الزواج من رجل يرغب بوضوح في السيطرة عليها، لكن للأسف، سيتعين عليها أن تتعلم التسوية، ربما يمكنها تعلم كيف تروض زوجها حتى».

- «ولكن إذا كانت لا تحبه؟».

- «الحب؟»، هزت الملكة رأسها وقالت: «أخشى أن الحب لا يدخل في كثير من الأحيان في ترتيبات الزواج الملكي. فهو يتم لأسباب سياسية فحسب، وكل فرد ملكي يعرف ذلك ويقبل به. ستتعلم صوفي قبول مصيرها كما فعلنا جميعاً»، وتوقفت قليلاً، وعبرت ابتسامة صغيرة على شفتيها ثم قالت: «لقد كنت واحدة من المحظوظين القلائل الذين تمكنوا من اختيار شريك حياتهم، وتزوجت من رجل أستطيع أن أحبه من كل قلبي».

ثم أشارت إلى الصينية وقالت: «يمكنكِ أخذ هذهِ الآن. كانت لفتة مدروسة من جانبكِ، وأنا أقدرها كثيرًا. سأتناول غدائي هنا في غرفتي، ولكن إذا استمر الطقس جميلاً في منتصف هذا النهار، سأتجول في الحديقة. اجلبي لي صينيتي وتحدثي معي مرة أخرى، ففي مثل سني، أرحب بوجود وجه شاب جديد».

- «كما تأمرين يا سيدتي». وأخذت الصينية، وانحنيت لها وتراجعتُ لأخرج من الغرفة، لكني اصطدمت بزاوية مزينة ضخمة.

كان المُنشي يحوم في الخارج، وقال لي عندما خرجت: «لقد بقيتِ هناك لفترة طويلة».

- «أجل، أجرينا محادثة رائعة. ستتناول جلالتها غدائها في غرفتها، ولكنها قد ترغب بأن تخرج في جولة في الحدائق بعد ذلك».

ورمقته بابتسامة انتصار ومشيتُ مبتعدة.

الفصل الثامن والعشرون

وما إن عدت إلى أمان المطبخ حتى أدركتُ فداحة ما فعلت. إذا أرادت الملكة أن تتحدث معي مرة أخرى، قد تطرح عليّ أسئلة بخصوص عائلتي وطفولتي، وسيتعين عليّ الكذب، وكل ما أعرفه عن يوركشاير حصلت عليه من قراءة جين إير ومرتفعات ويذرينغ، إنها مستنقعات كئيبة، والريح تصفر عبر المداخن. وسيتعين عليّ أن أشرح لماذا اختار أهلي العيش هناك، ولماذا ليس لدي لكنة يوركشاير. إما ذلك أو قول الحقيقة. هل ستفهم الملكة وتقدر سبب انتهازي لهذهِ الفرصة الوحيدة، أم أنها ستعتبرها خدعة، وترسلني إلى إنكلترا مباشرة؟ لقد كانت مخاطرة لا يمكنني تحملها.

سلقت شرائح سمك موسى من أجلها مع صلصة البقدونس، ثم أضفت وعاءً من حساء فطر عيش الغراب، وحفنة عنب ،وطبق صغير من الترايفل. وعندما قدمته لها، حدقت فيه لحظات ثم قالت: «من الواضح أنكِ ظننتِ أني عدتُ إلى الحضانة. ستجلبين لي الحليب والخبز أو العصيدة في المرة القادمة».

احمرَّ وجهي خجلاً وقلت: «أوه لا يا سيدتي،

لقد فكرت ببساطة أن المرء عندما لا يشعر بشهية لتناول الطعام، فإنه يحتاج إلى طعام بسيط ينزلق عبر فمه دون عناء».

- «أنتِ فتاة حكيمة، وربما كنتِ على حق، اتركيني الآن، لا أرغب بأن أُراقَب وأنا أزدرد حسائي، سأرنُ الجرس للخادمة حالما أنتهي».

- «وماذا ترغبين لعشاء اليوم يا سيدتي؟ شريحة لحم ضأن؟ أم دجاجة صغيرة؟»،

رفعت بصرها نحوي، كانت عيناها يافعتين تتلألآن وقالت: «لا، أظن أنني قد تقاعست وقترت همتي ما يكفي. سأتناول طعامي مع العائلة هذهِ الليلة في غرفة الطعام، وأُفضّل تناول البط».

ابتسمت وقلت: «هذهِ أخبار جيدة. سأفعل ذلك يا سيدتي».

ابتسمت وقالت: «ولن تنسي فطر عيش الغراب غداً، أليس كذلك؟»،

- «بالطبع لا يا سيدتي، سأذهب إلى السوق في الصباح الباكر».

وعندما تراجعت مبتعدة، قالت: «لا ترهقي نفسكِ في العملِ. سنتفهم إذا كانت طاولة الطعام أقل تفصيلاً ودقة من المعتاد. أدركت من

يضني المسلوقة هذا الصباح أننا في بعض الأحيان نقدر طعم الأشياء البسيطة، وليس عندما تُخفى المكونات الجيدة تحت عدد لا يحصى من الصلصات».

- «صحيح تمامًا يا سيدتي. إذا كانت المكونات نفسها عالية الجودة، فيجب أن تتحدث عن نفسها».

انحنيتُ لها، وأنا أفتح الباب رأيتُ المُنشي يحوم خارجه وسألني: «هل تتعافى جلالتها؟ هل تحتاجني لمساعدتها في أوراقها؟».

- «خادمكِ الهندي هنا يا سيدتي»، قلت لها، «هل تريدينه أن يدخل؟».

- «بالطبع لا. لقد أخبرته بهذا مسبقًا. من غير اللائق أن يرى أي رجل الملكة بثوب نومها، وقطعًا ليس رجلاً يفرض دينه على نسائه أن يتغطين ويبقين محبوسات في قصور الحريم. أخبريه أنني سأستدعيه عندما أكون مستعدة للخروج لاحقًا».

كم وددتُ أن أقول لها شيئًا، أُعلمها بمدى قلق أفراد أسرتها بشأن هذا الرجل وعلاقاته بالمحرضين الهنود الخطرين، لكن الطاهي لا ينصح الملكة.

أغلقت الباب واستدرت إلى الهندي وقلت:

- «تقول جلالة الملكة إنه ليس من اللائق أن تدخل عليها وهي في الفراش، وليس من المقبول أن ترغب في الاطلاع على أي أوراق رسمية». وأضفت الجزء الأخير من عندي.

عدت إلى المطبخ وبدأت أفكر في تحضير العشاء، لم أطبخ بطة في حياتي. بحثت في كتب الطبخ لدينا، وجدت فيه مئات الطرق لطهي البط، ولكن ثمّة أيضًا تحذيرات من أن البط دهني، وأن الجلد لا يكون فاتحًا للشهية إلا إذا كان مقرمشًا، ولكن يجب ألّا يجف اللحم الموجود أسفل الجلد. وفي النهاية، كان عليَّ أن أبتلع كبريائي وأذهب إلى جان بول.

- «أعتذر لإزعاجك يا شيف، لكن الملكة طلبت بطة لعشاء الليلة، وأخشى أننا لا نأكل البط كثيرًا في إنكلترا. هل يمكنك أن ترشح لي طبقًا أعدّه».

تمعنتني تلك العيون السوداء لحظة، اعتقدت أنه سيرفضني، ليجعلني أفشل، لكنّه قال: «أنا أيضًا وضعت بطة على القائمة هذهِ الليلة. اذهبي واحضري بطتين إضافيتين من خزنة اللحوم، وستعدينها معي».

- «لا أستطيع أن أشكرك كفاية».

- «من واجبي مساعدة الطهاة الجدد»، قال بتزمت، «لا سيما الطهاة الزوار من بلاد أخرى».

جلبت بطتنين نظيفتين وجاهزتين للطبخ لحسن الحظ، لأنني لستُ ماهرة بنزع الرؤوس والأقدام.

- «بطة مشوية بسيطة مع صلصة برتقال، قد تكون طريقة جيدة للبدء. يكمن السرّ في وخز الجلد في أماكن كثيرة، ووضعها في فرن متوسط الحرارة لمدة ساعة، ثم نخرجها ونتركها حتى يسيل دهنها، ثم ندهنها بالزبدة ونضعها في فرن ساخن حتى ينضج الجلد ويصبح مقرمشًا».

- «هل هذهِ هي الطريقة التي ستقدم بها البط الليلة؟».

- «لا، ستكون إهانة لمواهبي. سأقدم طبق صدر البط التقليدي، صدر بط مطبوخ بدهنه حتى يصبح الجلد مقرمشًا، ثم أقدمه مع الفطر وخل البلسمك والعسل المحلي».

- «وهل تعتقد أنني لستُ قادرة على طهي هذا الطبق؟». سألته بغضب.

- «أردتُ أن أجنبكِ عناء العمل الكثير»، أجابني، «ليس من السهل إدارة المطبخ لأول

مرة بمفردكِ».

- «أنت محق»، قلت معترفة، «سأبقى على طبق البط المشوي الليلة، وربما ستعلمني لاحقًا أسرار صدر البط».

- «ربما».

تساءلت ماذا يمكن أن أقدم بالإضافة إلى البط، شيء لا يحتاج إلى الكثير من التحضير أو البراعة، ثم قررت أن أعد للحاشية الملكية حساء البويابيس، وهو حساء أسماك بحرية غني من أطباق المنطقة المحلية، وسأخاطر بوضع الثوم فيه أيضًا، لاحظ جان بول رائحة ما أطبخ وعلق قائلاً: «آه، لقد قررتِ الآن أن طعامنا المحلي يستحق الأكل».

- «أحاول أن أبقي القائمة بسيطة قدر الإمكان لأتجنب التحضيرات الكثيرة في اللحظة الأخيرة، وصنعت أواني القشدة بالشوكولاتة للتحلية».

ومع أن الأطباق لم تكن معقدة، إلا إنني كنتُ متعبة للغاية، وقررت أنني بحاجة إلى هواء نقي، فقد بدأتُ عملي منذ الفجر، نزعت القبعة والمئزر وخرجت إلى الحديقة، كان يومًا رائعًا ودافئًا يَعِد بقدوم الربيع، ووقفت تحت مظلة شجرة صنوبر

أتنفس رائحتها، حتى سمعت أصواتًا وأدركت أن حاشية جلالة الملكة كانت أيضًا في الحدائق. يا لغبائي! نسيت أنها قالت إنها تريد أن تتجول في الخارج. كانت الأصوات تتجه نحوي، وكانت الفكرة الوحيدة المطبوعة في ذهننا نحن الخدم هي ألا يرانا أسيادنا نهائيًا، وآخر شيء أردته أن تراني الملكة وتتحدث معي بحضور عائلتها، وقد تطرح علي المزيد من الأسئلة بخصوص طفولتي. انكمشت خلف شجرة الصنوبر عندما اقتربت الجماعة الملكية، كان المُنشي يدفع كرسيًا مدولبًا تجلس عليه الملكة، وأحفادها بجانبها والأميرة بياترس تتبعهم بطاعة برفقة طبيب الملكة وإحدى الوصيفات. ولم يكن جذع شجرة الصنوبر عريضًا ما يكفي ليخفيني خلفه إذا اقتربوا، فحاولت الهرب عبر شجيرات الأزهار العالية، الدفلى والغاردينيا والكاميليا، كانت مزهرة بالكامل، ورائحة الأزهار مسكرة، وعندما شققت طريقي بين الشجيرات، سمعت صوتًا معدنيًا وارتطم شيء ما بالأرض، فسحبت أحد الأفرع جانبًا ومددت رأسي لأرى التربة تحته، كان هناك مسدس، حاولت ألا أخدش أو تفقع عيني، انحنيتُ بحذر لالتقطه، وأخذته بحذر شديد في حال كان لا يزال ملقمًا. مَن قد يرمي مسدسًا بين الشجيرات؟ ثم خطر لي أن الأناركي

ربما تبع الملكة إلى هنا ليلة البارحة، ليُتمَّ ما حاول القيام به في الساحة، وربما كان هناك الكثير من الناس في الجوار، وربما تعرف عليه أحدهم، فأجبر على رمي سلاحه بين الشجيرات والهرب بجلده. يجب أن أسلمه لأمين سرّ الملكة وسيكون الأمر منوطًا به ليقرر إذا كان الأمر يستحق استدعاء الشرطة الفرنسية. وتساءلت إذا كانوا قد استخرجوا الرصاصة التي ضربت الكونت، وإذا كان كذلك، فهل تستطيع الشرطة تحديد إذا ما كانت الرصاصة قد أُطلِقت من هذا المسدس؟ على أيِّ حال، ربما لا توجد طريقة لربط السلاح بشخص معين.

لم يكن السير آرثر في غرفة الجلوس، وقال أحد سادة القصر أنه لم يره منذ وجبة الغداء: «لا بد وأنه هرب ليأخذ قيلولة». وانتبهت أنني كنت أحمل مسدسًا فأخفيت يدي في ثنايا تنورتي. ترددت قليلاً ثم قررت أنه أمرٌ خطير كفاية لإيقاظه إذا لزِم الأمر. نقرت عدة مرات على بابه قبل أن يظهر أشعث الشعر يحدق في وجهي وقال بشراسة: «ماذا تريدين؟»».

- «أعتذر لإزعاجك يا سير آرثر، لكنني كنت أسير في الحديقة، ووجدت هذا السلاح ملقى بين

الشجيرات. وتساءلت إذا كان هو السلاح ذاته الذي أطلق النار على جلالة الملكة بالأمس».

سلّمته المسدس، وحدق فيه، وفحصه وهو في يده الكبيرة، وشاهدت تعابير وجهه تتغير.

- «ربما يكون كذلك. جاء الشاب إلى هنا ليطلق رصاصة أخرى عليها لكنه لم يحظَ بفرصة، أو تعرف أحدهم عليه فهرب بسرعة. شكرًا لكِ يا عزيزتي، كنتِ حكيمة عندما جلبتِه لي، فثمّة رجل من سكوتلانديارد في طريقه إلى هنا لتولي مسؤولية أمن صاحبة الجلالة من الآن فصاعدًا. وسيعلم ماذا يفعل».

- «ألا تعتقد أن الشرطة الفرنسية يجب أن تحصل عليه؟»، سألته بحذر، «بعد كل شيء، هم مَنْ يعرفون أناركيّ المنطقة، الذين ربما يخططون لاغتيال الملكة».

- «سنرى ما يقرر كبير المفتشين رالي القيام به. أنا شخصيًا أخشى أن تكون الشرطة المحلية مجموعة من الحمقى المتذمرين، لكن هذا مجرد تحيزي ضد الفرنسيين». وأطلق ضحكة مكتومة باقتضاب وأغلق بابه.

وعندما بدأت نزول السلم، سمعت صوت امرأة

تصرخ. أجل «تصرخ» الكلمة المناسبة لصوتها.

- «أين هو؟ يجب أن تعرف. إنَّه غير موجود! لقد اختفى. هل أخذته؟ أنا متأكدة من أنك فعلت ذلك، فأنت لعبة بيد ذلك الطبيب ألستَ كذلك؟».

ولم أجرؤ على التباطؤ أكثر، إذ ليس من المفترض أن يتنصت الخدم على أحاديث أسيادهم، ولكن عندما نزلت من القاعة الضيقة عائدة إلى المطبخ، كاد الفضول يقتلني، فقدت إحدى نساء العائلة الملكية شيئاً ذا قيمة، ولا يمكن أن تكون الأميرة بياتريس أو الليدي ليتون، لأن كلاهما في الحديقة مع الملكة. الأميرة هيلينا إذاً؟ الأميرة غير المستقرة التي كانت تريدني أن أشتري لها المخدرات. هل هذا ما ضاع منها؟ مخزونها من المخدرات؟ لكنها استخدمت ضمير المذكر. فتوقفت في منتصف الطريق، هل يُعقل أن يكون الشيء المفقود «مسدس"؟ وهل سرق أحد نزلاء فندق إكسلسير ريجينا مسدس الأميرة ليطلق النار على الملكة؟

عرفت أن هذا ليس من شأني، فقد كنت طاهية فحسب، ولستُ مسؤولة عن أمن جلالتها، لكنني اكتشفت شعوري بولاء قوي تجاهها،

قد تكون الملكة، لكنها سيدة عجوز أيضًا، وكانت ضعيفة. وربما لهذا السبب أرادت القدوم متخفية إلى الريفيرا، إذ لن يرغب أحد باغتيال الليدي بالمورال فحسب. لو أنها جاءت مع حاشية صغيرة واستأجرت فيلا، لمر الأمر على خير. ولكن لا تجلب سيدة عادية جوقة زمارين وخدمًا هنود غريبين معها!

عدت إلى عملي وتبعت توجيهات جان بول لشوي البطة. كان الجلد بنيًا ومقرمشا وشهيًا بعد أن أنتهيت، وصلصة البرتقال التي أعددتها لتقدم معها كانت لذيذة وحادة الطعم، والبوبايبس، الذي تذوقته، كان طعمه لذيذًا، قدمت معه البطاطا المشوية، وبيوريه كرنب بروكسل، وبودينغ المعكرونة.

ولاقى العشاء القبول، وقال الخادم الذي أعاد الأطباق أن الملكة كانت شهيتها مفتوحة وقد أثنت على حساء السمك.

وكان الكونت فيلهلم الشخص الوحيد الذي لم يستحسن الطعام، وكان لا يزال يتعافى في حجرة نومه، وأرسل الخادم ليبلغ أنه اشتكى بمرارة من أن العشاء لم يحتوي على أي لحم جيد وصحي. ولماذا لم يقدم له كل أصناف العشاء، ولماذا لم

يُحضر له الصبي حسن المظهر جيمي عشاءه؟ تساءلت كم من الوقت سيبقى في غرفته إذا شعر أنه يفقد الوجبة الكاملة المقدمة في غرفة الطعام.

جاء السير جيمس ريد إلى المطبخ عندما كنت أزيل كل شيء وقال:

- «لقد تفقدت مرضانا للتو، ويبدو أن لدي أخبار طيبة. أظن أنه بإمكاننا استبعاد التيفوئيد أو الكوليرا، إنه زحار فحسب، مع أن هذا المرض لا يُستهان به، وهو معدٍ، لكنه ليس شديد العدوى. وإذا حظوا بليلة مريحة، أظن أنهم سيتمكنون من تناول مرقة اللحم في الصباح».

- «بالتأكيد يا دكتور. فقد وضعت عظام البقر تغلي طوال فترة ما بعد الظهيرة. سأصفيها وسأرسل قليلاً منها إليهم في الصباح».

قال: «أحييكِ، أنت شابة كفؤ. ستصاب معظم النساء بالذعر من فكرة الاضطرار إلى إطعام حاشية ملكية بمفردها، لكنكِ نجحت في ذلك».

- «شكرًا لك يا دكتور». واحمررت خجلاً.

أويتُ إلى فراشي سعيدة بكلمات الطبيب. لقد طبخت بالفعل للحاشية الملكية بمفردي، ويبدو أن الجميع راضين. ربما سأكون واثقة كفاية لأكون

شيف، وأدير مطبخي الخاص، أو أفتتح مطعمًا حتى، لم لا؟ إذا سار الكبرياء في المقدمة فسوف يتبعه الخزي، كانت والدتي تذكرنا بهذا دائمًا. يجب أن أكون ممتنة لما لدي في الوقت الحاضر.

الفصل التاسع والعشرون

استيقظت في الصباح الباكر، وتذكرت طلب الملكة، ومشيت عبر التل إلى السوق. هبّت ريح شديدة من البحر، وصفعتني بقوة وأنا أنزل الشارع شديد الانحدار، وتشكلت الغيوم في الأفق الغربي، تعد بأمطار لاحقة. يجب أن أنهي تسوقي بسرعة وأعود إلى الفندق قبل أن تبللني الأمطار، سمعت خطى تقترب خلفي وتنحيت جانبًا لأسمح للشخص الذي في عجلة من أمرِه بالمرور، كان جان بول لوبان، الذي فاجأته رؤيتي وقال: «تذهبين إلى السوق في يوم عاصفٍ كهذا؟ أنتِ متفانية في عملكِ حقًا يا مدموزيل، أحييكِ على هذا».

- «طلبت الملكة أن أكرر طبق فطر عيش الغراب الذي قدمتهُ لها. ربما ستكون طيبًا كفاية لتوصي بأي نوع من أنواع فطر عيش الغراب يجب أن أشتريه؟»».

- «بالطبع. وإذا قررتِ صنع حساء سمك مرة أخرى، فإنني أوصيكِ باختيار أسماك طازجة من الأكشاك بدلاً من تلك التي تحصلين عليها من موردي الفندق. لن أقدم طبق سمك إذا لم أختر مكوناته بنفسي من صيد ذلك اليوم».

- «لا أعتقد أنني أجرؤ على تقديم يخنة سمك ليومين متتاليين. تلقيت شكوى الليلة الماضية من الكونت الألماني بأنني لم أقدم له أيّ لحوم حمراء».

- «الذي أصيب؟».

- «أجل».

- «رجل شجاع. سمعت أنّه تلقى الرصاصة لحماية الملكة».

- «ثمّة روايتان مختلفتان لذلك. تعتقد الملكة أنّه كان يحاول الابتعاد عن الطريق واصطدم بها، وبالتالي أنقذ حياتها».

قهقه وقال: «لندع القصة السابقة قائمة، قد تكون فرصته الوحيدة في الحياة أن يُعتبر بطلاً».

مشينا بصمت. ثم تنحنح وقال: «أود أن أعتذر عن تلك الأمسية يا مدموزيل، أدركت على الفور أن فتاة إنكليزية حسنة المنشأ مثلكِ لديها معاييرها الخاصة، فأنتم الإنكليز لا تحبون الاختلاط بالعرق الفرنسي. وربما كنتِ محقة، كان الخوف والانفعال ما دفعكِ للاستجابة عندما قبلتكِ».

لم أعرف ماذا أقول تمامًا، قلت أخيرًا: «خبرتي محدودة للغاية مع الرجال. لكنني أعلم أنني نشأت

على الاعتقاد بأن المرأة الشابة تنتظر الزواج قبل أن ...»، ولم أستطع إنهاء الجملة، لأن الإحراج الشديد عقد لساني، «صدمت عندما دعوتني للذهاب إلى فندق ممك».

عبس وقال: «لكن يا مدموزيل، أخشى أنكِ أسأتِ فهم نواياي. اقترحت أن نذهب إلى فندق ابن عمي لأنني رأيت مدى انزعاجكِ. وظننت أنكِ لستِ مستعدة لسير الطريق الطويل لأعلى التلة، وفكرت أن شرب الكونياك وفرصة للاستراحة قد تنفعكِ».

رفعت نظري إليه، لست واثقة إذا كان عليّ تصديقه أم لا: «قلت إنك تريد أن تتعرف علي أكثر»، أشرتُ إلى كلامه، «وهذهِ الكلمات تعني شيئًا واحدًا لدى الرجال».

ارتسمت ابتسامة على وجهه وقال: «أنتِ محقة. ربما تعني كذلك بالنسبة لبعض الرجال. لكن، مقتضيات عملي تعني أن لدي تجربة محدودة مع النساء، خصوصا مع النساء من عوائل محترمة. لا تحضرني الكلمات المناسبة دائمًا لأصوغ الأمور بصورة صحيحة. لكن في تلك المناسبة، كنت أقصد حقًا المعنى الحرفي للكلمات، ويقتصر الأمر على المحادثة فقط، وربما قبلة أو اثنتين»، ورمقني

بنظرة استفسار ثم تابع، «افترضت، خاطئًا، أنكِ شعرتِ بشيء نحوي كما شعرت تجاهكِ. وأعترف أنني ذهبت إلى الاحتفال بعد احتساء الكثير من النبيذ. هلّا نسينا ما حصل وفتحنا صفحة جديدة؟».

- «موافقة». كانت المشاعر المتضاربة تتقاتل في داخلي. أردت أن أُصدق أن نواياه كانت شريفة، لكن هل هي كذلك؟ وأردت إخباره أنني أيضًا شعرت بشيء ما تجاهه. لكن المواجهات مع أمير ويلز وهؤلاء الرجال الفظيعين في الشارع كانت قاسية في ذهني. وما زلت غير متأكدة من أن نواياه كانت شريفة كما ادعى.

أومأ باقتضاب وقال: «هذا جيد. من الآن فصاعدًا، ستكون علاقتنا رسمية فحسب».

- «رسمية فحسب». كررت كلماته.

وصلنا إلى السوق، وأطلعني جان بول على أفضل أنواع فطر عيش الغراب لكل طبق معين. واشتريت بعضًا منها وتجرأت على إضافة قطعة كمأ - لتُبشر فوق طبق السمك أو الطيور كما قال جان بول - وأخذ لنفسه قطعة كمأ هو الآخر ثم سألني: «هل لديكِ مهام أخرى لإنجازها؟».

- «فكرت بشراء سمك الرنجة الأبيض بما أن الملكة تحبه كثيراً». أجبته.

- «وأنا أيضًا أرغب بزيارة أكشاك السمك»، أجابني، «ويسعدني مرافقتكِ فيما بعد إلى أعلى التل. لكني وعدت بإحضار بعض الكمأ لسيدة معينة، هي مولعة بهذه الأطعمة الشهية»، توقف قليلاً ثم أضاف: «هلّا رافقتِني لزيارتها؟ تسكن في مكان قريب، وبعدها سنصرف ببذخ ونستأجر سيارة أجرة لتوصلنا لأعلى التل».

كنت لا أزال مرتبكة ومضطربة، أجبته بتزمت: «أوه، أنا متأكدة أنك لا ترغب بوجودي عندما تزور صديقتك».

تلألأت عيناه باستمتاع وأجاب: «لكن هذهِ الصديقة قد تجاوزت التسعين، إنها جدتي، وهي تعيش في مكان قريب من هنا».

قلت: «أوه، جدتك».

- «هل سترافقيني؟».

ترددت مرة أخرى ثم قلت: «يجب أن أعود لإعداد طعامي، فأنا مسؤولة عن وجبة الإفطار بالإضافة إلى الوجبات الأخرى».

- «بالتأكيد. كان اقتراحًا متسرعًا من طرفي،

لكن الطهاة لدي تحت تصرفكِ عندما تحتاجين إلى المساعدة، كما تعلمين».

يمكنني رؤية خيبة أمله.

- «أود حقًا زيارة جدتك معك، لكنني أشعر بضغط المسؤولية بشدة، لا يريد أحدنا أن يقع في أية أخطاء عندما تكون مسؤوليته إطعام الحاشية الملكية».

- «أفهم ذلك تمامًا. لكن عليَّ إخباركِ أنني شديد الإعجاب بمهاراتكِ في الطهي وفي تنظيمكِ، بالنسبة لفتاة شابة، أنتِ هادئة جدًا».

فأجبته: «ما خلا تلك الليلة». نظر إليَّ وضحك.

- «إذًا لِمَ لا ترافقيني إلى منزل جدتي لوقت قصير؟ وستقلنا سيارة الأجرة بسرعة إلى أعلى التل، أسرع مما لو تمشينا».

كيف يمكنني الرفض؟! فأجبته: «حسنًا، إذا كنت ترغب حقًا أن أرافقك».

بدا سعيدًا. ذهبنا إلى أكشاك الأسماك، وتأكد جان بول من أنني حصلت على الرنجة البيضاء الطازجة، بينما اختار بنفسه أجنحة سمكة الوَرَنك وكيسًا كبيرًا من بلح البحر.

- «أخبرني كيف تطبخ هذهِ السمكة». قلت

بينما كنا نسير معًا. لم أكن أعرف الكلمة الفرنسية المناسبة لسمكة الوَرَنك.

- «لا ري؟». سألني ثم أخبرني كيفية تحضيرها.

توقعت أن جدته تعيش في المدينة القديمة، مثل والدة كلوديت، لكننا مشينا حتى وصلنا إلى مبنى أبيض جميل محاط بحديقة. كانت جدته تعيش في الطابق الأرضي، وكانت كائنًا صغيرًا وأنيقًا، تعتمر قبعة من الدانتيل الأبيض على رأسها، قبّلت جان بول عدة مرات وهي تدعوه «ملاكي»، وعندما أرادت أن تقبلني، أخبرها جان بول على عجل أنني زميلته في الفندق وأعمل طاهية. فاسترعى ذلك اهتمامها أن تكون امرأة طاهية، ماذا بعد؟ ورأيتها ترمقه بنظرات استفسار.

رفض القهوة والمعجنات وأخبر جدته أنهم يحتاجونني لأطبخ لملكة إنكلترا. أعجبت بي كثيرًا، وعندما أردنا الرحيل أمسكت يدي وقالت: «تعالي لزيارتي مرة أخرى، فالحياة تصبح موحشة بالنسبة لعجوز مثلي. مع أن حفيدي يزورني متى ما سمح له الوقت، هو ولد طيب، ويهتم بعائلته، وهذا أمرٌ بالغ الأهمية، ألا تعتقدين ذلك؟ العائلة؟».

وافقتها. وعندما علِمَت أن والداي متوفيان

وبأن أختي الوحيدة متزوجة، وليس لدي أحد آخر، ابتسمت وقالت: «إذًا سأكون أنا عائلتكِ الجديدة، ما رأيكِ».

- «جدتك محبوبة للغاية». قلت لجان بول ونحن نتجه نحو صف سيارات الأجرة.

- «كما هو الحال بالنسبة لعائلتي جميعًا. عرق من الناس المحبوبين». وابتسم بسخرية.

- «هل يعيشون جميعهم في نيس؟».

- «أجل، والديّ كلاهما. يملك والدي العديد من المشاريع التجارية، بما في ذلك محل معجنات، وأخواتي الثلاثة متزوجات، ولدي درزينة أبناء وبنات أخت، وقد يأسوا مني».

وعندما عدنا إلى الفندق، شعرت بأن شيء ما قد تغير بيننا، كُسر الحاجز بيننا، وتساءلت إذا كانت دعوته لزيارة جدته مقصودة. هل أراد أن يريني أنه رجل طيب يمكن الاعتماد عليه بعد كل شيء؟ مجرد التفكير بأنه أراد طمأنتي كان يبعث على الارتياح.

طهيت الإفطار للعائلة الملكية، وأضفتُ بيضة مسلوقة أخرى للملكة، كونها استمتعت بالأولى، ثم أرسلت المزيد من ماء الأرز ومرق اللحم

البقري الدافئ إلى المرضى الأربعة، وشرعت في إعداد الغداء. سأقدم عجة بيض بالفطر وأحتفظ بذات الطعم الأقوى لطبق اللحم في المساء، ربما سأعد فطيرة شرائح اللحم والفطر؟ سررت بهذهِ الفكرة لأنها سمحت لي بإظهار مهاراتي في صنع المعجنات.

سارت وجبة الغداء بسلاسة. وبينما كنت أتناول غدائي، دخل الكونت فيلهلم الفظيع إلى المطبخ. بدا شاحباً ولا يقف باتزان على قدميه، شعرت على الفور بوخزة تأنيب ضمير لأنني ظننت أنه يبالغ بإصابته.

- «أنتِ يا فتاة، أين الطاهي؟ أريد التحدث معه على الفور».

- «أنا الطاهي يا صاحب السمو. جميع زملائي مرضى. هل يمكنني مساعدتك؟».

- «لم يلائمني الطعام ليلة البارحة، عصيدة السمك التي أرسلت إلى غرفتي. فبلدي بعيد عن أي محيط، ومعدتي غير معتادة على السمك. وما هو أكثر، يجب أن تُزال أوراق الغار قبل أن تقدم».

- «أعتذر يا سيدي. ظننت أنني أزلتها جميعها».

- «كانت ثمة قطع أوراق عار غير قابلة للهضم، لا تدعي هذا يتكرر مرة أخرى، وبالنسبة لغداء اليوم؟ استجمعت شجاعتي أخيرًا لأغادر غرفتي وأتناول طعامي مع العائلة وماذا وجدت؟ وجدت عجة بيض وطبق دجاج! لا لحم مرة أخرى، لا لحم طيب، لقد خسرت الكثير من الدم، وأشعر بالدوار والضعف بسبب الدم الذي فقدته. يجب أن آكل اللحم».

- «سأطبخ فطيرة شرائح اللحم لعشاء هذهِ الليلة يا صاحب السمو»، أجبته، «وهذا سيرضيك»، ثم خطرت لي فكرة رائعة، «ولدي مرق لحم بقري، إذا كان هذا سيقويك في الوقت الحاضر».

- «والآن بدأتِ تتحدثين بعقلانية». وبدا مسرورًا للغاية.

كانت لدي مقلاة تسخن على الموقد، سكبت له كوبًا، فشربه وأصدر صوت رضا بشفتيه.

وضع الكوب على الطاولة وقال: «هذا جيد، سأطلب المزيد من مرق اللحم هذا على فترات متباعدة. احرصي على أن يكون متوفرًا دائمًا».

- «سأفعل هذا بكل تأكيد يا صاحب السمو. هل يمكنني القول إن جرحك يتعافى بسرعة؟».

- «سأشفى بمرور الوقت، وسأتحمل المعاناة بصبر»، وعندما استدار للمغادرة، ترنح قليلاً، وضرب أحد الطاولات بشكل درامي للغاية - أو هكذا ظننت - وقال: «كما ترين، فقد أثَّر فقدان الدم على توازني. يجب أن أستريح مرة أخرى».

راودتني فكرة أنه قد يكون مخموراً. عدت إلى وجبتي فوجدتها باردة، وكنت أسكب لي القليل من الترايفل عندما جاء أحد بوابي الفندق إلى المطبخ وقال: «هل أنتِ المدموزيل بارتون؟».

- «أجل. أنا هي».

- «هناك رجلٌ في الخارج يسأل عنكِ».

- «رجل؟».

- «أجل، رجل إنكليزي بعربة أنيقة».

يا إلهي! لا بد أنه جايلز ويفرلي، كنت أشعر بالحر ومتعرقة وأرتدي مئزر الطبخ، وكنت سأقول إنني لستُ متفرغة لرؤيته في هذهِ اللحظة عندما قال البواب: «يقول إنه قلق جداً عليكِ، لأنه سمع بما حصل للملكة، ولا يمكنه انتظار رسالتكِ. وهو يتوسل إليكِ أن تخصصي له دقيقتين من وقتكِ، فقط لطمأنته بأنكِ بخير وبصحة جيدة».

أخذت نفسًا عميقًا وقلت: «أرجوك أخبره أنني سأوافيه بأسرع وقت، وأرجوك لا تذكر أنك وجدتني في المطبخ فهو لا يعرف أنني طاهية».

- «هذا واضح»، وابتسم ابتسامة واسعة وقال: «قال إنكِ شابة تابعة لحاشية الملكة».

- «وأنا بالفعل تابعة للحاشية الملكية. لكن ليس كما يعتقد. سأغير ملابسي بسرعة».

صعدت راكضة كل تلك الدرجات، وارتديت بلوزة نظيفة ورششت الماء على وجهي وربطت شعري بدبابيس ثم نزلت إلى الأسفل ركضًا من جديد. كان جايلز يقف بجانب حصان وعربة تحت أحد أشجار النخيل الضخمة، بعيدًا عن مدخل الفندق، أشرق وجهه حالما رآني.

- «شكرًا لله، أنتِ بخير. لقد قرأنا الأخبار الفظيعة في الصحف الإنكليزية، وقالوا فيها أن الرصاصة ضربت أحد أفراد الحاشية الملكية، وبالطبع خشيت الأسوأ».

- «أصيب الكونت فيلهلم من ألمانيا، لكن ولحسن الحظ، خدشت الرصاصة كتفه فحسب. وكما ترى، أنا سليمة تمامًا».

- «هل لديكِ بضع دقائق للتحدث؟ يمكننا المشي

في الحدائق، أو العبور إلى المتنزه؟» .

نظرت بسرعة إلى الفندق خلفي وقلت: «بضع دقائق، ربما، لكن لا أريد أن ندخل الحدائق، قد يرانا أحدهم من نوافذ الفندق».

- «هل الملكة صارمة للغاية مع جميع سيدات حاشيتها؟»، سألني وهو يربط حصانه بحاجز، ثم بدأ يبتعد معي عن الفندق إلى المتنزه. «لا تريد أن تلتقي بالشباب بصورة عامة، أم فقط مَنْ تختارهم من الشباب؟».

ترددت قليلاً، كرهت هذا حقّاً، قلت لنفسي: «أخبريه الآن، وضعي حدّاً لهذا». لكني نظرت إلى وجهه المليء بالأمل، ولم أستطع التفوه بشيء، فقلت عوضاً عن ذلك: «لقاء الشباب أثناء خدمتها أمر مستهجن».

- «هل سينفع إذا ذهبتُ لرؤية أحدهم شخصياً؟ أمين سرّها ربما؟ وأكدت له أن نواياي شريفة؟».

- «لا أعتقد أن ذلك سيكون مهمّاً».، والتفتّ لأواجههُ وقلت: «من فضلك أعطني بعض الوقت يا جايلز. أحتاج إلى تحديد أفضل السبل للتعامل مع هذا الأمر».

- «وهل تريدين رؤيتي مرة أخرى؟ هل لدي

أمل؟».

قلت: «أنا أستمتع حقًا بالتواجد معك، لكنني لا أستطيع تعريض وضعي الحالي في المنزل للخطر».

- «أتعلمين، لقد أخبرت والدي عنكِ وهو يتطلع بشدة لمقابلتك. ربما يمكننا دعوتكِ لتناول العشاء برفقة إحدى السيدات».

أصبح الوضع محرجًا للغاية، فقلت له بلباقة كبيرة: «عادة ما يُطلب مني الحضور في ساعة العشاء».

- «سأجد طريقة ألتفُّ بها على ضوابطك الصارمة»، وهز رأسه بحزم ثم قال: «اسمعي. أنا شاب في تمام صحتي ومن عائلة محترمة وأرغب بقضاء الوقت مع شابة من عائلة محترمة بالقدر ذاته. من يمكنه أن يعارض هذا؟»، ثم توقف قليلاً وعادت إليه نظرة القلق وقال: «ما لم. .. أوه، فهمت. ما لم يكن لدى القصر الملكي شاب آخر للارتباط بكِ. أعرف أنهم يقيمون زيجات مرتبة، وربما وعدوا بتزويجك لكونت ألماني فظيع، وقد يكون الكونت الذي أُصيب ذاته».

ضحكت لما قال، وقلتُ له: «أؤكد لك يا جايلز أنني سأرفض الزواج من أي كونت ألماني،

خصوصًا ذلك الكونت. اسمع، كل ما أطلبه منك في الوقت الحاضر هو الوقت. دعني أفكر بأفضل طريقة للتعامل مع هذا، وسأكتب لك من جديد».

تنهد وقال: «حسنًا، أفترض أن هذا أفضل من لا شيء. لقد أعطيتني بصيص أمل».

- «يجب أن أعود. سيلاحظون غيابي».

- «إنه أشبه بتواجدكِ في مدرسة داخلية مبجلة».

- «بالضبط».

- «لا أحسدكِ»، أمسك يدي وقال: «انتبهي على نفسكِ يا بيلا أرجوكِ. حاول أحدهم إطلاق النار على الملكة، ولا أريد أن يحصل لكِ مكروه».

- «لا تقلق سأكون حذرة»، أجبته، «ويجب أن أذهب الآن». وكدت أركض في طريق عودتي إلى الفندق.

اضطرب عقلي، يجب أن أخبر جايلز بالحقيقة على الفور، إنه يجلب العار لأسرته باهتمامه بطاهية مثلي. تساءلت ماذا سيحدث إذا أخبرته بالحقيقة، ألا تريد عائلته أن تنقذني من الحالة الوضيعة التي وجدت نفسي فيها الآن؟ سأتزوج جايلز وأصبح

سيدة فيفرشام، لكن ماذا لو قرروا أن هذه الفترة من حياتي كانت مخزية للغاية؟ والسؤال الأهم: هل أردت التخلي عن كوني طاهية؟ وهل سأكون سعيدة بالجلوس في غرفة الرسم واحتساء الشاي وتبادل القيل والقال، بينما يقوم شخص آخر بطهي وجباتي وتربية أطفالي؟ كان سؤالاً لم أستطع الإجابة عنه.

عدت إلى عملي وصنعتُ أجمل فطيرة شرائح لحم وفطر للعشاء الملكي. وزينت العجينة المقرمشة بالأوراق والكروم، كانت تحفة فنية، وكنت فخورة بها للغاية. وقليت الرنجة البيضاء التي اختارها لي جان بول وقدمتها كطبق أولي، وصنعتُ سلطة ببقايا البطة، وأضفت حساء الفاصولياء وطلبت المثلجات كتحلية.

وكنت فخورة بنفسي وأنا أرتمي على فراشي في الساعة الحادية عشر. وقررت ألا أذهب إلى السوق في صباح اليوم التالي، وأن أسمح لنفسي بفترة نوم مريحة. وفي منتصف الليل، هبت عاصفة قوية، رجرجت نوافذ غرفتي وعوت حول الفندق.

حل الصباح، غير واعد، مثل الليلة البارحة، وكنت سعيدة لأني قررت عدم الذهاب إلى

السوق، لكنتُ غرقت.

وعندما نزلت لتناول الإفطار، لاحظت التوتر في المطبخ. نظر الطهاة الفرنسيين من قوائمهم وقهوتهم وقال أحدهم: «الطبيب الإنكليزي يبحث عنكِ».

- «يا إلهي، هل هناك أخبار سيئة؟»».

- «أظن ذلك. لأن نظرة غاضبة كانت تعلو وجهه»».

يا إلهي. لا بد وأن أحد المرضى قد ساءت حالته، أو ربما كانت تحاليل الدكتور ريد تشير إلى عدوى التيفوئيد. لم أتمكن من تناول أي شيء، ولا يمكنني الذهاب للبحث عنه، كما أنني منعت من الصعود إلى غرف الرجال المرضى. ماذا لو مات أحدهم؟ لم أشعر بأي ارتباط خاص بأيٍ منهم في البداية، عاملني السيد آنجيلو دائمًا بإنصاف، وجيمي كان صبيًا مضحكًا وحقًا، لكن الرجلين الآخرين تجاهلاني حتى هذهِ الرحلة. لكني الآن شعرت وكأنهم عائلتي، ولا يمكن أن أفقد أحدًا منهم.

قضمتُ قطعة خبز صغيرة وشربت كوب قهوة بالحليب، ثم ذهبت لأجهز الفطور. كان الفندق

قد اشترى لنا كل الضأن، فصنعت طبق كلى ولحم خنزير مقدد علمت أن الملكة تحبه. وما إن أخذ الخدم الصواني حتى جاء الدكتور ريد وعلى وجهه عبوس شديد. وقفت وقلت: «أخبار سيئة يا دكتور؟».

- «سيئة للغاية. أخشى أن حالة الكونت فيلهلم شديدة الخطورة».

- «أوه لا، هل لديه تسمم في الدم بسبب جرحه؟».

- «لا، أعتقد أنه شيء معوي. أخشى أنه بسبب شيء أكله».

- «شيء أكله؟».

- «أجل، هل يمكنكِ إخباري ماذا أكل يوم أمس؟».

- «أجل. أرسلت له صينية فطوره وغدائه، الطعام ذاته الذي أُرسل إلى غرفة الطعام الملكية. وكانت وجبة الغداء عجة بيض بالفطر وفركاس الدجاج. كما أنه جاء إلى المطبخ يشكو من عدم وجود اللحم الأحمر الجيد في وجبته. فأعطيته كوبًا من مرقة لحم بقرٍ التي صنعتها للآخرين. وبالنسبة للعشاء، انضم إلى العائلة

الملكية في غرفة الطعام، وكانت القائمة تتكون من حساء الفاصولياء وفطيرة شرائح اللحم بالفطر وسلطة البط والمثلجات من حلواني الفندق».

- «لم يأكل وجبات خاصة؟».

- «لا. الشيء الوحيد الذي تناوله دونًا عن باقي العائلة الملكية كان كوب مرقة اللحم»، وتوقفت قليلاً ثم أضفت: «هل تظن أنها حالة تسمم غذائي؟ أو ربما انتقلت إليه عدوى المرض الذي أصاب رفاقي؟». وخطرت فكرة على بالي أنه ربما كان يزور جيمي، لم يكن من النوع الذي يتخلى بسهولة عن شيء يريده.

هزّ الطبيب رأسه وقال: «لا، لا أعتقد أنه مجرد تسمم غذائي بسيط».

- «ربما كانت الرنجة البيضاء هي السبب. فقد قال عندما جاء إلى المطبخ أن السمك لا يلائم معدته كونه شخص نشأ بعيدا عن أيّ محيط».

- «وهل كانت السمكة طازجة؟».

- «لا يمكن أن تكون طازجة أكثر، فقد جُلبت من السوق في نفس اليوم، وكذلك الحال بالنسبة لفطر عيش الغراب».

عبس مرة أخرى وقال: «آه، أجل، الفطر، هذا

ما أخشاه. أخشى أنه ربما تناول فطرًا سامًا. ألم تحصلي عليه عبر مجهز الفندق؟».

- «لا، جلبته من سوق البلدة. لكن الشيف لوبان اختاره من أجلي».

- «هذا ليس حكيمًا على الأرجح. فهؤلاء الفلاحون لا يعرفون دائمًا ماذا يجمعون من الغابة، والفطر السام يبدو كالفطر القابل للأكل تمامًا».

- «أوه، بالتأكيد لا، وعلى كل حال، لا بد وأن الشيف لوبان يعرف التمييز بينها. فهو يقدمها لنزلاء الفندق في وجبات العشاء».

- «ومع ذلك، الحوادث واردة، وتبدو حالته وكأنها تسمم حاد من نوع ما».

- «أنا شديدة الأسف. هل ثمّة ما يمكنني القيام به؟».

- «لا شيء، كنت سأقول إننا سنحاول غسل معدته، ولكن مرّ وقت طويل بالفعل. وانتشرت السمّية في نظامه، وأعضائه بدأت تتوقف عن العمل».

- «وهل سيموت؟» خرجت كلماتي همسًا.

- «أخشى أن هذا محتمل جدًا، لا أعرف ترياقًا للتسمم بالفطر، وكما قلت لكِ، فاتنا الكثير

من الوقت. لو أننا غسلنا معدته أو أجبرناه على الاستفراغ، لكانت لدينا فرصة عكس الضرر. لكن الآن، ليس بيدنا حيلة وما علينا إلا الانتظار والمراقبة. أعطيه سوائل وأتمنى أن تكون بنيته قوية ليتجاوز هذهِ الشدة».

غادر وأخذ معه زبدية مرق لحم البقر. شعرت بالسوء، ما الذي فعلته؟ لم يرق لي الرجل، لكني لا أتمنى أن يصيبه أذى بسبب ما اقترفته يداي. ثم انتبهت أنني لا أعرف التمييز بين فطر وآخر، وبأنني وثقت في جان بول، لكن هل أوقع بي؟ ثم تسللت فكرة مقلقة أخرى إلى عقلي: ماذا سيحدث لي إذا تبين أنني سممت أحد أفراد العائلة الملكية؟

الفصل الثلاثون

وردتنا أنباء وفاة الكونت فيلهلم قبل نهاية اليوم. لقد توقف قلبه. وأمرت الحاشية الملكية بالحداد، ولأن أغلبنا لم يجلب معه ملابس سوداء، وفروا لنا شارات سوداء، وطبخت ديكًا مخصيًا مشويًا بسيطًا وبودينغ الرز، واعتقدتُ أن هذا يتماشى مع الحالة المزاجية، لكنني شعرت بقلق شديد وذنب جسيم لدرجة لم أستطع التركيز على إعداد حتى أبسط الأطباق. لقد مات الكونت، لقد قتلته! كان الطهاة الفرنسيون فضوليين بطبيعة الحال، فأخبرتُ جان بول بما حدث.

عبس لافتراضي وقال: «فطر عيش غراب مسموم؟ هذا غير ممكن. فأنا أتعامل مع هذا الرجلِ منذ سنوات، وأثق فيه للغاية، لا يمكن أن يخطئ. وبالإضافة إلى ذلك، اخترتُ الفطر بنفسي، ويمكنني تمييز الفطر الجيد من السام».

- «الطبيب متأكدٌ تمامًا من أن الكونت مات متأثرًا بالسم، وليس ثمّة مكون آخر في الوجبة يمكن أن يُحدث هكذا تأثير».

- «أنا آسف حقًا»، كان جان بول ينظر إليّ بقلق، «لا أعرف ماذا أقول. لقد وضعتكِ في

موقف لا تُحسدين عليه».

- «أعلم. وأشعر بالسوء، ماذا سيحدث لي الآن؟ وهل سأتحمل المسؤولية؟».

- «لا أرى كيف يمكن لأحدهم أن يحملكِ مسؤولية هذا الحادث. وإذا كان على أحد أن يتحمل الملامة فسيكون أنا. أنا الذي اخترت الفطر، لكنني أقسم لكِ بشرف سمعتي كطاهي، لا توجد أنواع سامة بينهم».

أومأت برأسي محاولة طمأنة نفسي وقلت: «كل ما يمكنني التفكير فيه هو، ماذا كان سيحدث لو أن الملكة أكلت من هذا الفطر؟».

لاحظتُ أن الفكرة لم تخطر له من قبل، فقال: «لنحمد الله القدير أنها لم تفعل. هي امرأة محظوظة، ويبدو أنها تعيش حياة مَرَقية، نجت من الموت مرتين في أسبوع واحد».

- «هل سيكون ملائمًا لو طلبت منكَ أن يقدم طهاتكَ الطعام للعائلة الملكية أيضًا حتى تُحل هذهِ المسألة المأساوية؟ من الواضح أنني موضع شكوك، ولا أريد أن يتناولوا طعامهم بارتياب. وبما أننا في حداد، يجب أن تكون الوجبات بسيطة».

- «بكل تأكيد. ولا تقلقي، أنا متأكد من أن

التحاليل ستجرى وستزال كل الشكوك والملامة عنكِ. من المحتمل أن هذا الشخص انتحر بتناول دواء معين».

لا أظن أن الكونت فيلهلم من النوع الذي يُنهي حياته، فقد كان معجباً بنفسهِ حد الغرور.

قضيتُ يومًا بائسًا، لم يحرز المرضى الأربعة تقدمًا يُذكر، لقد تجاوزوا مرحلة الخطر لكنهم كانوا جميعًا ضعفاء للغاية. تناولت القليل من الطعام بصعوبة وأويتُ إلى فراشي بأسرع ما يمكنني. وما إن أنهيت فنجان قهوتي في صباح اليوم التالي، حتى استدعيتُ إلى غرفة الجلوس في طابق الفندق الأول. كان الدكتور ريد هناك، وكذلك السير آرثر بيغ ورجل لم أره من قبل.

قال الدكتور ريد: «تعالي يا آنسة بارتون، أقدم لكِ كبير المفتشين رالي المسؤول عن أمن المملكة، استُدعي من لندن فورا بعد محاولة اغتيال صاحبة الجلالة. يود أن يطرح عليكِ بعض الأسئلة».

أومأتُ له، دون أن أرفع عيني عن الوافد الجديد. كان يجلس بارتياح في كرسي بذراعين، لكنه كان يتمعني بعينين ضيقتين متبصرتين داكنتين ورأسه مائل إلى أحد الجوانب وأنفه معقوف كنقار، ذكرني ببعض أنواع الطيور

الجارحة.

- «أنتِ الفتاة الشابة التي طبخت الفطر الذي قتل الكونت الألماني؟».

- «طبختُ وجبتين تحتويان على الفطر»، أجبته وأنا أقابل تحديقه بما أملتُ أن يكون تحد واثق، «ولا أعرف إذا ما تمَّ التحقق من المُسبب الحقيقي لموت الكونت فيلهلم».

قال الدكتور ريد: «يبدو أنه تسمم إلى حدٍ كبير، وتشير الطريقة التي توقفت فيها أعضاؤه، أنَّه ليس عسر هضم بسيط، وإنما الفطر كان السبب».

كان الرجال الثلاثة يحدقون بي، وشعرت وكأنها محاكمة في محكمة قانونية، وحاولت أن أبقى هادئة قدر الإمكان. تنحنح كبير المفتشين الواصل حديثاً وقال: «لقد قيل لي أنكِ لم تحصلي على هذا الفطر من تجهيزات الفندق التي كانت تحت تصرفكِ، وإنّما من مصدر مختلف، صحيح؟».

- «أجل يا سيدي، من كشك في سوق المدينة».

- «ولماذا فعلتِ ذلك؟».

- «هذا الكشك متخصص في بيع الفطر

والكما، ولديه أنواع مختلفة لذيذة، وطاهي الفندق يبتاع الفطر الذي يستخدمه في وصفاته من هذا الكشك، وهو من اختار لي مجموعة متنوعة في هذه المناسبة بما أنني كنت أحضر طبق للملكة، لأنها أحبته في مناسبة أخرى وطلبته مني مرة أخرى».

- «فهمت». ودام الصمت لفترة ليست قصيرة.

- «إذًا، أنتِ لا تستطيعين التمييز بين الفطر الصالح للأكل والسام؟».

- «لا يا سيدي. لقد وثقت في رأي الطاهي المحلي الخبير، وهو طاهي محلي يحظى باحترام كبير».

- «يمكنني أن أوعز سبب هذا الحادث المأساوي إلى إساءة الحكم»، قال كبير المفتشين رالي، «إلا أن محاولة اغتيال الملكة قد جرت مؤخرًا، وأسأل نفسي إذا كان هذا الطاهي أناركيًا أو مناهضًا للملكية أيضًا. وربما كان هو مَن ضغط على الزناد في محاولة الاغتيال الفاشلة ثم لجأ إلى وسائل أكثر دقة».

صحت قائلة: «أوه، بالتأكيد لا».

- «ما مدى معرفتكِ بهذا الرجل؟». وشعرت

بالسخرية في نبرة صوته، وتساءلت إذا رآنا أحدهم نقبل بعضنا في المدينة وهو الآن يلمح إلى علاقة لا جود لها.

- «بصورة رسمية فقط، نحن نعمل معًا في المطبخ، وقد ساعدني الشيف لوبان كثيرًا، وعلمني كيف أصنع الكثير من الأطباق الجديدة، ولا أصدق أنه قد يرغب بإلحاق الأذى بالملكة. في الواقع، لقد أخبرني بسعادته لأن الملكة اختارت القدوم إلى نيس، لأن حضورها كان السبب في افتتاح فندق جديد، وأعطاه الفرصة ليطهو للزوار الأجانب».

- «وإن يكن، لا يمكننا استبعاد أن يكون لأحدهم نوايا شريرة ويستغل فتاة شابة لتنفيذ مخططه». قال السير آرثر وهو ينظر لي بتعاطف.

- «وقد لا تكون بريئة تمامًا»، قال كبير المفتشين رالي، ولمحت السخرية في صوته مرة أخرى، «منذ متى وأنتِ في خدمة جلالة الملكة؟».

- «منذ سبتمبر يا سيدي».

- «آه، إذًا أنتِ وافدة جديدة إلى القصر الملكي. ومن أين أتيتِ؟».

أدركت فجأة أنني وقعتُ في فخ رهيب، إذا كذبت، سيتمكنون من اكتشاف الحقيقة، وسيشكون فيَّ أكثر، وإذا صرّحت بالحقيقة الآن، فسيرونني محتالة ذات نوايا عدائية. كانوا يحدقون بي.

- «من يوركشاير يا سيدي»، تمتمت الكلمات، «من ملكية السيدة ساوربي».

- «ولماذا تركتِ وظيفتكِ السابقة؟».

- « كانت السيدة ساوربي مسنة، وقررت إغلاق ملكيتها والذهاب للعيش مع ابنها».

- «لكن لندن! هذهِ مسافة بعيدة عن مسقط رأسكِ، أليس كذلكَ؟ ما الذي جعلك تقررين القدوم إلى لندن؟».

- «رأيتُ الإعلان يا سيدي. ومَنْ قد لا يرغب بفرصة الطهي للقصر الملكي؟». ويبدو أن كلامي أرضاهم.

- «أظن أن هذا كل شيء في الوقت الحالي يا آنسة بارتون»، قال الشرطي، «لن نعرف أكثر حتى نستلم نتائج تحاليل السموم في جسد الكونت فيلهلم».

وما إن مشيت خطوتين حتى أضاف: «سنحتاج

إلى التفاصيل الكاملة الخاصة بكِ أيتها الشابة: مكان الولادة، وتاريخ التوظيف، والمراجع».

- «كل هذهِ المعلومات موجودة في القصر يا كبير المفتشين. لقد سلمت معلوماتي الكاملة عندما قدمت طلب توظيف لشغل هذا المنصب».

- «بالضبط»، قال بصوت قاطع، «ليست بحوزتي هنا لأدققها، أليس كذلك؟ لذا اكتبي لي كل شيء»».

فقررت أن الوقت قد حان للوقوف في وجههم وقلت بغضب: «لا أعرف لماذا تعتقد أنني قد أضع فطرًا مسمومًا في فطيرة عن عمد. فإذا كنتَ تعتقد حقًا أنني أردت قتل صاحبة الجلالة، فستكون هذهِ طريقة غبية حقًا لمحاولة قتلها، أليس كذلك؟ بل وعشوائية أيضًا، إذ إن فرصة تناول الملكة لهذا الفطر ستكون ضئيلة، ولِمَ قد أرغب في إيذاء أي فرد آخر من العائلة الملكية؟».

قال السير آرثر على عجل: «نحن لا نقترح أن تكون لديكِ أية نوايا شريرة. من فضلكِ لا تضايقي نفسك يا آنسة بارتون».

- «ولو كنتُ حقًا أرغب بإيذاء الملكة، فقد

أتيحت لي فرص مثالية»، تابعت كلامي، «رَقدَت في سريرها بعد محاولة اغتيالها، وكنتُ أحمل صينية طعامها إليها، وجلستُ بمفردي معها وهي تأكله».

- «هلّا تكرمتِ بكتابة لائحة بكل الأطعمة التي قدمت للعائلة الملكية يومها يا آنسة بارتون»، قال كبير المفتشين، «وهل صدف أنكِ تعلمين إذا كان الكونت فيلهلم قد تناول شيئًا لم تأكله العائلة الملكية؟».

- «ليس في ذلك اليوم»، ونسيت أن أضيف «يا سيدي» فقدت أعصابي، «لكن في أول يوم أصيب فيه، بقي في غرفته وأرسلت له وجباته إلى هناك. ومع ذلك، أكل الطعام نفسه الذي حضّرته لبقية العائلة الملكية»، وترددت قليلا عندما خطر لي شيء آخر، «كان للكونت فيلهلم عادة الدخول إلى المطبخ ...».

- «يدخل إلى المطبخ؟». سألني السير آرثر مرعوبًا.

- «أجل يا سيدي. كانت لديه شكاوى متكررة بشأن الوجبات، وكان يتناول بنفسه أي شيء يرغب به».

قال الدكتور ريد: «هذا غير لائق. هل أبلغتم عن

هذا؟».

- «أجل يا سيدي، لقد اشتكى السيد آنجيلو، رئيس الطهاة لدينا، من ذلك. ولكن دون جدوى».

قال السير آرثر: «نعم، الآن بعد أن ذكرتِ ذلك، تذكرت أنني سمعت شيئًا بهذا الخصوص. لكنني شعرت أن للكونت الحق الكامل في زيارة الطاهي والتذمر إذا لم يرضِه الطعام».

- «هل دخل الكونت إلى المطبخ في اليوم المعني؟ اليوم الذي مرض فيه؟».

- «أجل. لقد كان منزعجًا لعدم وجود لحم أحمر في غدائه. ولم يحب حساء السمك من الليلة السابقة».

- «وهل تذوق أي شيء في المطبخ؟».

قطبت حاجبي أفكر وقلت: «لا. في الواقع، كان لا يزال الوهن باديًا عليه من إصابته بالطلق الناري. وكان يترنح وغير متزن»، توقفت قليلاً ثم أضفت، «أوه، لقد أعطيته كوب من مرقة لحم البقر التي صنعتها لزملائي المرضى. وأعجبته».

- «لا بد وأن هذا قد أزعجكِ يا آنسة بارتون»، قال كبير المفتشين، «أن يتسكع هذا الرجل في

مطبخكِ كما يحلو له».

- «أجل كان مزعجاً للغاية يا سيدي».

أومأ برضا. حدقت فيه بارتياب ثم قلت: «لكن إذا كنت تظن أنني وضعت له السم في طعامه لأمنعه من دخول المطبخ، يؤسفني القول إن هذا سخيف للغاية».

- «لا أحد يقترح أنكِ سممتِ الكونت عن قصد». قال الدكتور ريد بسرعة، لكن يمكنني أن أرى ما يحاول كبير المفتشين ريد افتراضه بالضبط.

- «هل زار مطبخكِ أي أحد آخر؟».

- «الدكتور ريد فحسب، عندما جاء ليبلغني بحالة المرضى».

- «حسناً، يجب أن نتحدث مع الخدم الذين حملوا طعام الكونت إلى غرفته». وجه كبير المفتشين كلامه للرجلين الآخرين.

- «لكن كان هذا في اليوم الذي سبق شراء الآنسة بارتون للفطر»، قال السير آرثر وبدت عليه الحيرة، «ففي اليوم المنشود، قيل لنا أن الكونت أكل طعامه مع بقية العائلة».

- «لكنه زار المطبخ»، لن يترك كبير المفتشين

هذه المعلومة تمر، «هل يمكننا التفكير فيما إذا كان هناك أي شخص لديه ضغينة ضد الكونت؟ وهل من الممكن أن يعمل في هذا الفندق شخص من منطقته في ألمانيا؟ شخص قد يرى في ذلك فرصة للتخلص من حاكم لا يحظى بشعبية؟».

- «إذا كان الأمر كذلك، فعندئذ لا يمكن أن يكون لهذا الحادث المؤسف علاقة بالآنسة بارتون. ولا أعتقد أننا بحاجة إلى احتجازها بعد الآن».

وافق كبير المفتشين: «ربما لا، لكننا سنحتاج إلى كل هذه التفاصيل يا آنسة بارتون. تحسباً».

- «حاضر يا سيدي»، أجبته بتزمت.

وعندما هممت بالمغادرة، قال كبير المفتشين: «يجب أن تبقي هذا الموضوع حصراً بيننا، واعتبري نفسكِ محظوظة لأنك لم تُسَلَّمي إلى الشرطة الفرنسية. أؤكد لكِ أن أساليبهم في الاستجواب لن تكون لطيفة مثلي».

- «لا داعي للاستجواب يا سيدي. إذا كان الفطر الذي طهيته في الفطيرة ساماً بالفعل، فقد كان حادثاً مأساوياً، وأنا آسفة لذلك حقاً». وأومأتُ باقتضاب قبل أن أغادر الغرفة.

ولم أذكر الأميرة صوفي التي ستفرح الآن بوفاة الكونت.

الفصل الحادي والثلاثون

لا أعرف كيف تعثرتُ عائدة إلى غرفتي! وما إن أصبحتُ هناك حتى فتحت النافذة وأخذتُ نفسًا عميقًا من الهواء النقي. لطالما احتقرتُ النساء اللواتي يغمى عليهن، لكنني وفي هذه اللحظة، كان رأسي يرن، وشعرت بأنه سيغمى عليّ بسهولة. من الواضح أن كبير المفتشين اللندني حريص على حل تلك القضية بسرعة، وسينظر في خلفيتي، وما إن يتصل بساوربي هول حتى يعلم أن هيلين بارتون ماتت، وأكون أنا المحتالة، التي لا تنوِ خيرًا، التي انضمت إلى القصر بدوافع خفية. يمكنني تخمين كيف ستؤلف القضية ضدي: سيدة نبيلة ساخطة، حُرم والدها من ميراثه، وفقَد عمله، ربى ابنته لتكون عدوانية ضد جميع الأرستقراطيين.

لكن إذا قلتُ الحقيقة الآن، وذهبت إلى الدكتور ريد والسير آرثر، اللذين يتعاطفان معي على ما يبدو. فلن أكون أفضل حالاً، على أقل تقدير، سأطرد من عملي على الفور. أنا مخطئة مهما قلت أو فعلت، ولا يمكنني التفكير في شخص يمكنه التحدث نيابة عني. قد يقول السيد آنجيلو أنني طاهية جيدة، لكن وإن يكن؟ كنت بحاجة ماسة إلى النصيحة، لرفيقة أنثى. أدركت أنني

كنت وحيدة جدًا منذ وفاة والدتي وإرسالي للخدمة في منزل آل تيلي، عزلت نفسي عن بقية الخدم ولم أتقرب منهم لاعتقادي بأنني أفضل منهم، وعندما انتقلت إلى القصر، استمتعت بالحديث مع السيدة سيمز لكن لم أسمح لنفسي بالتقرب منها، لأنني حملت ثقل سري الذي أخفيه، وأختي الصغيرة لويزا التي كنت أحبها كثيرًا رغم اختلافنا، وكنت الأخت الأكبر والأكثر تحملاً للمسؤولية، لم أخبرها ولا مرة بشعوري.

غرقت الآن في سريري أتوق لوالدتي، ولذراعي امرأة تطوقانني، وتخبرني بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وللمرة الأولى في حياتي، كنت خائفة بحق. وبينما كنت مستلقية هناك، خطرت لي فكرة، بدت الليدي ماري كروزر من النساء الطيبات والعقلانيات، إذا ذهبت إليها وأخبرتها بالحقيقة، ربما يمكنها أن تنصحني بالمسار الذي يجب أن أتخذه. لا يمكنني أن أطلب منها التحدث نيابة عني، لأنها لا تعرفني، لكن على الأقل، قد أحصل على نصيحة امرأة، ويمكنني إخبار قصتي لأحد يستمع لي بتعاطف.

غسلت وجهي وربطت شعري وارتديت فستاني

الجديد ثم نظرت إلى الساعة، لم تتجاوز الساعة العاشرة. هل من اللائق زيارة الأرستقراطي في هكذا وقت مبكر؟ ربما لا، لكن على الأقل أضمن تواجدها في المنزل، كان عليّ المخاطرة.
كان الطقس جيداً بشكل هازئ، والطيور تزقزق فوق أغصان أشجار الصنوبر الكبيرة، وأشعة الشمس المرقطة تتحرك عبر الطريق، وكانت رائحة أزهار الربيع تفوح مع النسيم العليل، لقد كان يوماً للنزهة، وللمشي في الحدائق، ولجولة في عربة جايلز. توقفت قليلاً، أفكر، هل كان شخصاً يمكنني الذهاب إليه؟ لكن ألم أخدعه؟ قد يظن أن الطاهية التي مثلت على أنها عضو حقيقي في حاشية الملكة ستجعل منه إضحوكة إذا عرفت الحقيقة. أخذتُ نفساً عميقاً ومشيت بعزم نحو ڤيلا الليدي ماري.

بدت الخادمة التي ردت على الباب الأمامي مذهولة لرؤية زائر عند عتبة الباب في وقت مبكر كهذا. وقالت بصوتها الفرنسي النقي: «المركيزة ليست جاهزة لاستقبال الزوار. إذا تركتِ بطاقة الاتصال الخاصة بكِ على الصينية، فسأقدمها لها في الوقت المناسب».

- «إنها مسألة ملحة للغاية يا مدموزيل، لن

أزعج سيدتي عادة في وقت مبكر جدًا، لكن من الضروري أن أتحدث معها. هل يمكنك إخبارها من فضلكِ أن الآنسة بارتون تتوسل أن تمنحيها بضع دقائق من وقتكِ؟».

- «سأخبرها»، قالت الخادمة وهي تلمح بأنها لا تأمل بنتيجة جيدة، «ابقي هنا».

انتظرت في الفسحة الرخامية عند المدخل، أتأمل التماثيل وأشجار النخيل في أوانيها، كان كل شيء مثاليًا، وأنيقًا للغاية، ومن المُسلَّمات لأمثال الليدي ماري. وأخيرًا، سمعت أصواتًا قادمة من مؤخرة الڤيلا، ثم جاء صوت من الشرفة أعلى الدرج: «لا أعرف ما الأمر، وخادمتي لا تزال تكمل تجهيز مرحاضي، لكن الفضول غلبني لأعرف الموضوع»، ونزلت الدرج، لا تزال ترتدي رداءً حريريًا قرنفلي اللون مطعم بالفراء، وأقدامها تطقطق على الأرضية الرخامية وهي تنتعلُ خفًا حريريًا ثم قالت: «تعالي إلى غرفة الموسيقى فزوجي في غرفة الصباح يقرأ الصحيفة على ما أعتقد. اجلبي لنا القهوة يا إيڤيت»».

- «حاضر يا ماركيزة». وأسرعت الخادمة في إحدى الاتجاهات.

وتبعتُ الليدي ماري إلى غرفة جلوس يتوسطها

بيانو ضخم، وكانت السجادة بلون أزرق غامق وورق الحائط الحريري بلون أزرق فاتح، والمنظر المطل من النافذة على بركة الأسماك والحدائق خلفها.

- «اجلسي»، قالت بصوت يفتقر إلى الدفء، واختفت ابتسامة لقاءنا الأخير الودية، «والآن، ماذا لديكِ لتدافعي عن نفسكِ يا آنسة؟».

كان كلامها انفجارًا عدوانيًا فاجأني. هل سمعت بموت الكونت فيلهلم مسمومًا؟ وهل تلومني؟

- «حسنًا؟»، تابعت، «وافقت فقط على مقابلتكِ لأنني أتوق لمعرفة من أنتِ حقًا، ولماذا اعتقدتِ أنه من المقبول خداعي بأنك فرد من حاشية صاحبة الجلالة».

مرة أخرى، لم أكن متأكدة تمامًا ما الذي تلمح إليه فقلت: «أنا هنا بصفتي أحد أفراد حاشية جلالة الملكة».

- «لا أعتقد ذلك. كنت أتحدث مع الليدي ليتون وقلتُ لها عن دوركِ الناجح في حفلتنا، فقالت إنه ليس هناك فتاة شابة تدعى هيلين بين حاشية صاحبة الجلالة»، ونظرتْ إلى الأعلى بينما جاءت الخادمة بصينية قهوة، وساد الصمت بينما

كانت القهوة تُسكب في فنجانين ويضاف إليها الحليب الساخن، «هل كانت هذهِ مزحة بالنسبة لكِ؟ ومن أنتِ في الواقع؟»،

- «أؤكد لكِ أنها ليست مزحة. أنتِ مَنْ اقتربت مني، أتذكرين يا ليدي ماري؟ ولم تطلبي مني أية تفاصيل، أردتِ أن يكون شعري الأحمر جزءًا من تابلوه فحسب. ولم تمنحيني الوقت لأخبركِ بأنني جئت من القصر مع الملكة، لكنني لست وصيفتها. أنا طاهيتها».

اتسعت عيناها، ودون سابق إنذار انفجرت ضاحكة: «طاهيتها؟!».

هززت رأسي وقلت: «أجل. وافقت فقط على المشاركة في التابلوه لأنني لم أرغب بردكِ خائبة».

بدت مشوشة: «لكنكِ فتاة من عائلة محترمة، يمكن للمرء تمييز الفتاة حسنة المنشأ، من كلامكِ وتصرفاتكِ. لا يمكن أن تكوني طاهية».

- «أنا طاهية»، قلت لها، «وأنتِ محقة أنا من عائلة محترمة، لكننا عانينا من سلسلة انتكاسات مصيرية، انتهت بوفاة والديّ، وكوني مسؤولة عن أخت صغيرة بدون أي مصدر دخل، اضطررت إلى العمل كخادمة، وأؤكد لكِ أنه كان وضعًا

مؤلمًا للغاية ومحرجًا بالنسبة لي، حتى اكتشفتُ مهارتي في الطهي، أو لنقل شغفي به».

- «يا لهُ من أمر غريب، ويا لها من قصة غير عادية. وهكذا، لاحظ القصر الملكي مهارتكِ في الطهي؟».

- «ليس تمامًا. لا يعرفون قصتي الحقيقية، ولم أشاركها مع أحد حتى الآن، ولهذا السبب جئت إليكِ. يجب أن أقول الحقيقة لشخص ما، ويبدو أنكِ امرأة حكيمة وطيبة».

- «عزيزتي، استمري، كُلي آذان صاغية». وانحنت إلى الأمام في مقعدها.

وهكذا، أخبرتها القصة بأكملها، من السيدة تيلي التي رفضت إعطائي تزكية، إلى مقتل هيلين بارتون، وقراءتي للرسالة والمخاطرة الرهيبة بالتقدم للعمل بدلاً منها.

- « كانت فرصتي الوحيدة، كما ترين. لم أرَ فيها ضرر في ذلك الوقت، فهيلين ماتت، وسيحتاجون إلى طاهٍ آخر ليحل محلها، وكنت أعلم أنني ماهرة».

- «إذًا لمَ الحاجة لقول الحقيقة الآن؟ طالما أنهم قبلوكِ ونلتِ احترامكِ في المطبخ الملكي، ما

الضرر في العمل تحت اسم مستعار؟».

- «بسبب ما حصل للتو»، وأخبرتها بموت الكونت بسبب الفطر السام، «وهكذا، لا أعرف ماذا أفعل»، أنهيتُ كلامي، «وما كنتُ لأزعجكِ لو لا يأسي، ليس لدي أصدقاء هنا ألجأ إليهم».

- «دعيني أفهم هذا»، قالت وهي تحدق خلفي إلى خارج النافذة، «اشتريتِ الفطر من كشك، ويبدو أن أحدها كان من النوع السام، ومات الكونت الألماني نتيجة لذلك».

أومأت برأسي بالإيجاب.

- «خطأ مأساوي، أتفق معكِ. لكن لا أرى كيف يمكن أن تُلامي، فأنتِ اشتريتِ الفطر من كشك متخصص في بيعه، وهو المكان الذي يقصده الجميع لشراء الفطر، وأنا متأكدة من أن خدمي يبتاعون من هناك أيضًا. لم تحملي تجاههم أي حقد أو نوايا شريرة».

- «هذهِ هي المشكلة. لقد جاء مفتش شرطة من لندن، وهو يحاول بناء قضية مفادها أن الفطر كان مخصصًا للملكة، وأنني بطريقة ما جزء من مؤامرة أناركية».

- «هذا سخيف للغاية. إذا كانت هذهِ نيتك،

فما هي احتمالات أن تأكل الملكة بالفعل الفطر المسموم، وليس فردًا آخر من أفراد أسرتها؟».

- «وهذا بالضبط ما قلته. أخبرتهم أن الملكة بقت في حجرة نومها في اليوم الذي تلا إطلاق النار عليها، وأخذتُ لها طعامها بنفسي. كنت سأحظى بفرصة مثالية لدس السم في طعامها حينها».

- «باستثناء إن الفطر لم يكن لديكِ يومها».

- «هذا صحيح».

- «لكن، لماذا بحق السماء قد يظنون أنكِ جزء من مؤامرة أناركية؟».

- «لقد طلبوا مني تزويدهم بمعلوماتي كافة: مكان الولادة، و تاريخ التوظيف، والمراجع ... ألا ترين، ما إن يكتشفوا أن هيلين بارتون الحقيقية قد ماتت، سيعلمون أنني محتالة. وسيختلقون سببًا وجيهًا لاستخدامي الحيلة للتسلل إلى المطبخ الملكي».

تابعت الليدي ماري تحديقها عبر النافذة وقالت: «أجل، أستطيع أن أرى أن هذهِ مشكلة معقدة بالنسبة لكِ».

- «حتى لو ذهبتُ إلى السير آرثر أو الدكتور ريد وأخبرتهما بالحقيقة كاملة، فهذا يعني طردي من

العمل على الفور، أنا متأكدة من ذلك، ومفتش لندن ذاك يتشوق لرفع دعوى ضدي، يمكنني رؤيته يقول إنني خططت لهذا الأمر برمته، فقد كان يشير إلى أنني نشأت على يد أرستقراطي ساخط أراد الانتقام».

- «وما هو اسمكِ الحقيقي؟». سألتني الليدي ماري.

- «إيزابيلا ويفرلي».

- «ويفرلي؟ تقربين للأيرل الحالي؟ والفيكونت الشاب فيفرشام؟».

- «ابنة عمهم».

- «وهل يعلمون بهذا؟».

- «قطعًا لا».

- «أتذكر أن الشاب فيفرشام كان مفتونًا بكِ».

- «أجل. وقد رأيته مرتين، تنزهنا معًا في عربته، وشعرتُ بالسوء لأني خدعته، وحاولتُ مرارًا إخباره أنني لا أستطيع رؤيته مرة أخرى».

- «سيخيب ظنه كثيرًا عندما يعرف ...».

- «عندما يعرف أنني طاهية؟ أعرف ذلك».

- «لا يا عزيزتي، عندما يعرف أنكِ ابنة عمه،

وهذا يعني أنكِ خارج نطاقه». وضحكت.

- «أنا ابنة عم من الدرجة الثانية فحسب. والدي والأيرل كانا أبناء عمومة. وفرع عائلة والدي كان بلا مال ولا ميراث، ووُلِد أبي في الهند ثم أرسل إلى الجيش هناك».

- «هكذا تسير الأمور في العوائل من هذا النوع أليس كذلك؟ يحصل الوريث على كل شيء، ويرسل البقية إلى الجيش أو القانون أو الكنيسة. قد يقول المرء أن هذا ليس عدلاً. لكن لماذا لم تطلبي مساعدة الأيرل بعد موت والديكِ يا عزيزتي؟».

- «ذهب والدي إلى العائلة ليطلب المساعدة ذات مرة وصدّوه. فأخبرنا ألّا نتوقع أية مساعدة منهم».

- «لكن يا إيزابيلا»، ومدّت يدها ووضعتها على يدي، «ربّ ضارة نافعة. جايلز مغرم بك بالفعل، إذا ذهبتِ إليهم الآن وأخبرتهم بمأزقكِ، سيكون لديك حلفاء أقوياء، وأنا متأكدة أنهم سيرحبون بكِ في حضن العائلة، وسيعلم شرطي لندن أن لديكِ نسب جيد، وليس لديكِ سبب لإيذاء أي فرد من أفراد العائلة الملكية».

- «هل تعتقدين ذلك حقًا؟». سألتها بحذر.

- «حبيبتي، انظري إلى نفسكِ. لديكِ أجمل وجه، من ذا الذي يمكنه رفضك؟ لن أتفاجأ إذا طلب جايلز يدكِ للزواج في الحال».

أوه يا إلهي، شعرت بخدي يحترق خجلاً وقلت: «لكن ماذا عن حقيقة كوني عملتُ خادمة ... من المؤكد أنها ستجلب العار والإحراج للعائلة؟».

- «تغاضوا عمّا هو أعظم من ذلك من أجل وجه جميل من قبل. ثم أن الشخصية التي جسدتها «نيل غوين» عاشت حياة مريحة ومرفهة بعد أن اكتشفها الملك تشارلي».

- «لكنه لم يتزوجها. لقد تلقيتُ عرضًا لأكون عشيقة أحدهم من قبل».

- «حقًا؟ أخبريني». ورفعت كتفيها حماسًا.

- «أمير ويلز».

- «ورفضتِه؟ عزيزتي، أنا معجبة بكِ. أنتِ نزيهة حقًا».

- «لم أتمكن ... تعرفين ... مع رجل لا أحبه».

- «أنتِ محقة».

- «وهل تظنين حقًا أن عليَّ الذهاب لرؤية آل

ويفرلي وأخبرهم بقصتي الكاملة؟».

- «أجل».

- «وماذا لو لم يصدقوني أو لم يستقبلوني؟».

- «ماذا ستخسرين حينها؟ ومن وجهة نظري، يجب أن تخبري الحقيقة لأحد ما في حاشية الملكة».

- «وأطرد؟ ثم ماذا؟ لن يكون لدي مرجع ولا مكان أذهب إليه».

أمسكت بيدي وضغطتها وقالت: «تأتين للبقاء معي أيتها الفتاة السخيفة. سأقدمك بصفتكِ ابنة عمي الشابة من المستعمرات، وسأجد لكِ زوجاً مناسباً في أسرع وقت».

رفعت نظري إليها وقلت: «أنتِ لطيفة للغاية، لكنني متأكدة من أن زوجكِ لن يوافق عليّ».

- «زوجي يعشقني ولن يحتج على أي أحد أدعوه للبقاء معي. وقد يجد أرستقراطي فرنسي وسيم ملائم لكِ، إنهم أكثر متعة من الإنكليز في نواحٍ كثيرة، حتى لو كانت لديهم آداب اجتماعية صارمة بشكل يبعث على السخرية»، وتوقفت مؤقتاً لتفكر ثم أضافت: «لكن ما زلتُ أعتقد أن جايلز ويفرلي سيكون زوجاً مثالياً لكِ. إنه شاب

مُرهف الحس، ويحتاج إلى فتاة عقلانية تبُقية محافظًا على القِيَم الأخلاقيّة الرفيعة».

- «هل تعتقدين حقًا أنني يجب أن أذهب لرؤيته؟».

- «بالتأكيد. والأفضل من ذلك، سأدعوه ووالده لتناول الشاي، ويمكنكِ الانضمام إلينا».

- «أنتِ عرّابة خيالية».

ابتسمت بعذوبة وقالت: «من اللحظة التي رأيتكِ فيها، علمت أن علينا أن نكون صديقتين. هذا هو الحال معي عندما أرى شخصًا لأول مرة، إما أعشقه على الفور أو أكرهه».

بدأت بالوقوف وقلت: «يجب أن أعود إلى الفندق في حال أرادوا استجوابي أكثر. هل تعتقدين أن عليَّ إخبار أحدهم بالحقيقة على الفور؟».

- «انتظري وراقبي ماذا سيحدث»، ثم قالت، «لم يثُبتوا حتى الآن أن الفطر قتل الكونت أليس كذلك؟».

- «ليس بعد».

- «حسنًا إذًا، يبدو لي ألا أحد يسأل السؤال الصحيح».

- «وما هو ذلك السؤال؟».

رمقتني بنظرة العارف وقالت: «مَنْ قد يرغب بقتل الكونت؟».

- «أعتقد أن الشرطة تبحث في هذا الجانب. يظن كبير المفتشين القادم من لندن أن هناك أحد من ولاية الكونت في ألمانيا، قد حصل على وظيفة في الفندق لهذا السبب بالذات».

- «حسنًا، ها أنتِ ذا، سيجدون أحد آخر لديه دافع وستكونين بأمان».

- «آمل ذلك».

- «أسرعي بالعودة الآن. يجب أن أنهي ارتداء ملابسي لموعد غداء في مدينة كان، لكنني سأرسل لكِ خبرًا عن موعد قدوم عائلة ويفرلي لتناول الشاي».

- «لا أستطيع أن أشكركِ بما فيه الكفاية».

- «هراء، لقد أسديتِ لي خدمة رائعة في تلك الليلة وها أنا أرد الجميل. ويجب علينا نحن النساء أن نسند بعضنا بعضًا، لاسيما عند التعامل مع رجال غليظي التفكير وضيقي الأفق».

عانقتني باقتضاب، ثم قرعت الجرس للخادمة

لترافقني إلى الباب.

عدت مذهولة، لا أجرؤ على التفاؤل أكثر. هل من الممكن أن أتزوج جايلز؟ والسؤال الآخر: هل أردتُ الزواج من جايلز؟ بالطبع أردت ذلك، كان شابًا حلو المعشر، ولطيفًا، ومسليًا. وهو فيكونت سيرث لقب الإيرل ذات يوم. وسأعيش حياة آمنة. أليس هذا ما تريده كل امرأة؟

الفصل الثاني والثلاثون

وبينما كنت أسير في الحدائق، تحولت أفكاري إلى السؤال المثير للاهتمام الذي أثارته الليدي ماري: كان الكونت هو الضحية المقصودة، لا الملكة. فإذا تمكنت من معرفة مَنْ أراد قتله، سأكون قادرة على إثبات براءتي دون الحاجة إلى الكشف عن اسمي، وافترضت أنه من الممكن - كما اقترحوا - أن يأتي شخص من دولة الكونت إلى هنا بنيّة قتله، وفي هذه الحالة، يمكنني تفهم إطلاق النار عليه، فهذه هي الطريقة الأناركية المعتادة، أليس كذلك؟ لكن وضع فطر سام في فطيرة على أمل أن يختار الكونت القطعة المسمومة؟ كان تصرفاً غبياً للغاية. وعلى أيّ حال، لا بد وأن الشرطي من لندن قد بدأ يتحقق من ذلك، كما سيتحقق من خلفيتي على الأرجح.

توقفت قليلاً، أرتجف مع أن أشعة الشمس الدافئة كانت تسقط على كتفي، يجب أن أفكر وأبدأ بالعمل بسرعة، قبل أن يصلهم الرد من يوركشاير الذي يفيد بأن هيلين بارتون ماتت. حسناً، مَنْ قد يرغب بموت الكونت؟ كانت الأميرة صوفي المشتبه به الواضح، لقد أوضحت أنها لا تريد الزواج منه، لكنها لا تستطيع

العبث بالطعام، وقطعًا لن تضع فطرًا مسمومًا في فطيرتي، ولم تدخل إلى المطبخ قط. ثم فكرت في محاولة اغتيال الملكة، هل الحادثان مرتبطتان بأي شكل من الأشكال؟ بدا الأمر غير مرجح، إلا إنهما وقعتا في وقت قريب، ووجِد المسدس بين الشجيرات في الفندق. إذًا لقد كان مُطلق النار قريبًا في وقت ما، لماذا أخفى المسدس هنا؟ ولماذا لم يأخذه معه ويرميه في المحيط؟

ثم تذكرت الحادث الغريب الآخر: صوت المرأة التي تصرخ بأن شيئًا ما قد فُقد منها. لقد افترضت يومها أنها ابنة الملكة، الأميرة هيلينا، التي تتعاطى المخدرات، وبأن أحدهم قد أخفى المخدرات التي تعتمد عليها، لكن ما علاقة هذا بموت الكونت؟ هل يُعقل أن المسدس هو ما كانت تبحث عنه الأميرة؟ وهل كانت تخشى أن أحدهم أخذهُ ليحاول قتل والدتها؟ وبأنها قد أُقحِمت في الأمر؟ أعلم أنها شعرت بأن والدتها لا توافق على عادتها، وتحاول تخليصها منها، لكن هل يعقل أن تكون غير مستقرة لدرجة أن تحاول قتل والدتها؟ وتُطلق النار عليها في الفوضى والظلام والحشود المتلاطمة؟ بدا الأمر غير مرجح، وهي بالتأكيد لم تقترب من المطبخ نهائيًا.

ولكن ماذا لو أن الكونت لم يكن الضحية المقصودة؟ تذكرت المحادثات الأخرى التي سمعتها، عندما كان السادة يتناقشون بخصوص التخلص من المُنشي الكريه، واقتراحهم بأن يساعدهم الدكتور ريد بتسميمه. لقد سخر الدكتور من الموضوع، لكنه كان الشخص الوحيد الذي يأتي إلى المطبخ.

هل سمم الطعام المخصص للهندي بطريقة ما؟ كان يعلم أننا نصنع أطباقاً نباتية مقبولة في ديانة الهندي - أطباقاً حارة ليست مخصصة للعائلة الملكية - ماذا لو دُسَّ السُم في أحد هذهِ أطباق؟ ولم يستطع الكونت الجشع مقاومة إغراء تناول أي طعام يعجبه. بدا للوهلة الأولى كأنه خط منطقي قابل للتصديق، باستثناء وجود أمر آخر. لقد حاول روني رشوتي للعبث بطعام الملكة نيابة عن أمير ويلز، ولم أفكر ولو لحظة أن الأمير سيسعى جاهداً لينهي حياة والدته، لكن روني بارتون تردد نوعاً ما. يمكنني تخيله يرش مادة سامة في الطبق المخصص لجلالتها، ولن يؤنبه ضميره ولو قليلاً إذا ما سمم الطبق شخصاً آخر في البداية. لكن ما يدحض هذا الافتراض، هو أنَّ روني بارتون لم يدخل إلى المطبخ في أي وقت على حد علمي، بالتأكيد ليس مؤخراً.

والمشكلة أن هذين الافتراضين يعرضانني لخطر أكبر وليس العكس، فإذا حاول الدكتور ريد تسميم المُنشي، فهو قطعًا لن يعترف بجريمته وسيكون لديه كل سبب ليلبسني التهمة. فالخدم قابلون للتبديل، والتضحية بهم سهلة؛ إذ لا يمكنه المخاطرة بكشف المؤامرة التي حيكت بينه وبين رفاقه المتآمرين، وحقيقة كون أحدهم هو اللورد سالزبري يمكنها أن تطيح بالحكومة بأكملها. ربما سأتحدث مع الدكتور ريد على انفراد وأخبره بما سمعت وبأنني لا أريد أن يتحروا عن خلفيتي، ويمكننا الاتفاق على اعتبار الأمر برمته حادثًا مأساويًا ويقفل التحقيق، وبذلك نشتري صمت بعضنا.

تحركت بصعوبة، ذلك أن الريح بدأت تعصف بقوة فجأة، حتى طارت الأزهار بعيدًا. لقد تربيتُ على فعل الصواب، وحقيقة استخدامي لاسم زائف لا تزال تُثقل كاهلي وضميري يؤنبني، لكن هذهِ الفكرة كانت أكبر من ذلك بكثير، إنها إخفاء جريمة. ولم أظن أنني سأذهب إلى الجحيم لاستخدامي اسم شخص آخر، فالله يعلم بالتأكيد نواياي ويأسي في تلك اللحظة، لكن تعمد النظر في الناحية الأخرى عندما تكون جريمة قتل على

المحك؟ لا يمكنني تحمل هذا، مهما كان في الأمر فائدة بالنسبة لي.

انقطعت سلسلة أفكاري عندما سمعت وقع أقدام تتجه نحوي، ولم أكن في مزاج يسمح لي بإجراء محادثات، نظرت لما حولي بحثاً عن مكان أختبئ فيه بين الشجيرات، لكنني كنت في جزء الحدائق حيث المرج الفسيح، وكانت الخطوات تتحرك بسرعة نحوي. فظهرت الأميرة صوفي، تمشي بخطى عجولة، كانت ترتدي السواد، وعلى رأسها خمار دانتيل أسود، مما أعطى وجهها وشعرها مظهراً شبيهاً بالأشباح، وأظهر وجهها كرباً شديداً، كانت تنظر إلى الأسفل ولم ترني، فابتعدت عن الطريق، وكادت تمر عندما أدركت وجودي، ونظرت إلى الأعلى وشهقت فقلت لها: «أعتذر إذا أفزعتكِ يا صاحبة السمو». مع أنني لم أفعل شيئاً سوى الابتعاد عن طريقها.

- «أنتِ؟»، وكأنها بصقت الكلمة، «إنها أنتِ، أليس كذلك؟ أنتِ التي سممتِ خطيبي؟».

- «إذا كان الفطر ساماً بالفعل، أخشى أنني أنا من صنعت الفطيرة يا صاحبة السمو. لكن لم يتأكدوا حتى الآن إذا كان هو ما قتل الكونت».

- «وما عساه يكون غير ذلك؟»، صاحت وهي تحدق بوجهي بشراسة، «إنه الفطر بلا شك، ويقولون إنكِ غبية بما يكفي لشراء الطعام من كشك في السوق، من بائع متجول عادي».

- «أنا آسفة حقًا. اشتريت الفطر من رجل قدّمه لي طاهي الفندق باعتباره بائعًا حسن السمعة، وهو يشتري جميع أنواع الفطر الذي يطهوه من هذا الكشك. لستُ خبيرة في الفطر، فهناك أصناف هنا لم أرَها من قبل، ووثقت في حكمه».

- «لقد أخبرت أمين سرّ جلالة الملكة أنني أريد مقاضاة صاحب الكشك وإبعاده عن العمل. لا ينبغي السماح له بارتكابِ هذا الخطأ الفادح مرة أخرى. وهذا الشيف، مَنْ هو؟ يجب أن يتحمل نتائج خطأه».

- «يا صاحبة السمو، أرى أنكِ مستاءة، وأنا أتفهم هذا تمامًا. لقد أُصبتِ بصدمة فظيعة، بل صدمتان إن صح التعبير، في وقت قصير. أولها رؤية خطيبك مصابًا بطلق ناري ثم موته، وهو يفوق احتمال أي امرأة». ولم أضف أنه لم يكن الشعور الذي أظهرته لي في آخر لقاء بيننا، لكننا النساء كائنات غريبة، ألسنا كذلك؟ لا ندرك

قيمة ما لدينا حتى نفقده.

- «على الأقل كنت محظوظة لأنني لم أشهد إطلاق النار، لأنني لم أحضر الاستعراض، فقد كنت أعاني من صداع يومها، واعتقدت أن ضجيج الفرق الموسيقية والحشد سيكون أكثر من اللازم بالنسبة لي، لذلك تخلفت عنهم».

- «خيار حكيم تمامًا. لقد كان الاستعراض صاخبًا والحشود هائجة، لكنه كان ممتعًا بالنسبة لشخص لم يشهد هكذا استعراض من قبل».

- «لدينا كرنفال في ألمانيا، والعديد من المسيرات. وبالنسبة لي، لم يكن الأمر يستحق الجلوس على مقعد صلب بلا وسادة حتى، حيث يمكن لعامة الناس أن يتأملوا جمالي ويضغطوا عليّ».

ثم أدركتْ أنها كانت تتحدث مع شخص من العامة فقالت: «يجب أن أعود إلى السيدات الأخريات. سيفتقدنني. من المفترض أن نجلس في صمت، في حداد، لكن كان الأمر محزنًا وكئيبًا للغاية لأتواجد هناك، لذلك هربت لحظات».

- «أنا متأكدة أنهم لن يضنوا عليكِ القليل من

الهواء النقي».

- «ليس من اللائق أن نظهر في الأماكن العامة. يجب أن نتحمل حزننا ومعاناتنا بعيداً عن العالم».

وقبل أن تغادر، اقتربت منها وقلت: «أتوسل إليكِ ألّا تنتقمي من صاحب المتجر أو الطاهي عندما تحزنين يا صاحبة السمو».

- «لكن يجب أن يدفعوا جزاء عملتهم، كما ستدفعين أنتِ كذلك. سأطلب من ابنة عمي أن تطردكِ. ليس من الصائب أن تطبخي لعائلتي مرة أخرى».

- «أنا متأكدة من أن الشرطة الفرنسية ستتحقق من بائع الكشك ومن أين يجني فطره. لكن بالنسبة للطاهي ولي، لم يكن لدينا أي وسيلة لمعرفة أن أحد أنواع الفطر كان ساماً. كانت غلطة غير مقصودة».

- «وإن يكن ...». قالت وهي تحدق في وجهي بغضب.

- «ألم تقترفي خطأً في حياتكِ قطُّ؟»، سألتها بهدوء، «وهل عوقبتِ ظلماً بسبب ذلك؟».

قالت بتحد: «لا، أبداً»، كانت تنظر عبري،

وفجأة، رأيتُ ملامحها تتغير، اعتلى وجهها التردد، ونظرة الخوف بانت في عينيها، ثم استدارت لتواجهني وقالت: «يجب أن أذهب، آسفة لأن عليكم أن تدفعوا ثمن هذا الخطأ، لكن على أحدهم أن يفعل». ثم استدارت وابتعدت راكضة عبر العشب.

راقبتها تعبر الفناء الأمامي وتختفي في مدخل الملكة الخاص إلى الفندق. وفكرت في التغير المفاجئ في تعابير وجهها، ذلك الإدراك المفاجئ والخوف. هل تذكرت وقتًا أخطأت فيه؟ أم رأت شخصًا في الحديقة أفزعها؟ فقد كانت تنظر عبري. استدرت لأنظر في ذلك الاتجاه، لكن ليس هناك سوى مرج منبسط، محاط بالشجيرات، ولا أحد على مرمى البصر. ولم أستطع أن أفكر لِمَ قد يتبعها أحد أو يرغب بإخافتها، لكن تحسبًا، توجهت عبر المرج إلى تلك الشجيرات ونظرت بينها، لا أحد، كانت الحدائق مهجورة، ليس فيها غيري. وكانت الشجيرات قد بدأت تزهر، فيها أزهار بيضاء وزهرية متفتحة. هممت بقطف زهرة ثم سحبت يدي في آخر لحظة. لقد ميزتها، إنها أزهار الدفلى. وسمعت صوت الأميرة بياترس في رأسي وهي تقول لأطفالها: «تلك الوردية هي الدفلى. وهي أزهار سامة للغاية».

الفصل الثالث والثلاثون

تسمرت في مكاني كتمثال، أحدق في الأزهار يحركها النسيم. كانت جميلة للغاية، ومميتة للغاية أيضًا. وكانت أوراق الدفلى ناعمة ونحيفة، لا تختلف كثيرًا عن أوراق شجرة الغار ... لقد وضعت أوراق الغار في عصيدة السمك التي صنعتها. وتذكرت تذمر الكونت بشأن أوراق الغار التي تُركت في طبق البويابيس، وكنت متأكدة من أني أزلت جميع الأوراق. في الواقع، الآن وبعد أن فكرت في الأمر، أقسم أنه لم يكن هناك أوراق غار في الحساء، لأنني وضعت الأعشاب في كيس الشاش المعتاد، لذا كان من السهل إزالتها. ماذا لو رشَّ أحدهم أوراق الدفلى على الطعام الذي أرسلته إلى غرفة الكونت؟ يجب أن أجد الدكتور ريد على الفور. عبرت المرج بسرعة كما فعلت الأميرة صوفي.

الأميرة صوفي الرقيقة واللطيفة في السابق، تطالب الآن بمعاقبة كل من له صلة بموت الكونت. كانت هنا في النزهة، وسمعت الأميرة بياترس تحذر أطفالها من أزهار الدفلى.

كانت الأفكار المخيفة تتسارع في عقلي، ادعت الأميرة صوفي أنها عانت من صداع ولم تحضر

الاستعراض، إذًا كيف عرفت أن المقاعد صلبة وأن المنصة الملكية كانت في المقدمة والحشود تضغط عليها من الجوانب؟ ربما وصفت لها المشهد أحدى الوصيفات، أو ربما رأته بنفسها من الجانب الآخر للشارع بينما كانت تنتظر الفرصة لتطلق النار بمسدسها وتقتل خطيبها. أي وقت ومكان أفضل عندما يكون الجميع متنكرين ويرتدون أقنعة وثملين؟ لا بد وأنها أطلقت النار وشاهدت الكونت يقع، وأزالت القناع عن وجهها وأصبحت فجأة فتاة مذعورة تسأل ما الذي حصل، ولهذا السبب وُجِد المسدس بين الشجيرات هنا في الفندق، كان عليها العودة قبل الحاشية الملكية، لذلك لم يتسنَ لها إخفاء المسدس في مكان آخر، كان هذا مجرد افتراض بالطبع، لكن أوراق الدفلى؟ حسنًا، على الأقل يمكنني إثبات سبب وفاة الكونت. ذهبت أبحث عن الدكتور ريد ووجدته ينزل الدرج بعد زيارته للطهاة الأربعة فسألته: «كيف حال زملائي اليوم؟».

- «يمكننا أخيرًا أن نرى الضوء في آخر النفق ونتأمل خيرًا. الشاب تقريبًا جاهز للنهوض والعمل، والرجال البقية لا يزالون ضعفاء، لكنهم وعلى الأقل أصبحوا يحتفظون بالطعام في جوفهم.

وهذهِ علامة جيدة. لأصدقكِ القول، لقد خشيت على حياتهم في مرحلة ما».

- «هذهِ أخبار جيدة».

- «هل تريدين شيئًا يا آنسة بارتون؟».

- «أجل. أردت سؤالك، ما مدى معرفتك بتسمم الدفلى؟».

بدى متحيرًا ثم قال: «الدفلى؟ ليس كثيرًا. أعرف أنه يُفترض أن يكون سامًا».

- «لكن هل تعرف ما هي أعراض التسمم بالدفلى؟».

- «لا يمكنني القول إنني أعرف. لَمَ يهمكِ معرفة هذا؟».

- «لأنني أعتقد أن الكونت لم يمت بسبب فطر سام إطلاقًا، وإنما بسبب أوراق الدفلى، التي وُضعت في طبق عصيدة السمك الحارة الذي أرسلته إلى غرفته عندما كان يتعافى من جرح إطلاق النار. أريد أن أعرف إذا كان السم يستغرق أكثر من يوم واحد ليقتل الشخص. لقد جاء الكونت إلى المطبخ، كما يفعل عادة، ليتذمر بشأن الطعام الذي أُرسل لغرفته، ومن ضمن شكواه، أنني لم أُزِل أوراق الغار من حسائه،

حسنًا يا دكتور، أتذكر بوضوح أن أوراق الغار كانت في كيس مُعار وأعلم أنني أزلته، ولاحظت الآن في الحديقة مدى التشابه بين أوراق الدفلى وبين أوراق الغار خصوصًا إذا كانت مفتتة».

حدق في وجهي بشك ثم قال: «ومَنْ قد يفعل شيئًا كهذا؟!».

- «لدي شكوكي، لكني لن أفصح عنها حتى تفحص الجثة وتتأكد من صحة كلامي».

- «حسنًا. أنا متأكد من أن كبير المفتشين من سكوتلاند يارد سيقول إنكِ متعلقين بالقشة وتحاولين تبرئة اسمك، لكنني أعتقد أنكِ تبدين فتاة شابة متزنة ومحل ثقة، ولا أرى أي سبب يجعلكِ ترغبين بإيذاء أي فرد من العائلة الملكية، لذا، سأفعل ما تقولين. سيتعين عليّ زيارة زميل فرنسي بما أنني متأكد أن كتبي لا تتعامل مع الدفلى. أظن أن الجو شديد البرودة في إنكلترا لتنمو الدفلى». وذهب.

وكل ما يمكنني فعله هو الانتظار، لن أطهو، بقيت بعيدة عن المطبخ تحسبًا لأي شكوك أخرى تطالني، ووجدت نفسي أفكر في جان بول. هو الذي اختار الفطر، ولديه الفرصة ليضع أوراق الدفلى في عصيدة السمك الحارة، وكان

في الكرنفال، واعترف أنه احتسى الكثير من الشراب، ولا أعرف عنه شيئًا عدا كونه طاهيًا موهوبًا وقبلته استثنائية. لكن ماذا لو كان معاديًا للملكية؟ ماذا لو تولى الوظيفة في الفندق بنيَّة التخلص من العائلة الملكية؟ هززت رأسي، لأزيل هذه الأفكار، لا أريد أن أصدق ذلك. كما أنني لم أرغب في تصديق أنني منجذبة إليه كثيرًا، لأنه كان أول رجل يجعلني أشعر بأنني على قيد الحياة.

تناولتُ طعامي في غرفة طعام الموظفين مع البقية الذين تجنبوا الكلام معي، كما لو أنهم خشوا أن تصيبهم وصمة عار ما أصابني. وحاول جان بول التحدث بكلمات طيبة، وعندما رآني أعبث بطبق حسائي، جلب لي طبقًا وقال: - «خذي. جربي تناول القليل من هذه المعكرونة، لقد صنعتها بنفسي. تحتاجين إلى الطعام لتقوي نفسك»،

دمعت عيني لمجرد اكتراثه وقلت: «لا أستطيع ابتلاع أي شيء. كما لو أنني أنتظر فأس الموت يهوي على رقبتي».

وضع يده على كتفي وقال: «ستتجاوزين كل هذا. أنتِ قوية، ولم ترتكبي أي خطأ. وستظهر الحقيقة، أؤكد لكِ. أنا عن نفسي لا أعتقد أن

للأمر أية علاقة بالفطر، ويمكنني القسم بكل المقدسات أن بائع الكشك رجل شريف يعرف تجارته حق المعرفة. وأنا واثق من أنهم سيكتشفون أن الكونت مات بسبب مضاعفات أخرى. ربما أصيب بنفس المرض الذي أصاب زملائك».

- «ربما». ولم أخبره أن كل دقيقة انتظار أخرى تعني أن من المرجح وصول معلومات من إنكلترا تفيد بأن هيلين بارتون ميتة وبأنني محتالة، وحينها لن يصدق أحد كلمة مني. شعرت باليأس، حتى ذكّرت نفسي بأن لدي حلفاء، الليدي ماري كانت إلى جانبي، وآمل أن يكون جايلز ويفرلي أيضًا. لكن ماذا يمكن أن يفعلوا إذا وضع شرطي من سكوتلاند يارد في رأسه أنني مذنبة بارتكاب جريمة قتل؟

مر يوم طويل لم أتلقَ فيه أي شكل من أشكال التواصل. لم يخبرني الدكتور ريد عن آثار التسمم بالدفلى، ولم يصلني خبر من الليدي ماري عن حفلة الشاي مع آل ويفرلي. مرت الساعات ببطء، وتغير الطقس، عصفت الريح وجلبت معها أمطارًا غزيرة لدرجة تعذر معها الخروج إلى الحدائق. جلست وحدي في غرفتي وتساءلت

إذا كان عليّ الكتابة لأختي، أخبرها بالحقيقة كاملة وما حصل لي. هل ستكترث؟ وحتى لو اكترثت، ماذا يمكنها أن تفعل حيال مأزقي الحالي؟ من غير المحتمل أن يكون لعائلة الجزار تأثير يذكر بين الحلقات الاجتماعية الملكية، وربما تكون لويزا في طريقها إلى أستراليا الآن.

ثم خطرت لي فكرة: هل نُظِفت غرفة الكونت بعد وفاته؟ أم أنها تركت كما هي لتفتشها الشرطة؟ وإذا كانت كذلك، هل من المحتمل أن يكون قد أزال قطعة ورقة الدفلى من فمه ورماها على الأرض مشمئزًا؟ قررت المخاطرة والبحث بنفسي. فذهبت إلى الأعلى لزيارة جيمي، كان جالسًا في فراشه، شاحب الوجه، لكن عينيه تألقتا عندما رآني، وكانت النافذة مفتوحة على مصراعيها، لكن رائحة المرض قوية وكريهة، كتمت نفوري بصعوبة.

- «حسنًا، إذا اقتضى الأمر أن أصل إلى الموت بسبب تسمم في المعدة لتزورني فتاة جميلة في غرفتي، فأنا مستعد لذلك».

- «يسعدني أنك تشعر بتحسن. لقد كان الطبيب شديد القلق عليكم جميعًا».

- «وأنا أيضًا. فكرت بأنني سأموت. لم أشعر بألم

أفظع من هذا في حياتي، وأظن أن تجربتي هذهِ ستبعدني عن المثلجات إلى الأبد».

- «أو قد تبتاع المثلجات من المحلات حسنة السمعة في المستقبل. سأكون سعيدة عندما تتمكنون جميعكم من العودة إلى العمل».

- «أعلم. لقد شعرت بالسوء حيالكِ، لا بد وأنكِ تعبتِ كثيراً».

- «لم يكن بذلك السوء. لقد كلّف الشيف لوبان طاهيين للقيام بالجزء الأكبر من الطبخ، وتكفلت أنا بطهي وجبات العائلة الملكية، وكانت النتائج وخيمة. لا بد وأنكم سمعتم بذلك».

- «لا، لم نسمع شيئًا، نحن معزولون هنا. كان الطبيب قلقًا من أن يكون مرضًا معديًا. وكان خادم الفندق يجلب لنا الطعام، وهو شخص نجى من التيفوئيد».

- «حسنًا»، وأخذتُ نفسًا عميقًا ثم قلت: «لقد مات الكونت المفضل لديك. واتهموني بتسميمه».

نظر لي غير مصدق ثم انفجر ضاحكًا وقال: «من حسن حظي أنني محبوس هنا وإلا اتهموني أنا أيضًا».

- «هذا ليس مضحكًا يا جيمي. ثمة شرطي قادم من لندن وعازم على إثبات أنني أنا من سمم الكونت عن عمد».

- «وكيف يفترض أن تكوني فعلتها؟».

- «بواسطة فطر سام، هذا ما يعتقدونه. لكنني لست متأكدة تمامًا، لذا فكرت بإلقاء نظرة على غرفة الكونت. وفكرت أنك ربما تعرف أي غرفة هي».

- «أوه، لقد أتيتِ لرؤيتي فقط لأنكِ أردتِ معرفة رقم غرفة الكونت، أليس كذلك؟».

- «لم يُسمح لنا بالاقتراب منكم حتى اليوم. كنت أسأل عنكم طوال الوقت».

- «لا بأس. لكن المرء قد يأمل؟ أليس كذلك؟ وأنتِ محقة. لقد أعطاني الكونت رقم غرفته، أراد أن أجلب له قلنسوة نوم، لكنني لم أطعه، لستُ مغفلاً».

- «كان لحوحًا، أليس كذلك؟».

أومأ وقال: «أجل. وجع في ... تعرفين ماذا. لا يمكنني القول إنني آسف لموته. لذا، سأفعل أي شيء لأساعدكِ في تبرئة نفسك. إنها الغرفة رقم أربعة وعشرين، فوق الملكة بطابقين».

شكرته ونزلت الدرج مسرعة. كان الوقت منتصف الصباح، شككت في أن يكون أفراد العائلة الملكية في غرفة الجلوس، لن يخرجوا في مثل هكذا طقس. مشيت ببطء عبر الممر المؤدي إلى غرفة الكونت، أرهف السمع لأي إشارة أن الغرفة قد تكون مأهولة، وفكرت بضرورة تحضير عذر جيد. أرسلوني للبحث عن السير آرثر لأن الشرطي اللندني يريده. أجل، هذا سينفع.

وصلت إلى الغرفة رقم أربعة وعشرين، قرعت الباب، وانتظرت، ثم أدرت مقبض الباب فانفتح، وهو ما حسبته تراخ من طرفهم. دخلت إلى الغرفة، كانت الستائر المخملية الثقيلة مقفلة على النوافذ العالية، والغرفة، كما هو الحال في غرفة جيمي، رائحتها رائحة المرض. لقد تقيأ الكونت هنا. مشيت على أطراف أصابعي عبر الغرفة وسحبت إحدى الستائر. وخطر لي فجأة أن الكونت ربما لا يزال في سريره، استدرت وقلبي يخفق بقوة ثم تنفست الصعداء عندما رأيت السرير فارغًا ومرتبًا. لكن هذا جعلني أفكر بأنهم نظفوا الغرفة. بالطبع، إذا تقيأ الكونت على الملاءات، لا بد وأن يغيروها في الحال.

درت حول السرير لكنني لم أرَ أي أثر لأجزاء

ورقة الدفلى. فشعرت بخيبة أمل وكنت على وشك المغادرة عندما وقع نظري على علبة شوكولاتة أنيقة على طاولة بجانب السرير. فتحت غطاءها، تنقصها قطعة واحدة والبقية لم تمسها يد. كان هذا غريباً، لأن الكونت كان شخصاً جشعاً. لو أعطاه أحدهم علبة شوكولاتة، ألن يأكل عدة قطع دفعة واحدة؟ التقطته وأخذته معي. لا يعلم المرء متى يكون مفيداً، ليس للأكل وإنما كدليل. أخذته إلى غرفتي دون أن يراني أحد.

الفصل الرابع والثلاثون

كنت أنزل الدرج عندما التقيتُ بالدكتور ريد.

- «آنسة بارتون»، قال لي، «لقد كنا نبحث عنكِ. من فضلكِ تعالي إلى غرفة جلوس السير آرثر، نريد أن نتحدث معكِ».

تبعته ووجدت السير آرثر ورجل الشرطة اللندني جالسان هناك مسبقًا. كانت الغرفة مليئة برائحة دخان الغليون التي حرقت عيني، وهذا بحد ذاته غير معتاد، إذ لا تسمح الملكة بالتدخين، وحتى أقاربها يدخنون خارج القصر. نهض السير آرثر، وهو رجل ذو أخلاق عالية، على قدميه عندما دخلت، بينما ظل الشرطي جالسًا.

- «جيد أنكِ أتيتِ يا آنسة بارتون»، قال السير آرثر، «اجلسي أرجوكِ».

جلست. وانتبهت إلى تغير نغمتهم، وأن طريقتهم تجاهي قد تغيرت قليلاً.

- «آنسة بارتون»، قال كبير المفتشين رالي، «ما الذي جعلكِ تعتقدين أن الكونت قد يكون مات بسبب تناوله أوراق الدفلى السامة؟».

- «لقد جاء إلى المطبخ يشتكي بخصوص عدة أشياء، من ضمنها عدم تقديم لحم أحمر في غدائه».

ومن الأشياء الأخرى التي تذمر بشأنها أنني تركت قطع أوراق الغار في البويابيس».

- «الـ... ماذا؟»، سألني بحدة.

- «إنها عصيدة سمك محلية»، قلت، «لذيذة للغاية».

- «وهل طَبَختِها بأوراق الغار؟».

- «أجل لكن في كيس الشاش المعتاد، وأزلته قبل تقديم الطبق».

- «وهكذا قفزتِ مباشرة إلى الاستنتاج أن هذهِ لم تكن أوراق الغار بل أوراق الدفلى؟».

- «لا يا سيدي. بدأت برؤية الربط عندما التقيتُ بالأميرة صوفي في الحدائق، كانت تتحدث معي بعدوانية شديدة، وقالت إنها تريد أن نحاكم أنا والشيف وبائع الكشك لقتلنا خطيبها. ثم نظرت عبري فجأة وتغيرت تعبيرات وجهها، رأيتُ الخوف في عينيها ثم هربت. ولم أستطع أن أفكر بما تكون قد رأته لتصدر عنها ردة الفعل هذهِ. ولم يكن هناك أحد في الأفق، كنا واقفتين في مرج محاط بشجيرات الدفلى. تذكرت حينها أننا كنا في النزهة وقد أكدت الأميرة بياترس بشدة لأطفالها على مدى سمية الدفلى». وتوقفت لأرى

رد فعلهم.

- «الأميرة صوفي، أي واحدة منهن؟»، سأل كبير المفتشين.

- «إنها أميرة ألمانية وهي ابنة عم الملكة»، قال السير آرثر، «كانت مخطوبة للكونت».

- «ما الذي تلمح له هذهِ الفتاة هنا، أن الأميرة قتلت خطيبها؟». نظر كبير المفتشين إلى الدكتور ريد للتأكيد.

- «أجل يا سيدي. هذا ما ألمح له».

- «وما الذي يدفعها لفعل هذا؟».

- «صادفتها في يوم النزهة، وكانت تبكي. حاولت تهدئتها وقالت لي أنها لا تريد الزواج من الكونت، ووصفته بالوحش. فحاولتُ التدخل لدى الملكة، لكن الملكة كانت مصرة على أن حفل الزفاف مهم سياسياً وسيجري».

وضع كبير المفتشين غليونه ومال إلى الأمام، يحدق في وجهي وقال: «أنت طاهية، أليس كذلك؟».

- «أجل يا سيدي».

- «ومع ذلك فأنتِ تواسين الأميرات وتتحدثين

مع الملكة؟ هذا يبدو غير محتمل بالنسبة لي».

- «أقترح عليك أن تتأكد من الملكة إذا لم تصدقني».

- «لكن لماذا؟ لماذا قد يرغب أناس برتبة عالية في الثقة بأمثالكِ؟».

قال السير آرثر: «يمكن للمرء أن يرى أن الآنسة بارتون هي سيدة شابة تتمتع بتربية جيدة».

- «قادمة من كوخ في مستنقع يوركشاير؟ بدأت تعمل خادمة في سن الثانية عشرة؟ كيف يعتبر ذلك تربية جيدة؟». سأله الشرطي.

أوه يا إلهي. لقد تحققوا بالفعل من خلفيتي المفترضة الموجودة في ملف في القصر. لا خيار أمامي سوى الالتفاف على الموضوع.

- «لقد كان والدي رجلاً متعلماً. ولسوء الحظ، تيتمتُ في صغري، ولم يكن لدي خيار سوى الذهاب إلى الخدمة»، ثم قررت تغيير الموضوع، «ولكن ما أريد أن أعرفه يا دكتور ريد، هل مات الكونت بسبب تسمم الدفلى؟».

- «هذا أمر وارد للغاية. يتسبب ذلك في حدوث ارتباك ودوار وغثيان وفشل القلب في النهاية، وهو ما أدى إلى وفاة الكونت».

فقلت: «لقد كان يعاني بالفعل عندما دخل مطبخي. تعثر وفقد تركيزه، وكان حديثه غير واضح نوعًا ما. حتى أني ظننته كان ثملاً».

قال كبير المفتشين: «أنتِ أعددتِ عصيدة السمك هذهِ، ثم ماذا؟ هل كانت ثمّة مناسبة يمكن أن يضيف فيها أحدهم هذهِ الأوراق إليها؟»».

- «ليس عندما تكون في المطبخ»، أصبحت أكثر تفاؤلاً الآن وبان هذا في صوتي، «لقد جاء الخادم، وسكبتُ له الطعام ووضعته في صينية. ثم أخذها الخادم إلى الكونت».

- «سألنا الخادم»، قال السير آرثر، «قال إنه كان على وشك إدخال الطعام إلى الكونت عندما وصلت الأميرة صوفي، وأخبرته أنها ترغب بقضاء بضع دقائق مع خطيبها، وعليه أن يترك الطعام على الطاولة خارج الغرفة».

- «ستكون لديها فرصة كبيرة لوضع ورق الدفلى في الطبق وتعطيه الوقت اللازم ليتخلل المرقة». قلت لهم.

أومأوا جميعًا.

قال السير آرثر ببطء: «إذا اتضح بالفعل أنها

الأميرة. وفي هذهِ المرحلة يبدو أن كل الشكوك تشير إليها، ليس لدي أي فكرة كيف سنُثبت ذلك، أو ما هو البروتوكول الذي يجب اتباعه. هل يجب إخبار جلالة الملكة؟ أم يُحجب عنها هذا الخبر المؤلم؟».

- «وماذا عن الأميرة صوفي؟»، سأل كبير المفتشين، «هل تخطط للسماح لها بأن تفلت من العقاب؟».

قال السير آرثر: «يحتاج الموضوع إلى دراسة متأنية. علينا أن ننظر في تداعيات أي حادث دولي، فوالدها رجل نفوذه قوي، ولديه حلفاء في جميع أنحاء أوروبا، الأمبراطور الروماني والقيصر ...».

ووافق الدكتور ريد على ذلك قائلاً: «كما قلت، لا يمكننا أبدًا إثبات ذلك. لا أعتقد أننا سنجعل الشابة تعترف».

قلت: «شيء آخر يجب أن تعرفونه. أعتقد إنها حاولت قتله من قبل».

- «حقًا؟ متى حصل هذا؟»، جلس كبير المفتشين منتصباً ومال نحوي.

- «أعتقد أنها هي من ضربت الرصاص. ولم

تصوّب على الملكة وإنما على الكونت فيلهلم. وكونها غير ماهرة في الرماية، أصابت كتفه فقط».

- «كيف أتتكِ هذهِ الفكرة بحق السماء؟». سألني كبير المفتشين.

- «لم تحضر الأميرة إلى الاستعراض. ادعت أنها كانت تعاني من صداع وتخلفت عنهم. وتذكر يا سير آرثر أنني وجدت المسدس في الشجيرات وأعطيته لك. لو كان أناركيًا، شخصًا غريبًا، لكان لديه أكثر من فرصة ليتخلص من سلاحه، ويرميه بعيدًا، في البحر مثلاً. أعتقد أنها عادت بسرعة إلى هنا ولم تسنح لها فرصة التخلص من المسدس».

- «يا إله السماوات». بدا السير آرثر منزعجًا للغاية. بعكس كبير المفتشين الذي قال ببطء:

- «هل تعرف ما أجده مثيرًا للاهتمام؟ دور هذهِ الشابة في الموضوع. تطبخ الفطيرة لكنها تدّعي أنها لا تعرف شيئًا عن الفطر، وتكتشف علاقة الدفلى لكنها تدّعي أنها لم تضع الأوراق في العصيدة بنفسها، والآن تخبرنا أنها عثرت على المسدس واستنتجت أن الأميرة صوفي أطلقت النار منه لأنه كان في الشجيرات المجاورة للفندق.

كل شيء مرتب قليلاً، ألا تعتقد ذلك؟».

- «ما الذي تلمح إليه بالضبط يا كبير المفتشين؟». سأل السير آرثر.

- «لسبب ما، هي شديدة الحرص على توريط الأميرة صوفي».

- «وما هو دافعها؟».

- «لتنقذ نفسها بالطبع». وبدا سعيداً للغاية بنفسه.

سئمت منه فقلت: «يا حضرة كبير المفتشين، لا أعرف لماذا لديك هذهِ الفكرة في رأسك بأنني وبطريقة ما ضد العائلة الملكية، كان أعظم شرف في حياتي أن أعمل لدى الملكة. وإذا كنت قد ارتكبت هذه الجرائم حقًا، فهل كنت سأخبرك عن الدفلى؟ وهل كنتُ سأحضر المسدس الذي أخفيه للسير آرثر؟».

- «إنها محقة في هذا الخصوص». قال الدكتور ريد. ويمكنني أن أرى أنه إلى جانبي.

- «ربما»، قال كبير المفتشين، «وربما لا. شيء ما ليس صحيحًا تمامًا. لقد تعاملت مع تحقيقات كافية وعدد كاف من المجرمين خلال مسيرتي المهنية الطويلة، لدرجة أنني أصبحت أعرف

عندما يكون شيء ما ليس كما ينبغي، وثمة ما يزعجني بخصوصك يا آنسة بارتون أصبو إلى معرفته».

- «أعتقد أنك تتصرف بقسوة لا مبرر لها يا كبير المفتشين»، قال السير آرثر، «استفدنا كثيراً من مساعدة هذهِ الشابة وحدسها. وأخشى أنك أتيت من لندن إلى هنا من أجل لا شيء، لأننا سنتكتم على الموضوع. وعلى الأقل، يبدو لي أننا أصبنا صلب الحقيقة. والشكر موصول لملاحظات الآنسة بارتون بالطبع».

- «كما تشاء يا سير آرثر»، ونظر إليه الشرطي بتحدٍ، كان يعلم أنه يفوقه رتبة، يجب على الشرطي العادي أن يذعن لفارس المملكة. ثم نقل نظره إليّ وقال: «سأكتشف الحقيقة، لا تقلق».

احتجت لبعض الوقت لأستجمع شتات نفسي بعد خروجه. سيكتشف كبير المفتشين حقيقتي. في الواقع لن يكون ذلك صعباً. لكن ماذا سيحصل بعد ذلك؟ إذا بحث عن روني بارتون، سيستمتع روني بإخباره أنني دفعت أخته تحت العربة العمومية، لأحصل على منصبها. يمكنني القول إن الشرطي كان حريصاً على إدانتي بشيء ما، وسيرضيه اتهامي بجريمة القتل كثيراً.

عليّ إثبات براءتي فيما يخص مقتل الكونت فيلهلم بطريقة ما، حتى وإن بدا أن السير آرثر والدكتور ريد كانا راغبين تمامًا بقبول نظريتي عن الأميرة صوفي. لو أمكنني فقط أن أجعلها تعترف. فكرت بعلبة الشوكولاتة والقطعة الوحيدة الناقصة، وبالأميرة هيلينا تصرخ بأن شيئًا ما فُقد منها، عبست، ظننت أنها كانت تتحدث عن المسدس، لكنه على الأرجح شيء يتعلق بإدمانها على المخدرات، حبست أنفاسي. هل يعقل؟

تباطأت في الرواق حتى خرج السير آرثر والدكتور ريد أخيرًا من الغرفة، ثم تبعت الدكتور ريد حتى دخل إلى جناحه ثم ركضت خلفه وقلت: «اعذرني يا دكتور. هل لي بكلمة معك على انفراد؟».

توقف ونظر إلى الخلف نحوي وقال: «بالطبع يا آنسة بارتون. لا بد وأن كل هذا الموضوع مقلق بالنسبة لكِ».

أومأت وقلت: «مقلق جدًا يا دكتور. لكن، أظن أنني وجدت أخيرًا طريقة أحصل فيها على الحقيقة، وأقطع الشك باليقين».

عبس وقال: «تابعي».

- «هل وُجِدَت أية مخدرات في جسم الكونت؟».

بدا متشككًا ثم قال: «أجل أفيون. وربما هو نوع جديد من الهيروين الذي يفترض أن يكون أنقى وأكثر أمانًا من الأفيون الأصلي. لقد قامت شركة ألمانية تدعى «باير» بطرحه في الأسواق هذا العام كونه علاج فعال للسعال».

- «إذًا كان في جسد الكونت بعضًا منه؟».

- «أجل، لكن هذا لم يفاجئني ولم يُثر شكوكي، فقد وجدتُ أن الأرستقراطيين جميعهم مولعين بهكذا مواد، لدرجة الإدمان في بعض الأحيان».

- «الأميرة هيلينا»، قلت له، «أعرف بشأنها».

- «كيف تعرفين هذا بحق السماء؟».

- «طلبت مني الذهاب إلى البلدة لشراء قائمة مواد من الصيدلي من أجلها، وميزتُ الأسماء في الورقة التي أعطتني إياها».

- «ياللهول!»، وهزَّ رأسه ثم قال: «وتعتقدين أن الكونت أيضًا كان مدمنًا على المخدرات؟».

- «لا، أعتقد إنها ربما أُعطيت له. أخبرني يا دكتور، إذا أعطاه أحدهم هيروين، في نفس الوقت الذي كان يُطعَم فيه الدفلى، وبعد أن فقد

دمًا من جرح طلق ناري، هل يسرع الجمع بين الثلاثة من وفاته؟».

- «بكل تأكيد»، قال الدكتور ريد، «سيساهم بتباطؤ دقات قلبه وتنفسه قطعًا. لكن إلام تلمحين؟».

- «إذا كنت موافقًا، أعتقد أننا قد نكون قادرين على إثبات شيء ما».

اقتربت منه وهمست. بدا متفاجئًا، ثم أومأ برأسه وقال: «ممتاز. ليس لدينا ما نخسره في هذهِ الحالة. أنا على استعداد لتجربته».

الفصل الخامس والثلاثون

أبدت الأميرة صوفي رباطة جأش وهدوء عندما دخلت غرفة الجلوس الصغيرة، وقالت: «طلبت رؤيتي يا دكتور. تقول أن هناك تطورات في موت حبيبي فيلهلم؟».

- «أجلسي أرجوكِ يا أميرة. سيتضح كل شيء.. أعدكِ».

جلست على كرسي منتصب منجد بالحرير الأزرق الملكي، ونظرت عبر الغرفة فلاحظتني واقفة في أحد الجوانب خلف الأريكة فقالت: «ماذا تفعل هذه هنا؟ آه، فهمت. جلبتَها لتعترف، ممتاز. إذاً كانت تعرف بالفعل أن الفطر كان سامًا». وهزت رأسها برضا.

- «أجل، أظن أن بإمكاننا إثبات أن الموت كان مقصودًا»، قال الطبيب، «هل أطلب لكِ الشاي؟ أم المرطبات؟».

- «لا شكرًا، فلنبدأ، أتمنى أن أسمع اعتراف هذه الفتاة وأراها تُسلَّم إلى الشرطة الفرنسية».

جلست بانتصاب مبالغ، وبدت وكأنها شبح ببشرتها الشاحبة فوق فستانها الأسود، وبدت عيناها الزرقاوان واسعتان بشكل غير طبيعي.

- «أو ربما ترغبين بتناول الشوكولاتة»، وأخذ الدكتور العلبة من الطاولة الجانبية ووضعها أمامها، «برأيي أن شكلها مغرٍ للغاية».

ازداد شحوبها - إذا كان هذا ممكناً - وسمعت شهقة خفيفة وقالت: «أين عثرت على هذهِ العلبة؟».

- «كانت في غرفة الكونت. وبما أنه لن يستمتع بها بعد الآن، فكرت بأنه من المؤسف أن نتركها تتلف. فقد علمتني تربيتي في اسكتلندا التقشف كما تعلمين. خذي واحدة». ورفع الغطاء عن العلبة وقدّمها لها.

- «لا شكراً، أشعر بالحزن الشديد لدرجة لا قدرة لي على تناول الطعام، ولا يمكنني لمس شيء كان يخص عزيزي فيلهلم بالذات».

- «آمل أنكِ لن تمانعي إذا أكلت واحدة»، قال الطبيب بألطف أسلوب، «أعترف أنني ضعيف أمام الحلويات». ومد يده إلى العلبة وأخذ قطعة شوكلاتة كبيرة قرب المركز وقرّبها نحو فمه. راقبته منبهرة.

وعندما همَّ بقضم الشوكولاتة، صاحت الأميرة صوفي: «لا، لا تفعل».

نظر الدكتور إلى الأعلى وهو يمسك قطعة الشوكلاتة على بعد بوصات من فمه وقال: «لِمَ لا؟».

- «لأن ...».

سألتها: «لأن الشوكولاتة محقونة بالهروين؟».

كانت نظراتها سُمّيّة وكلها غلّ وقالت: «كيف تعرفين هذا؟ أنتِ خادمة. بأي حق تحشرين أنفكِ في شؤون أسيادكِ؟».

قال الطبيب: «إذًا يا صاحبة السمو، هل تعترفين باحتمالية وجود هيروين في هذهِ الشوكولاتة؟ لقد سرقتِ حقنة وزجاجة الهيروين التي تخص ابنة عمك هيلينا وحقنتِ الشوكولاتة؟».

- «بعضها فقط، القطع الكبيرة في المركز. كان يرغب بالأكبر والأفضل دائمًا. وعلمت أنه سيأكلها أولاً».

- «أردتِ التأكد من أن سُمّ الدفلى يقوم بعمله، في حال لم يأكل منه كفاية».

- «ليس لدي فكرة عن كمية الدفلى اللازمة لقتل شخص ما».

قال الدكتور ريد بصوت هادئ: «من الواضح أنكِ كنتِ يائسة بعدما أخطأت الرصاصة

هدفها».

- «أنا ...»، وكان في عينيها مفاجأة وذعر بأننا اكتشفنا هذا أيضا. ثم نظرت إلينا بتحد وقالت: «وماذا يهم؟ لا يمكنكم فعل شيء. لن تأخذ ابنة عمي فيكتوريا كلمة الخادمة مقابل كلمتي. ستصدقني عندما أقول إن هذهِ الفتاة قد قتلت فيلهلم وحاولت إلقاء اللوم عليّ، وسترين، وستدفعين ثمن هذا». قالت كلماتها الأخيرة لي بغلٍ بالغ.

- «لكنها ستأخذ بكلمتي أنا»، قال الدكتور ريد، «فهي تثق بي ثقة عمياء. وأنا أعتقد أن ما قالته الآنسة بارتون صحيح وصادق. بالإضافة إلى ذلك، كلانا رآكِ تمنعيني من تناول الشوكلاتة».

- «خدعة غبية»، بصقت صوفي الكلمات. ثم هزت كتفيها وابتسمت، «على أيِ حال، ما الذي يهمني؟ لن تسمح ابنة عمي بأية فضيحة. ولن تخاطر بسمعة العائلة الملكية، وستجد لي زوجا آخر، وسأتزوج وأعيش في سعادة دائمة».

قلت في نفسي: «مَنْ سيرغب في الزواج منكِ بعد أن سمعتِ رجلاً أغضبك؟». لكن، لستُ بمكان يسمح لي بقول هذا. ثم خرجَتْ من الغرفة ورأسها مرفوع.

- «أحسنتِ يا آنسة بارتون، أنتِ ذكية».

- «أتساءل ما الذي سيحصل لها»، قلت، «هل ستخبر الملكة؟».

- «أخشى أن الملكة يجب أن تعرف، ولحسن الحظ، ستقع هذه المهمة على عاتق السير آرثر، لكنني أظن أن الأميرة صوفي محقة، لن يحصل شيء، يجب أن تظل سمعة العائلة الملكية وشرفها كما هي، أنا في الواقع أشفق على الفتاة، أن تستميت لكيلا تتزوج لدرجة أن تلجأ إلى أكثر الوسائل عنفًا. أنا وأنتِ لا نستطيع أن نفهم شعور المرء عندما يكون مجرد بيدق في لعبة شطرنج دولية».

- «لا، أنت محق».

نظر إليّ نظرة فاحصة ومطولة وقال: «على الأقل هذا يعني أنكِ نجوتِ، وأصبحتِ خارج الشبهات الآن».

- «أخشى أن كبير المفتشين من لندن لا يعتقد ذلك»، قلت له، «لدي شعور بأنه يرغب بنبش الماضي حتى يجد شيئًا».

- «وهل من المرجح أن يجد شيئًا؟»، سألني الدكتور ريد.

ترددت قليلاً، لقد كان رجلاً طيباً، أنا متأكدة من ذلك، وأستطيع إخباره، لكنني لم أستطع، فقلت: «لم أفعل شيئاً إجرامياً أو غير قانوني في حياتي».

- «هذا ما ظننته. سنحرص على أن يعيدوه إلى لندن، لا تقلقي». وقهقه كما لو أن هذا مسلٍ. ولم يكن كذلك بالنسبة لي.

عدت إلى غرفتي وانتظرت. لم تصلني كلمة من الليدي ماري حتى الآن، ربما لا يحب آل ويفرلي الشاي، أو ليسوا مهتمين بحفلة شاي معها، أو قد يكونون مشغولين، أو مسافرين، لكنها على الأقل وعدتني بالبقاء معها، وبأنها ستقدمني بصفتي ابنة عمها الشابة. لدي مهرب إذا أردت الفرار يوماً. في الواقع، أنا سعيدة بوظيفتي الحالية، ولا أريد تركها، فقد بدأت أتعلم مهارات جديدة، لكن عليَّ أن أسأل نفسي إذا كنت أريد أن أصبح طاهية طوال حياتي، مثل جان بول، لا يمكنني الزواج وممارسة مهنتي في آن واحد، إذ لن يسمح أي رجل لزوجته بالعمل خارج المنزل مطلقاً، خاصة عندما تقضي ساعات طوال في مطبخ شخص آخر. وهل أريد أن أكون مثل السيدة سيمز يوماً ما، تسمى «السيدة» من باب

الاحترام دون أن يكون لها زوج أو منزل خاص بها؟ في الواقع، أنا لا أعرف. فأنا ما زلت صغيرة وأمامي الكثير لأواجهه، والكثير لأتعلمه حتى الآن. كل ما يمكنني فعله هو أن أتضرع إلى الله ليترك كبير المفتشين رالي التحقيق بأكمله بعد أن عرفت الجانية واعترفت بجريمتها، ربما كانت لديه قضايا أكثر أهمية في لندن. لا خيار لديّ سوى الأمل.

مر يوم آخر دون أخبار، ما عدا عودة زملائي المنكوبين إلى المطبخ، شاحبين وبنيتهم ضعيفة، مجرد ظلال لأنفسهم السابقة، وحتى السيد فيلبس الذي عادة ما يكون فظًا وصعب الإرضاء، كان مهذبًا للغاية وممتنًا لكل شيء. أثنوا على شجاعتي البالغة في تولي المسؤولية مؤقتًا، وقررت ألا أذكر حادثة الفطر لهم، لا جدوى من إخبارهم بما مررتُ به.

وكنت أصنع البسكويت الألماني المفضل للملكة عندما خطرت فكرة غير معقولة على بالي فجأة. سأقول للملكة الحقيقة، إذا قررت طردي، فليكن، وإذا لا، فستكون حامية لا يمكن لمفتش سكوتلانديارد أن يجادلها. رتبت بعض البسكويت على مُنَيدل مائدة فاخر، ووضعته على

الصينية مع غصن من الفريزيا وصعدت الدرج بجرأة إلى غرفة جلوس الملكة.

توقعت أن ألتقي بالمُنشي خارج الباب، لكن الممر كان خاليًا، هذا يعني أنه قد يكون في الداخل معها. هل أجرؤ على طرق الباب والدخول؟ وقفت ويدي متأهبة لفترة طويلة قبل أن أهمس لنفسي: «ما الذي لديكِ لتخسريه يا بيلا؟». وقرعت الباب.

فُتح الباب، لم يكن المُنشي من فتحه، وإنما إحدى الوصيفات: «نعم؟».

- «خبزت للتو البسكويت المفضل لصاحبة الجلالة، وأعتقد أنها قد تحتاج إلى ابتهاج في هذا الوقت الحزين».

عبست السيدة بوجهي وقالت: «أنتِ طاهية؟».

- «أجل يا سيدتي، تعرفني صاحبة الجلالة. لقد تحدثنا معًا في عدة مناسبات، هل يمكنني إدخال البسكويت إليها؟».

- «لا بد وأنكِ الشخص الذي ...».

- «اتُهم زورًا بوضع فطر مسموم في الفطيرة. نعم، هذهِ أنا». قلت وأنا أنظر بعينيها ورأسي مرفوع.

بدت غير متيقنة وقالت: «سآخذ إليها الصينية، مع أني لا أظن أن جلالتها ترغب بتناول أي شيء في الوقت الحاضر. لقد أزعجتها الأخبار كثيرًا».

جاء صوت جلالة الملكة يسأل: «مَنْ الطارق يا ليدي ليتون؟».

- «طاهية شابة ومعها بسكويت»، ردت عليها الليدي من مكانها، «المفضل لديكِ، على ما يبدو».

- «آه، طاهيتي اللطيفة الشابة. اجعليها تدخل البسكويت لي».

تنحت الليدي ليتون جانبًا لتفسح لي المجال لأدخل الغرفة. كانت الملكة تجلس على كرسي هزاز قرب النافذة المفتوحة، مع أن النسيم كان لا يزال باردًا اليوم. ظننت أنها ربما كانت تغفو، كانت نظارتها وورقة تستقر في حجرها.

عبرت الغرفة وذهبتُ باتجاهها، انحنيتُ إليها قبل أن أقول: «صنعتُ لكِ بسكويت الزنجبيل يا سيدتي. أعلم كم تحبينه، وفكرتُ أنكِ قد ترغبين بتناول قليل منه قبل أن يبرد».

نظرت الملكة إلى الأعلى وابتسمت: «يا لها من

لفتة مراعية. أجل، أعتقد أنني قد آخذ واحدة»، ثم نظرت إلى وصيفتها وقالت: «سيكون الشاي مناسباً مع هذا البسكويت. هلّا طلبتِ من أحدهم أن يجلبه يا ليدي ليتون؟».

انحنت وغادرت. ابتسمت الملكة لي ومدت يدها لتأخذ بسكويتة. أكلتها ببطء، تتلذذ بالطعم وهي تمضغ وقالت: «مثلما أتذكرها في صباي. لكنكِ مررتِ بمحنة أيضًا، أليس كذلك؟ أخبرني السير آرثر بالحادث المأساوي كله. اتُهمتِ زورا بمحاولة تسميمي بواسطة الفطر؟».

أومأتُ وقلت: «أجل يا جلالة الملكة، لقد أخبرتهم أنني لن أفعل أي شيء من شأنه أن يؤذيكِ، لكنهم لم يرغبوا بالاستماع لي».

تنهدت وقالت: «أمر مؤسف للغاية. المسكينة صوفي، أن تكون يائسة لدرجة تلجأ لهكذا وسائل. أنا ألوم نفسي، أتعلمين هذا؟ لقد توسلتني ألا أزوجها منه، لكنني لم أصغ لها، كنت أكثر عزمًا على تحقيق مكاسب سياسية، والتأكد من أن الإمبراطورية على أسس ثابتة عندما أسلمها إلى ابني الضال. أعرف أن فيلهلم ما كان ليصبح زوجًا مثاليًا، بل كان شابًا طنانًا، وفارغًا، ومن المحتمل أن يكون متنمرًا».

- «وأسوأ من هذا يا صاحبة الجلالة. فقد حاول التقرب من رجل من أفراد القصر، وأخبر الأميرة صوفي أنه لن يزعجها مرة أخرى حالما تلد له وريثًا».

- «يا إلهي»، بدت الملكة مذهولة للغاية، «هذا جديد عليّ. يمكنني تفهم لِمَ كانت الفتاة البائسة بحاجة ماسة للهرب. لطالما وجدت هذا الجانب من الزواج ممتعًا، وأن تُحرم منه ...». تنهدت وأخذت بسكويتة أخرى من الطبق.

- «ثمّة شيء آخر يا جلالة الملكة»، قلت بسرعة عندما شعرت بأنني على وشك أن أُصرف، «لقد جئت لخدمتكِ تحت اسم مستعار، وعشت في خوف من أن يُكتشف أمري منذ ذلك الحين».

- «ماذا تعنين؟»، وعبست في وجهي، «هل ستخبرينني أنكِ جاسوسة روسية حقًا؟».

كان عليّ أن أضحك على هذا: «لا يا سيدتي». وأخبرتها القصة كاملة.

استمعت لي بصبر، ثم قالت أخيرًا: «يبدو لي أن كل ما فعلتِه هو الاستفادة القصوى من فرصة سنحت لكِ. كنتُ بحاجة لطاهٍ، وقدّمتِ لي واحدة - جيدة إلى حد ما - كما اتضح فيما

بعد. ولم يتضرر أحد من ذلك. ما هو اسمك الحقيقي؟».

- «إيزابيلا ويفرلي يا سيدتي».

- «هل تقربين للإيرل ألترينغهام؟».

- «ابنة عمه يا سيدتي. أخبرتكِ من قبل أن والدي ماتا. وأوضح والدي أنه طلب المساعدة من الأسرة ورُفض، لذلك لم يكن لدي خيار سوى الذهاب إلى الخدمة لإعالة أختي الصغيرة».

- «مثيرة للإعجاب، لديك شعور بالواجب مثلي. لكني مندهشة من رفض آل ويفرلي لكما».

- «لم أستَغِث بهم شخصياً يا سيدتي. فقد كنتُ صغيرة جداً حينها لأعرف أي شيء عن عائلة والدي».

- «ما أعرفه أنهم أيضًا في الريفيرا. هل تفكرين بزيارتهم الآن؟».

- «السيدة ماري كروزر أرادت ترتيب حفل شاي لأقابلهم، لكنهم حتى الآن لم يبدوا أي اهتمام بمثل هذه الدعوة».

- «يجب أن تعودي بين أفراد طبقتكِ. إذ ليس من الصواب أن تعملي في أسفل السلم الاجتماعي وأنتِ تنحدرين من عائلة محترمة.

فهمت أنكِ لعبتِ دورًا أساسيًا في معرفة كيف قُتِل الكونت. لقد أطرى السير آرثر كثيرًا على قدراتك في الملاحظة والاستنتاج. وخطر ببالي أنني قد استخدمك جاسوسة لي»، وابتسمت لي ابتسامة خفيفة شريرة وقالت: «ما رأيكِ في هذا؟».

- «أن أكون جاسوستكِ يا سيدتي؟».

- «أجل. ستكونين أحد أفراد حاشيتي وستفتحين عينيكِ وأذنيكِ لكل شيء يجب أن أعرفه».

- «أشعر بالإطراء يا سيدتي لكنني أفضل الطهي».

بدت مستاءة وقالت: «أنا أعرض عليكِ الانتقال إلى الدوائر الاجتماعية الصحيحة، أيتها الفتاة الغبية، ستكونين إحدى وصيفاتي، وستسنح لكِ فرصة لتقابلي رجلاً بمكانة اجتماعية مناسبة، وستكونين في خدمتي أيضًا»، ثم توقفت قليلاً وقالت: «يمكنني أن آمركِ بذلك، تعلمين هذا».

- «أدرك ذلك يا سيدتي»، قلت لها، «ولا رغبة لي بإزعاجكِ. أدرك أنكِ تعامليني بلطف مفرط، وهذا عرض رائع».

- «لكن؟»، وهزت إصبعها، «تفضلين أن تكدحي قرب موقد حار على أن تصبحي إحدى وصيفاتي؟».

- «قد يبدو الأمر غريبًا بالنسبة لكِ، لكن أجل، أعتقد ذلك. إذا وردت أنباء مفادها أنني جاسوستكِ، فسيرتابون مني وسيتجنبونني أينما ذهبت. وكذلك، تقضي وصيفاتكِ معظم وقتهن دون أي عمل بنّاء. لقد عملتُ بجد لوقت طويل لدرجة أجد أنه من الغريب ألّا أعمل».

ربتت على يدي وقالت: «أنا وأنتِ متماثلتان. لقد عملت كل يوم في حياتي منذ أن كنت في الثامنة عشر، عندما أصبحت ملكة. قرأتُ صناديق البرقيات بأمانة كل يوم، وحرصت على أن أعرف ما يحصل في حكومتي وفي العالم لأنصح وزرائي بحكمة، ولم يشكروني على ذلك دائمًا بطبيعة الحال»، وابتسمت مرة أخرى ثم قالت: «حسنًا، أقبل رفضكِ على مضض. أنا أيضًا بحاجة إلى شخص ما ليكون بجانبي، قد يبدو هذا غريبًا. بعد أن رحل عزيزي عبدول ...».

- «خادمك الهندي، هل صحته متوعكة؟».

- «لقد رحل»، قالت بصوت خافت، «إنه أحد أسباب شعوري بالاكتئاب الشديد. فأنا أفتقده.

لقد أجبرت على إبعاده، كما تعلمين. لقد ظل سادة قصري يضغطون عليَّ منذ مدة، ويحاولون إقناعي بأنه غير لائق. واعتقدت أنّه كان مجرد غيرة وتحامل ضد عرق أقل ... لكن اتضح أنهم ربما كانوا على حق. يبدو أنه التقى برجل منخرط في محاولة طرد البريطانيين من الهند، يعمل بنشاط ضدنا! زعم عبدول أن هذا الرجل كان مجرد صديق، لكنه تمكن من الوصول إلى أوراقي، إلى أسرار العالم الأكثر سرّية. رأيت أنني لم أعد قادرة على المخاطرة، من أجل الإمبراطورية. لذلك اضطررت إلى إبعاده»، توقفت مؤقتًا، وهي تحدق خارج النافذة. أصبح النسيم أقوى، يدور الستائر الشبكية. ذهبت وأغلقته على عجل، «هذا يؤلمني. لقد أصبح صديقي المقرب. للملكة أصدقاء قليلون».

- «لكن لديكِ عائلتكِ يا سيدتي، سادة القصر ووصيفاتكِ جميعهم يحبونكِ».

- «قد يكون الأمر كذلك، لكنه كان مختلفًا. لم يلتزم بالبروتوكول، كان يوبخني عندما أكون بحاجة إلى التوبيخ، وكان يضايقني، ويضحكني، ويجعلني أشعر وكأنني امرأة، كما فعل عزيزي جون براون، وحبيبي ألبرت قبله»، نظرت إليَّ

وقالت: «أنا أستمتع بصحبة الشباب الوسيمين، هل هذهِ حماقة لمَنْ هم في مثل عمري؟».

ابتسمت وقلت: «لا على الإطلاق يا سيدتي، لقد عشتِ حياة مقيدة بالواجب، وأنتِ تستحقين أي سعادة تُقدم لك».

رمقتني بنظرة متفحصة لفترة طويلة ثم قالت: «أنتِ طفلة جميلة. يجب أن تأتي وتتحدثي معي عندما تحضرين بسكويتي».

- «لي الشرف يا سيدتي، يجب أن أتركَكِ وأعود إلى مطبخي، هل ترغبين في تناول طبق معين على العشاء الليلة؟».

قالت: «لا أشتهي شيئًا، وهو أمر غير معتاد بالنسبة لي، ربما بعض الأسماك أو الطير، لكن لا أريد فطرًا». وعندما رأت وجهي القلقِ، ضحكت.

الفصل السادس والثلاثون

«لا تمطر أبدًا، لكنها تصب مدرارًا».

كان أحد أمثال والدي المفضلة. في حالته كان يشير عادة إلى سوء الحظ أو البؤس بمعنى «المصائب لا تأتي فُرادى». لكن الأمر على النقيض بالنسبة لي. فجأة أُزيح كل عبء عن كاهلي. أرادتني الملكة أن أكون جاسوستها - وظيفة لن أقبل بها أبدًا - تخيل الشك وانعدام الثقة بين سيدات القصر الأخريات إذا اعتقدن أنني أتنصت لمحادثاتهن لأنقلها إلى الملكة. والليدي ماري كروزر أرادت أن تضمني تحت جناحها. وأصبحت وظيفتي بصفتي طاهية مؤَمنة أخيرًا. تساءلت إذا كان عليّ إخبار رفاقي الطهاة بقصتي وتغيير اسمي. كل شيء في الوقت المناسب. يجب أن أفكر في الطريقة الصحيحة لفعلها. لكنه كان جيدًا حد الثمالة بالنسبة لشخص شعر بأنه منبوذ وغير محبوب لفترة طويلة. وكما قال أبي أيضًا: «الأشياء الصالحة تأتي في ثلاث». في ذلك اليوم بالذات، تلقيت دعوة لتناول الشاي مع الماركيزة كروزر. أخبرت السيد آنجيلو أنني سأذهب بعد الظهر. فقال رافعًا حاجبيه: «شاي مع ماركيزة. يا إلهي، لقد ارتقيتِ في العالم أثناء غيابي».

أدركت أنني لم أطلب إذنه عندما ذهبتُ لأغير ملابسي، وإنما صرّحت له بخططي ولم يستفسر عنها أكثر. وبطريقة ما، تغيرت علاقتنا بعد أن أدرتُ مطبخًا بكامله. كانت هناك طبقة جديدة من الاحترام والامتنان، آمل فقط أن يستمر. فكرت في هذا بينما كنت في طريقي إلى ڤيلا الليدي ماري بعد ظهر ذلك اليوم. لقد أصبحت لدي خيارات، هل أريد البقاء في مطبخ القصر، وتمر سنوات قبل أن أترق إلى أي شيء أعلى من مساعد طاه؟ وهل تعلمت ما يكفي لأشق طريقي في العالم؟ أم يجب أن أفكر حقًا في أحد العروض التي قُدمت لي ... هل حان الوقت أخيرًا للعودة إلى وضعي الصحيح؟ لقد كان قرارًا صعبًا، وأدركت أن جايلز ويڤرلي قد يكون له علاقة به.

استقبلتني الليدي ماري بحرارة عندما أدخلوني غرفة الجلوس. قام الرجلان اللذان كانا جالسين، وابتسم لي جايلز ويڤرلي ابتسامة مبتهجة ومدهشة، ففهمت أن الليدي ماري لم تخبرهما بأنني سأنضم إليهما. كان الرجل الأكبر، وافترضت أنه الأيرل، يشبه والدي إلى حد كبير، البنية العظمية الدقيقة والفك القوي ذاته، والعينان العميقتان نفسهما، مع أن الأيرل أصبح بدينًا الآن بينما كان والدي نحيلاً بشكل مؤلم.

لاحظت وجه الإيرل، كان يحدق بي بعبوس مرتبك، وتساءلت إذا كان قد سمع شيئاً عني أغضبه حتى قال: «تذكرني بشخص ما، أيتها الشابة. لا يحضرني اسمه الآن لكنني سأتذكره».

- «ابن عمك رودريك ربما، يا سيدي؟».

- «هذا هو. رودي، عندما كان صغيراً»، ونظر لي باستفهام ثم قال: «ومن تكونين أنتِ؟».

قلت: «إيزابيلا ويفرلي، ابنته».

- «يا إله السماوات! هل هذهِ هي الفتاة التي كنتَ تتحدث عنها يا جايلز؟ لماذا لم تخبرني إنها ابنة عمنا؟».

- «لم أعلم»، قال جايلز ونظر لي بارتباك ثم قال: «قلتِ إن اسمك هو هيلين بارتون».

- «هذا هو الاسم الذي كان عليَّ انتحاله عندما أصبحت طاهية في القصر».

- «طاهية؟»، بدا الإيرل مذهولاً الآن، «هل أصبحتِ طاهية؟».

- «للضرورة يا سيدي. لقد مات والداي، وبقينا أنا وأختي بلا مال ولا مكان نذهب إليه. وكان عليَّ أن أعيلها، لذلك انخرطتُ في الخدمة».

- «لماذا بحق الشيطان لم تأتِ إلينا؟»، قال الأيرل بغضب، «لم نعرف حتى أن رودي قد تزوج وأنجب أطفالاً. كنا نظن أنه لا يزال في الهند».

- «الجواب على ذلك هو أنني لم أكن أعرف شيئاً عنكم يا سيدي. لقد أخبرنا والدي أنه اختلف مع أسرته ولا يمكنه اللجوء إليهم طلباً للمساعدة».

- «ولد غبي!»، قال الأيرل ورمق ابنه بنظرة خاطفة، «لم يكن والدكِ رجلاً سهلاً، يؤسفني قول هذا يا إيزابيلا. فقد وقع في مشاكل في أوكسفورد: ديون قمار وشيكات بلا رصيد، وما إلى ذلك. وأتذكر أنه انساق وراء تيار الجموح، وأدمن الخمر، وعاش ببذخ دون أن يكون لديه المال الكافي لذلك. مات والداه، وكان والدي يدفع ثمن تعليمه. وأخبر رودي أنه سيسوي ديونه، لكنه سيرسله إلى الهند ليصبح رجلاً، وسيرتب له مأمورية في كتيبة هندية، ولا يريد أن يراه بعد ذلك. ولم نسمع عنه بعد ذلك شيئاً. فافترضنا أنه لا يزال في الهند».

- «كان عليه أن يستقيل من مهمته ويعود إلى إنكلترا لأن والدتي لم تتحمل الطقس هناك.

ويؤسفني القول إن الشراب كان سبب هلاكه في النهاية»».

هز رأسه وقال: «هذهِ أخبار سيئة. لكن يبدو أنكِ أشد صلابة منه، ويجري في عروقكِ دم ويفرلي. أحسنتِ يا إيزابيلا. ويجب أن تناديني ابن العم جورج. تعالي واجلسي بجانبي، وأخبرينا عن القصر الملكي». وربت على الأريكة بجانبه، والتقت عيني بعين الليدي ماري فأومأت لي مشجعة. تحدثنا مطولاً وأكلنا شطائر الخيار والبتي فور، ثم أخبر الأيرل جايلز أن يرافقني إلى الفندق. لست متأكدة، لكن أظن أنني رأيته يغمز لجايلز.

وما إن غادرنا الڤيلا حتى قال جايلز: «لماذا لم تخبريني أننا أقرباء؟ شعرت وكأنني أبله، لا أعرف شيئًا».

- «لأنه كان عليَّ إخفاء هويتي الحقيقية في ذلك الوقت». وأخبرته بالقصة.

- «يا إلهي! أية قصة هذهِ! أيتها الفتاة المسكينة. لقد عانيتِ الكثير».

- «ما زلتُ هنا»، أجبته، «والأمور بدأت تتحسن أخيرًا».

- «وماذا ستفعلين الآن؟»، سألني، «لا يمكنكِ

العودة إلى عملكِ طاهية».

- «لست متأكدة. لقد دعاني والدك للبقاء في كنغزبري، وهذا كرم كبير منه. وعرضت الليدي ماري عليّ البقاء معها، ولا تريدني الملكة أن أترك القصر. كل شيء مربك إلى حد ما بعدما كنت أشعر بأنني منبوذة لفترة طويلة».

- «أتمنى أن تقبلي عرضنا»، قال وهو ينظر إليّ مثل كلب ينتظر، يأمل بالحصول على هدية، «أريد أن أراكِ أكثر يا بيلا. وأظن أن والدي يريد أن نتعرف على بعضنا أكثر. شعرت بأنكِ فتاة رائعة منذ أن وقعت عيني عليكِ للمرة الأولى. والآن أصبحتُ أعلم كم أنتِ فتاة قوية، وأعتقد أنكِ ستكونين زوجة مثالية لي. فأنا أحتاج إلى امرأة تبقيني على جادة الصواب. يضغط عليّ والدي لأتزوج وأستقر، كما تعلمين، وأظن أنه يريد أن يُناسب من العائلة إذا جاز التعبير».

- «من المبكر الحديث عن هذا. فأنت لا تعرفني حقًا يا جايلز».

- «أنا من النوع الذي يتخذ قراراته بسرعة»، قال جايلز، «عندما أرى شيئًا يعجبني، أعرف في الحال. وعرفت أنني معجب بكِ على الفور يا بيلا. أعتقد أن أمامنا حياة عظيمة معًا. سأرث

كنغزبري يومًا ما، ووالدي يملك المال، وستكونين أخيرًا في مكانكِ المناسب»، توقف مؤقتًا وأخذ نفسًا عميقًا ثم قال: «قد لا أكون أفضل رجل في العالم، ولا أفضلهم أخلاقًا، لكنني رجل طيب. هل تعتقدين أنكِ ستسعدين بالزواج من رجل مثلي؟».

- «أعتقد أنني على الأرجح سأفعل»، قلت بحذر، «لكن دعنا لا نتعجل ونأخذ الأمور خطوة فخطوة يا جايلز».

- «بالطبع»، أومأ موافقًا، «لا أريد استعجالك. على الأقل قولي إنكِ ستأتين ...»، وأخذ يدي وأمسكها بين يديه، «وسنتولى أمر الباقي بعدها».

أليس هذا ما أردته، وما حلمت به؟ بالطبع. أن أكون سيدة بيت كبير، كل رفاهية العالم، ومال لشراء الملابس، ومال للسفر. ومع هذا ترددت، فقال صوت والدي في رأسي: «اغتنمي الفرصة».

- «بالطبع سآتي للبقاء معكم. لكنني لا أستطيع ترك بقية الطهاة في مأزق هنا. سيتعين عليك الانتظار حتى نعود إلى لندن».

- «يمكنني الانتظار، مهما طالت المدة، إذا كنتِ أنتِ من أتطلع لرؤيته». وضغط على يدي.

غيرت ملابسي الجيدة ومشيت باضطراب إلى المطبخ مذهولة. وبدأت بإعداد البوديغ لوجبة العشاء، أحرك المكونات بصورة آلية ... هل هذا ما أريد فعله طوال حياتي؟ أطهو الطعام للآخرين؟ وأكون خادمة في حين يمكن أن يكون لدي من ينتظرني؟

- «انتبهي! انتبهي!»، قال صوت بحدة من خلفي، «أنتِ تحرقين الزبدة».

قفزت ورفعت المقلاة عن اللهب واستدرت لأرى جان بول يقف خلفي.

- «كنت أراقبكِ»، قال، «رأسكِ في الغيوم اليوم وذهنك سارح. ليس من عادتكِ إحراق الزبدة»، كان ينظر لي بقلق، «ما الأمر؟ هل ما زلتِ قلقة؟ حسب ما سمعت لم تعودي مسؤولة عن موت ذلك الرجل النبيل. يقولون إنه انتحر، بسبب المخدرات».

- «هل هذا ما يقولونه؟»، سألته، «أعتذر، أنا مرتبكة قليلاً اليوم، أظن أنني قد تلقيت عرض زواج للتو».

- «تظنين؟».

- «لم يكن عرضًا رسميًا، لكنه عرض زواج مع

ذلك».

- «وهل قبلتِ؟».

- «ربما أكون قد أشرت إلى رغبتي في القبول».

- «ومن هو هذا الرجل؟». أصبح صوته حاداً الآن.

- «ميلورد إنكليزي»، أجبته، «سأصبح زوجة الفيكونت وأعيش في منزل فخم».

- «وماذا عن شغفك؟»، قال محتجاً، «هل اختفى؟ لن تطبخي بعد الآن. وستتركين شخصاً آخر يتولى هذهِ المهمة نيابة عنكِ، وستقبلين بطعام متواضع، وأنتِ تعلمين أن بمقدوركِ طهية أفضل. وستجلسين وتطرزين وتتبادلين القيل والقال ليمر الوقت حتى وجبة طعامك التالية. هل هذا حقاً ما تريدينه؟».

- «أنت تصرخ». قلت له. وانتبهت أن المطبخ أصبح هادئاً للغاية والآخرون يراقبوننا.

- «تعالي إلى الخارج». وأخذ ذراعي وأجبرني على الخروج من المطبخ.

- «اتركني، أنت تؤلمني».

- «لا يمكننا مناقشة هذا أمام الآخرين».

قادني بسرعة على طول الرواق حتى وصلنا إلى الهواء الطلق في الجزء الخلفي من الفندق. كانت النوارس تحوم في السماء وتصيح فوقنا.

لفني جان بول لأواجهه وقال: «قولي لي أن هذا ما تريدينه. ما تريدينه حقًا».

قلت ببطء: «سأفتقد الطبخ، لكن عليَّ التفكير في مستقبلي. اضطررت إلى عبودية العمل منذ أن كنت فتاة صغيرة، لأنه لم يكن لدي من يعتني بي وأختي. مَنْ يرفض فرصة حياة الرفاهية والأمان؟».

سألني: «هل تحبين هذا الرجل؟».

- «بالكاد أعرفه. يبدو لطيفًا كفاية». وحتى عندما قلت هذهِ الكلمات، تذكرت صوت جايلز وهو يقول إنه يحتاج امرأة قوية تبقيه على جادة الصواب. هل كان يعاني من مشاكل الشرب والقمار، مثل والدي؟ هل كان هذا شيئًا وراثيًا في العائلة؟ أدركت مدى قلة معرفتي بجايلز.

- «لطيفًا كفاية؟ هل هذا ما تريدينه في زوجكِ؟»، وارتفع صوته من جديد، «إنكليزي جبان يتبختر والدانتيل على أكمامه، ولا يعرف ماذا يفعل مع المرأة؟».

- «كيف تعرف كيف يبدو؟». صرخت عليه بالمقابل.

- «لأني أرى الكثير من النبلاء الإنكليز المغتربين هنا. هم أولاد مدللين، وليسوا رجالاً. هل سيقبلكِ هكذا؟!».

وأمسكني وضغط فمه على فمي بقوة لدرجة عجزت عن التنفس. حاولت دفعه بعيداً، لكني انتبهت أني لم أدفعه بقوة. وعندما ابتعد عني، نظر إليّ بعينين داكنتين تحترقان بشغف: «هل سيجعلك تشعرين بأنكِ على قيد الحياة؟».

وعندما لم أجب قال برقة: «لا ترتكبي خطأً تندمين عليه لبقية حياتكِ».

- «ماذا لو كانت هذهِ فرصتي الوحيدة للسعادة؟ ماذا لو أنني رفضته ومرضت في يوم من الأيام أو جُرحت وليس لدي مكان أذهب إليه ولا أحد يعتني بي؟».

- «لَمَ يجب أن تكون فرصتكِ الوحيدة؟».

- «أنا طاهية متدربة، أنام في سرير ضيق، وأفعل ما يأمرونني به. ربما أريد أكثر من هذا».

- «يمكنكِ البقاء هنا دائماً». قال جان بول أخيراً.

- «ماذا تعني؟». نظرت إلى الأعلى ورأيتُ تلك العينين تنظران لي بحدة.

- «عندما تعود الملكة والنبلاء الإنكليز إلى بلدهم، أنتِ تحبين المكان هنا».

- «أنت محق، أنا أحب المكان هنا بالفعل. لكن لا يمكنني البقاء هنا والعمل في الفندق. ليس لديكم طاهيات إناث».

- «أنا أفكر في أن الوقت قد حان لأفتح مطعمي الخاص»، قال، «تعالي واعملي معي».

ضحكت بتوتر وقلت: «لا أعتقد أن هذا سيكون ملائمًا. أين سأعيش؟».

- «يمكننا الزواج بالطبع».

- «أنتَ وأنا؟».

- «أنتِ وأنا»، قال، «لِمَ لا. أنت معجبة بي، أنا أعلم ذلك. لم أفكر كيف سأتمكن من الزواج في يوم من الأيام، إذ ليس من العدل أن يكون للزوجة زوج لا يتواجد في المنزل في المساء. ولكن إذا كانت لدي زوجة تعمل بجانبي، وتشاركني شغفي، فكري فيما يمكننا القيام به معًا».

- «أنت تقول هذا فقط لأن رجلاً آخر طلب

يدي للزواج»، قلت متشككة، «أنت لا تريدني أن أتزوج رجلاً إنكليزيًا، وأنت لا تعني ذلك حقًا».

قال: «يا حبيبة قلبي، أردتكِ منذ اللحظة الأولى التي رأيتكِ فيها. لكني قلتُ لنفسي أنكِ لستِ منجذبة لي كما كنتُ منجذبًا إليكِ. لذلك لزمتَ الصمت».

- «هل تريد حقًا ترك هذا المنصب في الفندق؟»، سألته، وما زلت أحاول استيعاب اقتراحه وحماسي المتزايد، «أليست هذه وظيفة رائعة؟».

- «بالطبع»، قال، «لكن الكثير من الأجانب يأتون إلى نيس في الوقت الحاضر. هناك مطاعم جيدة، لكن ليس هناك مطاعم ممتازة. ليس لديهم طبق كوردن بلو، ولا سبب يجعل الناس الأنيقين يأتون من باريس أو برلين إلى هنا. الوقت مناسب وأظن أنه سيحقق نجاحًا باهرًا».

- «فتح مطعم يحتاج إلى المال». قلت له، وما زلت غير راغبة بالوثوق في حدسي.

- «لا أفتقر إلى المال»، أجابني بلفة رأس متفاخرة، «جنى والدي مالاً جيدًا من عمله،

وحصلتُ على مال جيد من عملي أنا أيضًا. لن تضوري جوعًا يا صغيرتي، أعدكِ بذلك».

- «أنت تريدني أن أعمل معك بصفتي طاهية فحسب».

- «لماذا تقولين مثل هذه الأشياء»، قال محتجًا، «إذا لم ترغبي في الزواج مني، قولي الآن وخلصيني من عذابي، لكن أرجوكِ تقبلي الحقيقة. أنا أريدكِ»، قال ببساطة، «أعتقد أننا سنحيا حياة رائعة معًا. وأضمن لكِ أنكِ لن تشعري بالملل مطلقًا. ماذا تقولين؟».

ماذا عساي أن أقول. أنا التي ازدريتُ أختي لأنها تزوجت من صاحب مهنة، ومنذ عرضت عليّ فرصة أصبح فيها زوجة الفيكونت فيفرشام، سمعت نفسي أتفوه بالكلمات: «أعتقد لأنني سأحب هذا كثيرًا».

سألتني الملكة: «تريدين ترك خدمتي للزواج؟»، كان ذلك في أبريل، وكان وقتها في نيس يقترب من نهايته، «هل هو الشاب ويفرلي؟».

- «لا يا سيدتي. سأتزوج فرنسيًا وأبقى هنا».

- «يا إلهي. وأين قابلتِ هذا الفرنسي؟».

- «إنه رئيس الطهاة في الفندق يا سيدتي.

سنفتتح مطعمًا معًا».

- «أنتِ مليئة بالمفاجآت يا آنسة ويفرلي. أتمنى أنكِ تعرفين ما تفعلينه، تستقرين بعيدًا عن وطنكِ».

- «تزوجت الليدي ماري من رجل فرنسي ويبدو إنها سعيدة للغاية».

- «نعم، لكنه رجل نبيل. أما أنتِ فستعملين بجد من أجل لقمة عيشكِ».

- «أخبرتكِ ذات مرة أنني أريد أن أكون مشغولة، والطهي بجانب زوجي يبدو مثاليًا بالنسبة لي».

قالت: «إذًا أتمنى لكِ التوفيق. وجود رجل جيد بجانبكِ هو أفضل ما يمكن أن تتمناه أي امرأة. أتمنى لكِ السعادة معه كما كنت مع عزيزي ألبرت».

وبعد ذلك بفترة وجيزة، كان لي لقاء غير متوقع آخر. كنت أسير عبر كورنيش بروميناد ديزو أنجليه، أتمعن زرقة الماء الرائعة، المنقطة بأشرعة اليخوت البيضاء وأشرعة مراكب صيد السمك الحمراء. وسرحت أفكاري فجأة صوب هيلين بارتون، لو أنها بقت على قيد الحياة، وأخذت

مكانها المستحق في المطبخ، لكانت تقف هنا في هذه اللحظة، في مكاني، وداهمتني موجة شفقة لأنَ حياتها انتهت في شبابها بهذهِ السرعة، ولم تسنح لها الفرصة لتجرب الحب أو السعادة. أردت أن أفعل لها شيئاً، لذكراها، لكنني علمت أنه ليس لديها عائلة سوى شقيقها. استدرت عن المحيط فرأيتُ روني بارتون بنفسه يتقدم نحوي، تعلو وجهه ابتسامة التكلف المعتادة التي أمقتها. كان وجهاً لطالما أردت صفعه.

- «حسناً، ها هي أختي الضائعة. لقد سمعنا أن هناك فضيحة ما مرتبطة باسمك. مات رجل؟ شيء يتعلق بفطر مسموم؟».

حدقت بوجهه بحدة وقلت: «يؤسفني القول إنك أخطأت فهم الموضوع. فقد اتضح ألا علاقة لموته بالفطر على الإطلاق».

- «من حسن حظكِ، إيه؟ أراهن أنهم سيكونون مهتمين بمعرفة تورطكِ بوفاة أخرى قبل هذهِ. هل لا يزال الفرنسيون يملكون المقصلة؟».

- «لماذا لا تترك عنك هذهِ التهديدات السخيفة؟ ليس هناك ما يمكنك فعله لي».

- «حقّاً؟ في الواقع أنا سعيد لأن تهمة التسمم

لم تثبت عليكِ»، توقف مؤقتًا ثم أضاف: «لن تنفعيني في سجن فرنسي، أو ورأسكِ مقطوع».

- «لن أفيدك بأي شيء من الآن فصاعدًا. والآن، إذا سمحت لي ...». وحاولتُ تجاوزه، لكنّه سدّ طريقي.

- «سمعت أن الملكة ستعود إلى الوطن الأسبوع المقبل، ربما سأزوركِ في لندن، يمكنني التفكير في بعض الخدمات الصغيرة التي قد أطلبها منكِ».

- «حتى إذا عادت الملكة إلى قصرها، لن أعود».

- «آه، لقد كشفوا أمركِ، أليس كذلك؟»، وابتسم ابتسامة واسعة ثم قال: «طردوكِ أخيرًا، يا عزيزتي المسكينة. أخبريني ماذا ستفعلين بنفسكِ؟».

- «سأستخدم اسمًا آخر في الواقع، فقد مللت من كوني هيلين بارتون».

- «ماذا فعلتِ، هل دفعتِ فتاة أخرى تحت المركبة العمومية؟».

كنت على وشك أن أجيبه عندما سمعت أحدهم ينادي اسمي. استدرت فرأيتُ جان بول يجري صوبي وقال: «أعتذر ألف مرة لأبقاءكِ تنتظرين

يا حبيبة قلبي»، وقبّل خدي، «لكن لدي أخبار مشوقة. لقد وجدت مبنى أظن أنه سيكون مثالياً بالنسبة لنا». وتوقف لأنه لاحظ روني بارتون يقف أمامي.

- «ومَنْ يكون هذا؟». سألني جان بول، ولايزال يتحدث بالفرنسية.

فقلت: «إنه رجل إنكليزي وهو يزعجني منذ فترة طويلة»، ونظرت في عيني روني مباشرة، «أنا على وشك الزواج يا سيد بارتون. هذا خطيبي، إنه طاهٍ مشهور، وعائلته مؤثرة جداً في نيس. كان جده عمدة ذات مرة». وكان جان بول يُقيّم الرجل الأنحف والأنحل منه. تقدم إلى الامام وقال بلغة إنكليزية جيدة بشكل مدهش: «وأنا لا أحب أن يزعج أي أحد عروستي. وهي على حق، أنا طاهٍ مشهور، وأنا بارع للغاية في استخدام السكين. إذا كان بإمكاني نزع عظم بطة في دقيقتين، تخيل فقط ما يمكنني فعله بك! لا تدعني أراك مرة أخرى»، وأخذ ذراعي وقال: «تعالي يا حبيبة قلبي. لدينا مطعم لشراءه».

- «أتمنى لكِ حظًا طيباً بزواجكِ من ضفدع»، صاح روني عندما ابتعدنا عنه، «ستتوسلين للعودة إلى إنكلترا في وقت قصير».

لم أستطع مقاومة العودة إليه.

- «أنت لا تعرفني يا سيد بارتون. أنت لم تعرفني مطلقًا. لا يمكنني التفكير في شيء أكثر روعة من العيش هنا مع رجل يحبني. وأتوقع أن يكتشف الأمير حقيقتك في يوم من الأيام وستنال ما تستحقه. لكنني لن أكون الشخص الذي يخبره. نهارك سعيد». ثم ابتعدنا دون أن ننظر إلى الوراء.

وفي الثالث من يونيو، تزوجنا أنا وجان بول لوبان في كنيسة نوتردام للحَبَلُ بلا دَنَس، خلف الميناء القديم. ألبستني الليدي ماري لهذهِ المناسبة، وأعطتني الملكة لؤلؤتين، وكانت هدايا رفاقي الطهاة أكثر عملية، أرسلوا لنا قوالب جيلي في حال لم تكن متوفرة في فرنسا، وحضرت أختي وزوجها الزفاف، وكانت تنتظر مولودًا بحق هذهِ المرة وكان وجهها متألقًا.

- «أجّلَ بيلي فكرة الذهاب إلى أستراليا حتى ألد. وربما سيحصل على ابن خالة قريبًا». ثم خيم الحزن على عينيها عندما أدركت أن أولاد الخالة هؤلاء ستفصل بينهم آلاف الأميال.

وبعد عودتنا من شهر العسل على الريڤيرا الإيطالية، افتتحنا مطعمًا أصررت على تسميته «الحسناء هيلين» قبالة كورنيش بروميناد ديزو

أنجليه. كان تكريمًا متواضعًا لهيلين بارتون، فيه نوافذ بأقواس تطل عبر الحدائق على الخليج، صممناه على شكل أكشاك صغيرة حميمية حول الجدران. وتخصصنا بالأطباق البحرية، وتعلمت طهي طبق بابا روم رائع. وكما توقع جان بول، حققنا نجاحًا باهرًا، يأتي الناس من جميع أنحاء الريفيرا لتناول العشاء لدينا، ومن ضمنهم أمير ويلز وعشيقته الجديدة (بقيت في المطبخ تحسبًا). وأصبحت قادرة على متابعة شغفي بالطهي، لكنني وجدت مؤخرًا حبًا جديدًا في حياتي، يُدعى لويس، تيمنًا بوالد جان بول وأختي، وهو يرقد برضا في مهده بينما يبتكر والداه التومبال والتيرين والسوفليه. وأتركه في بعض الأحيان يمص إصبعي عندما أكون قد صنعت خليطًا لذيذًا أو صلصة. من الواضح أنه سيرث ذوق والديه.

